

L. 7

إلى

ما هو الواقعي وما الافتراضي  
ما هي الحقيقة...

إيزابيل ألييندي

ذورو

وتبدأ الأسطورة

ترجمة: رفعت عطفة

• إيزابيل ألبيندي

• زورو

• ترجمة رفعت عطفة

• جميع الحقوق محفوظة © Copyright

• الطبعة الأولى 2007

• موافقة وزارة الإعلام رقم 93854

• الناشر: ورد للطباعة والنشر والتوزيع

سورية - دمشق 5141441

• الاستشارة الأدبية: حيدر حيدر

• الإشراف الفني: د. مجد حيدر

• التوزيع: دار ورد 5141441 ص.ب 30249

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopying, recording, or any information storage and retrieval system, without permission in writing from the publisher.

القسم الأول

كاليفورنيا 1790 - 1810

العنوان الأصلي للكتاب:

El Zorro

هذه هي قصة ديفغو د لايفغا وكيف تحول إلى الثعلب (زورو) الأسطوري. أخيراً أستطيع أن أكشف عن هويته، التي أبقينا عليها في السرّ سنوات كثيرة، وأقوم بهذا بشيء من التردد، ذلك لأنّ صفحة بيضاء تخيفني مثلما تخيفني سيوف رجال مونكادا المجردة من أغمادها. بهذه الصفحات أحاول أن أستبق أولئك الذين يُصرّون على تشويه سمعة زورو. إنّ عدد منافسينا كبير، كما يحدث عادةً لمن يدافعون عن الضعفاء، ينقذون الدواحس ويهينون الأقوياء. طبعاً، كلّ مثالي يؤلّب عليه الأعداء، لكننا نفضل أن ننصف أصدقاءنا، الذين هم أكثر بكثير. عليّ أن أروي هذه المغامرات، لأنّه لا يفيد كثيراً أن يُغامر ديفغو بحياته من أجل العدالة إن لم يسمع به أحد. البطولة عمل يُساء جزاؤه وكثيراً ما يقود إلى نهاية مبكرة، لذلك يشدّ إليه شخصيات متعصّبة أو مفتونة بالموت. قليلون هم الأبطال، أصحاب القلوب الرومانسية والدم الخفيف، لنقل دون لفّ ولا دوران: إنّّه لا يوجد أحد مثل الثعلب (زورو).

لنبدأ من البداية، من حدث لولاه ما كان وُلِدَ ديفور دِ لاِبغا. حدث في كاليفورنيا العليا، في بعثة سان غابرييل، عام 1790 من عهدنا، عهد الربِّ. كان يدير البعثة في تلك الأيام الأب مِندوثا، وهو فرانسيسكاني، له ظهر خطَّاب، مظهره أكثر شباباً من سنواته الأربعين التي عاشها جيداً، قويّ ومتسلط، كان أسهل شيءٍ في مهمته أن يُقلد تواضع ودمائة سان فرانسيسكو دِ أزيز. في كاليفورنيا كان هناك عدد آخر من رجال الدين في ثلاث وعشرين بعثة، مكلفين بنشر عقيدة المسيح بين عدّة آلاف من وَثْنِيَّي قَبِيلَتِي شوماش وشوشون وغيرهما، الذين لم يكونوا يقبلون بها عن طيب خاطر. كان سكّانُ ساحل كاليفورنيا الأصليين يملكون شبكة للمقايضة والتجارة قامت بوظيفتها على امتداد آلاف السنين. كانت بيئتهم غنيّة جداً بالموارد الطبيعية والقبائل تُمارسُ مختلفَ الاختصاصات. دُهِش الإسبان من الاقتصاد الشوماشي، المُعقّد إلى حدّ أنّهم كانوا يقارنونَه باقتصاد الصين. كان الهنود الحمر يستعملون الأصداف عملةً وينظمون المعارض بانتظام، حيث كانوا يتفقون على الزيجات إضافة إلى تبادل السلع.

كان الرجلُ المُعذّب على الصليب، الذي يعبده البيض، يُحيرُ الهنودَ ولا يفهمون ميّزة أن يتعذّب الإنسانُ في هذا العالم كي يتمتع برغدٍ افتراضيّ في عالم آخر. ففي الفردوس المسيحي يستطيعون أن يقيموا على سحابة ليعزفوا على الجُنك مع الملائكة، لكنّ معظمهم

يُفضّل في الحقيقة بعد الموت أن يصطاد الدببة مع أسلافه في  
أراضي الروح الأعظم. كما لم يكونوا يفهمون لماذا كان الأجانب  
يفرزون غلماً في الأرض ويرسمون خطوطاً متخيّلة ويعلنونها ملكية  
لهم وينزعجون إذا ما دخلها أحدٌ يلاجئ وعلاً. كانت فكرة امتلاك  
الأرض تبدو لهم بعيدة عن التصديق مثل تقاسم البحر. عندما تلقى  
الفسس مندوثاً خبيراً مفاده أن عدداً من القبائل قد ثار يقوده محارب  
له رأس نثب، صلى لأجل الضحايا، لكنّه لم ينشغل أكثر من اللازم،  
لأنه كان واثقاً من أن سان غابرييل في مأمن. فالانتماء إلى بعث  
كان امتيازاً، هكذا كانت تبرهن العائلات المحلية التي كانت تُهرع  
لتطلب حمايته مقابل التعميد وتبقى طوعاً تحت سقفه. يبدو أنه لم  
يستخدم العسكر قط كي يجمع معتنقين جدداً. وعزا التمرد حديثاً،  
الأول الذي يحدث في كاليفورنيا العليا، إلى تمادي الجنود الإسبان  
وصرامة أخوته المبشرين. القبائل الموزعة على مجموعات صغيرة  
كانت لها عادات مختلفة وتتواصل فيما بينها بواسطة نظام إشارات.  
لم تتفق قط على شيء، إلا على التجارة، وبالتأكيد لم تتفق قط على  
الحرب. وكان هؤلاء الناس المساكين حسب قوله خراف الرب  
البريئة، ياثمون عن جهل وليس عن فساد. لا بد من وجود أسباب  
قاطعة حتى ينتفضوا ضد المستعمرين.

كان المبشر يعمل بلا كلل، جنباً إلى جنب مع الهنود في الحقول  
ودبغ الجلود وطحن الذرة. وفي المساء حين يخذ البقية إلى الراحة،  
كان هو يشفي جراح الحوادث البسيطة أو يقلع ضرساً منخوراً. كما  
كان يعطي دروساً في أصول الدين والحساب، كي يستطيع حثيثو  
والشموع والأبقار لكن ليس قراءة وكتابة، فهذه المعرفة لم تُطبق  
عملياً في تلك المكان. في أثناء الليل كان يصنع خمراً، يُسوي  
حسابات، يكتب في دفاتره ويصلي. وعند الفجر يقرع ناقوس  
الكنيسة داعياً للمجيء إلى قداسه وبعد القيام بهذه المهمة يتلفظ  
طعام الإنطار بعينين يقظتين كيلا يبقى أحد دون طعام. ولكن

ماسبق، وليس لفرط في الثقة بنفسه أو لنزوة، كان مقتنعاً بأن القبائل التي كانت على حافة الحرب لن تُهاجم بعثته. لكن بما أن الأخبار السيئة تابعت تدفقها أسبوعاً بعد آخر انتهى به الأمر إلى الاهتمام بها. أرسل رجلين من الثقة تماماً للتحقق مما كان يحدث في بقية المنطقة، ولم يتأخر هذان في تحديد موقع الهنود المحاربين والحصول على التفاصيل، لأن العناصر نفسها التي ذهبوا للتجسس عليها استقبلتهما كصديقين. عادة ليحكيا للمبشر أن بطلاً ممسوساً بروح ذئب طلع من عمق الغابة وتمكن من جمع عدة قبائل لطرد الإسبان من أرض أجدادهم، التي طالما اصطادوا فيها دون إذن من أحد. لم يكن الهنود يملكون استراتيجية واضحة، ويقتصرون على الهجوم على البعثات والقرى بدافع اللحظة، يضرمون النار في كل ما يجدونه في طريقهم وينسحبون فوراً بالسرعة التي وصلوا بها. يجمعون حديثي الإيمان الذين لم يلبسهم بعد بفعل ذل خدمة البيض الطويل. وهكذا راحت تزداد صفوفهم. وأضاف رجلاً الأب مندوثا أن الزعيم، الذئب الرمادي، وضع نصب عينيه سان غابرييل، ليس لضغينة على المبشر، لا أحد يمكن أن يلصقها به، بل لأنها جاءت في طريقه. ونظراً لذلك اضطر القس لاتخاذ بعض الإجراءات. لم يكن مستعداً لأن يخسر ثمار جهد سنوات فكيف أن يسحبوا منه هنوده، الذين إذا ما أصبحوا بعيدين عن وصايته سيسقطون في الخطيئة وسيعودون ليعيشوا وحوشاً. كتب رسالة إلى النقيب ألخاندرو د لايفيا يطلب منه فيها نجدة سريعة. قال إنه يخاف الأسوأ، لأن المتمردون كانوا على مقربة كبيرة ومستعدين للهجوم في أية لحظة، وهو لا يستطيع أن يدافع عن نفسه، دون دعم عسكري مناسب. أرسل رسالتين مماثلتين إلى حصن سان دييغو بوساطة فارسين متمرسين، استخدمتا طريقين مختلفين حتى إذا وقع واحد منهما تمكن الآخر من الوصول إلى غايته.



واحدة في الفناء، خلع سترته العسكرية الثقيلة والمنديل والقبعة  
وغطس رأسه في الحوض الذي كانت تشطف فيه النساء الملابس،  
كان الحصان يسبح في عرق مرغ، لأنه حمل الفارس مع عدته من  
سلاح فرسان الجيش الإسباني عدة فراسخ: رمح، وسيف ودرع من  
جلد مزدوج وبارودة، إضافة إلى السرج. جاءه لايقا يرافقه رجلان  
وعدد من الأحصنة تنقل المؤن. خرج القس مندوثا لاستقباله  
بذراعين مفتوحين، لكنه لم يستطع أن يخفي خيبته، حين رأى أنه  
لا يرافقه غير جنديين رثي الثياب ومنهكين مثل الجياد.

- آسف، أيها القس، فليس لدي غير هذين الرجلين الشجاعين.  
بقية الفصيلة بقيت في قرية. لا ريتنا د لوس أنجلوس، المهدة  
بدورها بالتمرد - احتج النقيب وهو يجفف وجهه بكم قميصه.  
- أعاننا الله، ما دامت إسبانيا لا تفعل ذلك - رد الراهب متمماً.

- هل تعرف عدد الهنود الذين سيهاجمون؟

- قليلون جداً هم الذين يعرفون العد بدقة هنا، أيها النقيب، لكن  
حسبما ما تأكد منه رجالي يمكن أن يصل إلى خمسمئة.

- هذا يعني أنهم لن يتجاوزوا المئة والخمسين، أيها الأب.  
نستطيع أن نحمي أنفسنا. على من نعتمد؟ - استفسر ألكاندرود  
لايقا.

- علي، فقد كنت جندياً قبل أن أصبح راهباً، وعلى مبشرين  
آخرين، شابين وشجاعين. عندنا ثلاثة جنود معينين للبعثة،  
يعيشون هنا. أيضاً عندنا عدد من البنادق والقربينات، وذخيرة  
وحسامين والبارود الذي نستخدمه في مقلع الحجارة.

- وكم من المعتنقين الجدد؟

- لنكن، يا بُني، واقعيين: في غالبيتهم لن يقاتلوا ناساً من  
قومهم - وضع المبشر - عندي كحد أقصى ستة شبان تربوا هنا  
وبضع نساء يستطيعن أن يساعدننا في ذلك الأسلحة. لا أستطيع أن

أغامر بحياة معتنقي الجدد، إنهم كالأطفال، أيها النقيب. أراهم  
كما لو كانوا أولادي.

- حسناً، أيها القس، إلى العمل، باسم الرب. كما أرى، الكنيسة  
هي البناء الأكثر قوة في البعثة. فيها سوف ندافع عن أنفسنا - قال  
النقيب.

في الأيام التالية لم يرتح أحد في سان غابرييل، حتى أصغر  
الأطفال سناً شغلوا. لم يكن باستطاعة القس مندوثا، العارف الجيد  
بالنفس البشرية، أن يثق بأولئك المعتنقين الجدد إذا ما رأوا أنفسهم  
محاصرين بهنود أحرار. لاحظ مذعوراً بريقاً في عيون بعضهم  
وفتوراً في تنفيذ أوامره، يتركون الحجارة تسقط، وأكياس الرمل  
تنفزر ويحتبلون بالأمراس والدلاء تنقلب. اخترق، مدفوعاً  
بالظروف، قوانين الرأفة التي وضعها بنفسه، وحكم دون أن  
تأخذه رحمة على زوج من الهنود بالقيد بالأصفاد، وعلى ثالث  
بعشر سياط ليكونوا عبرة لغيرهم. ثم أمر أن يعزّزوا بألواح الخشب  
السميك باب غرفة نوم النساء العازبات، المبنية كسجن كيلا تخرج  
أكثرهن فطنة للتجوال في ضوء القمر مع عشاقهن. كان بناء  
مستديراً من اللبن السميك، بلا نوافذ مع ميزة إضافية هي أنه يمكن  
أن يوصد من الخارج بعارضة حديدية وقفل. هناك حبسوا غالبية  
المعتنقين الجدد من الذكور، مقيدين من أرساغهم منعاً لتعاونهم مع  
العدو حين تحين ساعة المعركة.

- الهنود يخافوننا، أيها القس مندوثا، لأنهم يعتقدون أننا نملك  
سحراً جباراً - قال النقيب د لايفغا رابتاً بكفه على أخمص قربيته.

- يعرف هؤلاء الناس الأسلحة النارية أكثر من اللازم، حتى  
ولو لم يكتشفوا بعد عملها. ما يخافه الهنود حقيقة هو صليب  
المسيح - ردّ المبشر مشيراً إلى المذبح.

- إذن هيّا بنا نبرهن لهم عن قوة الصليب والبارود - ابتسم  
النقيب وشرع يشرح خطته.

كانوا في الكنيسة، حيث أقاموا في الداخل أمام الباب حواجز  
من أكياس الرمل، وجّهزوا في أماكن استراتيجية نقاطاً للأسلحة  
النارية. وما داموا، حسب رأي النقيب د لايفغا، يستطيعون الإبقاء  
على المهاجمين على مسافة تسمح لهم بأن يُعبئوا بنادقهم  
وقربيناتهم، فإن كفة الميزان ستميل لصالحهم، لكن الضرر  
سيكون كبيراً إذا ما التحموا، لأن الهنود يفوقونهم عدداً وضراوة.

أعجب الأب مندوثا بنباهة الرجل. كان د لايفغا يقارب الثلاثين  
من عمره وكان جندياً محنكاً، صقلته حروب إيطاليا، التي عاد منها  
موشوماً بنذب يفتخر بها. كان الابن الثالث لعائلة نبيلة يمكن أن  
يمتد نسبه حتى إلى السيد القبيطور. قاتل أسلافة المسلمين تحت  
رايات إيزابيل وفرناندو الكاثوليكية، لكن لم تبق لهم من كل تلك  
الشجاعة المتغنى بها والدم المراق من أجل إسبانيا من ثروة غير  
الشرف. وعند موت الأب ورث الابن البكر بيت العائلة، وهو بيت  
منوي مقحم في قطعة أرض قاحلة من قشتالة. الابن الثاني طالبت به  
الكنيسة وكان من نصيبه هو أن يصبح جندياً. لم يكن هناك من  
مستقبل آخر لفتى من دمه. تلقى ثمناً لشجاعته التي برهن عنها في  
إيطاليا، كيساً صغيراً من الدوبلونات الذهبية وترخيصاً بالذهاب  
إلى العالم الجديد، ليحسن مستقبله. وهكذا انتهى به الأمر إلى  
كاليفورنيا العليا التي وصلها مرافقاً لدونيا إيولاليا د كاليبس،  
زوجة الحاكم بدرو فاجس، الملقب بالدب نظراً لسوء مزاجه وعدد  
الدببة التي صادها بيده.

كان الأب مندوثا قد استمع إلى الإشاعات عن الرحلة الملحمية  
لإيولاليا، السيدة التي كانت مثل زوجها نارية المزاج. تأخرت  
قافلتها ستة أشهر في قطع المسافة بين مدينة المكسيك، حيث كانت  
تعيش مثل أميرة، ومونيرّي، الحصن العسكري الموحش، حيث كان  
ينتظرها زوجها. كانت تتقدم بخطوات سلحفاة، تخرجر قطاراً من  
عربات الثيران وصفاً من البغال لا ينتهي يحمل الأمتعة، ثم إنها

كانت تُنظَّم في كلِّ مكان تُخَيِّم فيه حفلٌ أنسٍ يدوم عادةً عدَّةَ أيَّامٍ. كانوا يقولون إنَّها غريبة الأطوار، تغسل جسدها بحليب الحمير وتصبغ شعرها الذي كان يصل إلى كعبيها بأصبغة نبيلات البندقية الحمراء الضاربة للحمرة، وأنَّها كانت تتخلَّص من ملابسها الحريرية والبروكار لتستر الهنود العراة الذين تجدهم في طريقها إسرافاً وليس ورعاً مسيحياً، ويُضيفون إنَّها وللطامة الكبرى تعلَّقت بالنقيب الوسيم ألخاندرو دي لايفغا. في جميع الأحوال من أنا، الفرانسيكاني المسكين، كي أحكم على هذه السيِّدة، ختم القسُّ مندوثا، وهو يراقب شزراً دي لايفغا ويتساءل بفضول، رغماً عنه، على كم من الصخَّة كانت تنطوي الشائعات.

كان المُبشِّرون يشتكون في رسائلهم إلى مدير البعثات التبشيرية في المكسيك، من أنَّ الهنود كانوا يُفضِّلون أن يعيشوا عراة وفي أكواخ القش مسلحين بالقوس والسهم بلا تربية ولا حكومة ولا دين ولا خوف من السلطات غارقين تماماً في إشباع شهواتهم المخجلة، كما لو أنَّ ماء التعميد العجيب لم يغسل خطاياهم قط. لا شك أنَّ حرص الهنود على التمسُّك بعاداتهم عملٌ من عمل الشيطان، لم يكن هناك تفسير آخر؛ ولذلك كانوا يخرجون لصيد المارقين بالأربطة ويجلدونهم على الفور كي يُعلِّموهم عقيدة حبِّهم ومغفرتهم. ومع ذلك فقد مرَّ القسُّ مندوثا بمرحلة شباب خليعة قبل أن يصبح راهباً، ولم تكن غريبةً عليه فكرة إشباع الشهوات المخجلة، فهو للسبب ذاته كان يتعاطف مع السكان الأصليين. ثمَّ إنَّه كان يشعر بإعجابٍ خفيٍّ بأفكار منافسيه التقدميين، اليسوعيين. لم يكن مثل رجال دين آخرين، ولا حتى مثل غالبية أخوانه الفرانسيكانيين، الذين كانوا يعملون من الجهل فضيلةً. قبل سنوات حين كان يُحضِّر نفسه لتولِّي بعثة سان غابرييل، قرأ باهتمام بالغ تقرير المدعو جان - فرانسوا دو لا بروس، الرحالة

الذي اكتشف المعتنقين الجدد في كاليفورنيا، ككائنات حزينة، بلا شخصية ولا روح، الذين كانوا يُذكرونه بالمعذبين العبيد الزوج في مزارع الكاريبي. وكانت السلطات الإسبانية تعزو آراء لا بروس إلى الحالة المؤسفة وهي أن الرجل كان فرنسياً، لكنّها أثرت في القسّ مندوثاً عميقاً. فهو في أعماق نفسه يكاد يثق بالعلم ثقته بالله، ولذلك قرّر أن يحوّل البعثة إلى نموذج للازدهار والعدالة. كما قرّر أن يكسب المريدين بالإقناع بدل السوط وأن يحتجزهم بالأعمال الحسنة بدل السياط. ونجح في ذلك بطريقة مذهشة. وفي ظلّ إدارته تحسنت حياة الهنود إلى حدّ أنه لو مرّ لا بروس من هناك لأدهش. كان باستطاعة القسّ مندوثاً أن يتباهى - وإن لم يفعل ذلك قط - بأن عدد المعمّدين في سان غابرييل قد تضاعف ثلاث مرّات، وما من أحد منهم هرب لزمن طويل، فالهاريون القليلون كانوا يعودون دائماً تائبين. كانوا يعودون، رغم العمل القاسي والتشدد الجنسي، لأنّه كان يُعاملهم برحمة، ولأنّهم لم يتمتّعوا قبلها قط بثلاث وجبات يومية وسقف قوي يأوون إليه في أثناء العواصف.

كانت البعثة تشدّ إليها الرحالة من أمريكا وإسبانيا، يأتون إلى تلك البلاد البعيدة كي يتعلّموا سرّ نجاح القسّ مندوثاً. فيعجبون تماماً بحقول الحبوب والخضار والكروم التي تُنتج النبيذ، وبنظام الريّ المستلهم من الأقنية الرومانية، والإسطبلات والحظائر والقطعان التي ترعى في تلالٍ على مدّ البصر، والأقبية المليئة حتى السقف بالجلود المدبوغة وقراب الدهن. أعجبوا بجوّ السلام الذي ساد تلك الأيام وبوداعة المعتنقين الجدد، الذين راحوا يكسبون بسلالهم الناعمة ومنتجاتهم الجلدية شهرةً فيما وراء الحدود. «بطن ملآن، قلب هانئ» ذلك كان شعار القسّ مندوثاً، الذي كان يعيش مهووساً بالتغذية منذ أن سمع بأن البحّارة يموتون أحياناً بداء الحفر، بينما باستطاعة ليمونة واحدة أن تقّي من هذا المرض. شفّاء

الروح أسهل حين يكون الجسم سليماً، هكذا كان يُفكر، لذلك فإنَّ  
أول ما فعله حين وصل إلى البعثة كان أن استبدل طبيخَ الذرة<sup>(\*)</sup>،  
أساس الوجبات عندهم، بيخنة اللحم وبالخضار والزبدة للعجة.  
وكان يمدّ الأطفال بالحليب، الذي لا يحصل عليه إلا بجهد جهيد، لأنَّ  
الحصول على كلِّ دلوٍ من هذا السائل الزبدي كان يحتاج إلى معركةٍ مع  
البقرات الشرسة. وكلُّ بقرة تحتاج إلى ثلاثة رجال أشداءً لحلبها،  
وكثيراً ما كانت البقرة هي التي تنتصر. كان مندوثا يحارب تقزّز  
الأطفال من الحليب بالطريقة ذاتها التي يصارع فيها مرّة في الشهر  
لتخليصهم من الديدان المعوية؛ يربطهم، يشدّ على أنوفهم ويدخل  
قمعاً في أفواههم. وكان لا بدّ لهذه العزيمة أن تعطي نتائجها.  
وبفضل القمع راح الأطفال ينمون أقوىاء، مُعتدلي المزاج. كان  
سكان سان غابرييل خالين من الديدان، والوحيدة الخالية من أوبئة  
الإنقانات، التي كانت تحصد بقيّة المستعمرات، على الرغم من أنَّ  
زكاماً أو إسهاً عادياً كان يرسل المعتنقين الجدد إلى العالم الآخر  
مباشرة.

هاجم الهنود ظهرَ يوم الأربعاء. اقتربوا بحذر، لكنَّ الانطباع  
الأول الذي خرج به المحاربون المتحمسون عندما غزوا أراضي  
البعثة وكانوا بانتظارهم هو أنَّ المكانَ مقفر؛ لم يستقبلهم إلا كلبان  
هزيلان ودجاجة شاردة في الفناء. لم يجدوا نفساً واحدة في أيِّ  
مكان، لم يسمعوا أصواتاً، ولم يروا دخاناً في مواقد الأكواخ. كان  
بعض الهنود يرتدون الجلود ويمتطون الجياد، لكنهم كانوا في  
غالبيتهم مشاة وعراة مسلحين بالأقواس والسهام والهرافات  
والرماح. يخبّ أمامهم الزعيم الغامض المطلي بالخطوط الحمراء  
والسوداء والمرتدي دثاراً قصيراً من جلد الذئب ومزداناً برأس

(\*) Mazamorra: تُطلق على عدّة أنواع من الطعام، حسب كلِّ منطقة في أمريكا. م.

كامل للحيوان ذاته على شكل قبعة. لا يكاد يُرى وجهه الذي يُطل من بين فكي الذئب والملفوف بشعر طويل داكن.

طاف المهاجمون في البعثة خلال دقائق قليلة، أشعلوا النيران في أكواخ القش وكسروا خوابي الطين، والبراميل والأدوات والمناسج وكل ما وقع في أيديهم دون أن يلاقوا أدنى مقاومة. منعتهم صيحات حربهم الحامية وسرعتهم الرهيبية من سماع نداءات المعتنقين الجدد، المحبوسين تحت القفل والمفتاح في عنبر النساء. توجهوا متشجعين إلى الكنيسة وأمطروها بوابل من السهام، لكنها تحطمت عبثاً على جدران اللبن. وبناء على أمر من الزعيم الذئب (\*) الرمادي انقضوا بلا نظام ولا اتساق على الأبواب الخشبية، التي ارتجت تحت الضربة لكنها لم تسقط. راح صياح وصخب المجموعة يزداد مع كل محاولة منها للإطاحة بالباب، بينما بعض المحاربين الأكثر رياضياً وفطنة راحوا يبحثون عن طريقة لتسلق الكوات والبرج.

صار التوتر داخل الكنيسة أكبر مع كل دفعة يتلقاها الباب. كان المدافعون - أربعة مبشرين وخمسة جنود وثمانية معتنقين جدد - متوضعين على جوانب صحن الكنيسة، تحميهم أكياس الرمل وخلفهم فتيات مكلفات بتلقيم الأسلحة، دربهن بـ لايفاً على ذلك بأفضل ما استطاع، لكنه لم يكن بالمستطاع انتظار أشياء كثيرة من فتاة مذعورة لم تر قط بندقية. كانت المهمة تكمن في سلسلة من الحركات يقوم بها أي جندي دون أن يفكر، لكن التقيب قضى ساعات في شرحها لهن. ما إن يُصبح السلاح جاهزاً حتى تُسلمه الفتاة إلى الرجل المكلف بإطلاق النار، وتبدأ من جديد بتحضير سلاح آخر. عند تفعيل الزناد كانت الشرارة تشعل بارود المخزن الذي ينفجر في السبطانة. كان البارود الرطب، وحجر القدح المتآكل

(\*) أثرتنا ترجمة الاسم كما هو الحال في اسم زورو «الثعلب»، نظراً لما للاسم (اللقب) من دلالة مهنة في النص لا يمكن التقاطها دون معرفة معنى الاسم. م.

والنيران المحاصرة يُسبب عدداً من الأخطاء في الرماية كما كان من المعتاد نسيان سحب مدك السبطانة قبل الرماية.

«لا تخوروا، هكذا هي الحرب دائماً، محض دويّ واضطراب. وإذا ما استعصى سلاح على السلاح الثاني أن يكون جاهزاً ليتابع القتل»، تلك كانت تعليمات ألخاندرو د لايفغا.

في غرفة خلف المذبح كانت بقية نساء البعثة وجميع أطفالها، الذين أقسم الأب مندوثا بأن يحميهم بحياته. كان المدافعون عن المكان وأصابهم على الزناد ونصف وجوههم محميّ بمنديل مُبلّل بالماء والخل، ينتظرون صامتين أوامر النقيب الوحيد الذي لم يكن يهتزّ أمام صياح الهنود ودويّ أجسادهم على الباب. كان د لايفغا يحسب مدى مقاومة الخشب بدم بارد. كان نجاح خطته يتعلّق بحسن التصرف في اللحظة المناسبة وبالتنسيق التام. لم يملك فرصة القتال منذ حملة إيطاليا، قبل سنوات عديدة، لكنّه كان متألّقاً وهادئاً، وعلامة التوجّس الوحيدة البادية عليه هي الحكّة التي كان يشعر بها دائماً في يديه عند إطلاق النار.

بعد برهة أنّهك الهنود من دفع الباب وتراجعوا ليستعيدوا قواهم ويتلقوا التعليمات من زعيمهم. صمت متوعّد حلّ محلّ الهرج والمرج السابقين. تلك هي اللحظة التي اختارها د لايفغا كي يُعطي الإشارة. راح ناقوس الكنيسة يدقّ بضراوة بينما أربعة معتنقين جدد يُشعلون خرقاً مُبلّلاً بالقطران، محدثة دخاناً كثيفاً وخانقاً. اثنان آخران رفعوا درباس الباب الثقيل. أعاد قرع الناقوس للهنود قوتهم فتجمّعوا للهجوم من جديد. انفتح الباب هذه المرّة من أول لمسة وسقطوا فوق بعضهم بعضاً في أكبر ارتباك، مرتطمين بحاجز من أكياس الرمل والحجارة. دخلوا معميين بنور الخارج، واجدين أنفسهم في عتمة ودخان الداخل. عشر بنادق أطلقت النار من الجوانب في آنٍ واحدٍ، جارحةً عدداً من الهنود الذين سقطوا صائحين. أشعل النقيب الفتيل وعلى الفور وصلت النار إلى أكياس



البارود المختلط بالشحم والقذائف التي وضعوها أمام الحاجز. هز  
الانفجار أسس الكنيسة وتناثرت شظايا المعدن والحجر على الهنود  
واقطع الصليب الخشبي الذي كان فوق المذبح. شعر المدافعون  
بالضربة الساخنة، التي قذفت بهم إلى الخلف، وبالدوي الهائل الذي  
أصنعه، لكنهم تمكنوا من رؤية أجساد الهنود مقذوفة مثل دمي في  
سحابة حمراء. وتمكنوا محميين خلف المتاريس من استعادة وعيهم  
وتلقيم أسلحتهم وإطلاق النار للمرة الثانية قبل أن تطير السهام  
الأولى في الهواء. جثم عدد من الهنود على الأرض بينما راح من  
ما يزال منتصباً على قدميه يسعل وعيناه تدمعان بفعل الدخان. لم  
يكن باستطاعتهم أن يصبوا بأقواسهم، لكنهم بالمقابل صاروا  
هدفاً سهلاً للرصاص.

استطاعوا ثلاث مرات تلقيم البنادق قبل أن يتمكن الزعيم الذئب  
الرمادي يتبعه محاربوه البواسل من تسلق المتاريس وغزو صحن  
الكنيسة، حيث استقبله الإسبان. ولم يرفع النقيب إلا نظره قط عن  
الزعيم الهندي في معمة المعركة وما إن تخلص من الأعداء  
المحيطين به، حتى قفز فوقه وواجهه بزمجرة حيوان ضار وسيفه  
في يده. وانقض به عليه بكل قوته لكنه جاء في الفراغ لأن غريزة  
الزعيم الذئب الرمادي حدثته بالخطر قبل ثانية فتمكن من أن يتنحى  
بجسده ويرتمي جانباً. أفقدت الاندفاع القوية المستخدمة في  
الطعنة النقيب توازنه فاندفع إلى الأمام وتعثر وسقط على ركبتيه،  
وارتطم السيف بالأرض وانكسر نصفين. فرفع الهندي رمحه  
صارخاً صرخة انتصار كي يخترق الإسباني من طرف إلى طرف،  
لكنه لم يتمكن من إكمال حركته لأن ضربة بعقب البندقية على نقرته  
هوت به على وجهه وتركته بلا حراك.

- غفر الله لي - صاح القس مندوثا وهو يلوح ببندقية قديمة من  
سبطانها ويوزع الضربات يمناً ويسرة بمتعة وحشية.  
وسرعان ما انتشرت حول الزعيم بركة داكنة، وصار رأس

الذئب الشموخ أحمرَ أمام دهشة النقيب لِ لاِبِغَا، الذي كان قد عدَّ نفسه ميتاً. تَوَجَّ القسُّ مندوثاً بهجته غير اللائقة برفسٍ قوي على جسد المرمي الهامد. فقد كفاه شَمَّ رائحة البارود حتى عاد ليصبح الجنديّ الدمويّ الذي كان في شبابه.

دَبَّ الصوت خلال دقائق بين الهنود بأنَّ زعيمهم قد سقط فشرعوا يتراجعون مترددين في البداية ثم راکضين ضائعين في البعيد. انتظر المنتصرون وهم يتصبَّبون عرقاً ويكادون يخنثقون حتى يترسَّب الغبار الناتج عن انسحاب العدو كي يخرجوا ليستنشقوا الهواء النقيّ. وانضمَّ إلى قرع جرس الكنيسة المجنون رشقة رصاص في الهواء وهتافات التحية التي لا تنتهي لمن أنقذوا حياتهم تغطّي على أنين الجرحى وبكاء النساء والأطفال الهستيرى، الذين كانوا ما يزالون محبوسين خلف المذبح غارقين في الدخان.

شَمَّر القسُّ مندوثاً دثاره المبلل بالدم وراح يعيد لبعثته طبيعتها، دون أن ينتبه إلى أنّه فقد إحدى أذنيه وإلى أنّ الدم لم يكن دم خصومه، بل دمه. أحصى خسائره الدنيا ورفع إلى السماء صلاةً مضاعفةً ليشكر الله على النصر ويطلب الغفران لأنّه غفل عن الرحمة المسيحية في وطيس المعركة. اثنان من جنوده أصيبا بجراح خفيفة، واخترق أحد أبناء بعثته سهم. الميثة الوحيدة التي كان عليه أن يحزن لها هي ميثة إحدى الفتيات اللواتي كنَّ يُلْقَمْنَ الأسلحة، هندية صغيرة في الخامسة عشرة من عمرها، بقيت مرمية على ظهرها وقد سحقت ضربة هراوة رأسها وعلا عينيها الواسعتين الداكنتين الدهول. وبينما كان القسُّ مندوثاً ينظّم أتباعه كي يُطفئوا النيران ويعتنوا بالجرحى ويواروا القتلى التراب، كان النقيب لِ لاِبِغَا وسيف غريب في يده يجوب صحن الكنيسة يبحث عن جثة الزعيم الهنديّ وهو يفكر بأن يشك رأسه في رمح وينصبه في مدخل البعثة كي يُشبَّط عزيمة كل من تُراوده فكرة أن يتبع مثله. عثر عليه حيث

سقط لا يكاد يكون أكثر من كومة محزنة غارقة في دمها. بشدة من  
يده نزع قناع رأس الذئب عنه ودحرج الجسد برفسية من قدمه، كان  
أصفر بكثير مما بدا له حين كان يرفع رمحه. النقيب الذي كان  
ما يزال يشتاظ غضباً ويلهث من جهده في المعركة، أخذ الزعيم من  
شعره الطويل ورفع سيفه كي يقطع رأسه بضربة واحدة، لكنه وقبل  
أن يهوي بذراعه عليه فتح الساقط عينيه ونظر إليه نظرة فضول غير  
متوقّعة.

- يا قديسة يا مريم العذراء، إنه حي! - صاح د لايفغا متراجعاً  
خطوة إلى الوراء.

لم يدهشه أن عدوه كان ما يزال يتنفس بقدر ما أدهشه جمال  
عينيه المتطاولتين العسليتين، كثيفتي الأهداب، عيني الغزال  
الصافيتين في الوجه المغطى بالدم وطلاء الحرب. ترك د لايفغا  
السيف، نزل على ركبتيه ومرر يده تحت نقرته ناهضاً به بحذر. عينا  
الغزال أغمضتا وأفلتت من فمه أنه طويلة. ألقى النقيب حوله نظرة  
وأدرك أنهما وحيدين في تلك الزاوية من الكنيسة، القرية جداً من  
المنبح. مستجيباً لدافع عنده رفع الجريح بنية أن يضعه على ظهره،  
لكنه كان أخف مما هو متوقّع بكثير. حمله بذراعه كما لو كان طفلاً.  
راح يتفادي أكياس الرمل والحجارة وجثث القتلى، التي لم يكن قد  
سحبها المبشرون بعد وخرج إلى نور ذلك اليوم الخريفى، الذي  
سيتذكره بقيّة حياته.

- إنه حي، يا أبانا - أعلن وهو يضع الجريح على الأرض.

- ساعة شوم، يا نقيب، فالأمر سيان، علينا أن نعدمه - أجاب  
القس مندوثا، الذي وضع حول رأسه قميصاً مخططاً مثل عمامة، كي  
يوقف نزيه دم أذنه المقطوعة.

لم يستطع ألخاندرو د لايفغا أن يفسر قط لماذا ذهب بحثاً عن  
ماء وخرق ليغسل عدوه بدل أن يستغل اللحظة ليقطع رأسه. فصل

الشعر الأسود تُساعده إحدى المعتنقات الجديديات وشطف الجرح الطويل، الذي عاد عند ملامسته للماء لينزف بعمق. تحسّس الجمجمة بأصابعه متحققاً من وجود جرح مُلتهب، لكنّ العظم كان على حاله سليماً، في الحرب شاهد أشياء أسوأ. أخذ إحدى المسلات المعقوفة المستخدمة في خياطة الفرش وأعراف الخيل، التي راح القسُ مندوثاً يُبلّلها بالتكيلا ليخيط جراح المصابين، وخاط الجلد المشعر، بعدها غسل وجهه الزعيم متبيّناً بياض البشرة والتقاسيم الناعمة. مزّق بِخنجره دثار جلد الذئب المبلل بالدم كي يرى ما إذا كانت هناك جراح أخرى وعندئذٍ أفلتت من صدره صيحة.

- إنها امرأة! - هتف مذعوراً.

هرع الأب مندوثاً والبقيةُ بسرعة وراحوا يتأملون مذهولين ثديي المحارب العذريين.

- صار قتله الآن أصعب بكثير... - تنهّد أخيراً الأب مندوثاً.

كان اسمها تويبورنيا وعمرها لا يكاد يتجاوز العشرين عاماً. كانت قد تمكّنت من جعل عدّة قبائل تتبعها لأنّ أسطورة خرافية سبقتها. كانت أمّها بومة بيضاء، شامان وطبيبة شعبية في قبيلة هنود غابرييلية، وأبوها بخار هارب في سفينة إسبانية، إلى أن جرفه التهاب رئويّ حين بلغت ابنته سنّ البلوغ. تعلّمت تويبورنيا من أبيها أسس اللغة القشتالية ومن أمّها استخدام النباتات الطبيّة وتقاليد شعبها. تجلّى قدرها الرائع بعد أشهر قليلة من ولادتها، في المساء الذي تركتها فيه أمّها تنام تحت شجرة، بينما هي تسبح في النهر واقترب ذئب من الصرّة الملفوفة بالجلود وحملها بين فكيه يجرها نحو الغابة. تبعت البومة البيضاء يائسة أثر الحيوان أياماً عدّة، دون أن تعثر على ابنتها. خلال بقية ذلك الصيف ابيضّ شعرُ الأمّ والقبيلةُ بحثت عن الطفلة بلا كللٍ إلى أن تلاشى آخر أملٍ

بالعثور عليها. وعندئذ أقاموا الطقوس لكي يهدوا روحها إلى  
السهوب الفسيحة للروح العظيمة. رفضت البرومة البيضاء المشتركة  
في الجنازة وبقيت تترصد الأفق لأنها كانت تشعر في عظامها أن  
ابنتها حية. وذات فجر، مع بداية الشتاء شاهدوا مخلوقاً ينبثق من  
الضباب هزياً، قدراً وعمارياً يتقدم حائياً وأنفه ملتصق بالأرض.  
تلك كانت الطفلة الضائعة، التي جاءت مزجراً مثل كلب تفوح منها  
رائحة حيوان ضارٍ. سموها تويبورنيا، الذي كان يعني في لغة  
قبيلتها ابنة الذئب وربوها كما يربون الذكور على القوس والرمح.  
لأنها عادت من الغاية بقلب جموح.

علم ألياندر و بكل هذا في الأيام التالية من فم الهنود السجناء،  
الذين كانوا يندبون جراحهم وذلهم محبوبين في عنابر البعثة. كان  
القس مندوثاً قد قرّر إطلاق سراحهم مع استعدادهم لعاقبتهم، ذلك  
لأنه لم يكن باستطاعته إعالتهم كأسرى زمناً غير محدد، وكانوا  
دون زعيمهم كأنهم عادوا إلى اللامبالاة والوداعة السابقتين. لم يبع  
جلدهم، كما كان واثقاً من أنهم يستحقون ذلك، لأن العقوبة لا تأتي  
إلا بالضغينة، كما لم يُحاول تحويلهم إلى معتقده، لأنه رأى أنه ما  
من أحدٍ منهم له معدن مسيحي، وسيصبحون مثل تفاعات فاسدة  
تصيب بعدواها نقاء قطيعه. لم يفت المبشر أن للفتاة تويبورنيا  
سحراً خاصاً على النقيب د لايفغا، الذي كان يبحث عن ترائع كي  
يذهب في كل لحظة إلى الكهف تحت الأرض، الذي يُعتق فيه النبيذ  
ووضعوا فيه الأسيرة. سببان جعلاً المبشر يختار الديماس ونزارة.  
يمكن أن يبقى مغلقاً بالقفل والمفتاح، والظلمة التي قد تمنع  
تويبورنيا فرصة للتفكير بأعمالها. وبما أن الهنود كانوا يؤمنون  
أن زعيمهم كانت تتحول إلى ذئب ويمكن أن تهرب من أي مكان فقد  
اتخذ الحذر الإضافي بتثبيتها بالسيور الجلدية فوق الأرواح الضعفة  
التي تستخدمها سريراً. صارت عدة أيام بين اللاوعي والكوابيس،  
مبالة بعرق خماها، غذاؤها ملاعق الحليب والنبيذ والعسل من يد  
النقيب د لايفغا. وكانت تعود إلى وعيها في الظلمات المطلقة فتخاف

أن تكون قد أصيبت بالعمى، لكنها كانت تفتح عينيها أحياناً على نور القنديل المرتعش وترى وجه مجهول يناديها باسمها.

بعد أسبوع راحت تويبورنيا تخطو خطواتها الأولى السرية مستندةً إلى النقيب الرشيق، الذي قرّر تجاهل أوامر الأب مندوثا بالإبقاء عليها مربوطة وفي الظلمة، كان أصبح باستطاعة الشابين وقتذاك أن يتواصلا، لأنها كانت تتذكر القشتالية المتقطعة التي علمها إياها أبوها، ولأنه جهد في تعلم بعض الكلمات من لغتها. عندما باغتتهما القس مندوثا ممسكاً الواجد منهما بيد الآخر، قرّر أنه آن الأوان كي تُعتبر السجينة معافاة وتحاكم. لم يكن هناك ما هو أبعد عن نيته من أن يعدم أحداً، كما أنه لم يكن يعرف حتى كيف يفعل ذلك، لكنه كان مسؤولاً عن أمن البعثة والمعتنقات الجديديات؛ وهذه المرأة في جميع الأحوال تسببت بمقتل عدد من الأشخاص. ذكر النقيب بحزن أن جرائم تمرّد مثل تمرّد تويبورنيا يعاقب عليه بالموت البطيء بألة الشنق الوحشية حيث يفقد المُعذب نفسه مع ازدياد ضغط الآلة الحديدية على عنقه.

- لسنا في إسبانيا - ردّ النقيب مرتعشاً.

- أعتقد أنك تتفق معي، أيها النقيب، أننا سنبقى جميعاً في خطر ما دامت حيّة، لأنها ستعود لتأليب القبائل. لا للإعدام بالغازوت<sup>(\*)</sup>، فهي وحشية أكثر من اللازم، لكن علينا، رغم أن هذا يؤلمني في روحي، أن نشنقها، لا خيار أمامنا.

- هذه المرأة خالسية، يا أبانا، تحمل دماً إسبانياً. وعلى عاتقك أنت تقع المسؤولية القضائية تجاه الهنود، لكن ليس تجاهها. وحده حاكم كاليفورنيا العليا يستطيع أن يحكم عليها - ردّ النقيب. القس مندوثا، الذي كانت فكرة أن يحمل على كامله قتل كائن

(\*) Garrote: جهاز تعذيب كان يُستخدم في إسبانيا للإعدام، وهو عبارة عن حلقة توضع حول عنق المحكوم وتشدّ بلولب حتى يموت المحكوم عليه. م.

بشري آخر بمثابة حمل ثقيل أكثر من اللازم، تمسك على الفور بهذه  
الحجة. عرض عليه د لايفغا أن يذهب بنفسه إلى مونتيري، كي يقرّر  
بدر و فاخس مصير تويبورنيا وقبل المباشرة الفكرة بأن تنفس  
الصعداء عميقاً.

وصل ألكاندر و د لايفغا إلى مونتيري في وقت أقصر مما  
يحتاجه فارس في ظروف عادية لقطع تلك المسافة، لأنه ذهب  
مستعجلاً لتنفيذ مهمته، ولأنه أراد أن يتفادى الهنود المتمردين.  
سافر وحيداً، متوقفاً في البعثات المنتشرة على طول الطريق كي  
يبدل الجواد و ينام بضع ساعات. كان قد قطع هذا الطريق مرّات  
أخرى ويعرفه جيّداً، لكنّه كان دائماً يُعجب بتلك الطبيعة الخلابة من  
الغابات اللامتناهية، وآلاف الأنواع من الحيوانات والطيور،  
والجداول والمسائل العذبة ورمال شواطئ المحيط الهادي  
البيضاء. لم تقم مواجهات بينه وبين الهنود، لأنّ هؤلاء كانوا  
يهيمون في التلال بلا زعيم ولا وجهة محدّدة، منهاري المعنويات.  
إذا صدقت تنبؤات القس مندوثا فإنّ حماسهم قد اختفى تماماً  
ويحتاجون لسنوات كي يعيدوا تنظيم أنفسهم.

سجن مونتيري، المشاد على لسان جبلي بحريّ معزول على بعد  
سبعمئة فرسخ من مدينة المكسيك، يفصله نصف العالم عن مدريد.  
كان مبنى جنائزياً، مثل مطمورة، فطاعة من الحجارة والملاط،  
حيث تقيم فرقة صغيرة من الجنود، سرية الحاكم وعائلته الوحيدة.  
كان يوم ضباب رطب يُضخّم دويّ الأمواج المرتطمة بالصخور  
وزعيق النوارس.

استقبل بدر و فاخس النقيب في قاعة تكاد تكون عارية،  
نوافذها لا تكاد تسمح بمرور النور، لكنها تمرّر ريح البحر  
الصرصر. على الجدران رؤوس دبية محنطة، سيوف محدّبة،  
مسدّسات وشعار سلاح دونيا إيولاليا د كاليبس، مطرّز بالذهب، لكنّه

تالف وحائل اللون. وعلى شكل أثاث كان هناك دزينة من الأرائك الخشبية غير المنجدة وخزانة هائلة ومنضدة عسكرية. كانت السقوف التي سوّدتها الرطوبة وأرضية التراب المرصوص من أكثر خصائص التكنات خشونة. كان الحاكم، الشيخ، بجسمه الضخم، وصوته الجبار، يتمتع بفضيلة المناعة ضد التملق والفساد، النادرة. كان يمارس الحكم بيقين خفي بأن قدره اللعين هو أن يُخرج كاليفورنيا العليا من البربرية بأيّ ثمن كان. كان يُقارن نفسه بالفاتحين الإسبان الأوائل، بناس من أمثال هرنان كورتيس، الذين فتحوا عوالم كثيرة لصالح الإمبراطورية. كان يقوم بواجبه بإحساس تاريخي، وإن كان في الحقيقة يُفضل أن يتمتع بثروة زوجته في برشلونة، كما كانت تطلب منه بلا كلل. قدّمت لهما خادمة نبیذاً أحمر في كأسين من كووس زجاج بوهيميا، التي جاؤوا بها من بعيد في صناديق إيولاليا ريكاليس، وكانت تتناقض مع أثاث التكنة الخشن. شرب الرجلان نخب الوطن البعيد والصدّاقة وتناولوا بالتعليق الثورة الفرنسية، التي أثارت ثورة الشعب المسلّحة. وكان الحدث قد وقع قبل أكثر من سنة، لكنّ خبره وصل توّاً إلى مونتري. كانا متفقين على أنه ما من داع للقلق، إذ لا شك أن النظام لا بدّ عاد ليستتب في ذلك البلد ولا بدّ أن الملك لويس السادس عشر قد عاد من جديد إلى عرشه، على الرغم من أنّهما كانا يعتبرانه رجلاً صغير النفس، غير جدير بالشفقة، في أعماقهما كانا سعيدين لأنّ الفرنسيين يقتل بعضهم بعضاً، لكنّ اللباقة تمنعهما من الجهر بذلك. من بعيد كانت تصل أصواتٌ وصيحات راح يزداد حجمها حتى أصبح من المحال تجاهلها.

- اعذرني، أيها النقيب، إنّها مسألة نساء - قال بَدرو فاجس بإيماءة قلق.

- هل هي بخير، صاحبة السعادة دونيا إيولاليا؟ - استفسر أَلخاندرو رِلابغا، وقد احمرّ حتى شعره.



طعنه بدرو فاخس بنظرته الفولاذية، مُحاولاً أن يتكهن بنواياه.  
كان على اطلاع بشائعات الناس حول هذا النقيب الرشيق ونسائه، لم  
يكن أطرش. لم يفهم أحد وأقلهم هو أن دونيا إيولاليا استغرقت في  
وصولها إلى مونيزي ستة أشهر، بينما يمكن قطع المسافة بأقل من  
ذلك بكثير؛ قالوا إن الرحلة طالت قصداً لأنهما لم يرغبيا أن يتفصلا.  
وأضيف إلى هذه التخريصات رواية هجوم قطاع الطرق المبالغ به  
والذي افترض فيه أن د لايفا جازف بحياته كي يُنقذ حياتها.  
والذي افترض فيه أن د لايفا جازف بحياته كي يُنقذ حياتها.  
الحقيقة كانت شيئاً آخر، لكن بدرو فاخس لم يعرفها قط. كان  
المهاجمون ستة من الهنود الهائجين بفعل الكحول وهربوا ما إن  
سمعوا الطلقات الأولى، أمّا بالنسبة للجرح الذي أصيب به د لايفا في  
ساقه فلم يكن دفاعاً عن دونيا إيولاليا د كاليس، كما كان يُقال، بل  
بسبب نطحة بقرة. كان بدرو فاخس يعتبر نفسه حكماً جيداً على  
الأشخاص، فليس عبثاً أنه أمضى كل تلك السنوات في السلطة، فقرّر،  
بعد أن تفحص ألياندر د لايفا، أنه ليس هناك ما يستحق أن  
يستنفد نفسه بالشك فيه، فقد كان واثقاً من أنه سلمه زوجته بوفاء  
تام. كان يعرف زوجته بعمق، ولو أن هذين الاثنين تولها الواحد  
بالآخر، لما كان هناك من قوّة بشرية ولا إلهية تُقنع إيولاليا بترك  
عشيقها لتعود إلى زوجها. ربّما قامت بينهما ألفة أفلاطونية، لكن لا  
شيء مما يحرمني من النوم، خلص الحاكم. كان رجلاً شريفاً  
ويشعر بأنه مدين لهذا الضابط، الذي كان أمامه ستة أشهر كي يغوي  
إيولاليا ولم يفعل. كان يعزو إليه الفضيلة كاملة، لأنه كان يعتبر أنه  
إذا كان المرء يستطيع فعلاً أن يثق بإخلاص الرجل، إلا أن عليه ألا  
يثق بإخلاص النساء، هذه الكائنات المتقلّبة بطبيعتها، وغير المؤهلة  
للإخلاص أبداً.

في هذه الأثناء كانت تحركات الخادِمات اللواتي يجريان في  
الممرات، وشفق الأبواب والصيحات المخنوقة مستمرة. كان  
ألياندر د لايفا يعرف، مثل الجميع، شجارات هذين الزوجين  
الملحمية، مثلها مثل مصالحاتهما. كان قد سمع أن الزوجين فاخس

في مشاجراتهما يتقاذفان بالصحون على رأسيهما وأن السيد يدرو  
شهر سيفه عليها في أكثر من مناسبة، لكنهما لا يلبثان أن يغلقا  
الباب على نفسيهما عدة أيام كي يمارسا الحب. ضرب الحاكم  
القوي بقبضته على الطاولة جاعلاً الكؤوس تتراقص واعترف  
لصيفه بأن إيولاليا أغلقت، منذ خمسة أيام، غرفها على نفسها في  
نوبة غضب مريضة.

- تشناق للرفاه الذي اعتادته - قال، في الوقت الذي هزَّ عواء  
جنوني الجدران.

- ربما هي تشعر بالوحدة، يا صاحب السعادة - دمدم لا يبغا،  
لمجرد الكلام.

- وعدتها أننا سنعود خلال ثلاث سنوات إلى مكسيكو أو  
إسبانيا، لكنها لا تريد أن تسمع حججاً. نفذ صبري معها، أيها  
النقيب لا يبغا. سأرسلها إلى أقرب بعثة تبشيرية، كي يشغلها  
المبشرون مع الهندييات، لأرى ما إذا كانت تتعلم كيف تحترمني! -  
زمر فاخس.

- هل تسمح لي بأن أتكلم بعض الكلمات مع السيدة، يا صاحب  
السعادة؟ - طلب النقيب.

خلال هذه الأيام الخمسة من الارتعاص رفضت زوجة الحاكم  
حتى أن تستقبل ابنها ابن السنوات الثلاث. كان الطفل التافه يقبع  
على الأرض باكياً ويبول رعباً حين يُهاجم أبوه الباب بضربات  
عصاه غير المجدية. لم يكن يعبر العتبة غير هندية تحمل لها الطعام  
وتخرج المبول، لكن ما إن علمت إيولاليا بأن ألخاندرو لا يبغا قد  
جاء زائراً ويريد رؤيتها حتى انقطعت نوبة الهستيريا خلال دقيقة.  
غسلت وجهها، سوت جديلتها الحمراء وارتدت الحرير خبازي اللون  
وتزينت بكل لآلئها. رآها يدرو فاخس تدخل في غاية الأبهة كما في  
أحسن أيامها فاستبشر بحنين بدفء مصالحة محتملة، على الرغم

من أنه لم يكن مستعداً لأن يتسرع أكثر من اللازم ويغفر لها،  
فالمرأة تستحق بعض العقاب. في تلك الليلة أثناء العشاء المكفهر في  
غرفة طعام كنيية مثل قاعة السلاح رمى كل من إيولاليا و كاليبس  
وبدرو فاخس الواحد منهما الآخر في وجه الآخر بالتهم التي كانت  
تُسَمُّ روحيهما، متخذين الضيف شاهداً. لاذ أَلْخَانْدَرُو لِابِغَا في  
صمت مزعج حتى لحظة تناول التحلية، حين تكهّن بأن النبيذ قد أخذ  
مفعوله وغضب الزوجين بدأ يلين فطرح دافع زيارته. وضح مسألة  
أن تويبورنيا تحمل دماً إسبانياً، وصف شجاعته وذكاءها، غاضاً  
الطرف عن جمالها ورجا الحاكم أن يكون رحيماً معها، وأن يقضي  
بعدل وحسب سمعته بالرافة وباسم الصداقة المشتركة. لم يتركه  
بِدْرُو فَاخِسُ يَتَوَسَّلُهُ لَأَنَّ الْاِحْمَرَارَ فِي نَحْرِ اِيُولَالِيَا اسْتَطَاعَ أَنْ يُلْهِبَهُ  
وَقَبِلَ بِتَغْيِيرِ الْحُكْمِ بِالْمَوْتِ إِلَى السِّجْنِ عَشْرِينَ سَنَةً.

- في السجن ستحوّل هذه المرأة إلى شهيدة في عيون الهنود.  
يكفي استحضار اسمها كي تقف القبائل من جديد على أهبة الحرب -  
قاطعته إيولاليا - يخطر لي حل أفضل. يجب قبل كل شيء أن نَعْمُدَ  
كما يأمر الله، بعدها تأتيني بها إلى هنا وأنا آخذ المشكلة على  
عاتقي. أراهن على أنني سأكون قد حوّلت هذه التويبورنيا، ابنة  
الذئب، الهندية الباسلة، إلى سيّدة مسيحية وإسبانية. وهكذا سنقضي  
إلى الأبد على تأثيرها على الهنود.

- وبالمناسبة سيكون عندك ما تتسلين به ومن يرافكك - أضاف  
زوجها، عن رضا.

هكذا حدث. وفي الوقت ذاته كان من نصيب أَلْخَانْدَرُو لِابِغَا  
أن يذهب إلى سان غابرييل في طلب السجينة ويأتي بها إلى مونتيري  
برضا القس مندوثا، الذي كان يستعجل التخلص منها. فقد كانت  
الشابة بركاناً جاهزاً للانفجار في البعثة، حيث لم يكن المعتنقون  
الجدد قد خرجوا بعد من لفظ الحرب. تَلَقَّتْ تويبورنيا في العمار اسم  
رَحِينَا مَارِيَا لِإِنْمَاكُولَادَا كُونْتِيبِثِيُون، لكنّها نسيت على الفور

القسم الأعظم منه وأبقت على رخيننا فقط. ألبسها الأب مندوثا لباس  
المعتنقين الجدد، الصوفى الخشن، وعلق في عنقها قلادة للعدراء  
وساعدها على امتطاء الجواد، لأنها ذهبت مقيدة اليدين، وباركها.  
لم تكد تصبح بيوت البعثة القطساء خلفهما حتى فك د لايفغا يدي  
الأسيرة ودعاها مبيئاً لها بحركة منه أن الأفق واسع كي تهرب.  
فكرت رخيننا بالأمر دقائق، ولا بد أنها خلصت إلى أنهم إذا قبضوا  
عليها من جديد فلن تنال أي غفران، لأنها رفضت برأسها. أو ربما  
لم يكن الخوف وحده، بل الشعور المتأجج ذاته الذي كان يخلق عقل  
الإسباني. في جميع الأحوال تبعته دون أي علامة تمرّد خلال العبور  
الذي أخره قدر استطاعته، لأنه كان يفكر أنهما لن يلتقيا بعد ذلك.  
تمتّع ألخاندرو د لايفغا بكل خطوة من الطريق الملكي معها، وبكل  
ليلة ناما فيها في العراء تحت النجوم دون أن يتلامسا، وبكل مناسبة  
تبللاً فيها معاً في البحر، بينما هو يخوض صراعاً ضارياً مع رغبته  
وخياله. كان يعرف أن نبيلاً من آل د لايفغا، رجل شرف ونسب لا  
يستطيع ولا يحلم بالارتباط بخلاسية. إذا كان يتوقع أن تبرّد تلك  
الأيام مع رخيننا على الجواد حبه، فقد خاب أمله، لأنهما حين وصلا  
إلى سجن مونتيري كان قد تحوّل إلى عاشقٍ شبيه بمراهق. اضطرّ  
لأن يستنجد بانضباطه، انضباط الجندي الطويل، كي يودّع المرأة  
ويقسم من أعماقه أنه لن يُحاول أن يتصل بها أبداً.

نقد بدرو فاخس وعده لزوجته بعد ثلاث سنوات وتخلّى عن  
منصبه حاكماً لكاليفورنيا العليا بهدف العودة إلى الحضارة. كان  
في أعماقه سعيداً بهذا الحل، لأن ممارسة السلطة بدت له دائماً  
كنودة. حمل الزوجان صنديقهما على البغال والعربات التي تجرّها  
الثيران، وجمع رجال بلاطه الصغير وشرع بالمسير باتجاه  
المكسيك، حيث فرشت إيولاليا د كاليبس قصراً باروكياً بالأبته  
التي تليق بمكانتها. وكانا يتوقّان لتلبية حاجاتهما في كل قرية

وبعثة على الطريق كي يستقبلا قواهما ويسمحا للمستوطنين أن  
يحتفوا بهما وعلى الرغم من مزاجهما السيء كانا محبوبين، هو  
لأنه حكم بعدل وهي اسمعتها بأنها كريمة مجنونة. حشد أهل  
لا رينا و لوس أنجلوس<sup>(هـ)</sup> إمكانياتهم مع إمكانيات بعثة سان  
غابرييل القريبة، والأكثر ازدهاراً في المقاطعة، على مسافة أربعة  
فراسخ، كي يستقبلا المسافرين استقبالا لائقاً. القرية المؤسسة على  
طراز المدن الاستعمارية الإسبانية، كانت مربعاً فيه ساحة مركزية،  
أحسن تخطيطها من أجل التوسيع والازدهار، على الرغم من أنه لم  
يكن فيها وقتذاك غير أربعة شوارع رئيسية وما يقارب المئة بيت من  
القصب. كما كان فيها حانة، كانت الدكان الخلفية فيها تستخدم  
مخزناً، وكنيسة وسجناً وستة بيوت من الأجر والحجر والقرميد،  
تسكنها السلطات. وعلى الرغم من ندرة السكان والفقر المعتم، فقد  
كان المستوطنون مشهورين بحسن ضيافتهم وبحفلاتهم الليلية التي  
تقيمها العائلات طوال العام. كانت الليالي تحيا بالقيثارات والأبواق  
والكمانات والبيانوات، ويرقصون الفاندانغو أيام السبت والأحد.  
شكل وصول الحاكم وزوجته أفضل ذريعة للبلدة للاحتفال منذ  
تأسيسها. نصبوا أقواساً، ورفعوا رايات وأزهاراً ورقية حول  
الساحة، وضعوا طاولات طويلة عليها أغطية بيضاء وجند كل من  
كان قادراً على عزف آلة موسيقية للحفلة الراقصة بمن فيهم سجينان  
حرروهم من قيودهما حين عرفوا أنهما يستطيعان أن يعزفا على  
القيثار. استغرقت الإعدادات عدة أشهر ولم يتكلموا خلالها عن شيء  
آخر. فضلت النساء فساتين سهرة والرجال لمعوا أزرارهم  
وأبازيمهم الفضية، وتدرّب الموسيقيون على رقصات وصلت من  
المكسيك وانهمكت النسوة في إعداد أكثر الولايم التي عرفتها  
المنطقة أبهة. وحضر القس مندوثا مع المعتنقين الجدد مزوداً بعدة

(هـ) هكذا كان يلفظ اسم لوس أنجلوس قبل أن يحتلها الأمريكيان، وما زال يلفظ كذلك  
بالنسبة للناطقين باللغة الإسبانية. م

براميل من الفلفل أنواع النبيذ وبقرتين وعدد من الخنازير والدجاج  
والبط التي أُنبتت للمناسبة.

وكان من نصيب النقيب ألكساندرو دي لايفغا أن تكفل بالنظام  
خلال وجود الحاكم وزوجته في القرية. ومنذ اللحظة التي علم فيها  
بمجيئها عذبتة صورة رخيما باستمرار. كان يتساءل ماذا حل بها  
خلال تلك القرون الثلاثة التي فصلت بينهما. كيف تخطت سجن  
مونترزي المظلم. تراها تتذكره. كانت شكوكه قد شغلته ليلة  
الاحتفال. حين رأى على ضوء المشاعل ووقع الفرقة الموسيقية  
فتاة مذهلة تصل بثياب وتسريحة الموضة الأوروبية وسرعان ما  
عرف تلكما العينين الملونتين بلون السكر المحروق. هي بدورها  
ميّزته من بين الحشود وتقدمت منه دون تردد. وانتصبت أمامه  
بأكثر التعابير جذية في العالم. أراد النقيب، وروحه توشك أن  
تتشظى، أن يمد يده كي يدعوها للرقص. لكنه وبدل ذلك سألها وهو  
يفور، عما إذا كانت تريد الزواج منه. لم يكن اندفاعاً جامحاً. فقد  
فكر بالأمر على امتداد ثلاث سنوات. ووصل إلى نتيجة مفادها أنه  
خير له أن يُلطخ نسبه النقي من أن يعيش من دونها. كان يعي أنه لن  
يستطيع أبداً أن يقدمها لأسرته أو إلى المجتمع في إسبانيا، لكن هذا  
لم يكن يهمنه. فهو لأجلها قادر على أن يفرض جذوره في كاليفورنيا  
وأن يتحرك بعيداً أكثر من العالم الجديد. قبلته رخيما لأنها كانت قد  
أحبته سراً منذ ذلك الزمن الذي أعادها فيه إلى الحياة. حين كانت  
تحتضر في ديماس نبيذ القس مندوثا.

وهكذا كان أن تُوّجت زيارة الحاكم وزوجته في لا رينا دي لوس  
أنجلوس بحفل زواج النقيب من السيدة الغامضة رفيقة إيولاليا دي  
كاليس. القس مندوثا، الذي أطال شعره حتى كتفيه كي يخفي ندبة  
الأذن المقطوعة الرهيبة، ترأس الاحتفال على الرغم من أنه حاول  
حتى اللحظة الأخيرة أن يثني النقيب عن الزواج. لم يكن ما يزعجه  
أن الخطيبة خلاسية، فكثير من الإسبان كانوا يتزوجون من هنديات،

بل إن تحت مظهر الآتسة رخينا الأوروبية تكمن تويورنيا، ابنة  
الذئب دون مس. يدرو فاجس نفسه سلم الخطيبة في المذبح، لأنه  
كان مقتنعاً بأنها أنقذت زواجهما، ذلك لأن مزاج إيولاليا تشذب في  
انهاكها بتربيتها، وكفت عن تعذيبه بنوبات غضبها. وبما أنه كان  
مديناً بحياة زوجته إلى أليخاندرو د لايفغا، كما كانت تؤكد النقولات،  
فقد رأى أن تلك مناسبة جيدة كي يبرهن عن سماحته. وبجرة ريشة  
خصص للزوجين الباهرين سندات ملكية قطعة من الأرض وعدة  
آلاف من رؤوس الماشية، ذلك أنه كان من صلاحياته توزيع  
الأراضي بين المستوطنين. خط المحيط على خريطة متبعاً نبض  
القلم، وبعدها حين تحققوا من الحدود الواقعية لقطعة الأرض،  
تبينوا أنها تضم فراسخ كثيرة من المراعي والتلال والغابات  
والأنهار والشواطئ. كان قطع العقار على جواد يحتاج إلى عدة  
أيام: كانت الأكبر والأفضل موقعا في المنطقة. رأى أليخاندرو د  
لايفغا نفسه دون أن يطلب ذلك وقد صار رجلاً ثرياً. بعد أسابيع،  
حين بدأ الناس ينادونه بالسيد أليخاندرو، تخلى عن جيش الملك  
ليتفرغ بالكامل ليزدهر في تلك الأرض الجديدة. انتخب بعد عام  
عمدة للافينا د لوس أنجلوس.

بنى د لايفغا مسكناً واسعاً وقوياً دون فخفة، من الطوب  
وبسقوف من الآجر وأرضية من بلاط السجيل الخشن. زين داره  
بأثاث ثقيل، صنعه له في القرية نجار جليقي، دون أي اعتبار  
للجمالية، بل للديمومة. كان الموقع ممتازاً قريباً من الشاطئ، على  
بعد أميال قليلة من لافينا د لوس أنجلوس، بعثة سان غابرييل. بيت  
الطوب الكبير على طريقة البيوت الريفية المكسيكية كان يقع فوق  
لسان جبلي وكان اتجاهه يطل على مشهد بانورامي للشاطئ والبحر.  
على مسافة صغيرة كانت مخازن القطران الطبيعية المشؤومة، التي  
لا أحد يقترب منها برضاها، فهناك كانت تتعذب أرواح الموتى

العالمين في القطران. كان يوجد بين الشاطئ والمزرعة متاهة من الكهوف، هي المكان المقدس بالنسبة للهنود وكانوا يخافونها خوفاً من برك القطران. ولم يكن الهنود يذهبون إلى هناك احتراماً لأسلافهم وكذلك الإسبان بسبب الانهيارات وسهولة الضياع في داخلها.

أنزل بـ لايفغا عدداً من العائلات الهندية ورعاة البقر الخلاسيين في أملاكة، وعلم قطيعه وقرّر أن يُربّي الخيول الأصيلة من خلال نماذج جاء بها من المكسيك. وفي الوقت الفائض عنه أنشأ معملًا صغيراً للصابون وراح يقوم بالتجارب في المطبخ للعثور على الصيغة النامة لتدخين اللحم المتبل باللفل الحار. كان يتطلع للحصول على لحم مُجفّف، لكنه لذيذ، يدوم أشهراً دون أن يتفسخ. كانت هذه التجارب تستهلك ساعاته وتملاً السماء بالدخان البركاني الذي كانت الرياح تجرفه عدّة فراسخ داخل البحر، فتحدث تغييراً في سلوك الحيتان. وكان يعتبر أنه إذا ما حصل على الموازنة بين الطعام والديمومة سيتمكن من بيع منتجه للجيش والبواخر. كان يرى أن نزع الجلود والشحوم من الحيوان تبديد كبير وإضاعة لجبال من اللحم الجيد. وبينما كان زوجها يُضاعف عدد أبقار ومواشي وخيول المزرعة وإدارة سياسة القرية ويتاجر مع البواخر التجارية، كانت رخيماً تنهمك بالعناية بحاجات هنود المزرعة. لم تكن تهتم بالحياة الاجتماعية للمستوطنة وكانت تردّ بلامبالاة قياسية على التعليقات التي تدور حولها. كانوا ينمّون عن مزاجها الفظ والمزدرى وأصولها المشكوك بها أكثر من اللازم، ومروقاتها على الجواد واستحماماتها عارية في البحر. وبما أنها وصلت مع عائلة فاخس فقد استعدّ مجتمع القرية الصغير، التي اختصرت اسمها الآن وأصبح قرية لوس أنجلوس، لاحتضانها دون أسئلة، لكنّها أقصت نفسها بنفسها. وسرعان ما انتهت ملابسها التي ازدانت بها تحت تأثير إيولاليا بـ كاليس، بأن التهمها العث في الحزائن. فقد كانت تشعر أنها ترتاح أكثر دون حذاء وفي لباس المعتنقين الجدد



الخشن. هكذا كانت تقضي النهار، تغتسل حين تُقَدَّر أن الخاندرو  
على وشك العودة إلى المنزل وتثبت شعرها في كعكة مرتجلة  
وترتدي فستاناً بسيطاً يُضفي عليها مظهر البريئة لمستجيبة.  
زوجها، المجنون حياً بها والمشغول في تجاراته كان يكذب  
العلامات الواشية بحالة رخيخنا المعنوية؛ كان يرغب بأن يراها  
سعيدة ولم يسألها قط عما إذا كانت كذلك، خشية أن تجيبه بالحقيقة.  
وكان يعزو غرائبها إلى انعدام خبرة الزوجة الحديثة ومزاجها  
المتكتم. كان يُفضل ألا يفكر أن السيدة حسنة الآداب التي تجلس معه  
إلى المائدة هي نفسها المحارب المزوق بالألوان، الذي هاجم بعثة  
سان غابرييل قبل سنوات قليلة. اعتقد أن الأمومة سوف تُعافي  
زوجته من آخر عادات الماضي السيئة، لكن وعلى الرغم من  
المداعبات الطويلة والمتكررة في سرير القوائم الأربعة الذي كانا  
يتقاسمانه، فإن الولد المنشود لم يأت حتى عام 1795.

أصبحت رخيخنا خلال أشهر حملها أكثر صمتاً ووحشية.  
وبذريعة أن تكون مرتاحة ما عادت ترتدي أو تتنعل على الطريقة  
الأوروبية. صارت تستحم في البحر مع الدلافين، التي راحت تفد  
بالمئات على مقربة من الشاطئ، وكانت ترافقها معتنقة جديدة  
ناعمة، اسمها آنا، أرسلها إليها القس مندوثا من البعثة. كانت الشابة  
حاملاً بدورها، لكنها لا تملك زوجاً ورفضت بعناد أن تعترف بهوية  
الرجل الذي أغواها. لم يكن المبشر يريد هذا المثل السيئ بين  
الهنود، لكن وبما أنه لم تُسعه الصرامة بطردها من البعثة، انتهى به  
الأمر بأن سلمها خادمة إلى العائلة لابغا. كانت فكرة حسنة لأنه  
سرعان ما نشأ تواطؤ أحرص ملائم للثنتين، فقد حصلت الأولى  
على رفقة والثانية على حماية. بادرت آنا إلى السباحة مع الدلافين،  
تلك الكائنات المقدسة التي كانت تسبح في دوائر كي تحافظ على  
العالم آمناً ومنظماً. كانت الحيوانات النبيلة تعرف أن المرأتين  
حاملتان وتمر بهما تلامسهما بأجسادها الضخمة المخملية كي  
تمنحهما القوة والتشجيع لحظة الولادة.

في أيار من ذلك العام ولدت أنا ورخيناً في الأسبوع ذاته الذي صادف أسبوع الحرائق الشهير ذاته، المدون في وقائع لوس أنجلوس على أنه الأكثر كارثية منذ تأسيسها. وكان يجب في كل عام الإذعان لرؤية بعض الغابات تحترق لأن شرارة أصابت المراعي الجافة. لم يكن أمراً خطيراً، فهذا الشكل كانت تزال أشواك أحراج وتحدث فضاءات للنتوشات البضة في الربيع التالي، لكن الحرائق حدثت في ذلك العام مبكرة في الفصل وكانت حسب القس مندوثا عقاباً من الله لكثرة الأثام غير المتوب عنها في المستوطنة. فقد أتت النيران على عدد من المزارع، مدمرة في طريقها المنشآت الإنسانية وأحرقت القطيع، الذي لم يعثر على مكان يهرب إليه. تبدلت الرياح يوم الأحد وتوقفت النيران على بعد ربع فرسخ من أملاك د لايفغا، وهو ما فسره الهنود على أنه حسن طالع للطفلين المولودين في المنزل.

ساعدت روح الدلافين في ولادة أنا، لكن ليس في ولادة رخيناً. فبينما أنجبت الأولى ولداً في أربع ساعات وهي مقرصة على بطانية على الأرض ومعها هندية مراهقة في المطبخ شكّلت كامل المساعدة، قضت رخيناً خمسين ساعة في ولادة ابنها، العذاب الذي تحمّله بصبر، تكز على قطعة خشب بين أسنانها. ألياندرود لايفغا، استدعى يائساً القابلة الوحيدة في لوس أنجلوس، لكن هذه استسلمت معلنة هزيمتها حين أدركت أن الطفل في بطن رخيناً كان بالعرض وما عادت تملك قوة لمواصلة صراعها. عندئذ لجأ ألياندرود إلى القس مندوثا، وهو أكثر من كان في محيط المنطقة شياً بالطبيب. جعل المبشر الخدم يصلون ورش رخيناً بالماء المبارك واستعد على الفور لإخراج الطفل بيديه. وبمحض التصميم استطاع أن يصطاده من غير هدى من قدميه وراح يشده إلى النور دون الكثير من الاعتبارات، لكن الزمن كان ضاعطاً. خرج الطفل أزرق وحبل السرّة ملفوف على عنقه، لكن بالصلوات والصفعات تمكن القس مندوثا من إجباره على التنفس.

- ما الاسم الذي سنسميه به؟ - سأل حين وضعه بين يدي والده.

- أَلْجَانْدَرُو، مثلي ومثل أبي وجدِّي - أشار هذا.

- سِنْدَعِي دِييغُو - قاطعته رَحِينَا، التي أضنتها الحمى وخيط الدم المتواصل الذي كان يبيل الملاحف.

- ولماذا دِييغُو؟ ما من أحد يحمل هذا الاسم في عائلة رِ لَابِغَا.

- لأنَّ هذا هو اسمه - رَدَّت.

كان أَلْجَانْدَرُو قد تعذَّب معها عذاباً طويلاً وكان أكثر ما يخافه في العالم هو فقدانها. رأى أنها تنزف وتقصته الهمة كي يكذبها. وخلص إلى إنه إذا كانت قد اختارت في فراش احتضارها هذا الاسم لابنها البكر، فلا بد أن لها دوافعها الحسنة، وبذلك فوَّض القس مندوثا بتعميد الطفل على وجه السرعة، لأنه بدا واهناً مثل أمه وخاف أن يقع في خطر أن يكون مصيره الجحيم إذا ما توفِّي قبل أن يلقى السرَّ المقدس.

تأخَّرت رَحِينَا عدَّة أسابيع حتى تعافت من صفة الولادة، ولم تنج إلا بفضل أمها، البومة البيضاء، التي وصلت سيراً على الأقدام، حافية، تحمل على كتفها كيساً من الأعشاب الطيبة، في الوقت الذي كانوا يعدُّون فيه الشموع للجنائز. لم تكن الطيبية الشعبية الهندية قد رأت ابنتها منذ سبع سنوات، أي منذ أن ذهبت هذه إلى الغابة لتحريض محاربي القبائل الأخرى، وقد عزا أَلْجَانْدَرُو ظهور حماته إلى نظام السكان الأصليين البريدي، السرَّ الذي لم ينجح البيض في اكتشافه. رسالة مُرسلة من سجن مونتري كانت تتأخر أسبوعين على ظهر الجواد للوصول إلى كاليفورنيا السفلى، لكن حين كان يصل الخبر يكون قد أصبح قديماً بالنسبة إلى الهنود، الذين تلقوه قبل عشرة أيام بعمل سحري. لم يكن هناك تفسير آخر لانبثاق تلك المرأة من العدم دون أن تُسَدَّعِي، تماماً في الوقت الذي هم بأمس

الحاجة فيه إليها. فرضت البومة البيضاء نفسها دون أن تنبس بكلمة واحدة. كان عمرها أكثر من أربعين بقليل، وكانت طويلة، قوية، ووسيمة، دبغت الشمس والعمل جلدتها. وجهها اليافع، بعينيه العسليتين، مثل عيني ابنتها، كان مؤطراً بحراج من الشعر الدخاني اللون والجُموح، الذي تدين باسمها إليه. دخلت دون استئذان، دفعت أليخاندرو د لايفغا حين حاول أن يتحقق من هويتها، وجابت دون تردد جغرافية المنزل المعقدة وانتصبت أمام فراش ابنتها. نادتها باسمها الحقيقي، تويبورنيا، وكلمتها بلغة أسلافها، إلى أن فتحت المحتضرة عينيها. أخرجت على الفور من كيسها الأعشاب الطبية لإنقاذها، غلتها في قدر على موقد وأعطته لها لتشربه. فعَبَقَتْ في المنزل رائحة المريمية.

وخلال ذلك كانت أنا قد وضعت، بتلقائيتها المعهودة ابن رخيننا، الذي كان يبكي جوعاً، على ثديها؛ وهكذا بدأ ديفغو وبرناردو الحياة بالحليب ذاته والذراعين نفسيهما؛ وهو ما جعلهما أخوين في الروح بقيّة حياتهما.

وما إن تأكدت البومة البيضاء من أن ابنتها تستطيع أن تنهض على قدميها وتأكل دون اشمئزاز حتى وضعت نباتاتها وعدتها في الكيس، وألقت نظرة على ديفغو وبرناردو اللذين كانا ينامان جنباً إلى جنب في المهد ذاته، دون أن تبدي أي اهتمام بالتأكد ممن منهما هو حفيدها ومضت دون وداع. رآها أليخاندرو د لايفغا تمضي بارتياح كبير. شكرها لأنها أنقذت رخيننا من موتٍ مؤكدٍ، لكنه كان يُفضّل أن تبقى تلك المرأة بعيدة، لأنه كان يشعر بالانزعاج تحت تأثيرها، ثم إن هنود المزرعة صاروا يتصرفون بوقاحة. ففي الصباحات يظهرون للعمل مزوّقي الوجوه، وفي الليل يرقصون كأنهم مترووبصون على وقع آلة الأوكارينا المحزن، ثم إنهم بشكل عام راحوا يتجاهلون أوامره، كما لو أنهم نسوا اللغة القشتالية.

راحت الحياة الطبيعية تعود إلى المزرعة مع استعادة رخيننا  
لعافيتها. في الربيع التالي نسي الجميع، باستثناء ألياندر، أنها  
كانت على حافة القبر. لم يكن هناك حاجة لمعرفة الطب كي يتنبأ  
المرء بأنها لا تستطيع أن تُنجب مزيداً من الأولاد. ودون أن ينتبه  
ألياندر نفسه لذلك، راح هذا الظرف يُبعده عن زوجته. كان يحلم  
بأسرة كبيرة، مثل بقية سادة المنطقة. فقد أنجب أحد أصدقائه ستة  
وثلاثين ولداً شرعياً، إضافة إلى غير الشرعيين، الذين لم يكونوا  
يدخلون في حساباته. كان عنده عشرون من زواجه الأول في  
المكسيك وستة عشر من الثاني، والخمسة الأخيرون ولدوا في  
كاليفورنيا العليا، في كل سنة ولد. وكان الخوف من حدوث مكروه،  
كالذي يحدث للكثير من الأطفال الذين يموتون قبل أن يتعلموا  
المشي، لهذا الولد الذي لن يُعوّض، يقض مضجع ألياندر في  
الليالي. أخذته عادة الصلاة بصوت عالٍ، راکعاً عند قدم مهد ابنه،  
متضرعاً الحماية له من السماء. كانت رخيننا تراقب زوجها الذليل  
من عتبة الباب رابطة الجاش متكتفة. في تلك اللحظات كانت تعتقد  
أنها تكرمه، لكنهما كانا يلتقيان بعدها بين الملاحف فيصلح الدفء  
ورائحة الحب بينهما لبعض الساعات. كان ألياندر يرتدي ملابسه  
عند الفجر وينزل إلى مكتبه، حيث تُقدّم إليه هندية الشوكولا الكثيفة  
والمرة كما كان يُحبها؛ يبدأ يومه بلقاء رئيس خدمه ليعطيه أوامره  
المتعلقة بالمزرعة، يقوم بعدها بمختلف أعماله المتعلقة بالعمدة.  
كان الزوجان يقضيان النهار منفصلين، كل مشغول بمشاغله حتى  
يُحدّد مغيب الشمس ساعة لقائهما من جديد. في الصيف كانا  
يتناولان العشاء في شرفة البنفسج يُرافقهما دائماً بعض الموسيقيين  
الذين يعزفون أغانيهم المفضلة وفي الشتاء في قاعة الخياطة، التي  
لم يخط فيها أحد زراً قط، فالاسم يعود للوحة تمثل امرأة هولندية  
تطرز على ضوء قنديل. كثيراً ما كان ألياندر يبقى ليقضي الليل  
في لوس أنجلوس، لأنه تأخر في احتفال أو لعب ورق مع سادة  
آخرين. وكانت جولات الرقص والسهرات الموسيقية وسهرات السمر

تشغل كل يوم من أيام السنة، إذ لم يكن هناك شيء آخر يفعلونه، إضافة إلى الألعاب الرياضية في الهواء الطلق، التي كان يمارسها الرجال والنساء على حد سواء. لم تكن رخيناً تُشارك في أيّ منها، فقد كانت روحاً انعزاليّة، ولا تثق مبدئياً بأيّ إسباني غير زوجها والقس مندوثا. كما لم تُبدِ اهتماماً بمرافقة ألخاندرو في أسفاره أو في زيارته لبواخر التهريب الأمريكية، لم تصعد قط أيّاً منها للتفاوض مع البخارة. وألخاندرو كان يذهب مرّة في السنة على الأقل إلى المكسيك، الغياب الذي كان يدوم عادةً شهرين يعود بعدها محملاً بالهدايا والأفكار الجديدة التي لم تكن تتمكن من إثارة زوجته كثيراً.

عادت رخيناً إلى مشاويرها الطويلة على الحصان، تحمل الآن معها ابنها في سلّة مربوطة إلى ظهرها وفقدت كل ميل للمسائل المنزلية التي أنيطت بآنا. استعادت عاداتها القديمة بزيارة الهنود، بمن فيهم من لم يكونوا ينتمون إلى مزرعتها، بهدف الوقوف على فاقتهم والتخفيف عنهم قدر استطاعتها. وعند توزيع الأراضي وإخضاع قبائل المنطقة وضع البيض نظام خدمة إجبارياً، يختلف عن العبوديّة في أنّ الهنود كانوا أيضاً من رعايا ملك إسبانيا ويتمتعون نظرياً ببعض الحقوق. كانوا عملياً فقراء مشهورين، يعملون مقابل طعامهم وكحولهم وتبغهم والسماح لهم بتربية بعض الحيوانات. كان أصحاب المزارع عامّةً أرباب عمل لطيفين، منهمكين في ملذاتهم وأهوائهم أكثر مما بالأرض والعمّال، لكن يظهر أحياناً واحد سيئ المزاج وعندئذٍ تُعاني موجة الهنود كما كانوا يُسمونهم الجوع أو الجلد. وكان المعتنقون الجدد في المنزل فقراء أيضاً، يعيشون مع أسرهم في أكواخ من العيدان والقش ويعملون من شروق الشمس وحتى غروبها، ويتبعون كلياً للرهبان في معاشهم. كان ألخاندرو يُحاول أن يكون ربّ عمل طيباً، لكن كان يُعذّبهُ أنّ رخيناً كانت تطلب دائماً المزيد للهنود. وقد وضّح لها ألف مرّة أنّه لا يمكن أن يكون هناك اختلاف في المعاملة التي يتلقاها

هنوده وهنود المزارع الأخرى، لأن هذا يُسبب مشاكل في  
المستوطنة.

وانتهى القس مندوثا ورخينيا، المتحددين في انهماكهما بحماية  
الهنود، بأن أصبحا صديقين؛ فقد غفر هو لها مهاجمتها البعثة،  
وهي امتنت له أنه جاءها بديبغو إلى العالم. كان أرباب العمل  
يمقتونهما، لأنّ المُبشّر يملك سلطة أخلاقية وهي لأنها كانت زوجة  
العمدة. في المناسبات التي شرعت بها رخينيا حملات عدلها، كانت  
تلبس على الطريقة الإسبانية وتسرح شعرها في كعكة صارمة، تُعلق  
صليباً من الياقوت الجمري على صدرها وتستعمل في تنزّرها عربة  
أنيقة، هي هدية زوجها، بدل الفرس الحسنة، التي كانت تمتطيها  
عادةً دون سرج. كانوا يستقبلونها بجفاف، لأنها لم تكن واحدة  
منهم. ما من مزارع كان يقبل أن يكون له أسلاف من السكان  
الأصليين. كانوا يعتقدون أنهم من سلالة إسبانية خالصة، ناس  
بيض نقيو الدم. لم يغفروا لرخينا حتى مسألة أنها كانت تحاول أن  
تموّه على أصلها، على الرغم من أنّ هذا كان أكثر ما يُعجب القس  
مندوثا. عندما تمّ التأكد من أنها من أمّ هندية، أدارت الجالية  
الإسبانية لها ظهرها، لكن ما من أحدٍ تجرأ على أن يزعجها في  
وجهها، احتراماً لمكانة وثروة زوجها. استمرّوا في دعوتها إلى  
مسامراتهم ورقصاتهم واثقين من أنهم لن يروها، فزوجها كان  
يذهب وحيداً.

لم يكن د لايفغا يملك الكثير من الوقت لأسرته، فقد كان مشغولاً  
بتسيير أمور القرية وأملاكه وتجاراته والفصل في النزاعات، التي  
كانت تقوم دائماً بين المستوطنين. وكان يذهب كل ثلاثاء وخميس  
بلا انقطاع إلى لوس أنجلوس ليقوم بمهامه السياسية، المنصب  
ال ممتاز الذي ينطوي على واجبات أكثر مما على الرضا، ولا يعدل  
عنه لأنه يُحبّ خدمة الناس. لم يكن طماعاً ولا متمادياً في سلطته.  
وكان يتمتع بقلّة السلطة الطبيعية، لكنه لم يكن صاحب رؤى كبيرة.

فهو نادراً ما شكك بأفكاره المتوارثة عن أسلافه وإن كانت لا تغطي واقع أمريكا. بالنسبة إليه كان كل شيء يقتصر على مسألة الشرف، على كبرياء الشخص الذي كان يمثله - نبيلاً كاثوليكياً - وعلى أن يمضي مرفوع الجبين. كان يقلقه أن دييغو، الملتصق بأمه وبرناردو والخدم من السكان الأصليين، لا يتخذ الموقف الذي يتطلبه منه نسبه، لكنه كان يقدر أنه ما يزال صغيراً جداً، وسيمك من الوقت ما يكفي لتقويمه. نوى أن يتوجه لتنشئته الرجولية بأسرع ما يمكن. لكن هذه اللحظة كانت تتأجل دائماً، فهناك مسائل أخرى أكثر إلحاحاً يجب الاهتمام بها. وكثيراً ما كانت الرغبة بإسعاد ابنه وحمايته تثيره حتى البكاء. كان حبه لهذا الصغير يربكه، يؤلمه مثل طعنة. كان يضع مشاريع رفيعة له: سيكون شجاعاً، مسيحياً صالحاً ووفياً للملك، مثله مثل كل نبيل من آل دي لايفغا، وأغنى من أي من أقربائه، صاحب أراضٍ شاسعة وخصبة، بطقسها المعتدل ومياهها الوفيرة، حيث الطبيعة كريمة والحياة عذبة وليس كما في أراضي أهله الفقراء في إسبانيا. سيمك من قطعان البقر والأغنام والخنازير أكثر مما ملك الملك سليمان. سيربّي أفضل ثيران المصارعة وأكثر الخيول العربية أناقة وسيصبح أكثر الرجال تأثيراً في كاليفورنيا العليا، سيصبح حاكماً. لكن هذا سيكون لاحقاً، إذ عليه أن يستوي في الجامعة أو المدرسة العسكرية في إسبانيا. كان يأخذ بالحسبان أن أوروبا في عهد دييغو ستكون قد نهضت على قدميها. لم يكن من الممكن توقع السلام فهو لم يوجد قط في القارة القديمة، لكن من الممكن افتراض أن يكون الناس قد عادوا إلى العقل. كانت الأخبار مرعبة. هكذا كان يوضح لرخينا، لكنها لم تكن نشاطه تطلعاته لابنه ولا انشغالاته بمشاكل الطرف الآخر من البحر. لم يكن باستطاعتها أن تتصور العالم أبعد من الحدود التي يمكن أن تجوبها على جوارها. وأقل من ذلك أن تتأثر بالمسائل الفرنسية. كان زوجها قد حكى لها أنه في عام 1793، تماماً في العام الذي تزوجا فيه، قطعوا رأس الملك لويس السادس عشر في باريس



أمام مجموعة من الرعايا الذين هم من السار والذين هم من السار  
وهو قبطان باخرة صديق لألياندر، قد أهداه مقصلة مصفرة، لعبة  
مربعة يستخدمها في قص السيجار وشرح له بالمناسبة كيف كانت  
تطير رؤوس النبلاء الفرنسيين، مثل مريع يستطيع برأيه أن يفرق  
أوروبا في الفوضى المطلقة. بدت الفكرة بالنسبة إلى رخيننا مغرية،  
لأنها افترضت أنه لو امتلك الهنود آلة مثلها لها بهم البيض، لكنها  
كانت حسنة الذكاء فلم تشاطر زوجها هذه الأفكار. كانت توجد  
بينهما دوافع كافية للمرارة ولا يستحق الأمر إضافة مرارة أخرى.  
هي نفسها كانت تستغرب كم تغيرت، تنظر إلى نفسها في المرآة فلا  
تتمكن من العثور على أثر واحد من تويبورنيا، ولا ترى غير امرأة  
قاسية العينين، مزمومة الشفتين. لقد جعلتها الحاجة للعيش خارج  
جوها ولتفادي المشاكل حكيمة ومدارية ونادراً ما تصطدم مع  
زوجها وتفضل أن تتصرف من وراء ظهره. لم يكن يخطر ببال  
ألياندر أنها تكلم ابنها بلغتها، لذلك كانت دهشته مزعجة حين  
وجد أن كلمات دييغو الأولى كانت هندية. لو عرف أن زوجته كانت  
تستغل كل مرة يغيب فيها لتأخذه إلى قبيلة أمها لكان منعها.

حين كانت رخيننا تظهر في ضيعة الهنود ومعها دييغو  
وبرناردو تترك جدته البومة البيضاء أعمالها وتتفرغ للطفلين.  
كانت القبيلة قد تقلص عددها بسبب الأمراض القاتلة وتجنيد الإسبان  
للرجال. فلم يكذب يوجد أكثر من عشرين عائلة، هي في كل مرة أكثر  
فاقة. كانت الهندية تملأ رأس الطفلين بخرافات وأساطير شعبها  
وتنظف روحهما بدخان عشب المراعي الحلو المستخدم في  
شعائره، وتأخذهما لجمع النباتات السحرية. وما كادا ينتصبان  
بشبات على أقدامهما ويلتقطان عوداً، حتى جعلت الرجال يعلمونهما  
القتال. تعلمتا صيد الأسماك وشكها في العيدان المسنونة وصيد البر.  
وتلقيا مقابل ذلك جلد غزال كامل بما في ذلك الرأس والقرنين كي

أمام مجموعة من الرعاغ النهمين للثأر والدم. كان خوِسة دِيَاث، وهو قبطان باخرة صديق لألخاندرو، قد أهداه مقصلة مصغرة، لعبة مريعة يستخدمها في قصّ السيجار وشرح له بالمناسبة كيف كانت تطيرُ رؤوس النبلاء الفرنسيين، مثل مريع يستطيع برأيه أن يُفرق أوروبا في الفوضى المطلقة. بدت الفكرة بالنسبة إلى رِخينا مُغرية، لأنها افترضت أنه لو امتلك الهنود آلة مثلها لهايهم البيض، لكنها كانت حسنة الذكاء فلم تشاطر زوجها هذه الأفكار. كانت توجد بينهما دوافع كافية للمرارة ولا يستحق الأمر إضافة مرارة أخرى. هي نفسها كانت تستغرب كم تغيّرت، تنظر إلى نفسها في المرآة فلا تتمكن من العثور على أثر واحد من تويبورنيا، ولا ترى غير امرأة قاسية العينين، مزمومة الشفتين. لقد جعلتها الحاجة للعيش خارج جورها ولتفادي المشاكل حكيمة ومدارية ونادراً ما تصطدم مع زوجها وتفضل أن تتصرف من وراء ظهره. لم يكن يخطر ببال ألخاندرو أنها تكلم ابنها بلغتها، لذلك كانت دهشته مزعجة حين وجد أن كلمات ديبغو الأولى كانت هندية. لو عرف أن زوجته كانت تستغل كل مرة يغيب فيها لتأخذه إلى قبيلة أمها لكان منعها.

حين كانت رِخينا تظهر في ضيعة الهنود ومعها ديبغو وبرناردو تترك جدته البومة البيضاء أعمالها وتتفرغ للطفلين. كانت القبيلة قد تقلص عددها بسبب الأمراض القاتلة وتجنيد الإِسبان للرجال. فلم يكد يوجد أكثر من عشرين عائلة، هي في كل مرة أكثر فاقة. كانت الهندية تملأ رأس الطفلين بخرافات وأساطير شعبها وتُنظف روحهما بدخان عشب المراعي الحلو المُستخدم في شعائره، وتأخذهما لجمع النباتات السحرية. وما كادا ينتصبان بثبات على أقدامهما ويلتقطان عوداً، حتى جعلت الرجال يُعلمونهما القتال. تعلمتا صيد الأسماك وشكها في العيدان المسنونة وصيد البر. وتلقيا مقابل ذلك جلد غزال كامل بما في ذلك الرأس والقرنين كي

يغطيا به نفسيهما خلال الصيد. هكذا كانا يجذبان إليهما الغزلان، ينتظران بلا حراك إلى أن تقترب وعندئذ يُطلقان سهامهما. لقد جعل الغزو الإسباني الهنود طيِّعين، لكنَّ حضور تويبورنيا - رخيناً بينهم كان يجعل دمهم يغلي بذكرى حرب الشرف التي قادتها. والاحترام الذي كانوا يكتونونه لها تُرجم إلى ودِّ تجاه ديبغو وبرناردو. فقد كانوا يعتقدون أنَّهما ابناها.

البومة البيضاء هي التي حملت الصغيرين ليجوبا الكهوف القريبة من مزرعة د لايفغا وعلمتهما قراءة الرموز المحفورة منذ آلاف السنين على جدرانها وعلمتهما طريقة استخدامها كي يهتديا في داخلها. شرحت لهما أنَّ الكهوف مقسمة إلى سبعة اتجاهات مقدَّسة، وهي الخريطة الأساسية للأسفار الروحية؛ لذلك كان المبتدئون يذهبون في الأزمنة الغابرة إلى هناك بحثاً عن مركز نفوسهم، الذي يجب أن يلتقي بمركز العالم، حيثُ تتولد الحياة. أخبرتهم الجدة أنَّه حين يحدث هذا الاقتران، ينبثق نورٌ متوهجٌ من أعماق الأرض ويرقص في الهواء برهةً طويلةً، فيغمر المبتدئ بنور وحرارة خارقين. نبهتهما إلى أنَّ الكهوف معابد طبيعية وتحميها قوى سامية؛ ولذلك يجب ألا يدخلها أحد إلا بنية نظيفة.

- من يدخل بنوايا سيئة تبتلعه الكهوف حياً ثم تلفظ عظامه -  
قالت لهما.

وأضافت أنَّه تماماً وكما يأمر الروح الأعظم، إذا ما ساعد أحدُ الآخرين فإنَّ فضاءً ينفتح في جسده لينتقى المباركة، هذه هي الطريقة الوحيدة لتحضير المرء نفسه للأكاھو.

- كنَّا قبل وصول البيض نأتي إلى هذه الكهوف بحثاً عن الانسجام والوصول إلى الأكاھو، لكن ما عاد أحدُ يأتي الآن - حكّت لهما البومة البيضاء.

- وما هو الأكاھو - سأل ديبغو.

- الفضائل الخمس الجوهريّة: الشرف، والعدالة، والاحترام،  
والكرامة والشجاعة.

- أنا أريدها كلها، يا جدّتي.

- يتطلّب منك هذا أن تمرّ بامتحانات كثيرة دون أن تبكي - ردت  
البومة البيضاء بجفاف.

منذ ذلك اليوم راح ديبغو وبرناردو يسبران الكهوف وحيدين.  
وقبل أن يتمكنا من حفظ النقوش الحجرية للاهتداء، كما أشارت  
الجدّة، راحا يُعلّمان الطريق بالحصى ويخترعان شعائرهما  
الخاصّة مستلهمين ما سمعاه ورأياه في القبيلة وحكايات البومة  
البيضاء. وكانا يطلبان من الروح الأعظم ومن إله القسّ مندوثا أن  
يسمحا لهما بكسب ودّ الأكاھو، لكنهما لم يريا قط لهباً يظهر فجأة  
تلقائياً ويتراقص في الهواء، كما كانا يتوقّعان. بالمقابل قادهما  
الفضول عبر مشهد طبيعي وجداه مصادفةً حين حرّكا بعض  
الحجارة ليعلّما دائرةً سحريةً، كالتّي كانت ترسمها الجدّة، في  
الأرض: ستة وثلاثون حجراً تشكل محيط الدائرة وواحد في المركز  
الذي تخرج منه أربعة طرق مستقيمة. وحين اقتلعا حجراً دائرياً،  
فكّرا أن يضعاه في وسط الدولاب، هوى عدد منها مفسحاً المجال  
لرؤية مدخل صغير. زحف ديبغو، الأنحل والأرشق إلى الداخل  
واكتشف نفقاً طويلاً سرعان ما راح يكتسب عرضاً وارتفاعاً بحيث  
صار يسمح بالانتصاب على القدمين. عادا بشموع ومعاول ورفوش  
ووسعاه خلال الأسابيع اللاحقة. وذات يوم فتح رأس معول برناردو  
فتحة صغيرة تسرّب منها شعاع نور، وعندئذٍ أدرك الصغيران،  
مفتونين، أنهما صبا في مدخنة صالون مزرعة آل د لايفّا تماماً.  
لقات جنائزية من الساعة الكبيرة رحّبت بهما. بعد سنوات كثيرة  
علما أنّ رخيّنا كانت قد اقترحت نقل المنزل بالضبط لأنّه قريب من  
الكهوف المقدّسة.

ابتداءً من هذا الاكتشاف راح يدعُمان النفق بالوِج الخشب والصخور، لأنَّ جدران الصلصال عادة ما تتفتت، ثمَّ إليهما فتحة باباً صغيراً موارباً في آجر المدخنة كي يصل الكهوف بالمنزل. وكان الموقد من العلو والعرض والعمق بحيث يتسع لبقرة واقفة كما يليق بجلالة الصالون، الذي لم يكن يُستخدم قط للاحتفاء بالضيوف، لكنه كان من حينٍ لآخر يضم اجتماعات الجاندرو السياسية، المفروشات الخشنة وغير المريحة، مثلها مثل بقية أشياء المنزل، كانت ترتصف ملتصقة بالجدران، كما لو أنها معروضة للبيع، تجمع الغبار ورائحة زبدة الأمتعة القديمة الزنخة. أكثر ما كان ظاهراً للعيان لريحة زيتية لسان أنطونيو، وهو في شيخوخته هيكل عظمي، تُغطيه البثور والأسمال، يرفض إغواءات الشيطان، وهي واحدة من المشاهد اللامعقولة، التي أوصوا عليها إلى إسبانيا بالقدم المربع وتلقى تقديراً جذاً في كاليفورنيا. وعُرِضت في زاوية بارزة، حيث يمكن أن تُشاهد، العكاز وملابس العمدة، التي كان يرتديها صاحب المنزل في الاجتماعات الرسمية، التي كانت تتطرق للمسائل الكبرى، مثل رسم الشوارع، والصفري مثل الترخيص للحفلات الموسيقية الليلية، لأنَّه لو تُركت الأمور على هوى أبناء السادة العاشقين لما استطاع أحد النوم بسلام في القرية. كانت تتدلى فوق طاولة من خشب الإنغا ثرياً من الحديد بحجم شجرة أرز فيها مئة وخمسون شمعة لم تُمس، لأنَّه ما من أحد كان يملك الهمة لإنزال تلك الآلة الهائلة وإشعالها، والمرات القليلة التي كانت تُفتح فيها القاعة كانت تُشعل فيها قناديل الزيت. أيضاً لم تكن تُشعل المدخنة، على الرغم من أنها كانت دائماً مُجهَّزة بعددٍ من الجذوع الغليظة. اعتاد ديبغو وپرناردو على اختصار الطريق من الشاطئ إلى المنزل عبر الكهوف. كانا يستخدمان النفق السري كي يظهرَا مثل شبحين في تجويف المدخنة. وكانا قد أقسما بوقار الأطفال المنهمكين في لعبهما أنَّهما لن يشاركا الآخرين أبداً هذا السرَّ. كما أنَّهما تعهدا للبومة البيضاء ألا

يدخلا الكهوف إلا بمقاصد طيبة وليس للهو، لكن كل ما كانا يقومان  
به هناك كان بالنسبة إليهما جزءاً من التمرن على بلوغ حلم  
الأكاهو.

في المرحلة ذاتها التي كانت تنهك فيها البومة البيضاء في  
تغذية الجذور الأصلية للطفلين بدأ ألكساندرو يربّي ديفو كنبيل.  
حدث هذا في العام الذي وصل فيه الصندوقان اللذان أرسلتهما  
إيولاليا بكاليس هدية من أوروبا. كان الحاكم القديم، يدرو فاجس  
قد توفّي في المكسيك مصعوقاً بإحدى نوبات غضبه. سقط مثل كيس  
عند قدمي زوجته وسط مشاجرة فدمر عملية الهضم عندها للأبد،  
لأنها اتهمت نفسها بقتله. وبعد أن قضت إيولاليا حياتها تتشاجر  
معه، غرقت في أعظم حزن وهي ترى نفسها أرملة، لأنها انتبهت إلى  
مدى حاجتها إلى ذلك الزوج الحاسم. كانت تعرف أنه ما من أحد  
يمكن أن يحلّ محلّ ذلك الرجل الرائع، صائد الدببة والعسكري  
العظيم، الوحيد القادر على مواجهتها دون أن ينحني. الحنان الذي  
لم تشعر به تجاهه في حياته هبط عليها مثل وباء حين رآته في  
التابوت وبقي يُعذبها للأبد بذكريات حسنّها الزمن. اتبعت أخيراً، بعد  
أن تعبت من البكاء، نصيحة أصدقائها ومعرفها وعادت مع ابنها  
إلى برشلونة، مسقط رأسها، حيث كانت تعتمد على ثروتها وعلى  
أسرتها القويّة. كانت تتذكّر من حين لآخر رخيئا، التي كانت  
تعتبرها محميتها وتكتب لها على ورق مصري عليه شعارها  
العسكري مطبوعاً بالذهب. علموا في إحدى تلك الرسائل أنّ ابن  
الزوجين فاجس قد مات بالوباء تاركاً إيولاليا وقد ازدادت اكتئاباً.  
وصل الصندوقان مهروسين، لأنهما خرجا من برشلونة قبل سنين  
تقريباً وأبحرا في بحار كثيرة قبل أن يصلا إلى لوس أنجلوس. كان  
واحد منهما مليئاً بالملابس الفاخرة والأحذية ذات الكعب العالي  
والقبعات المريشة وترهات نادراً ما ملكت رخيئا الفرص

لاستخدامها. الآخر المخصص لأخيندرو د لايفغا، كان يحتوي على طبقة سوداء مبطنة بالحرير وأزرار ظليطلية من الفضة المشغولة. وبعض زجاجات أفضل نبيذ شيرشي إسباني، زوج من مسدسات المبارزة مطعمين بالصدف. شيش أيطالي ورسالة المبارزة بالشيش ومختصر المبارزة للمعلم مانول إسكالانت. وكان، كما كان يوضح في الصفحة الأولى، مختصراً «لآخر التعليمات حتى لا يتردد المرء أبداً حين يكون عليه أن يبارز بالسيف الإسباني أو بالشيش من أجل مسائل الشرف».

لم يكن باستطاعة إيولاليا أن ترسل هدية أكثر ملاءمة. فالجاندرو د لايفغا كان قد أمضى سنوات لم يتدرّب فيها على السيف، لكنّه وبفضل الكتاب التعليمي استطاع أن يحدث معارفه كي يعلم المبارزة لابنه الذي لم يكن يعرف بعد أن يُنظّف أنفه. أمر بصناعة شيش، وصدارة محشوة، وقناع صغير لدييغو، واعتاد، منذ تلك اللحظة، أن يتدرّب معه ساعتين يومياً. أظهر دييغو في المبارزة الموهبة الطبيعية ذاتها التي كانت له في جميع نشاطاته الرياضية، لكنّه لم يأخذها على محمل الجدّ كما كان يريد والده، فهي لم تكن بالنسبة إليه إلا لعبة أخرى من الألعاب الكثيرة التي كان يشارك فيها برناردو. كان هذا التواطؤ المتبادل بين الطفلين يشغل الجاندرو د لايفغا، فقد كان يعتبره ضعفاً في طبيعة ابنه، الذي أصبح في عمر يجعله مسؤولاً عن مصيره. كان يشعر بالعطف على برناردو ويميزه من بين هنود خدم المنزل، فهو في جميع الأحوال شهد ولادته، لكنّه لم يكن ينسى التمايزات التي تفصل بين الأشخاص. فلولا هذه التمايزات التي فرضها الله بهدف واضح، كان يؤكّد، لعمت الفوضى في هذا العالم. كانت فرنسا هي مثله المفضل، فقد انقلب فيها كل شيء رأساً على عقب بسبب الثورة البغيضة. ففي هذا البلد ما عاد يُعرف أحد من أحد، فالسلطة تمرّ من يد إلى يد مثل العملة. كان الجاندرو يدعو الله ألا يحدث شيء مشابه في إسبانيا. وعلى الرغم من تنالي ملوك غير أكفاء راح يغرق الإمبراطورية حكم موغل في

الخراب، إلا أنه لم يشك قط بشرعية الملكية الإلهية، تماماً كما لم يكن يشك قط بالنظام التراتبي الذي تربى عليه والتفوق المطلق لعرق وأمه ودينه. كان يرى أن ديفغو وبرناردو ولدا مختلفين ولن يتساويا أبداً، وأنهما كلما سارعا في إدراك ذلك كلما كانت مشاكلهما المستقبلية أقل، وقد توصل برناردو إلى هذا دون أن ينقب أحد به رأسه، لكن هذا موضوعاً كان يُبكي ديفغو حين يُذكره به والدته. واستمرت رخيناً، بعيداً عن مساندة زوجها في أهدافه التربوية، في معاملة برناردو كما لو أنه ابنها أيضاً. ففي قبيلتها ما من أحد كان أعلى مقاماً من آخر بالولادة، بل بالشجاعة أو المعرفة، وفي رأيها كان الوقت ما يزال مبكراً لمعرفة أي من الصبيين هو الأشجع أو الأعرف.

لم يكن ديفغو وبرناردو لينفصلا إلا ساعة النوم، عندما يذهب كل منهما للنوم مع أمه. كلاهما عضه الكلب ذاته، لسعه نحل الخلية ذاتها وأصابتهما في الوقت ذاته الحصبة ذاتها. وحين كان يقوم أحدهما بشيطة ما لا يجهد أحد نفسه في معرفة المرتكب، فيجبران على الركوع الواحد بجانب الآخر ويُجلدان الجلادات ذاتها على مؤخرتيهما، فيلقيان العقوبة دون أن ينبسا ببنت شفة لأنها تبدو لهما عقوبة أولية. كان الجميع، باستثناء ألياندر و لايفغا، يعتبرونهما أخوين، ليس لأنهما لم يكونا ينفصلان عن بعضهما بعضاً، بل لأنهما للوهلة الأولى يبدوان متشابهين. فالشمس دبغت جلديهما بلون الخشب ذاته، وأنا تخط لهما بنطلونات الخام ذاتها، ورخيناً تقص لهما شعرهما على طريقة الهنود. وكان يجب التمكن بدقة شديدة كي يرى المرء أن لبرناردو تقاسيم هندية نبيلة، بينما كان ديفغو طويلاً ونحياً، وله لون عيني أمه العسلي. تعلمنا في السنوات اللاحقة استخدام الشيش بحسب تعاليم المعلم إسكالانت المفيدة جداً، وركوب الخيل دون سرج، واستخدام السوط والحبل، والتدلي متعلقين بأقدامهما من طرف البيت كالخفافيش. وعلمهما الهنود الغوص في البحر لاقتلاع البحرديات عن الصخور وملاحقة



الفريسة أليماً حتى اصطيادها، وصناعة الأقواس والسهام وتحمل  
الأم والتعب دون شكوى.

كان الجاندرو يحملها معه إلى حظيرة الماشية لتعليمهما، كل  
واحد ومعه الرسن أو الحبل ذاته ليساعده في عمله. كان هذا هو  
العمل اليدوي الوحيد للنبييل وهو رياضة أكثر منه عمل. كان يجتمع  
سادة المنطقة مع أولادهم، ورعاة البقر والهنود يحيطون  
بالحيوانات، يعزلونها ويضعون لها العلامة، تُسجل بعدها في  
سجل، منعاً للسرقة والخلط. وكان أيضاً موسم الذبح، حيث يجب  
جمع الجلود وتمليح اللحم وتحضير الدهن. وكان الناجرون،  
الفرسان الحقيقيون القادرون على قتل ثور بوخزة في نقرته وهو  
في عز ركضه، ملوك الحظيرة، ويتم التعاقد معهم عادة لهذه المهمة  
قبل سنة من الموسم. كانوا يأتون من المكسيك ومن المروج  
الأمريكية بخيولهم المدربة وسيوفهم الطويلة ذات الحدين. فلا تكاد  
تقع الحيوانات حتى ينقض عليها السالخور ويسلخونها كاملة في  
دقائق قليلة، والقصابون المكلفون بنقطيع اللحم وأخيراً الهنديات،  
اللواتي كانت مهتمتهن المتواضعة جمع الشحم وتذويبه في قدور  
ضخمة ثم تخزينه في ظروف مصنوعة من المثلثات والأمعاء أو  
الجلود المخاطة. أيضاً كان من نصيبهن دبع الجلود وكشطها  
بالحجارة المسنونة بعمل لا ينتهي راكعات على ركبهن. كانت رائحة  
الدم تُثير جنون القطيع ولم يخل الأمر قط من جياح تسقط أمعاؤها  
وراعي بقر ديس أو مات بنطحة. كم كان مريعاً منظر آلاف الرؤوس  
تشخر متسابقة في جحيم من الغبار العالق في الهواء ومنظر رعاة  
البقر بقبعاتهم البيضاء ملتصقين بخيولهم وهم يلوحون بحبالهم  
فوق رؤوسها وسكاكينهم اللامعة على صدورهم، كم كان مريعاً  
سماع خبط القطيع للأرض بأظلاله، صيحات الرجال المنفعلين،  
صهيل الخيول، نباح الكلاب. كم كان مريعاً شم بخار زبد  
الحيوانات، عرق رعاة البقر، رائحة الهنديات الفاترة والسرية، التي  
تهيج الرجال للأبد.

وعند الانتهاء من موسم السباق، كانت القرية تحتفل بالعمل الذي أحسن إنجازَه في جَوْ من اللهو يدوم عدّة أيام، يُشارك فيها الفقراء والأغنياء، البيض والهنود، الشباب والقلّة القليلة من الرجال الموجودين في المستوطنة. وكان يفيض الطعام والشراب ويرقص الأزواج حتى يسقطوا فاقدين الوعي على إيقاع الموسيقيين القادمين من المكسيك، وكانت تتقاطع المراهنات في مصارعة الرجال والفئران والديكة والكلاب والديبة مع الثيران. في ليلة يمكن أن يخسر المرء ما ربحه في السباق وكان الاحتفال يُتَوَجَّح في اليوم الثالث بقَداسٍ للقسّ مندوثا، الذي كان يسوق السكرى إلى الكنيسة بهراوته ويجبر مغويي المعتنقات الهنديّات الجديدات على الزواج منهنّ والبندقية في يده، لأنّه خلص إلى أنّه بعد تسعة أشهر من كل موسم سباق تحدث فضيحة أبناء بلا آباء معروفين.

خلال سنة من القحط اضطرّوا لأن يذبحوا الخيول البريّة توفيراً للمرعى للماشية. رافق ديبغو رعاة البقر، لكنّ برناردو رفض لأوّل مرّة الذهب معه، لأنّه كان يعرف بماذا يتعلّق الأمر ولم يكن بمقدوره تحمّله. كانوا يحيطون بقطعان الخيول ويفزعونها بالبارود والكلاب، يلاحقونها بخيولهم ويسوقونها نحو الجرف حيث تهوي في هروب أعمى. كانت تسقط بالمئات، بعضها فوق بعض، فنتحطم أعناقها أو تتكسر أرجلها في عمق الهوة. أحسنها حظاً كان يموت بالضرب بينما يستمرّ احتضار غيرها أياماً تطوها سحابة من الذباب و تنتن اللحم المتفسّخ الذي يجذب الديبة والنسور.

كان ديبغو يذهب مرّتين في الأسبوع إلى بعثة سان غابرييل ليتلقّى من الأب مندوثا مبادئه المدرسية. وكان برناردو يرافقه دائماً إلى أن انتهى المبشّر بقبوله في الصف، على الرغم من أنّه كان يعتبر أنّ تربية الهنود غير ضرورية، بل إنّ تعليمهم الزائد عن الحدّ أمر خطير، لأنّه يزرع في عقولهم أفكاراً جريئة. لم يكن برناردو يملك

سرعة البديهة التي يملكها ديفغو فيبقى متخلفاً عنه، لكنه كان عنيداً  
فلا يتراجع حتى ولو قضى الليل يحرق أهدابه على ضوء الشموع.  
كان ذا طبيعة انطوائية وهادئة تتناقض مع مرح ديفغو الانفجاري،  
وكان يُساعد صديقه بإخلاص لا يقبل الجدل في جميع أفعاله السيئة  
التي تخطر بباله، وإذا ما وقعت الواقعة ينصاع، دون تهويل، للعقوبة  
على شيء لم تكن فكرته له بل فكرة ديفغو، الذي منذ أن صار  
بإستطاعته أن ينتصب على رجليه أخذ على عاتقه حماية أخيه  
بالرضاعة، والذي كان يعتبر أنه مقدر له أن يقوم بمآثر عظيمة، مثل  
أبطال قصص البومة البيضاء الأسطورية.

ديفغو، الذي كان يشكّل التزام الهدوء والبقاء خلف الأبواب  
عذاباً له، كان يتدبّر أمره ليتملص من وصاية القس مندوثا  
والخروج إلى الهواء الطلق، فالدروس ما إن تدخل من أذن حتى  
يتلوها بسرعة عن ظهر قلب قبل أن تخرج من الأذن الأخرى،  
فإستطاع أن يخدع القس مندوثا بشطارته، لكن كان عليه أن يُعلمها  
حرفاً فحرفاً لبرناردو، وهكذا ومن محض تكرارها كان ينتهي إلى  
تعلّمها. كان مصراً على اللعب إصرار برناردو على الدراسة. وبعد  
كثير من الأخذ والرد توصّلا إلى اتفاق يقضي بأن يُعلم برناردو  
مقابل أن يمارس هذا الأخير رياضة الحبل والسوط والسيف معه.

- لا أرى مبرراً لأن نجهد أنفسنا في تعلّم أشياء لن تفيدنا في  
شيء - أعلن ديفغو ذات يوم قضيماً فيه ساعات في تكرار الدرس  
نفسه باللاتينية.

- عاجلاً أو آجلاً كل شيء يفيد - ردّ برناردو - إنه مثل السيف.  
لن أصبح قط فارساً في الجيش، لكن ليس من الزائد تعلّم استخدام  
السيف.

قليلون هم الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة في كاليفورنيا  
العليا، ما عدا المبشرين، فهم على الأقل رغم كونهم أغفاناً، لأن  
غالبيتهم كانوا ريفيين، يملكون مسحة ثقافية. لم تكن الكتب

متوافرة، وفي المناسبات المعدودة التي كانت تصل فيها رسائل  
كانت بالتأكيد تحمل أخباراً سيئة، وبالتالي لم يكن مستلمها يستعجل  
حملها إلى راهب كي يفك له رموزها. لكنَّ أَلْخَانْدَرُو دِ لَابِغَا كان  
يملك حنكة التعليم وناضل سنوات طويلة كي يأتي بمعلم من  
المكسيك. كانت لوس أنجلوس آنذاك أكثر بقليل من الشوارع الأربعة  
التي رآها تولد، فقد تحوّلت إلى ممرٍ إجباري للمسافرين وإلى مكان  
للراحة بالنسبة إلى بخّارة السفن التجارية وإلى مركز تجاري  
بالنسبة للمقاطعة. فمونتيري بعيدة إلى حدٍّ أن معظم قضايا الحكومة  
كانت تُحلّ في لوس أنجلوس.

بالإضافة إلى السلطات والضباط العسكريين كان السكان  
مزيجاً، وكانوا يطالبون بمناذاتهم بأهل العقل لتمييزهم عن الهنود  
الخالصين والخدم. كان الإسبان من أصحاب النسب يُشكّلون طبقة  
منفردة. وكانت البلدة قد أصبحت تملك ساحة لمصارعة الثيران  
وماخوراً متألّفاً مؤلفاً من المولّدات المشكوك بفضيلتهنّ وخلاسية  
ثرية من بنما سعرها ثابت ومرتفع بما يكفي. وكان هناك بناء  
خاص لاجتماعات العمدة ونواب مجلس البلدة، يلعب دور المحكمة  
والمسرح، حيث كانت تُقدّم الثرثولات والمسرحيات الأخلاقية  
والاحتفالات الوطنية. وأُشيد في ساحة السلاح سقيفة للموسيقيين،  
الذين كانوا يحيون الأماسي ساعة المشوار، حين كان الشباب  
العازبين من كلا الجنسين، المراقبين من آبائهم، يتألقون  
مجموعاتٍ، الفتيات باتجاه والفتيان باتجاه آخر. بالمقابل لم يكن  
هناك فندق بعد، في الحقيقة استغرق الفندق الأول عشر سنوات حتى  
شُيّد، وكان المسافرون يبيتون في بيوت الأغنياء، التي لم تكن تخلو  
من الأطعمة والأسرة لاستقبال من يطلبون الاستضافة. ونظراً لكل  
ذلك التقدّم، رأى أَلْخَانْدَرُو دِ لَابِغَا أن من الضروري وجود مدرسة  
في البلدة، حتى ولو لم يُشاركه همّه أحد. وتمكّن وحده بهمته وماله  
من تأسيس المدرسة الأولى في المقاطعة، التي ستبقى لسنوات طويلة  
المدرسة الوحيدة.

فتحت المدرسة أبوابها تماماً عندما أتم ديفغو التاسعة من عمره وأعلن القس مندوثا أنه علمه كل ما كان يعرفه، باستثناء ترتيل الصلاة وطرد الشياطين. كانت عنبراً مظلماً ومغبراً مثل السجن الموجود في زاوية من الساحة الرئيسية، مزودة بعدد من المقاعد الحديدية وسوطٍ من سبعة أذيال معلق بجانب السبورة. وحدث أن المعلم كان من أولئك الرجال التافهين، الذين يحولهم أدنى نوع من السلطة إلى كائنات وحشية قاسية. من سوء حظ ديفغو أنه كان أحد أوائل تلامذته إلى جانب حفنة من الأطفال الذكور، براعم العائلات المحترمة في البلدة. لم يستطع برناردو دخول المدرسة، على الرغم من توسل ديفغو لوالده أن يسمح له بالدراسة معه. بدا طموح برناردو لأليخاندرو د لايفغا يستحق الإطراء، لكنه قرّر أنه لا يمكن أن يستثني أحداً، لأنه لو قبل لوجب عليه قبول آخرين مثله، والمعلم كان قد أعلن، بوضوح وجلاء قراره بالرحيل إذا ما أطل هندی بأنفه على «مركز معرفته المحترم»، كما كان يُسميه. وكانت الحاجة إلى تعليم برناردو أكثر من سوط الأذيال السبعة، قد دفعت ديفغو إلى إيلاء الدروس انتباهاً أكبر.

كان بين التلاميذ غارثيا، ابن جندي إسباني وصاحبة الحانة، وكان طفلاً من دون لمعة، بديناً، مسطح القدمين وله ابتسامة بلهاء، وكان الضحية المفضلة للمعلم ولبقية التلاميذ، الذين كانوا يُعذبونه بلا هوادة، فتحول ديفغو إلى حامٍ له برغبة بالعدالة لم يستطع هو نفسه أن يفسرها، فنال بذلك إعجاب البدين.

مرّت السنون على القس مندوثا منشغلاً بزراعة الأرض ورعاية الماشية وتنصير الهنود دون أن يصلح سقف الكنيسة، الذي تضرر خلال هجوم تويبورنيا. في تلك المناسبة قطعوا الطريق على الهنود بتفجيرهم بالبارود الذي هزّ البناء في الصميم. وحين كان يرفع القربان ليباركه في القداس، كانت نظرتة تستقرّ لا محالة على

العضائد المزعزعة فيعاهد نفسه مذعوراً بأصلاحها قبل أن تنهار  
فوق رؤوس رعاياه القليلين، لكن كان عليه قبل ذلك أن يهتمّ بأمور  
أخرى وينسى ما نواه حتى القدّاس التالي. خلال ذلك راح دور  
الثرميت يلتهم الخشب وأخيراً وقع الحادث الذي طالما كان يخشى  
القسّ مندوثا وقوعه. من حسن الحظّ أنّه لم يقع والمكان مليء  
بالناس، فلو حدث ذلك لكان كارثة، بل وقع في أثناء هزّة من الهزّات  
الكثيرة التي تضرب المنطقة، فلشيء ما كان يُسمّى النهر باسم يسوع  
الهزّات. سقط السقف على رأس ضحيّة واحدة، القسّ ألبّيار، الرجل  
القدّيس الذي جاء من البيروكي يتعرّف على بعثة سان غابرييل. شدّ  
دويّ الإنهيار وسحابة الغبار المعتنقون الجدد الذين هرعوا  
راكضين وشرعوا على الفور إلى رفع الأنقاض ليخرجوا من تحتها  
الزائر عائر الحظّ. عثروا عليه متقوقاً مثل صرصور تحت العضادة  
الكبرى. بكلّ منطق كان يجب أن يكون قد مات، لأنهم قضوا قسماً  
جيّداً من الليل في إنقاذه، والرجل ينزف بلا توقف، لكنّ الله جاء  
بمعجزة، كما وضّح القسّ مندوثا، حين أخرجوه أخيراً من بين  
الأنقاض، فقد كان يتنفس. كفى القسّ مندوثا أن يُلقي نظرة واحدة  
حتى ينتبه إلى أنّ معلوماته الطبيّة القليلة لن تستطيع إنقاذ الجريح،  
مهما ساعدته القدرة الإلهية. ومن ثمّ ودون أي تأخير أرسل أحد  
المعتنقين الجدد مع جوادين لإحضار البومة البيضاء. وكان خلال  
تلك السنوات قد تأكّد من أنّ احترام الهنود لتلك المرأة مبرّر تماماً.

بالمصادفة وصل ديبغو وبرناردو إلى البعثة في اليوم التالي  
لوقوع الزلزال وهما يقودان بعض الجياد الأصيلة التي أرسلها  
أليخاندرو د لايفغا هديّة للمبشّرين. وبما أنّ أحداً لم يخرج  
لاستقبالهما ولا لشكرهما لأنّ الجميع كانوا منهمكين في رفع  
أنقاض الزلزال ومشغولين باحتضار القسّ ألبّيار، فقد ربط  
الصغيران الأحصنة وراحا يُشاركان في المشهد المُستجد. وهكذا  
كان أنّ شهدا وصول البومة البيضاء أخيراً خابّة خلف المعتنق  
الجديد الذي ذهب في طلبها. على الرغم من أنّ أخاديد جديدة قد

شقت وجهها وأن شعرها صار أكثر بياضاً، إلا أنها لم تتغير خلال هذه السنوات، فقد كانت المرأة القويّة الشابّة ذاتها التي جاءت قبل عشر سنوات إلى مزرعة د لا بغا لتُنقذ رخيماً من الموت. وهذه المرّة جاءت بمهمّة مُشابهة وأحضرت في كيسها النباتات الطبيّة أيضاً. وبما أنّ الهندية رفضت تعلّم القشتالية وكانت كلمات القسّ مندوثا في لغتها قليلة جداً، عرض ديبغو نفسه للقيام بالترجمة. وضعوا المريض في غرفة الطعام على طاولة العيدان التي لم تُصقل وتجمّع حوله سكان سان غابرييل. فحصت البومة البيضاء بتمغن الجراح، التي كان القسّ مندوثا قد ضمّدها، ولم يجرؤ على خياطتها لأنّ العظام كانت مهروسة تحتها. فحصت الطبيبة الشعبيّة بأصابعها المجربّة كامل الجسد ووضعت قائمةً بالعمليات التي عليهم القيام بها.

- قلّ للأبيض أنّ كلّ شيء له حل باستثناء الساق، التي لا علاج لها. سأقطعها أولاً وبعدها أشتغل بالباقي - أعلنت لحفيدها.

ترجم ديبغو دون أن ينتبه إلى خفض صوته، لأنّ القسّ ألبّار كان في جميع الأحوال شبه ميت، لكنّه لم يكذب يكرّر تشخيص جدّته، حتى فتح المحتضّر عينيه الناريّتين على مصراعيهما.

- اللعنة، أفضل أن أموت وأرتاح - قال بكلّ يقين.

تجاهلته البومة البيضاء، بينما راح القسّ مندوثا يفتح فم الرجل المسكين بالقوّة، كما كان يفعل مع الأطفال الذين يرفضون تناول الحليب فيدخل في أفواههم قمعته الشهير. وهناك سكبوا له ملعقتين من شراب كثيف، صدئ اللون أخرجته البومة البيضاء من كيسها. وفي الوقت الذي استغرقوه في غسل منشار الخشب بمحلول القلي وتحضير بعض الخرق للتضميد، غرق القسّ ألبّار في نوم عميق، استيقظ منه بعد عشر ساعات، رائقاً وهادئاً، بعد برهة من توقّف جدّة ساقه عن النزيف. كانت البومة البيضاء قد رفأت بقية جسده بعشرات القطب وكفنته بنسيج عنكبوت ومراهم غامضة

وضمادات. من جهته أعدَّ اقسُسٌ مندوثا المعتنقات الجديديات كي يتناوبن على الصلاة ليلاً ونهاراً، دون توقُّف كي يتعافى المريض أعطت الطريقة أكلها. وبعكس كلِّ التوقُّعات تعافى اقسُسُ البئار بسرعة كافية حتى أنه استطاع أن يعودَ إلى البيرو في السفينة محمولاً على سرير يدوي.

لن ينسى برناردو أبداً الذعر الذي أصابه به مشهد ساق الأرباب المقطوعة، كما لن ينسى ديبغو أبداً القوَّة الهائلة لشراب جنته. تردَّد عليها في الأشهر التالية كثيراً في ضيعتها ليتوسَّلها أن تكشف له سرَّ ذلك المغلي، لكنَّها رفضت المرَّة تلو الأخرى، بذريعة منطقيَّة هي أن دواءً سحرياً كهذا يجب ألا يقع في يد صبيِّ شقي، سيستخدمه بالتأكيد لأغراض شريرة. وباندفاع مثل الكثير منها التي سيدفع ثمنها صفعات، سرق ديبغو قرعةً من إكسير النوم، آخذاً على نفسه عهداً ألا يستخدمه لقطع أعضاء بشرية، بل لهدف نبيل، لكن ما إن أصبح الكنز بين يديه حتى راح يضع صيغاً للاستفادة منه. وجاءته الفرصة ذات ظهيرة حارَّة من حزيران كان عائداً فيها من السباحة مع برناردو، الرياضة الوحيدة التي كان يتفوق فيها هذا عليه كثيراً، لأنَّه كان أكثر مقاومة وهدوءاً وقوَّة. وبينما كان نفس ديبغو ينقطع وهو يخبط بذراعيه ملفوفاً الأمواج، كان برناردو يحافظ لساعات على إيقاع نفسه الهادئ وذراعيه، تاركاً تيارات قاع البحر الغامضة تحمله. وإذا ما وصلت الدلافين سرعان ما تحيط ببرناردو، تماماً كما كانت تفعل الخيول، بما فيها غير المروضة. حين لم يكن باستطاعة أحدٍ أن يقترب من مهرٍ شرسي، كان هو يقترب منه بحذر، يلصق وجهه بأذنه ويهمس له بكلماتٍ سحرية، حتى يُلينته. لم يكن في المنطقة من يروِّض مهراً بسرعة ذلك الصبيِّ الهندي ولا أفضل منه. في ذلك المساء سمعوا من بعيد صرخات غارثيا المذعورة، يُعذبه من جديد أشقياء المدرسة. كانوا خمسة يقودهم كارلوس الكاثار، أكبر



الطلاب وأكثرهم رهبةً. كانت قدرته العقلية قدرة قملة، لكنها كانت تكفيه كي يبتدع طرقاً وحشية هي دائماً جديدةً. كانوا قد عرّوا هذه المرة غارثيا وربطوه إلى شجرة ودهنوه من أعلاه إلى أدناه بالعسل. كان غارثيا يصرخ ملء رئتيه، بينما جلاذوه الخمسة يتأملون مفتونين سحابة الذباب وصفوف النمل التي بدأت تُهاجمه. قدّر ديفغو وبرناردو الظروف بسرعة وأدركا أنّ الميزان دون شكّ يميل لصالح الآخرين. لا يستطيعان أن يصارعا كارلوس وأتباعه، كما أنّه لم يكن من الممكن أن يذهبا بحثاً عن مساعدة، لأنّهما سيُعدّان جبانين. اقترب ديفغو منهم مبتسماً، بينما برناردو خلفه يشدّ على أسنانه وقبضتيه.

- ماذا تفعلون؟ - سأل كما لو أنّ الأمر لم يكن جلياً.

- لا شيء يعنك، أيها الأبله، إلا إذا كنت تُريد أن تنتهي نهاية غارثيا - ردّ كارلوس، ترافقه قهقهات عصابته.

- لا يهمني أبداً، لكنني كنتُ أفكر أن أستخدم هذا البدين طعاماً للديبة. سيكون من المؤسف أن يُضَيّع هذا الشحم الجيّد على النمل - قال ديفغو بلا مبالاة.

- دَبّ؟ - دمدم كارلوس.

تبادل الفتية الرأي همساً، بينما غارثيا يتصبّب جليداً وبرناردو يحكّ رأسه، مُقدِّراً أن ديفغو لن يسيطر هذه المرة على يده. فالطريقة المعتادة في صيد الديبة حيّة هي نفسها المستخدمة في مصارعة الثيران، تتطلب قوّة ومهارةً وأحصنة جيّدة. يدفع عدد من الفرسان المجربين بالحيوان باتجاه القناصة فيربطونه بالخيول بينما يمضي أمامه ويستقرّه راعي بقرٍ يُستخدم طعاماً. وهكذا يسوقونه إلى حظيرة، لكنّ التسلية كان ثمنها غالياً، لأنّ باستطاعة الدبّ أحياناً أن يجري بسرعة أكبر من أيّ حصان، ويتمكّن من الإفلات وينقضّ على أقربهم منه.

- من سيساعدك؟ - سأل كارلوس.

- برناردو.

- هذا الهندي البهيمية؟

- ما دام غارثيا هو الطعم نستطيع أنا وبرناردو أن نقوم بذلك

وحدنا - قال ديبغو.

أنجز الاتفاق خلال دقيقتين وذهب عديمو الضمير، بينما راح

ديبغو وبرناردو يفكّان غارثيا ويساعدانه على غسل العسل

والمخاط في النهر.

- كيف سنصطاد دباً حياً؟ - سأل برناردو.

- حتى الآن لا أدري، عليّ أن أفكر بالأمر - ردّ ديبغو فلم ينتب

أخاه شكّ بأنّه سيجد الحلّ.

انقضت بقية الأسبوع في تحضير العناصر الضرورية للعفرت

التي سيقومان بها. العثور على الدب كان أقلّ الأمور أهمية، فهي

كانت تجتمع بالعشرات في الأماكن التي يذبحون فيها الماشية،

مشدودة برائحة اللحم، لكنهم لا يستطيعون أن يواجهوا أكثر من

واحد، خاصة إذا كانت أنثى ومعها صغارها. كان عليهم أن يعثروا

على دبّ وحيد، وهذا أيضاً لم يكن أمراً سهلاً، لأنها تكثر في

الصيف. أعلن غارثيا أنّه مريض فلم يخرج من بيته لعدة أيام، لكنّ

ديبغو وبرناردو أجبراه على مرافقتهما بالذريعة الدامغة القائلة بأنّه

إذا لم يفعل سينتهي من جديد إلى أيدي الكريه كارلوس الكاثار. كان

ديبغو يقول له مازحاً إنّه فعلاً سيستخدمه طعماً، لكنّه حين رأى

ركبتي غارثيا تنحلان أشفق عليه وجعله شريكاً في الخطّة التي

رسمها مع برناردو.

أخبر الصبية الثلاثة أمهاتهم أنّهم سيقضون الليلة في البعثة،

حيث يحتفل القسّ مندوثا، كما في كلّ عام، بعيد سان خوان. ذهبوا

باكراً في عربة يجرها بغلان عجوزان، مزودين برسنيهما. كان

غارثيا يمضي ميتاً من الخوف وبرناردو مغموماً ودييغو صافراً.  
وما إن خلفوا بيت المزرعة وراءهم وخرجوا عن الطريق الرئيسي  
حتى دخلوا في طريق أستياس، الذي كان يظنه الهنود مسحوراً. عمر  
البغلين ووعورة الأرض أجبرتهم على التقدّم باعتدال وهذا ما  
منحهم الوقت كي يهتدوا بالآثار على الأرض وبالخدوش على  
جذوع الأشجار. وصلوا إلى منشرة أليخاندرو دي لابغا التي كانت تمتد  
البلدة بالخشب لإصلاح البيوت والسفن، حين أنذرهم نهيق البغلين  
المذعورين بوجود دب. كان الحطّابون قد ذهبوا إلى عيد سان خوان  
ولا تُشاهد نفس واحدة في المنطقة، لا شيء غير المناشير  
والفؤوس المهجورة، أكداس الجذوع حول بناء خشن من الألواح.  
فكّوا البغلين وحملوهما جرّاً إلى العنبر لحمايتهما، راح بعدها  
دييغو وبرناردو ينصبان أفخاخهما، بينما غارثيا يراقب على  
مسافة قصيرة من الملجأ، وكان قد حمل معه عصرونية وفيرة، وبما  
أنّ أعصابه كانت تُسبّب له الجوع فإنه لم ينقطع عن المضغ منذ  
خرجوا في الصباح. راقب، متحصّناً في مخبئه، الآخرين، اللذين  
مرا حبالاً فوق أغلظ الأغصان لشجرتين، وضعا الحبال كما رأيا  
رعاة البقر يفعلون ووضعوا بأفضل طريقة بعض الأغصان المغطاة  
بجلد الوعل، الذي يستخدمانه حين يخرجان للصيد مع الهنود.  
وضعا تحت الجلد لحم أرنب طازجاً وكرة مشبعة بالشراب المنوم.  
بعدها جريا باتجاه العنبر ليشاطرا غارثيا عصرونيته.

كان الرفاق قد استعدّوا لقضاء يومين هناك، لكنّ الأمر لم  
يستلزم كلّ هذا الوقت، لأنّه بعد ذلك بقليل ظهر الدب، الذي أعلن عنه  
نهيق البغال. كان ذكراً عجوزاً ضخماً إلى حدّ كافٍ. كان يتقدّم مثل  
كتلة مرتجة من الشحم والجلد الداكن، مترنحاً من جانب إلى آخر  
برشاقة وظرافة غير متوقّعتين. لم يسمح الصبية لمظهر الفضول  
الوديّع عند البهيمة أن يخدعهم، فهم كانوا يعرفون ما هو قادر على  
فعله، ودعوا الله ألا تحمل النسمة الرائحة الآدمية ورائحة البغال  
إليه. إذا ما هجم الدب على العنبر فالباب لا يُقاوم. حام الحيوان

برناردو انتم

هو الضمير  
ه على غسل

- ردّ دييغو

الضرورية  
الأمر أهميةحون فيها  
يواجهواان عليهم أن  
بأ، لأنها

يته لعدة أيام

الدامغة القاتلة

لوس الكاثار

أ، لكنّه حين

أ في الخطّة  
الليلة في  
ان خوان  
برسنيهما

عدة مرات في المنطقة وفجأة رأى ما بدا وعلاً جامداً. نهض على  
ساقيه ورفع يديه وعندها استطاع الأطفال أن يروه كاملاً، كان  
الأمر يتعلق بدب عملاق بطول ثمانية أقدام. أطلق زمجرة حانقة،  
ضرب بيديه ضربات مُهدّدة وانقضّ على الفور بثقله الهائل على  
الجلد ساحقاً الفخ الواهن الذي كان يحمله. رأى نفسه مضغوضاً  
على الأرض لا يعرف ماذا جرى، لكنه سرعان ما استفاق ونهض.  
وعاد ليهاجم الوعل المزيف بمخالبه ويكتشف اللحم المخبأ تحته  
ويلتهمه بكدمتين. مرّق الجلد باحثاً عن طعام يقبّته أكثر، وحين لم  
يجده عاد وانتصب على ساقيه الخلفيتين مرتبكاً. تقدّم خطوة وداس  
الحبلين من وسطهما ففعل الفخّ. وفي لحظة انشدّ الحبلان وبقي  
الدب عالقاً متدلياً برأسه إلى الأسفل بين الشجرتين. احتقل الصبية  
بالانتصار القصير صارخين، لأنّ وزن الحيوان الذي ترنّح في  
الهواء حطّم الأغصان. لاذ ديفغو وبرناردو وغارثيا مذعورين  
بالعنبر مع البغال، باحثين عن شيء يداقعون به عن أنفسهم، بينما  
الدبّ في الخارج مطروحاً على الأرض، يحاول أن يخلّص ساقه  
اليمنى من الحبل، الذي ما زال يربطه إلى أحد الغصنين، مجاهداً  
برهة طويلة وهو في كلّ مرّة أكثر هياجاً وغضباً، وبما أنّه لم  
يستطع الإفلات تقدّم جازاً الغصن.

- والآن؟ - سأل برناردو بهدوء مزيف.

- الآن ننتظر - ردّ ديفغو.

حين لاحظ وجود شيء ساخن بين ساقيه ورأى بقعة تنتشر في  
بنطلونه فقد غارثيا عقله وراح يصرخ من أعماق نفسه. انقضّ عليه  
برناردو وأغلق فمه، لكنّ كان قد فات الأوان. لقد سمعهم الدبّ.  
استدار نحو العنبر وخبط الباب بيديه عدّة خبطات، هاراً بهذه  
الطريقة البناء الهشّ، بحيث تداعت بعض الألواح من السقف. في  
الداخل كان ديفغو ينتظر أمام الباب وسوطه في يده وبرناردو يهزّ  
قضيباً حديدياً وجده في العنبر. من حسن حظهم أنّ البهيمة كان

منهكاً من السقطة عن الشجرة ومنزعجاً من الغصن المربوط إلى ساقه. خبط الباب خبطة أخيرة، دون حماس شديد وابتعد متعثراً باتجاه الغابة، لكنه لم يصل بعيداً، لأن الغصن علق بين جذعين من جذوع المنشرة، فتوقف متجمداً. لم يكن باستطاعة الصبية رؤيته، لكنهم سمعوا زمجراته البائسة برهةً طويلةً إلى أن راحت تتباعد متحوّلة إلى أنينٍ إزعاجٍ وتوقفت نهائياً.

- والآن؟ - عاد برناردو ليسأل.

- الآن يجب وضعه في العربة - أعلن ديفغو.

- هل أنت مجنون؟ لا نستطيع أن نخرج من هنا! - صاح غارثيا، وقد تعفّر بنظونه وبتن.

- لا أدري كم سيبقى نائماً. إنه ضخم جداً وأعتقد أن جرعة منوم جدتي معدة لحجم رجل. علينا أن نفعل ذلك سريعاً، لأنه لو استيقظ لفرمنا - أمر ديفغو.

تبعه برناردو دون أن يطلب مزيداً من التوضيحات، كما كان يفعل دائماً، لكن غارثيا تخلف منكمشاً في بركة قذاراته ذاتها يئن بالقليل مما تبقى لديه من نفس. وجدوا الدب على ملقى ظهره، تماماً كما سقط بفعل المخدر، على مسافة قصيرة من العنبر. كانت خطة ديفغو تقتضي أن يبقى الدب نائماً معلقاً بالمصيدة إلى الشجرتين، كي يتمكنوا من وضع العربة تحته وتركه يسقط فيها. والآن عليهم أن يرفعوا العملاق إلى العربة. تحسّسوه بالعصا عن بعد وبما أنه لم يتحرك، تجرّؤوا على الاقتراب منه. كان أكبر سناً مما توقّعوا: كان ينقص إحدى يديه مخلبان، وعنده عدد من الأسنان المكسورة، كان هناك بقع بلا شعر وندوب قديمة. صفعهم نفسُه النتن في وجوههم، لكنه لم يكن شيئاً يدفعهم للتراجع، شرعوا بربط فرطوسه وسيقانه الأربع بالحبال. ارتجلوا في البداية جيطات، ما كانت لتفيدهم لو استيقظ الوحش، لكن حين تأكّدوا من أنه كان كالमित سرّعوا عملهم.

وما أن ثبتوا الدب، حتى ذهبوا في طلب البغال المسكينة، المشلولة  
ذعراً. استخدم برناردو معها الهمس في الأذن كما كان يفعل مع  
الخيول الهائجة فاستجابت له. اقترب غارثيا بحذر، بعد أن تأكّد من  
أن شخير الدب كان صحيحاً، لكنه كان يرتعد ورائحته كريهة إلى حدّ  
أنهما أرسلاه كي يغتسل ويغسل البنطلون في الجدول. استخدم  
برناردو ودييفو الطريقة المعتادة من قبل رعاة البقر لرفع البراميل:  
ثبّتا حبلين في طرف العربة المائلة ومرّاهما من تحت الحيوان، ثم  
من فوقه بالاتجاه المعاكس، ثم ربطا طرفيهما إلى البغلين  
وجعلاهما يجرّانه. في المحاولة الثانية تمكّنا من جعله يتدحرج  
وهكذا رفعوه شيئاً فشيئاً إلى العربة. انقطع نفسيهما من الجهد  
الوحشي، لكنهما نجحا في مقصدهما. تعانقا قافزين قفزات  
مجانين، فخورين كما لم يكونا قط. علّقا البغال إلى العربة واستعدا  
للعودة إلى القرية، لكنّ ديفو أحضر قبل ذلك مرطباناً من القطران  
حصل عليه من مستودعات النفط بالقرب من منزله وألصق به قبعة  
مكسيكية على رأس الدب. كانا منهكين، مبلّلين بالعرق ومشبعين  
برائحة الوحش الكريهة، بالمقابل تحوّل غارثيا إلى كتلة من  
الأعصاب، لا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه وما زالت نفوح منه  
رائحة البول وثيابه مبلّلة. كانت المهمة قد استهلكت منهم قسماً كبيراً  
من المساء، لكنهم حين ساقوا البغال في طريق لاس أستياس كان  
ما يزال أمامهم ساعتين أو أكثر من الضوء. سرّعوا سيرهم وتمكنوا  
من الوصول إلى الطريق الملكي تماماً قبل أن ينسدل الظلام. ومن  
هناك تابعت البغال المنهكة طريقها بألغريزة بينما الدب يشخر في  
سجن الحبال. كان قد أفاق من الخبل الذي سببه مخدر اليوم  
البيضاء، لكنه بقي مشوّشاً.

حين دخلوا إلى لوس أنجلوس كان الليل مُطبقاً. وعلى ضوء  
بعض قناديل الزيت، أفلتوا قائمتي الحيوان الخلفيتين، وأبقوا على  
القائمتين الأماميتين والفرطوس مكبّلة وزحزحوه حتى ارتمى  
خارج العربة وانتصب على أقدامه، دائخاً، لكنه على حالة من

منهم من يهتم بالمسألة...  
أقرب المساهدين...  
على ساقين و...  
من الخلف...  
في مسامع الفتية...  
في مظهرهم...  
تهورهم...  
أن استطاع...  
أن يُعتم على...  
مائدة الدب، المبالغ...  
من لم إلى فم وعبرت مع...  
لنصافه ووصلت حتى...  
لطفة التي كالتها لهم...  
لب الأبطال، سكتوا جيداً...  
السوم، بقي صيدهم...  
لنصرايين عدّة أيام،...  
بصرعه، لكنّ ديفو...  
مراعاة في الليلة السابقة...  
في تشرين الثاني،...  
لمجم الفراصنة البلدة...  
تشرين من الشاطئ...  
بحيرة بأربعة عشر...  
الخيرية، ضالة عبر...  
كليفورنيا العليا، كما...  
لريكا، المخصّصة...  
على جوارب...

الهيجان. بدوأوا يصيحون بأعلى أصواتهم وسرعان ما أطل بعض  
الناس من بيوتهم بالقناديل والمشاعل. امتلأ الشارع بالفضوليين  
يتأملون أغرب المشاهد: ديفغو د لايفغا يتقدم شاداً بحبل دباباً هائل  
الحجم، يترنح على ساقين وعلى رأسه قبعة، بينما برناردو وغارثيا  
ينخسانه من الخلف. التصفيق والهتافات المحيية ستبقى تدوي  
أسابيع في مسامع الفتية الثلاثة. بعدها ملكوا الوقت الكافي كي  
يقدروا خطورة تهوورهم ويتعافوا من العقوبة المستحقة التي أنزلت  
بهم. لا شيء استطاع أن يعتم على النصر المتألق لتلك المغامرة.  
لا شيء استطاع أن يعتم عليها. لم يزعجهم كارلوس وأتباعه بعدها.

مأثرة الدب، المبالغ بها والمزينة حتى حدود المستحيل، مضت  
من قم إلى قم وعبرت مع الزمن مضيق بيرينغ، يحملها تجار جلود  
القضاعة ووصلت حتى روسيا. لم ينج ديفغو وبرناردو وغارثيا من  
الصفعة التي كالتها لهم آباؤهم، لكن أحداً لم يجادل في استحقاتهم  
لقب الأبطال. سكتوا جيداً، هذا صحيح، عن ذكر مغلي البومة البيضاء  
المنوم. بقي صيدهم في حظيرة معرضاً لسخرية وحجارة  
الفضوليين عدّة أيام، ريثما يبحثون له عن أفضل ثور كي  
يصارعه، لكن ديفغو وبرناردو أشفقا على الدب الأسير فأطلقا  
سراحه في الليلة السابقة على المصارعة.

في تشرين الثاني، والناس ما زالوا لا يتكلمون عن شيء آخر،  
هاجم القراصنة البلدة. باغتوها بخبرة سنوات طويلة من الشر،  
مقتربين من الشاطئ دون ان يُشاهدوا، في سفينة شراعية بصاريتين  
مجهزة بأربعة عشر مدفعاً خفيفاً قامت بالرحلة من أمريكا  
الجنوبية، ضالة عبر هاواي للاستفادة من الريح التي تدفعهم إلى  
كاليفورنيا العليا. كانوا يترصدون صيد السفن المحملة بكنوز  
أمريكا، المخصصة لخزائن إسبانيا الملكية. نادراً ما كانوا  
يهاجمون البر، لأن المدن المهمة تستطيع أن تدافع عن نفسها

والأخرى كانت أفقر من اللازم، لكنهم أبدوا في إبحارهم دون أن  
يُحالفهم الحظ، والملاحة بحاجة إلى الماء الطازج وحرق بعض  
الطاقة. قرّر القبطان زيارة لوس أنجلوس، على الرغم من أنه لم يكن  
يأمل بالعثور على شيء مهمّ هناك، غير الغذاء والكحول وبعض  
اللهو لفتيته. كانوا يعتمدون على أنه لن تكون هناك مقاومة، لأن  
سمعتهم السيئة، التي كانوا ينشرونها بأنفسهم، قد سبقتهم، قصص  
الدم والحرائق المريعة وكيف أنهم كانوا يقرمون الرجال فرما  
وينتزعون أحشاء النساء الحوامل ويشكّون الأطفال بالكلايب  
ويُعلقونهم إلى الصواري كذكرى لحربهم. كانت سمعة بأنهم برابرة  
تناسبهم. كان يكفيهم بأن يُعلنوا في هجومهم عن أنفسهم بعدة  
طلقات مدفعية أو أن يظهروا مطلقين عواءاتهم كي يهرب السكان  
مثل الطير فيأخذون بهذا الشكل الغنيمة دون الحاجة للقتال. أنزلوا  
المرساة واستعدوا للهجوم. حدث أنّ طلقات مدافع السفينة لم تُجد  
لأنها لم تُدرك لوس أنجلوس. فزلوا في قوارب ومداهم بين أسنانهم  
وسيوفهم في أيديهم مثل قبيلة من الشياطين. صادفوا في منتصف  
الطريق مزرعةٍ لابغا. كان منزل القرميد الكبير، بسطوحه الحمراء  
ونباتات الجهنمية البنفسجية المتسلقة على الجدران، وبستان  
برتقاله وجو السلام والنعمة اللطيف المخيم عليه، لا يُقاوم بالنسبة  
لهواء البحارة الأفظاظ، الذين مضى عليهم زمن طويل يعيشون على  
الماء الأخضر واللحم المُقدّد المتفسخ والبسكويت المدوّد والقاسي  
مثل حجارة مكلسة. لم يفد أنّ القبطان زمجر قائلاً إن هدفه البلدة،  
فقد انقضّ الرجال على المزرعة رافسين الكلاب، مُطلقين النار  
بغزارة على الجنائنين الهنديين الذين كان من سوء حظهما أنّهما  
اعترضاهم.

كان أليخاندرو د لا بيجا في تلك اللحظات في مدينة المكسيك،  
يشتري أثاثاً أكثر نعومة من أثاث بيته الثقيل، القطيفة الذهبية لصنع  
الستائر، أطقم الشوك والملاعق والسكاكين الفضية القويّة، الصحن  
الإنكليزية وكوؤوس الزجاج النمساوية. كان يُفكر أن يُحرك مشاعر

رخينا بهذه الهدية  
عادتها الهندية وقت  
لعائلته. كانت تجارة  
بالعيش كما يليق بـ  
عائد سيكون ثمن الس  
ضمير لبيته.

استيقظت رخي  
تقع في بريج صف  
والثقل. كان النور  
بتدرجات اللون البر  
الأباجورات. تلفعت  
يجري للكلاب في  
الحديقة الخشبي.  
لكنها لم تتوقّف لتتأ  
عمره، وما يزال يش  
مسرعة بقميص النور  
معلقين على الجدار  
العسكرية، لكنهما م  
بأعلى صوتها. قفز  
من السنديان ويوص  
حديديّة ثقيلة. انفجر  
ماسح لرخينا بأن  
والاستعداد للدفاع.

ديغو، الذي  
مجهولة لا تكاد تملأ  
نوان قليلة إلى ابنة ال  
منحها مظهر محض



والأخرى كانت أفقر من اللازم، لكنهم أبدوا في إبحارهم دون أن  
يُحالفهم الحظ، والملاحة بحاجة إلى الماء الطازج وحرق بعض  
الطاقة. قرَّر القبطان زيارة لوس أنجلوس، على الرغم من أنه لم يكن  
يأمل بالعثور على شيء مهم هناك، غير الغذاء والكحول وبعض  
القهو لفتيته. كانوا يعتمدون على أنه لن تكون هناك مقاومة، لأن  
سمعتهم السيئة، التي كانوا ينشرونها بأنفسهم، قد سبقتهم، قصص  
الدم والحرائق المريعة وكيف أنهم كانوا يفرمون الرجال فرماً  
وينتزعون أحشاء النساء الحوامل ويشكّون الأطفال بالكلاب  
ويعلقونهم إلى الصواري كذكرى لحربهم. كانت سمعة بأنهم برابرة  
تناسبهم. كان يكفيهم بأن يُعلنوا في هجومهم عن أنفسهم بعدة  
طلقات مدفعية أو أن يظهروا مطلقين عواءاتهم كي يهرب السكان  
مثل الطير فيأخذون بهذا الشكل الغنيمة دون الحاجة للقتال. أنزلوا  
المرساة واستعدوا للهجوم. حدث أن طلقات مدافع السفينة لم تجر،  
لأنها لم تُدرك لوس أنجلوس. نزلوا في قوارب ومداهم بين أسنانهم  
وسيوفهم في أيديهم مثل قبيلة من الشياطين. صادفوا في منتصف  
الطريق مزرعةٍ د لايفغا. كان منزل القرميد الكبير، بسطوحه الحمراء  
ونباتات الجهنمية البنفسجية المتسلقة على الجدران، وبستان  
برتقاله وجو السلام والنعمة اللطيف المخيم عليه، لا يُقاوم بالنسبة  
لهواء البحارة الأفظاظ، الذين مضى عليهم زمن طويل يعيشون على  
الماء الأخضر واللحم المقدد المتفسخ والبسكويت المدود والقاسي  
مثل حجارة مكلسة. لم يفد أن القبطان زمجر قائلاً إن هدفه البلدة.  
فقد انقضَّ الرجال على المزرعة رافسين الكلاب، مُطلقين النار  
بغزارة على الجنائين الهنديين اللذين كان من سوء حظهما أنهما  
اعترضاهم.

كان أليخاندرو د لايفغا في تلك اللحظات في مدينة المكسيك،  
يشترى أثاثاً أكثر نعومة من أثاث بيته الثقيل، القطيفة الذهبية لصنع  
الستائر، أطقم الشوك والملاعق والسكاكين الفضية القوية، الصحون  
الإنكليزية وكؤوس الزجاج النمساوية. كان يُفكر أن يُحرك مشاعر

رخينا بهذه الهدية الفرعونية، ويرى ما إذا كانت ستتخلى وللأبد عن عاداتها الهندية وتميل إلى الرهافة الأوروبية التي كان يريد لها لعائلته. كانت تجارته تسير بشكل جيد ويستطيع لأول مرة أن يتمتع بالعيش كما يليق برجل له نسبه. لم يكن يخطر بباله أنه بينما هو عائد سيكون ثمن السجاجيد التركية، كان مهاجمة ستة وثلاثين عديم ضمير لبيته.

استيقظت رخيناً على نباح الكلاب الهائجة. كانت غرفة نومها تقع في بريج صغير، القاعة الوحيدة في بناء المنزل الأقطس والثقيل. كان النور الخجول لتلك الساعة المبكرة يُضيء السماء بتدرجات اللون البرتقالي ويدخل من نافذتها، الخالية من الستائر أو الأباجورات. تلفت بشالٍ وخرجت حافية إلى الشرفة لترى ماذا كان يجري للكلاب في اللحظة التي كان يدفع فيها المهاجمون باب الحديدية الخشبي. لم يخطر لها أنهم قراصنة، لأنها لم ترهم قط، لكنها لم تتوقف لتتأكد من هويتهم. ديبغو الذي كان في العاشرة من عمره، وما يزال يشاطر أمه السرير في غياب والده، رآها تجري مسرعة بقميص النوم. أخذت رخيناً في طريقها سيفاً وخنجرأ كانا معلقين على الجدار، ولم يُستخدما منذ تخلى زوجها عن وظيفته العسكرية، لكنهما ما يزالان مسنونين، وهبطت السلم منادية الخدم بأعلى صوتها. قفز ديبغو من السرير وتبعها. كانت أبواب المنزل من السنديان ويوصدونها في غياب أليخاندرو من الداخل بعارضة حديدية ثقيلة. انفجر حنق القراصنة على هذا العائق المنيع وهو ماسح لرخينا بأن توزع الأسلحة النارية المخبأة في الصناديق والاستعداد للدفاع.

ديبغو، الذي لم يصحو تماماً بعد وجد نفسه أمام امرأة مجهولة لا تكاد تملك ملمحاً واحداً مألوفاً. فقد تحولت أمه خلال ثوان قليلة إلى ابنة الذئب. وقف شعرها وبرقت عيناها بريقاً وحشياً منحها مظهر مجنونة وكشرت عن أسنان قاتلة، مطلقاً زبداً من فمها،

مثل كلب مسعور بينما هي تعوي بأوامرها على المستخدمين باللغة  
الأصلية. كانت تهزّ السيف بيد والخنجر بيد أخرى حين انهارت  
الأباجورات التي كانت تحمي نوافذ الطابق الرئيسي، واندفع أول  
القراصنة إلى داخل المنزل. على الرغم من دويّ الاقتحام استطاع  
دييغو أن يسمع صيحةً بدت صيحة فرح أكثر مما هي صيحة رعب،  
خرجت من الأرض، جابت جسداً أمه وهزّت الجدران. منظر تلك  
المرأة التي لا يكاد يُغطيها قميص نوم رقيق، تخرج للقائهم هارئة  
بسلاحها الفولاذيين بقوة محالة على من هو بحجمها باغتت  
المقتحمين لثوانٍ. وهذا ما منح المستخدمين، الذين كانوا يجهزون  
الأسلحة، الفرصة كي يُطلقوا النار، فسقط اثنان من القراصنة على  
وجهيهما بفعل النيران وترنح آخر، لكنهم لم يكادوا يُعبثون أسلحتهم  
حتى كان اثنا عشر آخرون يتسلقون النوافذ. أخذ دييغو شمعدانا  
حديدياً ثقيلاً وخرج للدفاع عن أمه، بينما هي تتراجع نحو  
الصالون. كانت قد أضاعت السيف وتمسك بالخنجر بكتنا يديها  
وتوجّه ضربات عمياء ضدّ اللصوص الذين يُحاصرونها. أدخل  
دييغو الشمعدان بين ساقَي أحدهم بقذفه على الأرض، لكنه لم يتمكن  
من ضربه بالعصا لأنّ رفسة وحشية على صدره قذفت به على  
الجدار. لم يعرف قط كم بقي هناك فاقداً الوعي، لأنّ الروايات التي  
أعطيت عن الهجوم فيما بعد كانت متناقضة. بعضهم قال ساعات،  
وآخرون قالوا إنّ القراصنة قتلوا خلال دقائق كلّ من صادفوه في  
طريقهم، وحطّموا ما لم يستطيعوا سرقة وأضرموا النار بالأثاث  
قبل أن يشرعوا بالزحف على لوس أنجلوس.

حين استعاد دييغو وعيه كان المجرمون ما يزالون يجوبون  
المنزل بحثاً عما يحملونه وبدأ دخان الحريق يتوغّل في الشقوق.  
نهض على قدميه بألم رهيب في صدره فراح يتنفس كمن يرشف  
شيئاً، وتقدّم متعثراً، ساعلاً، منادياً أمه. وجدها تحت منضدة  
الصالون الكبيرة بقميصها الشفاف المبلّل بالدم، لكنها كانت  
صاحبةً، مفتوحة العينين. «اختبي، يا بُني!» أمرته بصوت متماسك

وغيبت عن  
المنضدة بجهد جبار  
تلقاها. استطاع فتح  
يعرفان بوجوده، و  
الأخر وبقي هناك في  
ماما، ويتوسل الله و

برناردو كان بد  
أمه في إحدى الغرف  
المنزل. كانت غرفته  
النوافذ، لأنها كانت  
أنا تفوض بها أحداً.  
الفصان في حالة تاد  
إلى سرير ضيق فر  
ممتلكاتها البائسة،

حديدي لجمر المكاو  
تفكر بكيها في اليوم  
يتألى من العتبة لحاف  
يدخلان من النافذتين

لم يستيقظ برناردو  
الطلقات على الطرف  
بها أنا. ظنّ أن الأرض  
الوقت كي يفكر، فأ  
راحة قادته إلى الط  
كانت إحدى السلطين  
كلمت نبرتها من

وغابت عن الوعي. أخذها ديبغو من ذراعيها وجرّها باتجاه المدخنة بجهد جبّار لأنّ أضلاعه كانت مسحوقة من الرقصة التي تلقاها. استطاع فتح الباب السري، الذي وحدهما هو برناردو كانا يعرفان بوجوده، وسحبها باتجاه النفق. أغلق الباب من الجانب الآخر وبقي هناك في الظلمة ورأس أمّه على ركبتيه، يناديها ماما، ماما، ويتوسل الله وأرواح القبيلة ألا تدعها تموت.

برناردو كان بدوره في فراشه حين بدأ الهجوم. كان نائماً مع أمّه في إحدى الغرف المخصّصة للخدم، على الطرف الآخر من المنزل. كانت غرفتهم أكبر من زنانات بقية الخدم الخالية من النوافذ، لأنّها كانت تُستخدَم أيضاً لكي الثياب، المهمة التي لم تكن أنا تُفوّض بها أحداً. كان أليخاندرو لا يبغي يشترط أن تكون طيات القمصان في حالة تامّة، وكانت تُباهي بأنّها تكويها بنفسها. إضافة إلى سرير ضيق فراشه من القشّ وصندوق مضعضع تحفظ فيه ممتلكاتها البائسة، وكان في الغرفة منضدة طويلة للعمل وإناء حديديّ لجمر المكاوي، وسلّتان هائلتان للثياب النظيفة. كانت أنا تُفكّر بكيّها في اليوم التالي. وكانت الأرضية من التراب وعلى الباب يتدلّى من العتبة لحاف صوفيّ يقوم مقام الباب، وكان النور والهواء يدخلان من النافذتين الصغيرتين.

لم يستيقظ برناردو على صيحات القراصنة ولا على صوت الطلقات على الطرف الآخر من المنزل، بل على الهزّات التي هزّته بها أنا. ظنّ أن الأرض تهتزّ، كما في مرّاتٍ سابقة، لكنّها لم تمنحه الوقت كي يُفكّر، فأخذته من ذراعه ورفعته بقوة نابضٍ وبقفزة واحدة قادتّه إلى الطرف الآخر من الغرفة. وحشرته بدفعة واحدة داخل إحدى السلّتين الكبيرتين. «لا تتحرّك، مهما حدث؛ هل فهمت؟» كانت نبرتها من الصرامة بحيث بدا لبرناردو أنّها تُكلّمه بكراهية

ممين باللك  
ين انهارت  
انفج أول  
ام استطاع  
بيحة رعب  
منظر تلاك  
انهم هازة  
ها باغتت  
ا يجهزون  
اصنة على  
ن أسلحتهم  
شمعدانا  
اجع نحو  
كلتا يديها  
ها. أدخل  
لم يتمكن  
به على  
ايات التي  
ساعات  
دفوه في  
بالأثاث  
يجوبون  
الشقوق  
ن يرشف  
منضدة  
ما كانت  
متماسك

خفية، فهو لم يرها مضطربة قط. فأمه كانت أسطورية العذوبة والوداعة والرضى على الرغم من أنها لم تكن تفيض عنها أسباب الفرح. كانت تكرر نفسها لعبادة ابنها وخدمة أسيادها، بما ينسجم مع حياتها المتواضعة وانعدام القلق في نفسها، ومع ذلك في تلك اللحظة الأخيرة لها مع برناردو قست قسوة الجليد. أخذت حزمة من الثياب وغطت بها الطفل، ساحقة إياه نحو قاع السلة. من هناك سمع برناردو تلقه ظلمات الخرق البيضاء، وتخنقه رائحة النشا والرعب، صياح وكلام وقهقهات الرجال الذين دخلوا الغرفة، حيث كانت تنتظرهم أنا والموت مكتوب على جبينها، مستعدة لإلهايم الوقت الكافي كيلا يعثروا على ولدها.

كان القراصنة مستعجلين وكفتهم نظرة ليلاحظوا أنه لا يوجد في غرفة الخادمة شيء له قيمة. ربما أطلوا من العتبة وعادوا أدراجهم لكن هناك كانت الشابة ابنة البلد الأصلية تتحداهم بذراعين مفتوحتين واستعداد انتحاري، ووجه مستدير وغطاء رأس ليلي ووركين نبيلين وثديين مشربيين. لقد جابوا المحيط خلال سنة وأربعة أشهر دون وجهة محددة، ودون أن يواسوا أنفسهم بالنظر إلى امرأة. في الوهلة الأولى اعتقدوا أنهم أمام سراب، مثل الكثير الذي كان يُضنيهم في عرض البحر، لكن رائحة أنا السكرية لفتحهم فنسوا السرعة. وبشدة يدٍ خلعوا قميص كتانها الخشن الذي كان يُغطي جسدها وارتموا فوقها. لم تقاوم أنا. تحملت بصمت القبر كل الذي خطر ببالهم أن يفعلوه بها. حين سقطت على الأرض، مملوكة من الرجال، كان رأسها من القرب من سلة برناردو بحيث استطاع أن يحصي أنات أمه الواهنة، المكتومة بلهات مهاجميها الوحشي واحداً فواحداً.

لم يتحرك الطفل تحت تل الخرق الذي يُغطيه، هناك عاش كل عذاب أمه، التي شلها الذعر. كان متكوماً في السلة، فارغ الرأس،

يتصّبب صفراء، يرتعد غثياناً. وبعد وقت لا نهائي انتبه إلى الصمت المطلق ورائحة الدخان. ترك لحظة تمر، حتى لم يعد يستطيع المزيد، لأنه كان يختنق، نادى أنا بهدوء. لا أحد أجابه. عاد وناداهما عبثاً مرتين ثم تجرّأ أخيراً وأطلّ برأسه. كانت تدخل من شق الباب دفقات الدخان، لكن حريق المنزل لم يصل إلى هناك. اضطرّ برناردو المتخدر من التوتر والركود أن يبذل جهداً كي يخرج من السلّة. رأى أمّه في المكان ذاته التي سحقها فيه الرجال، عارية وشعرها الأسود الطويل منشوراً مثل مروحة على الأرض ورقبتها مذبوحة من أذنها إلى أذنها الأخرى. جلس الطفل إلى جانبها، وضّمّ يدها بهدوء وصمت. بقي سنوات طويلة بعدها لا ينطق بكلمة واحدة.

هكذا وجدوه، بعد ساعات، أخرس، ملطخاً بدم أمّه، بينما القراصنة يُبحرون بعيداً. كان أهل لوس أنجلوس يحصون قتلاهم ويطفئون حرائقهم، لم يخطر لأحد أن يذهب ويرى ماذا جرى في مزرعة لايفغا، إلى أن هرع القسّ مندوثا مع ستة من المعتنقين الجدد، ليأخذ المكان على عاتقه، مدفوعاً بحدس كان يعيشه فلم يستطع تجاهله. كانت النيران قد أتت على الأثاث ولأمت بعض العضائد، لكن البيت بقي متماسكاً، وحين وصل كانت النيران تنطفئ من تلقاء ذاتها. كان الهجوم قد خلف عدداً من الجرحى وخمسة قتلى بما فيهم أنا، التي وجدوها كما تركها القتلة.

- حمانا الله - صاح القسّ مندوثا عندما وجد نفسه أمام تلك الفاجعة.

غطى جسد أنا ببطانية وحمل برناردو بين ذراعيه المفتولتين. كان الطفل متحجراً، جامد النظرة، وعلا وجهه زعرٌ شلّ حنكيه.

- أين السيّد رخيّنا ودييغو؟ - سأل المِبشّر، لكن برناردو لم يبد ما يدل على أنه سمعه.

تركه بين يدي هندية من هندية الخدمة، التي هودت له في

حضرها مثل رضيع على صوت صلاة حزينة بلغتها، بينما راح هو يطوف في البيت ويصيح باسم المفقود منهم.

مر الزمن في النفق دون تبدلات، لأن نور النهار لم يكن يصل إلى هناك، وكان من المحال تقدير الساعة في تلك الظلمات الأبدية. لم يستطع ديبغو أن يتكهن بما كان يجري في المنزل، إذ أيضاً لم تكن تصل إليه أصوات الخارج ولا دخان الحريق. انتظر دون أن يعرف ما كان ينتظر، بينما رخيناً تخرج وتدخل واهنة في غيبوبتها. كان الطفل ينتظر، بلا حراك، كيلا يعكّر صفو أمه، على الرغم من ألم الرفسة، التي كانت تغرز مع كل نفسٍ خناجر في صدره، والتنميل المريع في ساقيه المتخدرتين. كان الإنهاك يهزمه في بعض اللحظات، لكنه لا يلبث أن يستيقظ، مُحاطاً بالظلمات، دائخاً من المعاناة. شعر أنه يتجمد برداً فحاول عدة مرات أن يهز أعضائه، لكن خمولاً قاهراً يعتريه فيعود ليكيو برأسه، غارقاً في ضباب قطني. في هذا الفتور مرّ قسم كبير من النهار، إلى أن أطلقت رخيناً أخيراً أنه وتحركت فاستيقظ مذعوراً. حين تحقق من أن أمه حية، استعاد حيويته دفعة واحدة وغمرته سعادة من رأسه وحتى قدميه وهو ينحني ليغطي وجهها بالقبل الهادية. أخذ ديبغو رأسها، الذي صار من مرمر، بحذرٍ مُطلق، وأراحه على الأرض. استغرق عدة دقائق حتى استعاد حركة ساقيه وتمكّن من الحبو بحثاً عن شموع كان قد خبأها مع برناردو لاستحضارهما للأكاهو. سأله صوت جدته بلغة الهنود ما هي الفضائل الخمس الأساسية فلم يستطع تذكر أيّاً منها غير الشجاعة.

فتحت رخيناً عينيها على ضوء الشمعة ووجدت نفسها مقبورة في كهفٍ مع ابنها. لم تُسعفها قواها لتسأله عمّا جرى ولا لتواسيه بكلمات كاذبة، فقط استطاعت أن تُشير إليه أن يمزق قميص نومها ويضمّد به جرح صدرها. قام ديبغو بذلك بأصابع مرتجفة ورأى أن

أمه مصابة بجرح عميق تحت الكتف. لم يعرف ماذا يفعل غير ذلك وبقي ينتظر.

- روي تخرج، يا دييغو، عليك أن تذهب في طلب المساعدة -  
تمت رخيماً بعد برهة.

قدر الطفل أن باستطاعته أن يصل عبر الكهوف إلى الشاطئ ويستطيع أن يركض من هناك ليطلب المساعدة دون أن يراه أحد، لكن هذا يستغرق منه زمناً. وباندفاع قرّر أن الأمر يستحق المغامرة بأن يطلّ من باب المدخنة المخادع كي يتحقق من الوضع في المنزل. كان الباب مموّهاً جيداً خلف كومة الجذوع في الموقد ويستطيع أن يلقي نظرة دون أن يرى حتى ولو وُجد ناسٌ في الصالون.

أول ما أحسّ به حين فتح الباب كانت رائحة الحريق الزنخة وصفعة الدخان اللتين جعلتاها يتراجع، لكنه ما لبث أن أدرك أن هذا سيسمح له بالتخفي بشكلٍ أفضل. وبصمت عبّر الباب السريّ مثل قطّ وقرفص خلف الجذوع. كانت الكراسي والسجاجيد ملطخة بالسخام ولوحة سان أنطونيو قد اخترقها الرصاص بالكامل والجدران وعضائد السقف تصدر دخاناً، لكنّ النيران قد أطفئت. كان يسود المنزل سكون غير طبيعي، افترض أنّه لم يعد في المنزل أحد، وهذا ما شجّعه على التقدّم. انسلّ بحذرٍ على طول الجدران وهو يسعل وعيناه تدمعان، وطاف في غرف الطابق الرئيسيّ غرفةً فغرفة. لم يستطع أن يتخيّل ما حدث، هل ماتوا جميعاً، أم أن أنّهم استطاعوا الهرب. في البهو رأى فوضى غرق وبقع دم، لكن لم تكن هناك أجساد الرجال الذين رآهم بأّم عينه يسقطون في الفجر. تصوّر، وهو مشوّش بالشكوك، أنّه غارق في كابوس مرعب، يوقظه منه صوت آنا الحنون تُعلن عن الإفطار. تابع سيره باتجاه غرف الخدم، يخنقه ضباب الحريق الرماديّ، الذي كان ينبعث مع فتحة باب أو انعطافاً على دفتاتٍ. تذكر أمّه، وهي تموت دون مساعدة، فقرّر أنّه



ليس هناك ما يخسره أكثر مما خسره، فنسي الحذر وراح يجري  
في ممرات المزرعة اللانهائية، على غير هدى، إلى أن اصطدم بجسد  
قاسٍ وذراعين أسراه. صرخ من الخوف وألم الأضلاع المحطمة،  
شعر بالغثيان يعود إليه وبأنه على وشك أن يغشى عليه. «دييغو  
مُبارك الرب!»، سمع صوت القسِّ مندوثا الخشن وشم رائحة دثاره  
القديم وشعر بخديه سيئتي الحلاقة على جبينه وعندها استسلم، طفلاً  
كما كان، وانفجر باكياً ومتقيئاً.

كان القسُّ مندوثا قد أرسل الناجين إلى بعثة سان غابرييل.  
التفسير الوحيد الذي خطر له لغياب رخيننا وابنها هو أن القراصنة  
اختطفوهما، على الرغم من أنه لم يسمع قط بمثل هذا في المنطقة.  
كان يعرف أنهم في بحارٍ أخرى كانوا يأخذون رهائن ليحصلوا على  
الفدية أو ليبيعوهم عبيداً، لكن شيئاً من هذا لم يكن يحدث في ذلك  
الشاطئ النائي من أمريكا. لم يستطع أن يتخيل كيف سيُعلم  
أليخاندرو د لايفا بالخبر المريع. عمل المحال مع الأخوين  
الفرانسيسكانيين الآخرين اللذين كانا يعيشان في البعثة كي يخفوا  
عن الجرحى ويواسوا ضحايا الهجوم الآخرين. كان عليه أن يذهب  
في اليوم التالي إلى لوس أنجلوس، حيث كانت تنتظره مهمة دفن  
الموتى الثقيلة وجرد الأضرار. كان منهكاً، لكنه كان من القلق بحيث  
لم يستطع أن يذهب مع الآخرين إلى البعثة وفضل البقاء لتفقد المنزل  
مرة أخرى. وبينما هو في هذه الحال هبط عليه دييغو.

نجت رخيننا بفضل أن القسِّ مندوثا لفقها بالبطانيات وحملها  
في عربة مهلهلة ومضى بها إلى البعثة. لم يكن هناك وقت لاستدعاء  
البومة البيضاء، لأن الجرح العميق كان ما يزال ينزف ورخيننا تهن  
على مرأى منهم. أوّل ما قام به المبشرون هو إسكارها بالروم، ثم  
غسل الجرح وإخراج رأس خنجر القرصان الداخل في عظم التروقة  
بكماشة ليّ الأسلاك وكئي الجرح بحديد محمّي بينما رخيننا تعض على  
قطعة خشب، كما فعلت عند ولادتها. كان دييغو يسدُّ أذنيه كيلا يسمع

أنيها المخنوق، يُضايقه شعورٌ بالذنب والخزي لإساءته استخدام  
المغلي المنوم في لعبة صبيانية، وكان باستطاعته توفيرها لرخينا  
في عذابها. كان ألم أمه عقاباً رهيباً له على سرقة العلاج السحري.

عندما نزعوا قميص ديبغوا تبينوا أن الرفسة قد جعلت لون  
لحمه من الرقبة وحتى الأريية مزرّقاً. قدر القس مندوثا أنه لا بد أن  
عدداً من أضلاعه قد غارت فصنع له بنفسه مشدّاً من جلد البقر مقوى  
بقضبان من نبات متسق لتثبيته. لم يكن باستطاعة الطفل أن ينحني  
أو يرفع ذراعيه، لكنّه وبفضل المشدّ استعاد خلال أسابيع قليلة  
القدرة على استخدام رثتيه تماماً. بالمقابل لم يُشفَ برناردو من  
الضربات لأنها كانت أخطر من تلك التي تلقاها ديبغو. قضى عدّة  
أيام في الوضع المتحجّر الذي وجده فيه القس مندوثا بنظرته  
الجامدة وأسنانه المشدودة مما اضطرهم إلى اللجوء إلى القمع  
لتغذيته بعصيدة الذرة. حضر الجنازة الجماعية لضحايا القراصنة،  
كما حضر دون أية دعة إنزال التابوت الذي احتوى على جثمان أمه  
في الحفرة. حين انتبه البقية إلى أن برناردو لم يتكلم خلال أسابيع،  
تبني ديبغو، الذي رافقه ليلاً ونهاراً دون أن يتركه لحظة واحدة،  
الرأي القاطع بأنه قد لا يتكلم بعد الآن أبداً. قال الهنود إنه بلع  
لسانه. بدأ القس مندوثا يُجبره على المضمضة بنبيذ القدّاس وعسل  
النحل، دهن سقف حلقه بعد ذلك بالبورق، وضع له لصوقات ساخنة  
على رقبته، وأطعمه خنافس مسحوقة. وبما أنه ما من علاج من  
علاجاته المرتجلة للخرس أعطى نتيجة فقد اختار الوسيلة القصوى  
بطرده الشياطين منه بالتعاون. لم يحدث أنه قام بطرد الشياطين قط،  
فعلى الرغم من معرفته للطريقة، إلا أنه لم يشعر بالقدرة على مثل  
تلك المهمة الشاقة، لكنّه لم يكن في تلك الأنحاء أي شخص آخر  
بمقدوره القيام به. وكان عليه كي يعثر على معزم مفوض من  
التفتيش أن يسافر إلى المكسيك، بصراحة اعتبر المبشر أن الأمر

لايستحق ذلك. درس بعمق النصوص ذات الصلة، صام يومين كاستعداد، ثم حبس نفسه مع برناردو في الكنيسة ليُعارك الشيطان. لم يلق نتيجة. وخلص القس مندوثا مهزوماً إلى أن الرض قد وحش الطفل المسكين ولم يعد يوليه اهتماماً. كلف بعذاب إطعامه بالقمع معتنقة جديدة والتفت إلى شؤونه. كان منشغلاً بواجباته في البعثة وبمساعدة سكان لوس أنجلوس الروحية بالتغلب على مآسيهم وبالأمر البيروقراطية التي يكلفه بها رؤساؤه في المكسيك التي كانت دائماً أثقل مهامه. كان الناس قد فرغوا من اعتبار برناردو أبه عصياً على العلاج حين ظهرت البومة البيضاء في البعثة لتأخذه معها إلى قريتها الصغيرة. سلمه لها المبشر، لأنه لم يكن يعرف ماذا يفعل به، مع أنه لم يتوقع أن ينجح سحر الهندية بما فشل هو به بالتعزيم. كان ديفغو يموت رغبةً بمرافقة أخيه بالرضاعة، لكن قلبه لم يطاوعه أن يترك أمه، التي لم تُغادر فراش نقاهتها، كما أن القس مندوثا لم يسمح له بركوب الجواد بالمشد. وانفصل الطفلان لأول مرة منذ ولادتهما.

أثبتت البومة البيضاء أن برناردو لم يبلع لسانه - فقد كان على حاله في فمه - وشخصت أن خرسه نوع من التحدي، فهو لا يتكلم لأنه لا يريد. وقدّرت أن تحت الغضب الذي يلتهم الطفل بحرّ محيط من الحزن لا يُسبر غوره. لم تُحاول مواساته أو مداواته، ففي رأيا أن برناردو يملك كل حق العالم بأن يبقى صامتاً، لكنها علمت التواصل مع روح أمه عبر تأمل النجوم، ومع أمثاله بلغة الإشارات التي كان يستخدمها الهنود من مختلف القبائل للتواصل. ومع الزمن والممارسة سيحصل من هذه الوسيلة البسيطة على أصوات تقارب الصوت البشري. ما كادوا يتركونه بسلام حتى انتعش برناردو. العلامة الأولى شرايته، إذ لم يعد يحتاج لأن يُطعموه بأساليب وحشية، والثانية الصداقة الخجولة التي أقامها مع برق الليل (\*)

(\*) في الأصل برق في الليل. م.

كانت الطفلة تكبره بسنتين وتحمل هذا الاسم لأنها وُلدت في ليلة عاصفة. كانت صغيرة الحجم بالنسبة إلى عمرها ولها ملامح سنجاب لطيفة. استقبلت برناردو بشكلٍ طبيعي دون أن يعنيتها عائق الكلام وتحولت إلى رفيقته الدائمة، وحلت دون أن تدري محل ديفغو. لم تكن تنفصل عنه إلا ليلاً، حين كان عليه أن يذهب لينام في كوخ البومة البيضاء، وتذهب هي إلى كوخ عائلتها. كانت برق الليل تحمله إلى النهر، تتعزى تماماً وتقفز برأسها إلى الماء، بينما هو يبحث عما يلهيه كيلا ينظر إليها مباشرة، لأنه في سنواته العشر كانت قد أثرت به تعاليم القس مندوثا حول إغواء الجسد. كان برناردو يتبعها دون أن يخلع بنظونه، مستغرباً أن لها مقاومتها نفسها في السباحة مثل سمكة في الماء المثلج.

كانت برق الليل تعرف عن ظهر قلب تاريخ شعبها وترويه ولا تكل من روايته، تماماً كما لم يكل من سماعها. كان صوت الطفلة بلسماً لبرناردو، يسمعه مبهوراً، لا يدري أن الحب بدأ يُذيب جليد قلبه. عاد ليتصرف كأبي طفل في سنه، وإن لم يكن يتكلم أو يبكي. معاً كانا يُرافقان البومة البيضاء، يُساعدانها في أشغال الطيبية والشامان، يجمعان النباتات الطبيّة ويحضّران المغليات الطيبة. حين عاد برناردو لبيتسم، اعتبرت الجدّة أنه لم يعد بمقدورها أن تفعل أكثر لأجله، وأن اللحظة قد حانت لإعادته إلى مزرعة لابغا. فهي عليها أن تهتم بالطقوس والاحتفالات التي تُحدد أول طمث لبرق الليل، التي دخلت فجأة في المراهقة. لم يُبعد هذا الانتقال المفاجئ الطفلة عن برناردو، بل على العكس بدأ أنه قرّب بينهما أكثر. وبنوع من الوداع حملته مرة أخرى إلى النهر ورسمت بدم طمثها على صخرة عصفورين يطيران. «هذان نحن، سنطير دائماً معاً»، قالت له. قبلها برناردو مندفعاً على وجهها وراح يجري مضطرباً الجسد.

ديفغو، الذي كان ينتظر برناردو بحزنٍ كلبٍ يتيم رآه يأتي من بعيد فجرى ليرحب به بصيحات فرح، لكنه حين أصبح أمامه أدرك

أن أخاه في الرضاعة صار شخصاً آخر. جاء، طويل الشعر، بوجه  
هندي بالغ ونور حب سري لا يخطئ في بؤبؤيه، ممتطياً جواراً  
مستعاراً. توقّف ديبغو مذعوراً، وعندها ترجل برناردو وعانقه  
ورفعه في الهواء دون جهد عادي ليصبها التوأمين اللذين  
لايتفصلان. شعر ديبغو أنه استعاد نصف روحه. لم يهّمه مقال  
ذرة أن برناردو لا يتكلم، لأنه ما من أحد منهما احتاج قط للكلمات  
كي يعرف بماذا يفكر الآخر.

فوجئ برناردو أنهم أعادوا بناء البيت المحروق كاملاً. ارتأى  
الجاندرو لا يبا أن يزيل كل أثر لمرور القراصنة ويستغل تلك  
الفاجعة كي يحسن مسكنه. عندما عاد من كاليفورنيا العليا بعد سنة  
أسابيع من الهجوم بحمولة فرشته الفاخر ليُفاجئ زوجته وجد أنه  
لا يوجد كلب واحد ينبح، فالمنزل كان مهجوراً، ومحتواه رماداً  
وعائلته غائبة. الوحيد الذي خرج للقائه هو القس مندوثا، الذي  
وضعه في صورة ما جرى وأخذه إلى البعثة، حيث كانت رخيما  
تخطو خطواتها الأولى نحو المعافاة، وهي ما تزال ملفوفة  
بالضمادات وذراع من ذراعيها مربوطة إلى كتفها. كانت تجربة  
إطالتها على الجانب الآخر من الموت قد انتزعت منها حيويتها  
بضربة مخلب واحدة. كان الجاندرو قد ترك زوجة شابة ليأخذها  
بعد قليل امرأة ليست إلا في الخامسة والثلاثين من عمرها، لكنها  
ناضجة وخصلات رمادية في شعرها. لم تُظهر أدنى اهتمام  
بالسجاجيد التركية أو أطقم الطعام الفضية المنقوشة التي اشتراها.

كانت الأخبار سيئة، لكن وكما قال القس مندوثا، كان من  
الممكن أن تكون أسوأ بكثير. ما دام لا يمكن معاقبة هؤلاء القتل،  
الذين لا بد أنهم في منتصف الطريق نحو بحر الصين، قرّر ديبغو أن  
يطوي الصفحة، وانهمك في إصلاح المزرعة. رأى في المكسيك كيف  
يعيش النبلاء فقرّر محاكاتهم، ليس للفخخة، بل كي يرث ديبغو في  
المستقبل المنزل ويملاه بالأحفاد، كما كان يقول لتبرير التبذير.

أوصى على مواد بناء وطلب البحث عن مهنيين من كاليفورنيا السفلى - حدادين، وفخارين وحجارين ودهانين - سرعان ما أضافوا طابقاً آخر، وممرات طويلة ذات أقواس وأرضية من الزليج وشرفة لقاعة الطعام، ورواقاً في الفناء للموسيقيين وبحرات موريسكية صغيرة، وشباك من الحديد المطروق وأبواباً من الخشب المشغول، ونوافذ بزجاج مرسوم. وضع في الحديقة الرئيسية تماثيل، ومقاعد حجرية وأقفاصاً فيها طيور وأصص أزهار وبحرة فيها تمثال الإله نبتون وثلاث حوريات بحر جسدها النحاتون الهنود عن لوحة إيطالية. عندما وصل برناردو كان قرميد السطوح الأحمر قد ركب، والوجه الثاني من طلاء الجدران الدراقي اللون قد انتهى، وبدؤوا يفتحون الصناديق التي جاء بها من المكسيك ليزينه بها. وأعلن أليخاندرو د لايفغا أنه «ما إن تتعافى رخيما حتى ندشن المنزل بسهرة موسيقية ستذكرها البلدة بعد مئة سنة»، لكن هذا اليوم تأخر، لأنه لم تكن تنقص زوجته الحجج المتجددة لتأجيل الحفلة.

علم برناردو ديفغو لغة الإشارات الهندية، التي أثرياها باختراعاتهما، وكانا يستخدمانها حين تخونهما لغة التواصل عن بُعد وموسيقى الناي. وكانا يلجان حين يتعلق الأمر بمسائل أكثر تعقيداً إلى الطباشير والسبورة أحياناً، وكان عليهما أن يفعل ذلك بحذر كيلا يُعتبر غروراً من جانبهما. تمكن معلم المدرسة باستخدام السوط ذي الأذيال السبعة من تعليم الأبجدية لبعض التلاميذ المحظوظين في البلدة، لكن بين هذا والقراءة السهلة كانت توجد هوة وفي جميع الأحوال لم يكن ليُقبل أي هندي في المدرسة. أصبح ديفغو بالإكراه تلميذاً نجيباً، وفهم لأول مرة هوس أبيه بالتربية. شرع يقرأ كل ما راح يقع في يده. بدت رسالة المباراة بالشيش ومختصر المباراة للمعلم مانول إسكالانت كإنها اختصار لأفكار

تشبه بشكل ملحوظ أكاهو الهنود، لأنه كان يدور أيضاً حول الشرف والعدالة والاحترام والكرامة والشجاعة. في السابق اقتصر على تمثّل دروس أبيه عن المبارزة وتقليد الحركات المرسومة في صفحات الكتاب، لكنّه حين بدأ يقرؤه عرف أنّ المبارزة ليست مجرد مهارة في استخدام الشيش والسيف والحسام بل هي أيضاً فنٌ روحي. كان القبطان خوسيه ديّاث قد أهدى أليخاندرو دي لايفغا في تلك الأيام صندوقاً من كتب نسيه أحدُ المسافرين في سفينته بالقرب من الإكوادور. وصل إلى المنزل مغلقاً بقوة وحين فتحه تكشف عن محتوى هائلاً من الشعر الملحمي والروايات، مجلدات مصفرة مزّت على أيدي كثيرة وتفوح منها رائحة العسل والشمع. التهمها دييفو بلهفة، على الرغم من أنّ والده كان يحتقر الروايات كجنس أدبي أدنى، مليء بالأفكار المتقلبة والأخطاء الأساسية والمآسي الشخصية التي ليست من اختصاصه. صارت هذه الكتب إيماناً بالنسبة إلى دييفو وبرناردو، قرآها مرّات كثيرة حتى انتهيا إلى حفظها عن ظهر قلب. انكمش العالم الذي كانا يعيشان فيه وبدأ يحلمان ببلاد ومغامرات وراء الأفق.

كان دييفو وهو في الثالثة عشر من عمره ما يزال يبدو طفلاً، لكنّ برناردو، مثل الكثير من أطفال عرقه، أدرك الحجم النهائي الذي سيكون له في بلوغه. وجهه الجهم النحاسي لم يكن يحلو إلا في لحظات التواطؤ مع دييفو، وحين يداعب الخيول، وفي اللحظات العديدة التي يهرب فيها ليزور برقّ الليل. لم تكبر الفتاة كثيراً في تلك الأيام وكانت قصيرة القامة نحيلة، لها وجه لا يُنسى. وكان مرحها وفرحها وجمالها قد منحها شهرة حين بلغت الخامسة عشرة فتصارّع عليها أفضل المحاربين من عدّة قبائل. وكان برناردو يعيش الخوف الرهيب من أن يزورها ذات يوم فلا يجدها، لأنها ذهبت مع آخر. كان مظهر الفتى يخدع، فهو لم يكن مفرط الطول ولا

بارز العضلات، لكنه يملك قوة غير متوقعة ومقاومة ثور في العمل العضلي. استحيائه كان يخدع أيضاً، ليس فقط لأن الناس كانوا يظنونهم بليداً، بل أيضاً لأنه كان يبدو حزيناً. في الحقيقة لم يكن كذلك، لأن الأشخاص الذين كان لهم مدخل إلى حياته الحميمة ويعرفونه بعمق سمعوا ضحكته. دائماً كان يرتدي البنطلون والقميص الكتانين اللذين يرتديهما المعتنقون الجدد وإزاراً محاكاً على خصره، ومعطفاً متعدد الألوان في الشتاء، وربطة على الجبين ترد شعره الكثيف والمجدول، الذي يصل إلى منتصف ظهره، إلى الخلف. كان فخوراً بعرقه.

كان لـديغو، بالمقابل، مظهر غندور مخادعاً، على الرغم من ملامحه الرياضية وبشرفته التي حمّصتها الشمس. ورث عن أمه عينيها وتمرداً وعن أبيه عظامه الطويلة وملامحه المنحوتة، أناقته الطبيعية وفضوله للمعرفة. ومن كليهما شجاعة متهورّة، تلامس أحياناً الجنون، لكن من يدري من أين جاء بالظرافة اللعوب، التي لم يظهرها قط أحد من أسلافه، الذين كانوا أقرب إلى الصرامة. لم يكن باستطاعة ديغو أن يمكث برهة طويلة ساكناً، فقد كانت تدور في ذهنه أفكار كثيرة في آنٍ معاً لا يكفيه عمر لتنفيذها. في ذلك العمر كان يتفوق على والده في فنّ المبارزة ولم يكن هناك من يتفوق عليه في استخدام السوط. وكان برناردو قد صنع له واحداً من جلد الثور المجدول يحمله دائماً معلقاً في لفّة متديلاً من زنّاره. لم يكن يضيع فرصة للتدرب عليه. كان يستطيع بضربة من رأسه أن يقطع زهرة سليمة ويطفئ شمعة، كما كان يستطيع أن ينزع سيجارة من فم أبيه دون أن يمسه وجهه، لكن هذه الفكرة الجسورة لم تخطر بباله قط. كانت علاقته بألخاندرو د لايفغا علاقة احترام مرهوب، وكان يناديه بـحضرتك. ولم يُشكك قط بسلطته وجهاً لوجه، لكنه كان يتدبر أمره ليفعل ما يحلو له من وراء ظهره، وكان هذا جرأة أكثر مما هو تمرّد، ذلك أنه كان معجباً بوالده إعجاباً أعمى وتمثّل



دروسه الصارمة في الشرف. كان فخوراً بتحدُّره من السيد القمبيطور<sup>(\*)</sup>، النبيل ذي السلالة الخالصة، لكنَّه لم ينكر قط جانبه المحلي، لأنَّه أيضاً كان يشعر بالاعتزاز بماضي أمه الحربي. وبينما كان أَلْخاندرو، الواعي لطبقته الاجتماعية ونقاء دمه، يُحاول أن يُخفي هجانه ابنه كان هذا يرفع رأسه بها. كانت العلاقة بين ديفغو وأمّه حميمة وحنوناً، لكنَّه لم يكن يستطيع أن يخدعها، كما كان يفعل من حينٍ إلى آخر مع أبيه. فرحيناً كانت تمك عيناً ثالثة في نقرتها ترى بها ما لا يرى، وصلابة صخر تفرض بها طاعتها.

كان منصب العمدة يُجبر أَلْخاندرو دِ لاِبغا على السفر كثيراً إلى مقر الحكومة في مونتريي. استغلت رَحينا أحد غياباته لتأخذ ديفغو وپرناردو إلى قرية البومة البيضاء، لأنَّها اعتبرت أنَّهما في عمر يُخولهما بأن يصبحا رجلين، لكن هذا، مثل أشياء أخرى كثيرة، لم تحك لزوجها، تفادياً للمشاكل، التي ازدادت حدّة في السنوات الأخيرة. وحده الحنين للحبِّ القديم ساعدهما على الاستمرار معاً، على الرغم من أنَّهما كانا يعيشان متباعدين، ولم يعد هناك الكثير مما يتبادلان حوله الكلام. في السنوات الأولى كان حماس أَلْخاندرو الغرامي من الاستعجال بحيث أنه عاد في أكثر من مرّة من أسفاره وخبّ عدّة فراسخ فقط كي يكون مع زوجته مدّة ساعتين. لم يكن يمل من تأمل جمالها الحقيقي، الذي كثيراً ما أبهج روحه وألهب رغبته، بينما يُخجله شرطها الخلاسي. وكان يتظاهر بكبرياء أنه يجهل أنَّ المجتمع الاستعماري الشحيح يرفضها، لكنَّه راح مع الزمن يحفظها مسؤولة هذه المنغصات؛ وزوجته لم تكن تفعل شيئاً كي يفر لها

(\*) هو رودريغو ديَاث دِ بيبار (1043 - 1099)، فارس قشتالي لُقّب بالقمبيطور أي المنتصر في المعارك، اكتسب شهرة أسطورية في الأدب والتاريخ الإسبانيين. قاتل تحت لواء سانتشو الثاني ملك قشتالة وواجه خليفته ألفونسو السادس، الذي تم بمقتل سانتشو. كما قاتل تحت لواء ملك إشبيلية، المعتمد بن العباد، وملك سرقسطة. احتل بلنسية عام 1094 التي حكمها حتى وفاته. كان شخصية متناقضة، لكن الحاكم إلى بطل مسيحي حولته كما أعتقد إلى بطل أسطوري. م.

دمها المختلط، فقد كانت مُشاكِسةً ومتحديةً. جهدت رخيناً في البداية كي تنسجم مع عادات زوجها، ولغته ذات الأصوات الخشنة، وأفكاره الثابتة، وديانته الغامضة وجدران بيته السميقة، وثيابه الضاغطة، وجزمته المصنوعة من جلد الجدي، لكن المهمة كانت هائلة بحيث أنها انتهت بالاستسلام. حاولت حباً به أن تتنازل عن أصلها وتصبح إسبانيةً، لكنها لم تنجح، لأنها بقيت تحلم بلغتها. لم تُعلم رخيناً ديفغو وبرناردو بأسباب الرحلة إلى قرية الهنود، لأنها لم تبغ أن تُخيفهما مُسبقاً، لكنهما تكهنا بأن الأمر يتعلق بشيءٍ سرّيٍّ وخاصٍّ، لا يمكنهما أن يُشاركا فيها أحداً وخاصةً الخاندرو ولايفغا.

كانت البومة البيضاء تنتظرهما عند منتصف الطريق. اضطرت القبيلة أن تذهب بعيداً، مدفوعة من البيض إلى الجبال، الذين استمروا في احتكار الأرض. كان المستعمرون في كل مرة أكثر عدداً وأكثر نهماً. بدأت أراضي أعالي كاليفورنيا العذراء تضيق بكل تلك القطعان وكل ذلك الجشع. في السابق كانت التلال مغطاة دائماً بالعشب الأخضر، الذي كان بطول الرجل والروافد والأنهار الصغيرة في كل مكان، وكانت الأزهار تُغطي الحقول في الربيع، لكن أبقار المستوطنين داست الأرض فيبست التلال. رأت البومة البيضاء المستقبل في أسفارها الشامانية، وكانت تعرف أنه ما من وسيلة لوقف الغزاة وأن شعبها آيلٌ بسرعة إلى الانقراض. نصحت قبيلتها بالبحث عن مراعي أخرى، بعيداً عن البيض، وأشرفت بنفسها على نقل قريتها عدة فراسخ أبعد. كانت الجدة قد حضرت لدييفغو وبرناردو أكمل طقس من اختبارات شجاعة المحاربين. لم يبد لها ضرورياً تعليقهما بكلمات مُحترقين في صدرهما، لأنهما كانا يافعين أكثر من اللازم على مثل هذا، كما أنها لم تكن بحاجة لاختبار شجاعتهم. بالمقابل قررت أن تضعهما على احتكاك مع الروح العظيمة، كي يكشف لهما عن قدرهما. ودعت رخيناً الفتية بكبريائها المعروف مشيرة إلى أنها ستعود في طلبهما بعد سبعة

عشر يوماً، حين يكونان قد أكملوا المراحل الأربعة من معارفهما  
الأولية.

أَلقت البومة البيضاء على كتفها بكيس مهنتها، الذي كان  
يحتوي على آلاتٍ موسيقية وبذوراً ونباتاتٍ طبيةٍ والتعاويذ  
السحرية، وراحت تسير باتجاه التلال العذراء بخطواتٍ مشاءٍ  
كبيرة. تبعها الفتيان، دون أسئلة، يحملان بطانيتين هما المتاع  
الوحيد الذي حملاه معهما. سارا في المرحلة الأولى من الرحلة  
أربعة أيام عبر الأعشاب الكثيفة، لا يفتاتان إلا على جرعات من  
الماء، إلى أن أحدث الجوعُ والإنهاكُ لديهما حالةً غير طبيعية من  
انقاز البصيرة. فقد تكشفت لهما الطبيعة عن مجدها الغامض وأحسا  
لأول مرة بتنوع الغابة الهائل، وموسيقى النسيم وحضور الحيوانات  
الوحشية القريب، التي راحت ترافقهما أحياناً مسافات طويلة. في  
البداية عانيا من خدوش وجراح الأغصان وتعب العظام غير  
الطبيعي، ومن فراغ لا يدرك غوره في المعدة، لكنهما راحا في اليوم  
الرابع يطفوان في الضباب، وعندها قررت الجدّة أنهما أصبعا  
جاهزين للمرحلة الثانية من الطقس، فأمرتهما أن يحفرا حفرة يصل  
عمقها إلى نصف جسمهما وقطرها بطوله، وبينما هي تحضر ناراً  
لتسخين الحجارة قطع الصغيران أغصاناً رقيقة وقشراها وأشادا  
فوق الحفرة قبةً غطاها بالبطانيتين. في ذلك المسكن الدائري، رمز  
الأرض الأم عليهما أن يتطهرا ويقوما برحلتها بحثاً عن رؤى  
مهتدين بالأرواح. أشعلت البومة البيضاء ناراً مقدسة محاطة  
بالصخور، تمثيلاً لقوة الحياة الخالقة. شرب الثلاثة ماءً وأكلا حفنة  
من الجوز والثمار الجافة، أمرتهما الجدّة بعدها أن يتعرّيا وعلى  
قرع طبلتها ومطرقتها جعلتهما يرقصان بجنون ساعاتٍ وساعات  
حتى سقطا مطروحين أرضاً. قادتهما إلى الملجأ، حيث صفا  
الحجارة الملتهبة وأعطتهما شراباً مقرزاً من التولواتش وغاص

الفئيان في بخار الحجارة الرطبة، دخان البذور ورائحة الأعشاب  
السحرية والصور التي كانت تحدثها المخدرات. خلال الأيام الأربعة  
التالية كانوا يخرجون من حين لآخر ليتنفسوا هواء رطباً ويجددوا النار  
المقدسة ويحميها الحجارة ويتغذوا على بذور بعض الحبوب. يغفیان  
برهة متعرقين. كان ديبغو يحلم أنه يسبح مع الدلافين في مياه  
مثلجة وبرناردو يحلم بضحكة برق الليل المعديّة. قادتهما الجدّة  
بصلواتها وتراتيلها بينما أرواح كل الأزمنة تطوف حول الكوخ في  
الخارج. في النهار كانت تقترب وعول وأرانب وفهود ودببة وفي  
الليل تعوي نئاب وأبناء آوى. نسر راح يحوم في السماء يراقبهما  
بلا كلل واختفى حين أصبحا جاهزين للمرحلة الثالثة من الطقس.

سلمت الجدّة كلاً منهما سكيناً وسمحت لهما بأن يحملتا  
بطانيتيهما وأرسلتهما باتجاهين معاكسين، واحداً إلى الشرق وآخر  
إلى الغرب، بتعليمات أن يتغذوا بما يستطيعان أن يجداه أو  
يصطاداها، باستثناء الفطر مهما كان نوعه، وأن يعودا خلال أربعة  
أيام. وإذا ما شاءت الروح العظيمة، قالت لهما، سيعثران على  
روأهما في هذه المهلة، وإلا فلن يعثرا عليها في هذه الفرصة  
وسيكون عليهما أن ينظرا أربع سنوات أخرى قبل أن يُحاوِلا ذلك من  
جديد. وعند العودة سيكون أمامهما أربعة أيام كي يرتاحا ويستعيدا  
حياتهما العاديّة قبل العودة إلى القرية. وقد بلغ الوهن من ديبغو  
وبرناردو في المرحلتين الأوليتين من الطقس حدّ أنه لم يعرف أحد  
منهما الآخر على ضوء الفجر. فقد جفا وغارت عيونهما في  
محاجرها واشتعلت نظرتهما بالهذيان وامتطّ جلداهما الرماديّ فوق  
عظامهما، وعلتاهما وحشة بلغت حدّ أنّهما راحا يضحكان، على  
الرغم من رهبة الوداع. تعانقا متأثرين وانطلقا كلّ باتجاه.

سارا على غير هدى، لا يعرفان ما يبحثان عنه، جائعين  
وخائفين، يتغذيان على الجذور الغضة والبذور إلى أن دفعهما  
الجوع لصيد الفئران والعصافير بالقوس والسهام العظميّة. وكانا

حين الظلام يمنعها من مواصلة التقدم يُشعلان ناراً وينامان،  
مرتعدين برداً، محاطين بالأرواح والحيوانات الوحشية. كانا  
يستيقظان مخشَّبين من الصقيع وموجوعين حتى آخر عظم فيهما  
بتبصيرٍ عادةً ما يأتي في حالات التعب القصوى.

بعد ساعات قليلة من المسير انتبه برناردو إلى أن هناك من  
يتبعه، لكنه حين يلتفت وينظر خلفه لا يرى غير الأشجار، تراقبه مثل  
عمالقة ساكنة. في الغابة كانت تعانقه سراخسُ براقّة الأوراق،  
وتحيط به جذوع مفتولة وأشجار تنوّب فوّاحة وفضاء أخضر  
وساكن، تُضيئه بقع ضوء تتسلّل من بين الأوراق. كان مكاناً مقدّساً.  
وكان لا بدّ من أن ينقضي جزء كبير من النهار كي يظهر مرافقه  
الخبول. كان مهراً أسوداً مثل الليل بلا أمّ ومن الحداثة بحيث أن  
أرجله كانت تنطوي. وكان من الممكن، على الرغم من يتمه، التكهن  
بالنموذج الرائع الذي سيصير إليه. أدرك برناردو أنه حيوان  
سحري. فالخيول تسير جماعاتٍ، وفي المراعي، فماذا كان يفعل في  
الغابة؟ ناداه بأفضل أصوات نايه، لكنّ الحيوان توقّف على مسافة  
معينة، بنظرة متشكّكة ومنخرين مفتوحين وأرجل مرتعدة، ولم  
يجرؤ على الاقتراب. أخذ الصبي قبضة من العشب الرطب، جلس على  
صخرة، وضعها في فمه وراح يمضغها، قدّمها بعد ذلك للحيوان  
الصغير في راحة يده، مرت برهة طويلة قبل أن يقرّر هذا أن يتقدّم  
خطوات قليلة مترددة. أخيراً مطّ رقبتة واقترّب كي يشمّ ذلك العشب  
الأخضر، وهو يراقب الصبيّ بنظرة أولية من عينيه الكستنائيتين،  
مقدّراً نواياه، وتراجعه في حال كانت الحالة عصبية. لا بدّ أنه أحبّ  
ما رأى، لأنه سرعان ما لامس بقرطوسه اليد الممدودة كي يجرب  
الغذاء الغريب. همس له برناردو: «إنّه مختلف عن حليب أمك، لكنه  
أيضاً يفيد». تلك كانت الكلمات الأولى التي يلفظها منذ ثلاثة أيام.  
أحسّ أن كلّ واحدة منها كانت تتشكّل في بطنه وتتصعدُ مثل كرة  
قطنية عبر حنجرتّه وتبقى تدور برهةً في فمه تخرج بعدها  
ممضوغةً، مثل العشب بالنسبة للمهر، من بين أسنانه. شيء ما تحطّم

في صدره، مثل إناء من صلصال وانسفع كل غضبه وشعوره بالذنب وإيمانه بالانتقام المريع في سيل جارف. هوى بركبتيه على الأرض، باكياً، متقيئاً طيناً أخضر ومرّاً، مرتعشاً من الذكرى المستمرة لذلك الصباح المشؤوم الذي فقد فيه أمه وفقد معها طفولته أيضاً. قلبت تلك الهواعث معدته وتركتها فارغة ونظيفة. تراجع المهر خائفاً، لكنه لم يذهب، وأخيراً، حين هدأ برناردو واستطاع أن ينهض على قدميه ويبحث عن بركة ماء ليغتسل، تبعه عن قرب. منذ تلك اللحظة لم ينفصلا خلال الأيام الثلاثة التالية. علمه برناردو أن ينكش بحافريه الأماميين بحثاً عن العشب البض، وسنده حتى تثبت أرجله وبدأ يخب، ونام معه ليلاً كي يمنحه الدفء وسلاّه بنايه. «ستدعي رعداً، إذا أعجبك هذا الاسم، كي تجري كالريح» اقترح عليه بنايه، لأنه عاد ولان بعد تلك الجملة بالصمت. ففكر أن يروضه ليهديه إلى ديفغو، لأنه لم يخطر له حظاً أفضل لهذا المخلوق النبيل، لكن المهر كان قد اختفى حين استيقظ في اليوم الرابع. كان الضباب قد ارتفع والشمس راحت تلعق التلال بنور فجرها الأبيض. عبثاً بحث برناردو عن رعد، منادياً إياه بصوت صار أجش من قلة الاستخدام، إلى أن أدرك أن المهر لم يأت إليه بحثاً عن مالك، بل ليذله على الطريق الذي عليه أن يسلكه في حياته. عندها أدرك أن الروح الهادية له هي الحصان وأن عليه أن يطور فضائله: الوفاء، والقوة والتحمل. قرّر أن تكون الشمس كوكبه والتلال عنصره، حيث لا بد أن رعداً يخب في هذه اللحظات كي ينضم إلى قطيعه.

كان ديفغو أقل إحساساً بالاتجاهات من برناردو فضاع سريعاً، كما كان أقل مهارة في الصيد فلم يصطد غير فأر صغير، ما إن سلخه حتى صار رزمة عظام محزنة. انتهى به الأمر إلى أن راح يلتهم نملاً وديداناً وضببة. كان منهكاً جوعاً من متطلبات الأيام الثمانية السابقة، فلم يعد يملك من القوة ما يواجه به الأخطار التي تترصد به، لكنه كان مُصمماً على ألا يترك العودة تُغويه. كانت

البومة البيضاء قد وضعت له أن الهدف من هذا الاختبار الطويل هو  
أن يترك خلفه الطفولة ويصبح رجلاً، ولم يكن باستطاعته أن يُخَيَّب  
أمل جدته من منتصف الطريق. ومع ذلك فالرغبة بالانفجار بالبكاء  
راحت ينتصر على تصميمه. لم يكن يعرف الوحشة. كان قد ترعرع  
بجانب برناردو، محاطاً بأصدقاء وناس يحتفون به، ولم يكن يشعر  
بالحاجة أبداً لحضور أمه غير المشروط. فهو لأول مرة يجد نفسه  
وحيداً وحدث له هذا في وسط تلك الطبيعة الوحشية تماماً. خاف ألا  
يعثر على طريق العودة إلى معسكر البومة البيضاء الصغير. خطر له  
أن بإمكانه أن يمضي الأيام الأربعة التالية جالساً تحت ذات الشجرة،  
لكن اندفاعه الطبيعي دفعه إلى الأمام. وسرعان ما وجد نفسه  
ضائعاً في رحابة التلال. وقع على رافدٍ فاستغله كي يشرب ويستحم،  
أكل بعدها الثمار المجهولة المقطوفة من الأشجار. ثلاثة غربان،  
وهي طيور محترمة عند قبيلة أمه، حامت عدّة مرّات على مقربة  
كبيرة من رأسه، عزاها إلى فالٍ حسنٍ وهذا ما شجّعه على المتابعة.  
وعند هبوط الليل وجد فجوةً محميةً بصخرتين، أشعل ناراً ولف  
نفسه ببطانية ونام على الفور، متوسلاً الله كيلا يخونه نجمه  
الحسن، الذي كان بحسب برناردو ينير له دربه دائماً، لأنه ليس  
هناك أدنى فكاهاة في أن يقطع كل تلك المسافة ليموت بين براثن  
فهدٍ. استيقظ في الليل المطبق على طعم الحموضة التي تسببت له بها  
الفواكه التي تناولها وعواء أبناء آوى قريب. لم يكن قد بقي من النار  
سوى جمرات خجولة، أمدها ببعض العيدان، مقدراً أن تلك النار  
البائسة المضحكة لا تكفي لإبقاء الضواري على الحد. تذكر أنه رأى  
في الأيام السابقة عدّة أنواع من الحيوانات كانت تحوم حولهم دون  
أن تمسّهم، ودعا الله ألا تفعل ذلك معه الآن أيضاً وهو وحيد. في  
تلك اللحظة رأى على ضوء النار عيوناً حمراء تراقبه بثباتٍ شبحي.  
أمسك بسكينه، ظاناً أنه ذئبٌ جسور، لكنه ما إن استوى حتى رآه  
بشكلٍ أفضل وانتبه إلى أن الأمر يتعلق بثعلب (زورو). استغرب أنه لا  
يتحرك، وبدا له مثل قط يتدفقاً على جمر النار. ناداه لكن الحيوان لم

يقترب، وحين أراد هو أن يقوم بذلك، تراجع بحذر، محافظاً دائماً على المسافة ذاتها بينهما. اعتنى ديفو بالنار برهة، إلى أن أنهكه التعب وعاد فنام، علي الرغم من العواء المتواصل لأبناء أوى البعيدة. كان يستيقظ كل برهة بُغْتَةً، لا يعرف أين هو، فيجد الثعلب (زورو) الغريب في المكان ذاته، مثل روح رقيقة. بدا له الليل أدياً إلى أن كشفت أنوار الفجر الأولى عن خط أفق الجبال. ولم يعد الثعلب موجوداً.

لم يحدث في الأيام التالية أي شيء يستطيع ديفو أن يفسره على أنه رؤيا، غير وجود الثعلب، الذي كان يصل مع حلول الليل ويبقى معه حتى الفجر هادئاً ومتيقظاً دائماً. حاول في اليوم الثالث وهو ضجر ومنهك من الجوع أن يعثر على طريق العودة، لكنه لم يكن قادراً على تحديد مكانه. قرّر أن من المحال عليه أن يقع على البومة البيضاء، لكنه إذا هبط التلال فسيصل أجلاً أو عاجلاً إلى البحر وهناك سيعثر على الطريق الملكي. شرع بالسير مُفكراً بخيبة أمل جدته وأمه حين تعلمان بأن جهد تلك الأيام الهائل لم يمنحه الرؤيا الكاشفة لمصيره، بل محض قلق، وتساءل ما إذا كان برناردو أكثر حظاً منه. لم ينجح في الوصول بعيداً، لأنه حين مرّ فوق جذع ساقط وضع ساقه على أفعى. تلقى لسعة في كعبه وكان لا بد أن تمرّ عدة ثوانٍ قبل أن يسمع خبط الأفعى ذات الأجراس الأكيد وينتبه تماماً لما جرى. لم يَنْتَبَهُ شكّ: فالوعدة كانت رقيقة العنق ومثلثة الرأس ومقطّبة الأهداب. ضربته الذعز في معدته ضربةً شبيهة بالرफسة التي رفسه إياها القرصان. تراجع عدّة خطوات، مبتعداً عن الأفعى، في الوقت الذي راح يستجمع معلوماته المشوشة عن ذات الأجراس. كان يعلم أنّ السمّ ليس قاتلاً دائماً، فهذا يتعلّق بكمية السمّ المحقون، لكنه كان واهناً وبعيداً عن أي نوع من المساعدة، والموت، إن لم يكن بالسمّ فبالخواء، هو الاحتمال الأكبر. كان قد رأى راعي بقرٍ نقلته إلى العالم الآخر زاحفة من هذه الزواحف، استلقى الرجل لينام بعد سكرته في متبني ولم يستيقظ بعدها. وكان



قد حملته الرب، حسب قول القس مندوثا، بخليط من السم والكحول إلى حضنه المقدس، حيث لن يضرب زوجته ثانية. كما تذكر معالجة الحمار في مثل هذه الحالات: فتح جرحاً عميقاً بالسكين وكواه بفحمة متقدة. رأى أن ساقه تزرُق، شعر بفمه يمتلئ لعاباً وبوجهه ويديه تُنمّل، ويرتعد قشعريرةً. أدرك أنه بدأ يهذي رعباً وأن عليه أن يحسم أمره فوراً، قبل أن يُغيِم فكره: إذا تحرك سيجري سم الأفعى في جسده بسرعة أكبر، وإذا لم يفعل مات في مكانه. فضل المتابعة على الرغم من أن ركبتيه كانتا تهنان وانتفخت أجفانه بحيث لم يعد يستطيع أن يرى. راح يسرع نازلاً التل، منادياً جدته بصوت هازٍ بينما راحت قواه تنفذ بلا هوادة.

سقط ديفغو على وجهه، ونجح بجهد كبير وبطيء في أن يتقلب بوجهه نحو السماء تحت شمس الصباح البرّاقة. كان يلهث، يُضنيه ظمأً مفاجئاً، ويتصبب كلساً حياً، في الوقت الذي كان يرتعد في صقيع قبر. لعن ربّ المسيحيين، لأنه هجره، ولعن الروح العظيمة، التي سخرت منه بتلك الفعلة الشنيعة، بدل أن تُكافئه وتهديه، كما تعاهدا. فقد تواصله مع الواقع وكذلك الخوف وراح يطفو في الريح الحارّة، كما لو أنّ تياراتٍ عجيبة راحت تصعدُ به لولبيّاً نحو النور. وفجأة وجد نفسه مشوشاً أمام احتمال الموت، فاستسلم بطمأنينة هائلة. كان الإعصار الملتهب الذي طفا فيه يدرك السماء، حين هوت الريح وألقت به مثل صخرةٍ في قاع هوة. رأى، قبل أن يفرق في هذيان مطلق، بومضةٍ من وعيه عينيّ الثعلب الصغيرتين الحمراءوين تنظران إليه من الموت.

تخبّط ديفغو في الساعات التالية في قطران كوابيسه، وحين نجح أخيراً في التخلص منها والخروج إلى السطح، لم يتذكّر غير الظمأ المطلق وعينيّ الثعلب الثابتتين. وجد نفسه برفقة البومة البيضاء وبرناردو، ينيره لهب نار، مُتدثراً في بطانية. تأخّر برهة في العودة إلى جسده وجرد آلامه واستخلاص النتيجة.

- قتلتني ذات الأجراس - قال ما إن استطاع أن يجرد صوته.

- لم تمت، يا بُني، لكنك أوشكت - ابتسمت البومة البيضاء.

- لم أجتز الامتحان، يا جدتي - قال الصبي.

- بل اجتزته، يا ديفو - أعلمته هي.

كان برناردو قد عثر عليه وحمله إلى هناك. كان الصبي الهندي مستعداً للعودة إلى حيث البومة البيضاء، حين ظهر له الثعلب. لم يشك بأن المسألة كانت تتعلق بعلامة، لأنه بدا له من غير المعهود أن يمر ذلك الحيوان ذو العادات الليلية من بين ساقيه في أوج ضوء الشمس. وبدل أن يستجيب لغريزته ويصطاده راح يُراقبه. لم يهرب الثعلب بل استقرّ على مسافة أذرع قليلة ينظر إليه ملتفتاً بأذنين مستنفرتين وفرطوس مرتعش. لو كان الظرف آخر لاقتصر برناردو على تسجيل ملاحظاته عن سلوك الحيوان الغريب، لكنه كان في حالة هذيان وأحاسيسه ملتهبه وقلبه مُشرّع على التنبؤات. راح يتبع الثعلب دون تردّد إلى حيث أراد أن يأخذه، إلى أن وقع بعد فترة على جسد ديفو المتخشب ورأى ساق أخيه منتفخة بشكل مرعب، فعرف على الفور ما حدث. لم يكن يستطيع أن يضيع لحظة واحدة، حمله على ظهره مثل كيس وشرع يحدّ الخطي إلى حيث البومة البيضاء، التي وضعت أعشابها الطبية على ساق حفيدها وجعلته يتصبّب السمّ عرقاً حتى فتح عينيه.

- لقد أنقذك الثعلب. إنه حيوانك الطوطم، دليلك الروحي -

وضّحت - عليك أن تمارس مهاراته، دهاءه، وذكاءه. أمك القمر ومسكنك الكهوف. سيكون عليك أن تكتشف مثل الثعلب ما تخفيه الظلمة، تتظاهر، تختبئ نهاراً وتعمل ليلاً.

- لماذا؟ - سأل ديفو، مشوشاً.

- ستعرف ذلك ذات يوم، لا يمكن استعجال الروح العظيمة.

حضر نفسك خلال ذلك حتى يأتي هذا اليوم - علمته الجدّة.

أبقى الفتيان بحكمة على سرّية الطقس الذي قادت به البومة

البيضاء. كانت الجالية الإسبانية تعتبر تقاليد الهنود أعمال جهل  
حمقاء، إن لم تكن وحشية. لم يكن ديفغو يريد أن تصل أية تعليقات  
إلى أبيه. اعترف لرخينا بالتجربة الغريبة التي عاشها مع الثعلب،  
دون تفاصيل. لا أحد سأل برناردو شيئاً، لأن الخرس جعله خفياً،  
وهي حالة لا شك مفيدة؛ فالناس يتكلمون ويتصرفون أمامه كما لو  
أنه غير موجود، سانحين له الفرصة كي يُراقب ويتعلم حول  
ازدواجية الطبيعة البشرية. بدأ يمارس عادة قراءة تعابير الجسد  
فاكتشف أن الكلمات لا تتطابق دائماً مع النوايا. خلص إلى أن القنلة  
بشكل عام سهلو اللي، وأن العنيفين هم الأقل صراحة وأن العجرفة  
هي ميزة الجهلة، وأن المداهنين هم عادة حقراء. تعلم من خلال  
المراقبة المنتظمة والمواربة فك رموز طبيعة الغير وطبق هذه  
المعارف في حماية ديفغو، الذي كان ذا طبيعة طيبة وكان يكلفه  
كثيراً تصور مثالب في الآخرين غير موجودة فيه. انقطع الصبيان  
عن رؤية المهر والثعلب. ظن برناردو أنه لمح رعداً عدة مرات يخبئ  
وسط قطع متوحش ووجد ديفغو في أحد مشاويره كهفاً فيه جراء  
ثعلب حديثة الولادة، لكنهما لم يستطيعا أن يربطاً أيّاً من هذه الرؤى  
بالرؤى المعزوة إلى الروح العظيمة.

في جميع الأحوال لقد طبع طقس البومة البيضاء مرحلة بطابعه.  
كلاهما تولد لديه انطباع بأنه عبّر عتبة وخلف وراءه الطفولة. لم  
يكونا قد شعرا بعد بأنهما رجلان، لكنهما كانا يعلمان أنهما  
يخطوان الخطوات الأولى في طريق الرجولة الوعر. معاً استيقظا  
على متطلبات رغبة الجسد المستعجلة، الأقل تحملاً من الجاذبية  
تجاه برق الليل العذبة والمبهمة التي كان يشعر بها برناردو منذ  
الماشرة من عمره. لم يخطر لهما أن يشبعا رغباتهما بين الهندييات  
الراضيات في قبيلة البومة البيضاء، حيث لا يسود التشديد المفروض  
من قبل المبشرين على المعتنقات الجديديات، لأن ديفغو كان يُكبله  
الاحترام المطلق لجدته بينما كان يكبح برناردو حب الجرو لبرق  
الليل. لم يتطلع برناردو لأن تبادل حبه، فهو كان يدرك أنها امرأة

كاملة مكتملة، يُغازلها نصف دزينة من الرجال الذين يأتون من بعيد ليحضروا لها الهدايا، بينما كان هو مراهقاً أخرق، ليس عنده ما يُقدّمه لها، وكان فوق ذلك أخرس مثل أرنب. كما أنّه ما من أحد منهما لجأ إلى مَوْلِدات وخلصيات ماخور روموليبيندا في لوس أنجلوس، لأنّهما كانا يخشيانهنّ أكثر مما يخشيان ثوراً فالتأ، كنّ مخلوقاتٍ من نوع آخر، بأفواه مطلية باللون القرمزي وبعطر ياسمين يابس نافذ. مثل كلّ الصبية في عمرهما - باستثناء كارلوس ألكاثار، الذي كان يتبجج بأنّه مرّ بالتجربة - كانا ينظران إلى تلك النسوة عن بعدٍ باحترام ورعب. كان ديفغو يخرج مع أبناء نبلاء آخرين إلى ساحة السلاح ساعة المشوار. في كلّ دورة حول الساحة يعبرون بفتيات من طبقتهنّ وعمرهنّ أنفسهنّ، اللواتي لا يكدن يبتسمن، ناظراتٍ شزراً ومخفيات وجوههنّ نصف إخفاء بالمروحة أو بالدثار، بينما هم يتصبّبون في ثياب الأحد عرقاً من حبّ مستحيل. لم يكونوا يتبادلون الأحاديث، لكنّ بعضهم، أكثرهم جرأة، كان يطلب إنناً من العمدة ليذهب ويغني تحت نوافذ الصغيرات، الفكرة التي هزت ديفغو خجلاً، لأنّ أباه كان، من ناحية من النواحي، العمدة. ومع ذلك سيجد نفسه يلجأ إلى هذه الطريقة في المستقبل، لذلك كان يُمارس يومياً أغاني رومانسية على مندولينه.

نظر أَلْخَانْدَرُو دِ لايغا برضى كبير إلى ابنه، الذي كان يعتقد أنّه طائشٌ عصيّ على الإصلاح، وهو يتحوّل أخيراً إلى الوريث الذي حلم به منذ رآه يولّد. جدّد مخططات تربيته كفاريس، التي أُجّلت في معمعة إعادة بناء المزرعة. فكَرّ بإرساله إلى مدرسة دينية في المكسيك، لأنّ الوضع في أوروبا كان ما يزال غير مستقرّ الآن بسبب نابليون بونابرت، لكنّ رخيخا ثارت ثائرتها أمام فكرة انفصالها عن ديفغو بحيث أنّه لم يتطرق إلى المسألة إلا بعد سنتين. في هذه الأثناء ضمّ أَلْخَانْدَرُو ابنه إلى إدارة المزرعة فرأى أنّه أكثر نكاءً مما تسمح بافتراضه علاماته في المدرسة. فهو لم يفك لغز خربشة الملاحظات والأرقام في دفاتر الحسابات، بل إنّهُ رفع دخل الأسرة

سال جهل  
تعليقات  
ع الثعلب  
له خفياً  
به كما لو  
لم حول  
الجسد  
أنّ القتل  
العجرفة  
من خلال  
بق هذه  
ن يكلف  
الصبيان  
ات يخب  
يه جراء  
ه الروى  
بطابعه  
قولة. لم  
أنّهما  
استيقظا  
لجاذبية  
دو مند  
لهنديات  
فروض  
ن يكبله  
و لبرقي  
ها امرأة

مكماً صيغة الصابون ووصفة تدخين اللحم، التي نجح والده في تحقيقها بعد محاولات لا تحصى من التدخين. ألغى ديبغو الصوديوم الاعتيادي في الصابون وأضاف إليه معجون الحليب واقترح تقديمه لسيدات المستوطنة، اللواتي كنَّ يحصلن على هذه المواد من البحارة الأمريكيين مخترقات التشديدات التي تفرضها إسبانيا على تجارة المستعمرات. أن يكون تهريباً ليس همّاً، فالجميع كان يغض الطرف، العائق كان يكمن في أنّ البواخر تجعلهم ينتظرون أكثر من اللازم. لاقى صابون كريم الحليب نجاحاً وكذلك اللحم المدخن، بعد أن تمكن ديبغو من تخفيف رائحة نتن عرق البغل التي كانت تميّزه. بدأ ألخاندرو د لايفغا يُعامل ابنه باحترام ويستشيريه في بعض المسائل.

حكى برناردو لديبغو في تلك الأيام بلغة العلامات الخاصة به والملاحظات على اللوح، أنّ أحد الملاك، خوان الكاثار، والد كارلوس، قد مدّ حدوده خارج الحدود المرسومة على الورق. كان الإسباني قد غزا بقطعانه الجبال، التي لجأت إليها إحدى القبائل الكثيرة التي أبعدها المستوطنون. رافق ديبغو أخاه ووصلا في الوقت المناسب، بينما العرفاء يحرقون الأكواخ يحميهم فصيل من الجنود. لم يبق من القرية إلا الرماد. وعلى الرغم من الرعب الذي سببه لهما المشهد هرع ديبغو وبرناردو راكضين كي يتدخلوا. وقفوا دون أن يتفقا وبغريزة واحدة بين المعتدين وأجساد الضحايا. كانت ستدوسهما أرجل الخيول لولا أنّ واحداً عرف ابن السيد ألخاندرو د لايفغا. في جميع الأحوال أبعدهما ضرباً بالسياط. وعن مسافة معينة رأى الصبيان مذعورين كيف أخضع الهنود القليلون الذين تمردوا بالسياط وكيف شقّ الزعيم، العجوز، إلى شجرة كي يكون عبيراً للآخرين. خطفوا الرجال القادرين على العمل في الحقل أو الجيش وحملوهم مقيدتين كالحيوانات. وبقي الشيوخ والنساء والأطفال محكومين بالتشرّد في الغابات جائعين قانطين. لا شيء من هذا كان جديداً، فقد كان يحدث باضطراد هو في كلّ مرّة أكبر، دون أن يتجرأ أحد على التدخل، باستثناء القسّ مندوثا، لكنّ

منه كانت الوثائق القضائية  
بعض الفجار، هؤلاء القضاة  
ويفرضون في مكانه المدعين  
سلخ السكان الأصليين، لا ي  
لطلب من المحيط في مونتري  
لا يفتقر الهنود من أولوياته. وك  
من المشكلة، لأنهم يضعون جنود  
لم يكونوا يشكون بتفوق الإسبان  
سألني نصية بهدف وحيد هو ت  
لدي ديبغو ليكلم والده. وجد  
يرى معارك قديمة في كتبه  
ما كان ما يزال موجوداً على  
عمر طولة طويلة جنوده الره  
ما لبث الذي لم ينجح قط في  
باعتها توأم مع برناردو، لكنّ  
الغنا  
ما الذي تُريدني أن أفعل  
- حضرتك العمدة...  
- توزيع الأراضي ليس من  
سلكي على الجنود.  
- لكنّ السيد الكاثار قتل و  
كيف يمكنك أن تسمح بمثل هذا  
- سأتكلم مع خوان الكاثار  
سأفعل - ردّ ألخاندرو مُحركاً  
رأى ألخاندرو د لايفغا

احتجاجاته كانت تلاقى اذانا صمّاء عند بيروقراطية إسبانيا البطيئة  
والبعيدة. كانت الوثائق تبحر سنواتٍ وتضيع في مكاتب القضاة التي  
يعلوها الغبار، هؤلاء القضاة الذين لم يطأوا أرض أمريكا قط،  
ويغوصون في مكائد المدّعين الحقوقيين، وأخيراً إذا قضى القضاة  
لصالح السكّان الأصليين، لا يكون هناك من يُنفذ الحكم على هذا  
الجانب من المحيط. في مونتري كان الحاكم يتجاهل المطالب، لأنّه  
لا يعتبر الهنود من أولوياته. وكان الضباط المكلفون بالسجون جزء  
من المشكلة، لأنّهم يضعون جنودهم في خدمة المستوطنين البيض.  
لم يكونوا يشكّون بتفوق الإسبان الأخلاقي، والذين وصلوا مثلهم من  
مناطق قصية بهدف وحيد هو تحضير ومشيخة هذه البلاد الوحشية.  
ذهب ديفغو ليكلم والده. وجده، كما هو حاله دائماً في المساء،  
يدرس معارك قديمة في كتبه عديمة الجدوى، الشاهد الوحيد الذي  
ما كان ما يزال موجوداً على طموحات شبابه العسكرية. كان ينشر  
على طاولة طويلة جنوده الرصاصيين بحسب إرشادات النصوص،  
هذا الوله الذي لم ينجح قط في تلقيه لديفغو. تحدّث الفتى بحماس  
ما عاشه توماً مع برناردو، لكنّ امتعاضه اصطدم بلامبالاة ألخاندرو  
بلايفغا.

- ما الذي تُريدني أن أفعله، يا بُني؟

- حضرتك العمدة...

- توزيع الأراضي ليس من صلاحية قضائي، يا ديفغو، ثمّ إنّهُ لا  
سلطة لي على الجنود.

- لكنّ السيّد الكاثار قتل وخطف هنوداً! اعذرني على إلحاحي،  
كيف يمكنك أن تسمح بمثل هذا التماذي! - تلعثم ديفغو مختنقاً.

- سأتكلم مع خوان الكاثار، لكنني أشكّ بأنّه سيعيرني أذنأ  
صاغية - ردّ ألخاندرو مُحركاً صفاً من جنوده على الطاولة.

وفي ألخاندرو بلايفغا بوعدِهِ. عمِل أكثر من الكلام مع المالك،

ذهب إلى الثكنة، وكتب تقريراً إلى الحاكم وأرسل الشكوى إلى إسبانيا. وبقي يُطلع أبه على كل إجراء، لأنه لم يكن يفعل ذلك إلا لأجله. كان يعرف نظام الطبقات أكثر من اللازم كيلا يعلق أملاً على إصلاح الشر. حاول بضغط من دييغو أن يساعد الضحايا، الذين تحولوا إلى مشردين بئسين، مقدماً لهم الحماية في مزرعته ذاتها. ولم تفد تحركاته، كما توقع، كثيراً أمام السلطات. فقد ضمّ خوان ألكاثار أراضي الهنود إلى أملاكه واختفت القبيلة دون أن تترك أثراً. ولم يتطرقوا للموضوع ثانية. لم ينس دييغو د لايفغا درس قط، وبقي طعم الظلم السيئ للأبد في أكثر زوايا ذاكرته اختفاءً، يعود من حين لآخر ليطفو مُخدداً مجرى حياته.

كان الاحتفال بذكرى ميلاد دييغو الخامسة عشرة أول حفل يُقام في بيت المزرعة الكبير. رخيماً، التي عارضت دائماً فتح أبوابها، رأت أنها المناسبة التامة لكم أفواه الأوباش الذين سمحوا لأنفسهم باحتقارها سنواتٍ طويلة. ولم تقبل فقط أن يدعو زوجها من يحلو له، بل واهتمت بنفسها بتنظيم الحفلة. زارت لأول مرة سفن التهريب لتزود بما هو ضروري وشغلت اثنتي عشر امرأة في الخياطة والتطريز. لم يفت دييغو أنه كان عيد ميلاد برناردو أيضاً، لكن ألكاندرود لايفغا بين له أنه، على الرغم من أن الصبي كان كفرد من العائلة، لا يمكن إهانة المدعوين بإجلاسهم إلى المائدة معه. فقرّر أن يأخذ برناردو لأول مرة مكانه بين هنود الخدمة. لم يكن هناك حاجة لمزيد من النقاش، لأن برناردو أسدل الستار على الموضوع كاتباً على لوحه بأنه يُفكر بزيارة قرية البومة البيضاء. لم يُحاول دييغو إقناعه بالعدول عن رأيه، لأنه كان يعلم أن أخاه يريد أن يرى برق الليل، كما أنه لم يكن بمقدوره أن يشد الحبل أكثر مع والده، الذي قبل بأن يسافر برناردو معه إلى إسبانيا.

كانت خطط إرسال دييغو إلى المدرسة في المكسيك قد عدلت مع

وصول رسالة من توماس د رومو، أقدم أصدقاء إيجاندرود لايغا.  
معاً خاضا الحرب في إيطاليا وبقيا يتواصلان على امتداد أكثر من  
عشرين عاماً عبر رسائل متفرقة. وبينما كان إيجاندرود لايغا  
يقضي حياته في أمريكا تزوج توماس من وريثة قطلانية وكرس  
نفسه للعيش الرغيد إلى أن توفيت في الولادة، وعندها لم يبق أمامه  
خيار آخر غير أن يستقر في المنزل ويكرس نفسه للاهتمام بتربية  
ابنتيه وما تبقى من ثروة زوجته. علق توماس د رومو في رسالته  
قائلاً بأن برشلونة ما زالت أهم مدن إسبانيا، وأن ذلك البلد يقدم  
أفضل تربية بالنسبة إلى شاب. كانوا يعيشون أياماً مذهلة. فنانليون  
غزا إسبانيا في العام 1808 بمئة وخمسين ألف رجل وخطف الملك  
الشرعي وجعله يتنازل عن العرش لأخيه نفسه، جوزيف بونابرت،  
وكان ذلك كله قد بدا لإيجاندرود لايغا حيفاً لا يمكن تصوّره، إلى  
أن تلقى رسالة صديقه. فقد وضح توماس أن وطنية الدهماء  
الجاهلة التي تحرّضها طبقة الإكليروس الدنيا وبعض المتعصبين  
يمكن أن تعارض أفكار الفرنسيين الليبرالية، الذين كانوا يتطلعون  
إلى القضاء على الإقطاع والقمع الديني. وقال إن تأثير الفرنسيين  
يشبه ريح تغيير رطبة ستكنس مؤسسات قروسطية كمحاكم التفتيش  
وامتيازات النبلاء والعسكر. ويعرض توماس د رومو في رسالته  
استضافة ديفغو في بيته، حيث سيعتني به ويحبه كأبن، حتى يتمكن  
من إتمام دراسته في مدرسة الدراسات الإنسانية، التي على الرغم من  
أنها مدرسة دينية - وهو لم يكن صديقاً للرهبان -، كانت تتمتع  
بسمعة رائعة. وأضاف متوجاً كلامه بما يشبه الوسام الذهبي أن  
باستطاعة الصغير أن يدرس على يد معلم المبارزة الشهير مانول  
إسكالانت، الذي استقر في برشلونة بعد أن جاب أوروبا معلماً فنه.  
كفى ديفغو سماع هذا الخبر الأخير كي يتوسل والده بإلحاح ليسمح  
له بالسفر، فاضطر إيجاندرود تعباً أكثر منه قناعة أن يدع، ذلك أنه  
ما من حجة من صديقه توماس د رومو كان باستطاعتها أن تخفف  
من اشمزازه من سماع أن الأجانب غزوا بلده. حرص الأب والابن



كثيراً على ألا يُعلما رَحِينَا بَأَنَّ إِسْبَانِيَا تَكْنَسُهَا حَرْبُ الْعَصَابَاتِ،  
الطَّرِيقَةُ الْقَاسِيَةُ فِي نِضَالِ الشَّعْبِ ضِدَّ جِيُوشِ نَابَلْيُونِ، الَّتِي إِنْ لَمْ  
تَكُنْ تَفِيدُ فِي اسْتِعَادَةِ الْبِلَادِ، إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ تَلْسَعُ الْعَدُوَّ كَالدَّبَابِيرِ  
مُسْتَنْفَدَةً مَوَارِدَهُ وَصَبْرَهُ.

بَدَأَ حَفْلُ عِيدِ الْمِيلَادِ الرَّاقِصِ بِقَدَاسٍ لِلْقَسِّ مِندُوثًا وَسِبَاقِ خَيْلٍ  
وَمِصَارَعَةِ ثِيرَانٍ، قَامَ دِييَغُو نَفْسَهُ فِيهَا بَعْدَةَ اسْتِعْرَاضَاتٍ بِالذَّئِيرِ،  
قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ قَاتِلُ الثِيرَانِ «الْمِيْتَادُور» الْمُحْتَرَفُ إِلَى الْحَلْبَةِ، تَبِعَهَا  
مَشْهُدٌ مِنَ الْبَهْلَوَانِيِّينَ الْمُتَنَقِّلِينَ تُوُجَّجَ بِالْأَلْعَابِ النَّارِيَةِ وَالرَّقْصِ. كَانَ  
هُنَاكَ طَوَالَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ طَعَامٌ لْخَمْسَمِئَةِ شَخْصٍ، مَوْزَعِينَ حَسَبِ  
الطَّبَقَاتِ الْاجْتِمَاعِيَةِ: الْإِسْبَانِ مِنْ أَصْحَابِ النِّسَبِ عَلَى الْمَوَائِدِ  
الرَّئِيسِيَّةِ الْمَغْطَاةِ بِأَغْطِيَةِ السَّفْرَةِ الْمَطْرُزَةِ فِي تَبْرِيفٍ، تَحْتَ دَالِيَّةٍ  
مَلِيئَةٍ بِالْعَنْبِ، وَأَهْلُ الْعَقْلِ بِأَفْضَلِ ثِيَابِهِمُ الْإِحْتِفَالِيَّةِ عَلَى الْمَوَائِدِ  
الْجَانِبِيَّةِ فِي الظَّلِّ، وَالْهِنُودُ فِي الْفَنَاءَاتِ تَحْتَ لَهَبِ الشَّمْسِ، حَيْثُ  
كَانَتْ تُشْوَى اللَّحُومُ وَتُحْمَصُ الْعَجَّةُ وَتُغْلَى قَدُورُ الْفَلْفَلِ الْحَارِ  
وَاللَّحْمِ. جَاءَ الْمَدْعُوعُونَ مِنَ الْجِهَاتِ الْأَرْبَعِ، وَحَدَّثَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي  
تَارِيخِ الْمَنْطِقَةِ ازْدِحَامَ عَرَبَاتٍ عَلَى الطَّرِيقِ الْمَلِكِيِّ. لَمْ تَغِبْ فِتَاةٌ  
وَاحِدَةٌ مِنْ أَسْرَةٍ مُحْتَرَمَةٍ، لِأَنَّ جَمِيعَ الْأُمَهَاتِ وَضَعْنَ نَصَبَ أَعْيُنِهِنَّ  
وَرِيثَ الْخَانْدُرُو دِ لَابِغَا الْوَحِيدِ، عَلَى الرَّغْمِ مِمَّا بِهِ مِنْ دَمِ هِنْدِيٍّ.  
كَانَتْ بَيْنَهُنَّ لَوْلِيْتَا بُولِيدُو، حَفِيدَةُ دُونِ خَوَانِ الْكَاتَارِ، ابْنَةُ الرَّابِعَةِ  
عَشْرَةِ، الرَّقِيقَةُ وَالْمَغْنَاجُ، الْمَخْتَلِفَةُ تَمَاماً عَنْ ابْنِ خَالِهَا كَارْلُوسِ  
الْكَاتَارِ، الَّذِي كَانَ يَعِشْقُهَا مِنْذُ الطُّفُولَةِ. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ  
الْخَانْدُرُو دِ لَابِغَا كَانَ يَكْرَهُ خَوَانِ الْكَاتَارِ مِنْذُ حَادِثَةِ الْهِنُودِ، إِلَّا أَنَّهُ  
اضْطُرَّ لِأَنْ يَدْعُوهُ مَعَ كَامِلِ أَسْرَتِهِ، لِأَنَّهُ أَحَدُ الْوَجْهَاءِ الْبَارِزِينَ فِي  
الْقَرْيَةِ. لَمْ يُسَلِّمْ دِييَغُو عَلَى الْمَالِكِ وَلَا عَلَى وَلَدِهِ كَارْلُوسِ، لَكِنَّهُ اِهْتَمَّ  
بِلَوْلِيْتَا لِأَنَّهُ اعْتَبَرَ أَنَّهُ لَا ذَنْبَ لِلطُّفُلَةِ بِآثَامِ خَالِهَا، ثُمَّ إِنَّهَا مِنْذُ عَامٍ  
وَهِيَ تُرْسَلُ إِلَيْهِ مَعَ قَهْرْمَانَتِهَا رِسَائِلَ حُبٍّ، لَمْ يَجِبْهَا عَلَيْهَا خَجَلًا  
وَلِأَنَّهُ كَانَ يُفْضَلُ أَنْ يَبْقَى قَدْرُ الْمُسْتِطَاعِ بَعِيداً عَنْ أَيِّ عَضْوٍ فِي  
عَائِلَةِ الْكَاتَارِ، حَتَّى وَلَوْ كَانَتْ ابْنَةُ أُخْتِ. أَصِيبَتْ أُمَهَاتُ الْبَنَاتِ

اللواتي كنن في عمر الزواج بصدمة حين تبين أن ديبغو لم يكن جاهزاً قيد شعرة للتفكير بالخطيبات، فهو أصغر مما تفترضه سنواته الخمس عشرة. ففي العمر الذي يُربّي فيه أبناء السادة الشوارب ويعزفون الموسيقى تحت الشبابيك لم يكن ديبغو قد حلق ذقنه بعد، وكان يضيع صوته أمام أيّة أنسة.

سافر الحاكم من مونتيّزي مصطحباً معه الكونت أورلوف، قريب قيصرية روسيا والمسؤول عن أراضي ألاسكا. كان يبلغ من الطول ستّة أقدام تقريباً وزرقة عينيه مستحيلة، وحضر مزداناً ببزّة فرسان جيش المجر القرمزية وسترة من الجلد الأبيض مزركشة، نشرها على كتفيه، تقطع صدره شرائط ذهبية وعلى رأسه قبّعة بجناحين مزدانة بالريش. إنّه دون شكّ أجمل رجلٍ شوهد في تلك النواحي. كان أورلوف قد سمع في موسكو عن زوجين من الدببة البيضاء أمسك بها ديبغو بلابغا حيّة وهو يرتدي ملابس امرأة ولا يكاد يبلغ الثامنة من عمره. لم يبدُ لديبغو أنّ من المناسب إخراجه من خطئه، لكنّ ألجاندرو، المهووس بالدقّة سارع ليوضح أنّهما لم يكونا دبّين، بل دبّاً واحداً وكان داكن اللون، إذ لم يكن في كاليفورنيا دببة أخرى، وأنّ ديبغو لم يصطده وحده، بل برفقة صديقين آخرين، وأنّهم ألصقوا به قبّعة بالقطران وأنّ الصبي كان في العاشرة من عمره وليس في الثامنة، كما كانت تدعي الأسطورة. كارلوس وعصابته، الذين تحوّلوا وقتها إلى بلطجيين بارزين، لم يكد أحد يلحظ وجودهم في زحمة المدعوّين، ولم يكن حال غارثيا كذلك، فهو قد شرب عدّة جرعات زائدة وراح يبكي بكاءً مرّاً نظراً لاقتراب موعد مغادرة ديبغو. كان ابن صاحب الحانة قد كثر شحماً أكثر من جاموس، لكنّه ما يزال الطفل الخائف وينظر إلى ديبغو بذهول. أسكت وجود النبيل الروسي البهي والوليمة المترفة السنة المستوطنين السيئة مؤقتاً. تمتعت رخيخا بروية الأشخاص المتعجرفين أنفسهم، الذين كانوا يزدرونها في السابق، ينحنون ليقبلوا يدها. ألجاندرو بلابغا البعيد تماماً عن هذه الترهات كان

يتنقل بين الضيوف فخوراً بموقعه الاجتماعي ومزرعته وابنه  
وأيضاً ولمرة واحدة بزوجته، التي حضرت الحفل بثياب دوقة من  
القطيفة الزرقاء وطرحة مطرزة من بروكسل.

كان برناردو قد خبّ يومين صاعداً الجبل إلى قرية قبيلته كي  
يودّع برق الليل؛ التي كانت بانتظاره، لأنّ بريد الهنود نشر خبر  
سفره مع ديفغو دي لايفغا. أخذته من يده ومضت به إلى النهر كي تسال  
ما الذي يوجد خلف البحر، ومتى يفكر بالعودة. رسم لها الفتى بعود  
رسماً خشناً على الأرض، لكنّه لم يستطع أن يجعلها تدرك هول  
المسافات التي تفصل قريتها عن إسبانيا الأسطورية، لأنّه هو نفسه  
لم يستطع تصوّرها. كان القسّ مندوثا قد أراه الكرة الأرضية، لكنّها  
كانت كرة مرسومة لم يكن باستطاعتها أن تُعطيه فكرة عن الواقع.  
أمّا بالنسبة للعودة، فقد وضح لها بالإشارات أنّه لا يعرف يقيناً متى  
يكون ذلك، لكنّها ستكون سنوات كثيرة. قالت له برق الليل «في هذه  
الحالة أريدك أن تحمل معك شيئاً مني للذكرى». ثمّ تعرّت الفتاة  
بعينين برّاقتين ونظرة حكمة أليّة، من أطواق بذورها وريشها  
وحزام خصرها الأحمر وجزمتها المصنوعة من جلد الأرنب، ودار  
جلد الجدي وبقية عارية تحت النور الذهبي الذي راح يتسرّب نقاطاً  
من بين أوراق الشجر. شعر برناردو بدمه يصير دبساً، وبنفسه  
ينقطع ذهولاً وامتناناً، وبروجه تخرج مع زفرائه. لم يدرك ما يفعل  
أمام تلك المخلوقة الرائعة، المختلفة عنه تماماً، والفائقة الجمال  
قدّمت نفسها إليه هدية رائعة. أمسكت برق الليل بيدٍ من يديه  
ووضعتها على صدرها، ثمّ بالأخرى ووضعتها على خصرها،  
رفعت بعدها يديها وفكّت صفائر شعرها الذي سقط مثل شلال من  
ريش غراب على ظهرها. أطلق برناردو إجهاشةً ونطق باسمها، برق  
الليل، الكلمة الأولى التي سمعتها منه. استقبلت الفتاة صوت اسمها  
بقبلة وبقية تُقبّل برناردو مبلّلةً وجهه بدموع مسبقة، لأنّها راحت  
تشتاق إليه حتى قبل أن يُفادها. بعد ساعات حين استيقظ برناردو  
من سعادته المطلقة التي لفّه بها الحبّ واستطاع أن يعود ليُفكر،

تجراً على أن يطرح على برق الليل ما لا يخطر ببال: أن يبقى معاً للأبد. فردت عليه بقهقهة سعيدة وأظهرت له أنه ما يزال صبياً تافهاً، ربّما يساعده السفر على أن يصبح رجلاً.

قضى برناردو عدّة أسابيع مع قبيلته حدثت خلالها أحداث جوهرية في حياته، لكنّه لم يبيغ أن يحكيها لي. والقليل الذي أعرفه عن هذه المسألة قالت له لي برق الليل. وعلى الرغم من أنني أتصوّر بغيّة المشكلة، فلن أحكيها احتراماً لجبيلته المتحفظة. لا أريد أن أسبب له إهانة. عاد إلى المزرعة مبكراً ليساعد ديفو في حزم أشياءه لنقلها في الصناديق ذاتها التي أرسلتها أيولاليا بكاليس قبل سنوات كثيرة. لم يكذب برناردو يظهر أمام ديفو حتى لاحظ هذا أنّ شيئاً أساسياً قد تغيّر في حياة أخيه بالرضاعة، لكنه حين أراد أن يتحقّق منه وجد نفسه أمام نظرة حجريّة جمّده. عندئذ تكهّن أنّ الأمر يتعلّق ببرق الليل، فلم يطرح عليه مزيداً من الأسئلة. ولأوّل مرّة في حياتهما كان هناك شيء لا يستطيعان أن يتشاركا فيه.

كان ألخاندرو د لا بيجا قد أوصى على ملابس أمير من المكسيك لابنه، أكملها بمسدّسات المبارزة المرصّعة بالصدف والدفّار الأسود المبطن بالحرير وأزرار الفضة الطليطيّة التي أهدتها إليه أيولاليا. أضاف ديفو إليها المندولين، الآلة المفيدة جداً له إذا ما تجاوز خجله من النساء، والشيش الذي كان لوأده، وسوطه المصنوع من جلد الثور، وكتاب المعلم مانول إسكالانت. على العكس منه كان متاع برناردو يتألّف من الملابس التي يرتديها، وبديلين من الملابس الداخلية، دثار قشتالي أسود، وجزّمة مناسبة لقدميه العريضين، هدية القس مندوثا، الذي اعتبر أنّه يجب عليه ألا يسير حافياً في إسبانيا.

ظهرت البومة البيضاء قبل يوم من سفر الشابين، كي تودّعهما. رفضت دخول البيت، لأنّها كانت تعلم أنّ ألخاندرو د لا بيجا يخجل من كونها حماته، وفضّلت ألا تخرج رخيئاً. اجتمعت بالفتيين في فناء

الدار، بعيداً عن مسامع الغرباء وسلّمتهما الهدايا التي أحضرتها  
لهما. أعطت ديفغو قارورة من الشراب المنوم مع ملاحظة أنه  
لايستطيع استخدامه إلا لإنقاذ حياة بشرية. ومن تعبيرها أدرك  
ديفغو أنها كانت تعرف أنه سرق المشروب السحري قبل خمس  
سنوات، فأكد لها وقد احمرّ خجلاً أن باستطاعتها أن تكون مطمئنة  
فهو قد تعلمّ الدرس وسيعتني بالشراب مثل كنز، وأنه لن يسرق مرة  
أخرى. جاءت الهندية إلى برناردو بكيسٍ جلديّ صغير يحتوي على  
ضفيرة شعرٍ أسود. أرسلته إليه برق الليل مع رسالة: أن يذهب بأمان  
الله ويصير رجلاً دون استعجال، لأنه حتى ولو مرّت أقمارٌ كثيرة،  
فسيجدها عند عودته تنتظره بحبٍ باقٍ على حاله. سأل برناردو  
المتأثر حتى نخاع عظمه الجدّة بإيماءات كيف يمكن لأجل فتاة في  
العالم أن تحبّه هو بالذات، الذي كان قملة؛ فأجابته بأنها لا تدري،  
فهكذا هنّ النساء من الغرابة. وأضافت بعدها مُزمجرة أن أي امرأة  
ستسقط أمام رجل لا يتكلّم إلا لأجلها. علّق برناردو الكيس إلى رقبته  
تحت القميص قريباً من قلبه.

ذهب الزوجان إلى لابغا وخدمتهما والقسّ مندوثا والمعتقون  
الجدد إلى الشاطي لوداع الفتيتين. أخذهما زورق لينقلهما إلى  
السفينة سانتا لوثيا ثلاثية الأشرعة، التي يقودها القبطان خوسا  
دياث، الذي وعد أن يمضي بهما سالمين غانمين إلى بنما، المرحلة  
الأولى من رحلتها الطويلة إلى أوروبا. كان آخر ما رآه ديفغو  
وبرناردو، قبل أن يصعدا إلى السفينة، هي شخصيّة البومة البيضاء  
الشامخة بدثارها المصنوع من جلد الأرنب وشعرها الجموح في  
الرياح، تلوّح مودّعةً بيدها من فوق كومة من الصخور، بالقرب من  
كهوف الهنود المقدّسة.

## القسم الثاني

برشلونة 1810 - 1812

بما أنكم قرأتم حتى هنا، أتشجع كي أستمّر بخطوات حثيثة. ما هو قادم أهمّ من السابق. ليس من السهل رواية طفولة شخص، لكن عليّ أن أفعل كي أعطيكم فكرة كاملة عن الثعلب (زورو). الطفولة مرحلة بانّسة، مليئة بالمخاوف التي لا أساس لها، مثل الخوف من المسوخ المتخيّلين والمضحكة. من وجهة النظر الأدبية، ليس فيها تشويق، ذلك أنّه، وباستثناء بعض الحالات، عادة ما يكون الأطفال سمجين قليلاً، كما أنّه ليس لهم سلطة، فالكبار يقرّرون عنهم، وبشكل سيّئ، يلقّنونهم أفكارهم الخاطئة عن الواقع، وبعدها يُحاول الصغار طوال حياتهم التخلص منها. ومع ذلك لم يكن هذه حال ديفغو د لايفغا، ثعلبنا (زورونا)، لأنّه عمل منذ سنّ مبكّر، إلى هذا الحدّ أو ذاك، ما حلاله. حالفه الحظّ بأنّ الناس الذين كانوا يحيطون به انشغلوا بعواطفهم وقضاياهم فأغفلوا مراقبته، وصل إلى عمر الخامسة عشرة دون ردائل ولا فضائل كبيرة، باستثناء جرعة مفرطة من الانشغال بالعدالة، والتي لا أدري ما إذا كانت من الدرجة الأولى أو الثانية، لكن لنقل إنّها صفة أساسية في طبيعته. باستطاعتي أن أضيف أن إحدى صفاته الأخرى هي الزهو، لكنني لو فعلت سأكون استبقت الأمور كثيراً، لأنّها تطوّرت عنده لاحقاً، حين انتبه إلى أنّ أعداءه يزدادون، وهذه دائماً علامة حسنة، وكذلك المعجبون به خاصة من الجنس الآخر. الآن هو رجل أنيق - على الأقل يبدو لي كذلك - لكنّه في الخامسة عشر من عمره، حين وصل

إلى برشلونة، كان ما يزال صبيّاً بارز الأذنين، لم يقبل صوت  
تماماً بعد. مشكلة الأذنين هي التي دفعته إلى استخدام القناع، الذي  
قام بوظيفة مزدوجة: إخفاء هويته وهاتين الزائدتين الحيوانيتين،  
لو أنّ مونكادا رأى أذني زورو لاستنتجنا على الفور أنّ منافسه  
الكريه هو ديفغو د لايفغا.

والآن، إذا سمحتم لي، سأتابع روايتي، التي صارت الآن مهمة،  
على الأقل بالنسبة إليّ، لأنني في هذه المرحلة تعرّفت على بطلي.

السفينة التجارية، سانتا لوثيا - التي كان البحارة يُسمونها  
أرليتيا تحببياً ولأنهم سئموا السفن التي تحمل أسماء قديسات - قامت  
بالرحلة بين لوس أنجلوس ومدينة بنما في أسبوع. مضى على  
خوسيه ديثا ثمانى سنوات وهو يجوب شاطئ المحيط الهادئ  
الأمريكي، جمع خلالها ثروة صغيرة، ففكر أنّ يحصل من خلالها على  
زوجة تصغره بثلاثين عاماً وينسحب إلى بلده في مرسية في مدة  
قصيرة. انتمنه أليخاندرو د لايفغا على ابنه بشيء من الخوف لأنّه  
كان يعتبره متهاوناً في أخلاقه، إذ يُقال إنّ حصل على ثروته من  
التهرب وتجارة النساء ذوات السمعة الجسورة. وصلت البنمية  
العجيبة، التي أضاعت بمتعها السهلة ليالي فرسان لوس أنجلوس،  
على متن سانتا لوثيا، لكن أليخاندرو د لايفغا قرّر أنّ هذا لا يجب أن  
يدفع إلى التحوّف، فخير أن يكون ديفغو في أيدي معروفة، مهما كانت  
منحطّة، من أن يبحر وحيداً عبر العالم. لا بدّ أن يكون ديفغو  
وبرناردو المسافرين الوحيديين على متنها وظنّ أنّ القبطان سيعتني  
بهما بغيرة. كان يقود المركب اثنا عشر بحاراً مُجرباً، موزعين على  
مناوبتين، مسماتين ميسرة وركاب للتمييز بينهما، على الرغم من أنّ  
هذين الإسمين لم يكونا يعنيان في تلك الحالة شيئاً. وبينما كانت  
تقوم مجموعة بمناوبتها أربع ساعات، كانت الأخرى ترتاح وتلعب  
الورق. ما إن تمكّن ديفغو وبرناردو من السيطرة على الدوار



والتعود على ترنح المركب حتى استطاعا أن ينضما إلى الحياة العادية على متنه. صاروا أصدقاء للبحارة، الذين راحوا يُعاملونهما بحنان وحمائية، ووزعا وقتها حسب نشاطات أولئك ذاتها. كان القبطان يقضي معظم وقته في قمرة، يمرح مع خلاسيته فلا ينتبه إلى أن الفتيتين اللذين أخذهما على عاتقه يقفزان مثل قردين على الصواري مجازفين بتحطم رأسيهما.

أثبت ديفغو مهارة في ممارسة الألعاب البهلوانية على الحبال فيتدلى من يده أو رجله، وفي لعب الورق. كان محظوظاً في سحب الورق ونكياً بشكلٍ مدهشٍ في الاحتيال فقد خسر أولئك اللاعبين الخبراء بأكثر الوجوه براءة، بحيث أنه لو راهن على مالٍ لجعلهم يمورون يأساً، لكنهم لم يستخدموا غير حبات الحمص والصدف. كانت النقود ممنوعة على المتن تفادياً لقتل البحارة بعضهم لبعض بسبب دين اللعب. تكشّف ليرناردو في أخيه بالرضاعة جانبٌ كان يجهله حتى ذلك الوقت.

- لن نجوع في أوروبا، يا برناردو، لأنه سيكون هناك دائماً من سنخسره في اللعب وستراهن على الدوبلونات الذهبية وليس على حبات الحمص، ما رأيك؟ بالله عليك، لا تنظر إليّ هكذا يا رجل، فأني إنسان سيقول إنني مجرم. السيئ فيك أنك مُنافق... ألا ترى أننا أصبحنا أخيراً خريئين؟ ما عاد هناك القس مندوثا كي يُرسلنا إلى الجحيم - ضحك ديفغو، المعتاد على أن يكلم برناردو ويُجيب نفسه بنفسه.

عند أكابولكو بدأ البحارة يرتابون بأن ديفغو يسخر منهم، فهددوا برميهِ في الماء من وراء ظهر القبطان، لكن أسماك القرش صرفتهم عن ذلك. وصلت بالعشرات، تلك المخلوقات الجبارة التي كانت تهمس بالحب مجتمعةً وتخبط البحر بذبولها المنفعلة. تظهر فجأة على السطح وتُحيط بسانتا لوثيا قريبة منها بحيث يمكن عدُّ القشريات الحجرية، الضاربة للصفرة الملتصقة بظهرها. على جلد

كل واحدة من تلك العماليق السوداء المليء بالقشور، طبع تاريخها  
وتاريخ أسلافها منذ قرون وقرون. فجأة ترتفع واحدة منها في  
الهواء، تدور لولبياً وتسقط بارتياح. كانت صغارها ترش السفينة  
برذاذ ناعم ومُنْعِش. في معمعة إبعاد أسماك القرش واضطراب  
ميناء أكابولكو غفر البحارة لدييفو، لكنهم حذروه بأن ينتبه، لأن  
القتل بالحيلة أسهل من الموت في الحرب. ثم إن برناردو لم يكن  
يتركه بشكوكه التخاطرية بسلام فاضطراً لأن يعده بالأستخدام تلك  
المهارة كي يثري على حساب إفلاس الآخرين، كما كان يُخطط.

أكثر ما في العبور بالسفينة من فائدة، إضافة إلى أنها أقلتها  
إلى حيث كانا ذاهبين، هي الحرية التي تمتع بها الفتيان لممارسة  
المآثر الرياضية التي وحدهم البحارة، الذين دبغت الشمس جلودهم،  
ومسوخ الاستعراضات يستطيعون القيام بها. كانا في طفولتهما  
يتدليان بأقدامهما من طرف الباب ورأسهما إلى الأسفل، هذه  
الرياضة التي حاولت رخينا وأنا منعهما منها بضربهما بالمكنسة،  
لكن دون جدوى. لم يكن يوجد في السفينة من يمنعهما من  
المجازفة، فاستغلوا لتطوير مهارتهما الكامنة منذ نعومة  
أظفارهما، التي كانت ستفيدهما كثيراً في هذا العالم. تعلمتا القيام  
بقفزات العقلة، تسلق حبال السفينة مثل العناكب والتوازن على  
ارتفاع ثمانين قدماً والهبوط من رأس الصارية محتضنين الحبال  
والانزلاق على طول حبل رخو ليصارعا الأشرطة. لا أحد أولاهما  
اهتماماً، كما لم يكن يهم أحداً أن يسقطا ويتحطم رأسهما.  
أعطاهما البحارة دروساً أولية جداً. علموهما صنع أنواع مختلفة  
من العقد، والغناء لمضاعفة العزم في أي عمل وضرب البسكويت  
لنفض ديدان السوس عنه وعدم الصفير أبداً في عرض البحر، لأنه  
يبذل الرياح، والنوم برهات مثل المولودين الجدد، وشرب الروم  
بالبارود لاختبار الرجولة. ما من واحد منهما نجح في هذا الاختبار  
الأخير، وكاد الغثيان يقضي على دييفو، بينما راح برناردو يبيكي  
طوال الليل، لأنه رأى أمه في منامه. الثاني على المتن كان أسكتلندياً

اسمه مكفرين وكان أكثر حنكة من القبطان في أمور الإبحار فأسدى  
إليهما أهم نصيحة: «يد للإبحار وأخرى لك». عليهما في كل لحظة،  
حتى في المياه الساكنة، أن يتشبَّثا جيداً. نسي برناردو الأمر ثانية  
حين أطلَّ من مؤخرة السفينة ليرى ما إذا كانت أسماك القرش  
تتبعهم. لم تكن تُشاهد في أي مكان، لكنهما كانا يحدسان بأنها  
ستظهر ما إن يرمي الطباخ الفضلات من جانبها. كان ساهياً في هذا  
ينظر إلى سطح المحيط حين قذف به تمايل في السفينة إلى الماء.  
كان سباحاً جيداً ومن حسن حظّه أن هناك من رآه وأبلغ عنه وإلا  
لبقي هناك، لأنّه في هذا الظرف لم يتمكّن حتى من إخراج صوته  
ليصرخ. وهذا ما تسبّب بحادثٍ مزعج. فقد رأى القبطان خوسيه  
دياث أن الأمر لا يستحق التوقف وإرسال زورق للبحث عنه، لما يلي  
ذلك من إزعاجات وإضاعة للوقت، ربّما لو كان ابن أليخاندرو  
لايفاً لما تردّد كل هذا التردّد، لكن الأمر كان يتعلّق بمجرّد هنديّ  
أخرس بل وأبله تماماً. تعلّل بأنه لا بد غيبي لأنّه سار على حافة  
السفينة. وبينما كان القبطان في حالة تردّد وبضغطٍ من مكفرين  
وبقية البحارة، الذين كانوا يعتبرون أنّ إنقاذ الشقي الذي يسقط في  
الماء مبدأ من مبادئ الإبحار لا يقبل الجدل، قفز ديبغو بعد أخيه.  
أغمض عينيه وقفز دون مزيد من التفكير، لأنّ المشهد من الأعلى  
كان هائلاً. كما لم ينسَ أسماك القرش، التي إذا لم تكن في تلك  
اللحظة هناك، إلا أنّها لا تبتعد أبداً كثيراً. خبله ارتطامه بالماء  
لثوان، لكن برناردو أدركه بعدة حركات من ذراعيه وبقي ممسكاً به  
من أنفه فوق السطح. أمام مشهد أنّ المسافر الرئيسيّ عنده كان  
يتعرض لخطر أن تلتهمه الأسماك إذا لم يتخذ قراره بسرعة، سمح  
خوسيه دياث بالإنقاذ. كان الأسكتلندي وثلاثة رجال آخرين قد نزلوا  
إلى القارب حين ظهرت أسماك القرش الأولى، التي بدأت رقصة فرح  
حول الغريقين. راح ديبغو يصرخ بأعلى صوته ويبلع ماءً، بينما  
برناردو يمسك صديقه بيد هادئاً ويسبح باليد الأخرى. رمى  
مكفرين بطلقة مسدس أقرب الأقراش إليهما وسرعان ما اصطبغ

الماء بضربات ريشة صدئة اللون. أفاد هذا في إلهاء بقية الحيوانات التي انقضت على الجريح بنوايا واضحة لأن تصنع منه وجبة غداء، وإفساح الوقت لإنقاذ الفتيين. موجة من التصفيق والصفير احتفلت بالعملية.

وبين إنزال الزورق وتحديد مكان الغريقين وضرب أسماك القرش الأكثر جسارة بالمجاذيف والعودة إلى متن السفينة ضاع وقت لا بأس به. اعتبر القبطان رمي ديبغو بنفسه إلى الماء إهانة شخصية وليّ ذراع فانتقم منه بمنعه من تسلق الصواري، لكن الأمر جاء متأخراً لأنهم صاروا أمام بنما حيث عليه أن يترك راكبيه. ودع الشابان بحارة سانتا لوثيا حزينين وهبطا إلى اليابسة مع أمتعتهما، مسلحين جيداً بمسدسيّ المبارزة وسيف وسوط ديبغو، القاتل مثل مدفع، إضافة إلى سكين برناردو، السلاح المفيد في أعمال كثيرة، بدءاً من تنظيف الأظافر وتقطيع الخبز وحتى الصيد الكبير. كان أليخاندرو ولايغا قد حذرهما ألا يثقاً بأحد. فأبناء البلد مشهورون بالصوصية، وبالتالي عليهما أن يتناوبا في النوم دون أن يرفعا نظريهما لحظة واحدة عن الصناديق.

بدأت مدينة بنما ليديبغو وبرناردو رائحة، لأن أي شيء بالمقارنة مع بلية لوس أنجلوس كان بالتأكيد رائعاً. من هناك كانت تمرّ ومنذ ثلاثة قرون ثروات الأمريكتين في طريقها إلى خزائن إسبانيا الملكية. ومن بنما كانت تُنقل على البغال عبر الجبال وبعدها في الزوارق عبر نهر تشاريس إلى بحر الكاريبي، وكانت أهمية هذا الميناء، إضافة إلى ميناء بورتوبلو على شاطئ المحيط الأطلسي، قد انحسرت مع نقص ذهب وفضة المستعمرات. كما كان يمكن الوصول من المحيط الهادئ إلى الأطلسي بالالتفاف حول القارة من أقصى الجنوب، في رأس هورنوس، لكن نظرة إلى الخارطة كانت تكفي كي يدرك المرء أنه كان طريقاً أبدياً. كان رأس هورنوس، كما وضح

القس مندوثا للفتيين، يقع حيث ينتهي عالم الرب ويبدأ عالم الأشباح. وكانوا يعبرون الحزام الضيق لبرزخ بنما، الرحلة التي لا تتطلب أكثر من يومين، يوفرون أشهراً من الإبحار، ولذلك حلم الإمبراطور كارلوس الأول منذ العام 1534 بفتح قنال بنما للربط بين المحيطين، لكن هذه الفكرة استبعدت مثل الكثير من الأفكار التي خطرت لبعض الملوك. أكبر عائق في المكان كان الأبخرة أو ضوع الغازات الذي كان يصدر عن نباتات الأدغال المتعفنة وعن وحول الأنهار التي تسمح بأوبئة مريضة. كان يموت عددٌ مرعب من المسافرين مصعوقاً بالحمى الصفراء والكوليرا والديزنتاريا. كما لم يخل الأمر ممن كان يجنن، حسب ما كانوا يقولون، لكنني أظن أن الأمر كان يتعلق بأناس واسع الخيال، ضعيفي الاستعداد للتوغل في المناطق الاستوائية. كان يموت في الأوبئة من الناس مما جعل حفاري القبور لا يغطون الحفر الجماعية التي تُكْدَس فيها الجثث، لأنهم كانوا يعرفون أن أعداداً أخرى ستصل في الساعات التالية. ولكي يحمي القس مندوثا ديبغو وبرناردو من هذه الأخطار سلم كل واحدٍ منهما قلادة لسان كريستوبال، حامي المسافرين والبحارة. وقد أعطت هاتان التعويذتان نتائج عجابية ونجا الاثنان. وهذا من حسن حظنا، فلولا ذلك ما نعمنا بهذه القصة. كان الحرّ الجهنمي يعيق تنفسهما وعليهما أن يقتلا البعوض بالحذاء، فيما عدا ذلك سراً جيداً. فتن ديبغو بتلك المدينة، حيث لا أحد يُراقبه، وفيها الكثير مما يختار من الإغواءات. وحده ورع برناردو منعه من أن ينتهي به الأمر إلى كهف سرّي أو بين ذراعي امرأة طيبة الإرادة وسيئة السمعة، حيث كان ولاشك سيقضي نحبه بطعنة خنجر أو أمراض غريبة. لم تُغمض عين لبرناردو في تلك الليلة ليس لحماية نفسه من اللصوص بقدر ما للعناية بديبغو.

تناول الأخوان في الرضاعة عشاءهما في مطعم شعبي في الميناء وباتا ليلتهما في غرفة نوم مشتركة في نزل، حيث يتكيف المسافرون كيفما يستطيعون على نضائد من الخيش على الأرض.

استطاعا بدفع سعر مضاعف أن يحصلوا على سريرين مُعلقين  
وناموسيتين قدرتين، وبذلك كانا في منأى عن الفئران والصراصير.  
وفي اليوم التالي عبرا الجبال ليتوجّها إلى كروثيس في طريق جيد  
مرصوف بالحجارة، بعرض بغلين، سماه الإسبان نظراً لطبيعتهم  
غير المبدعة الطريق الملكي. في المرتفعات كان الهواء أقل كثافة  
ورطوبة من الأراضي المنخفضة والمنظر الممتد تحتهما جنة  
حقيقيةة. مثل ضربات ريشة فنان عجيبة كانت تتلألأ في أخضر  
الأدغال المطلق طيور، ريشها جواهر وفراشات متعددة الألوان.  
وكان السكان الأصليون مهذبون تماماً فبدل أن يستغلّ براءة  
المسافرين الشائبين، كما هو متوقّع من سمعتهم السيئة، قدّموا لهما  
السّمك والموز المقلي واستضافوهما في تلك الليلة في كوخ تفزوه  
الحشرات، يحميهما على الأقل من المطر الغزير. نصحوهما بتفادي  
الرتيلاء ونوع من الضفادع الخضراء، التي تبصق في العيون  
فتعميها، ومن نوع من الجوز الذي يحرق مينا الأسنان ويحدث  
مغصاً قاتلاً في المعدة.

كان نهر تشارس يبدو في بعض المناطق سداً كثيفاً، وفي  
بعضها الآخر ماء زلالاً. وكان الناس يجوبونه داخل جذوع مجوّفة  
أو زوارق فطساء تتسع لثمانية أو عشرة مسافرين مع أمتعتهم.  
اضطرّ ديفغو وبرناردو أن ينتظرا يوماً كاملاً حتى تجمّع ما يكفي  
من الأشخاص لملء المركب. أرادا أن يربطوا في النهر كي يتبرّدا -  
كان الحرّ الثقيل يُفقد الأفاعي حسّها ويُخرس القرود - لكنهما ما  
كادا يضعان أقدامهما في الماء حتى أيقظا التماسيح التي كانت تغفو  
تحت السطح متماهيةً بالطين. تراجع الصبيان بسرعة بين قهقهات  
أبناء المنطقة الأصليين. لم يجرأ على شرب الماء الضارب للخضرة  
مع الشراغف التي قدّمها لهما مضيفوهما اللطيفون وتحمّلا العطش  
إلى أن جاء مسافرون آخرون، تجار أفضاظ ومغامرون شاطروهم  
قناني نبيذهم وبييرتهم. بلغ تلهّفهما للماء ورغبتهما بشربه حدّ أن  
أحداً منهما لم يكن قادراً على تذكّر شيءٍ من تلك المرحلة من الرحلة

استطاعا بدفع سعر مضاعف أن يحصلوا على سريرين مُعلقين  
وناموسيتين قدرتين، وبذلك كانا في منأى عن الفئران والصراصير.  
وفي اليوم التالي عبرا الجبال ليتوجَّها إلى كروثس في طريق جيد  
مرصوف بالحجارة، بعرض بغيين، سماه الإسبان نظراً لطبيعتهم  
غير المبدعة الطريق الملكي. في المرتفعات كان الهواء أقل كثافة  
ورطوبة من الأراضي المنخفضة والمنظر الممتد تحتها جنة  
حقيقيةة. مثل ضربات ريشة فنان عجيبة كانت تتلألأ في أخضر  
الأدغال المطلق طيور، ريشها جواهر وفرشات متعددة الألوان.  
وكان السكان الأصليون مهذبون تماماً فبدل أن يستغلوا براءة  
المسافرين الشائين، كما هو متوقع من سمعتهم السيئة، قدّموا لهما  
السّمك والموز المقلي واستضافوهما في تلك الليلة في كوخ تغزوه  
الحشرات، يحميهما على الأقل من المطر الغزير. نصحوهما بتفادي  
الرتيلاء ونوع من الضفادع الخضراء، التي تبصق في العيون  
فتعميها، ومن نوع من الجوز الذي يحرق مينا الأسنان ويحدث  
مغصاً قاتلاً في المعدة.

كان نهر تشارس يبدو في بعض المناطق سداً كثيفاً، وفي  
بعضها الآخر ماء زلالاً. وكان الناس يجوبونه داخل جذوع مجوفة  
أو زوارق فطساء تتسع لثمانية أو عشرة مُسافرين مع أمتعتهم.  
اضطرّ ديبغو وبرناردو أن ينتظرا يوماً كاملاً حتى تجمّع ما يكفي  
من الأشخاص لملء المركب. أرادا أن يربطوا في النهر كي يتبرّدا -  
كان الحرّ الثقيل يُفقد الأفاعي حسّها ويُخرس القرود - لكنهما ما  
كادا يضعان أقدامهما في الماء حتى أيقظا التماسيح التي كانت تغفو  
تحت السطح متماهيةً بالطين. تراجع الصبيان بسرعة بين قهقهات  
أبناء المنطقة الأصليين. لم يجراً على شرب الماء الضارب للخضرة  
مع الشراغف التي قدّمها لهما مضيفوهما اللطيفون وتحمّلا العطش  
إلى أن جاء مسافرون آخرون، تجار أفضاظ ومغامرون شاطروهم  
قناني نبيذهم وبيرتهم. بلغ تلهّفهما للماء ورغبتهما بشربه حدّاً أن  
أحداً منهما لم يكن قادراً على تذكر شيءٍ من تلك المرحلة من الرحلة

غير طريقة إبحار أبناء البلد الأصليين الخاصة، ستة رجال مزودين بستة عصي تجديف طويلة يقفون فوق سقالتين على جانبي المركب، يطمرون رؤوس مراديهم في قاع النهر بدءاً من كوثل المركب، ويسيرون بأسرع ما يستطيعون نحو قيدومه، دافعين به بكل ثقل أجسادهم، هكذا كانوا يتقدمون حتى بعكس التيار. ونظراً للحر كانوا يمضون عراة. استغرقت الرحلة ثماني عشرة ساعة تقريباً، قطعها ديبغو وبرناردو بما يُشبه الهذيان الأثيلي، مشدوهين تحت الظلة التي تحميها من شمس الحمم الملتهبة فوق رأسيهما. عندما وصلا إلى وجهتهما أنزلهما المسافرون الآخرون بين دفع وضحك من الزورق. وهكذا أضاعا بين مصب النهر ومدينة بورتوبلو أحد الصناديق وفيه جزء كبير من متاع الأمير الذي اشتراه الجاندرود لابغا لابنه. وكان في الحقيقة من حسن حظ ديبغو، لأن آخر موضحة أوروبية لم تكن قد وصلت إلى كاليفورنيا بعد. أطقمه كانت بصراحة مثاراً للضحك.

بورتوبلو، التي تأسست عام 1500 في خليج دازيين، كانت مدينة أساسية، لأن الكنوز كانت تُحمّل منها إلى إسبانيا وعبرها تصل البضائع الأوروبية إلى أمريكا. وبرأي القباطنة القدماء لم يكن يوجد في أراضي بلاد الهند (أمريكا) ميناء أوسع ولا أكثر أماناً منه. فقد كان يحتوي على عدة حصون للدفاع عنه، إضافة إلى أرصفة منيعة. بنى الإسبان الحصون بالمرجان الذي أخرجوه من أعماق البحر، الرخو حين يكون رطباً والمقاوم جداً حين يجف، بحيث أن طلقات المدفعية لم تكد تؤثر فيه. وكان يُنظّم فيها مرة واحدة في العام، حين يصل أسطول الكنز<sup>(\*)</sup>، معرض يدوم أربعين يوماً فيزداد عدد السكان بالآلاف من الزوّار. كان ديبغو وبرناردو قد سمعا بأن

(\*) Flota del Tesoro: أسطول الكنز هو اسم وجدنا أيضاً أنه لا بد من ترجمته، للدلالة التي يحملها وتفيد في فهم الجوّ الذي كان يسود آنذاك. م.



الذهب يُكَدَس في دار خزانة الكنز الملكية كما يُخزَن الحطب، لكنهما  
أصيبا بخيبة أمل لأن المدينة كانت قد تراجعت في السنوات الأخيرة،  
جراء تعرّضها لهجمات القراصنة من ناحية ومن ناحية أخرى لأن  
المستوطنات الأمريكية لم تعد مربحة كثيراً، كما في السابق، بالنسبة  
إلى إسبانيا. المساكن الخشبية والحجرية بهتت بسبب المطر،  
والأبنية العامة وعنابر السفن غزتها الأعشاب، والحصون وهنت في  
قيلولة أبدية، ومع ذلك كان هناك عدد من المراكب في الميناء، وخليّة  
من العبيد يحملون المعادن الثمينة والقطن والتبغ ويفرغون  
الصناديق للمستوطنات. كانت سفينة لا مادر دي ديوس<sup>(\*)</sup>، التي  
سيعبّر فيها دييغو وپرناردو الأطلسي مميزة بين المراكب.

كانت هذه السفينة، التي شيدت قبل خمسين عاماً، ما تزال في  
حالة رائعة، بصواريخها الثلاث وأشرعتها المربّعة، وكانت أكبر  
وأبطأ وأثقل من السفينة سانتا لوثيا، وأفضل للأسفار عبر المحيط.  
كان يتوّج قيدها تمثال عروس بحر هائل. فقد كان البحارة  
يعتقدون بأن الأتداء العارية تهدئ البحر وكان ثديا هذه المنحوتة  
هائلين. وقد أثبت القبطان سانتياغو دي ليون أنّه رجل فريد  
الشخصيّة. كان قصير القامة، ضامراً، ذا ملامح نُحِتت في وجه  
لفحته بحارّ كثيرة. كان يعرج بسبب عملية جراحية أُجريت له في  
ساقه اليسرى، ولم يستطع الجراح انتزاعها، لكنّه تركه في المحاولة  
مُعاقاً وموجوعاً بقيّة أيامه، لم يكن رجلاً شكّاء، وكان يشدُّ على  
أسنانه ويُعالج نفسه بصبغة الأفيون ويتسلّى بمجموعته من الخرائط  
العجيبة، التي تظهر فيها أماكن بحث عنها رحّالة مُثابرون قروناً  
طويلة دون نجاح، مثل إل دورادو، مدينة الذهب الخالص، أتلانتيد،  
القارّة الغارقة، التي كان سكانها من البشر، لكن لهم خياشيم مثل  
السّمك، جزر لوكباراليدو الغامضة في البحر الوحشي، المسكونة  
بكلاب السجق ذات الأسنان الحادّة والخالية مع ذلك من العظام والتي

(\*) La Madre de Dios: أمّ الربّ. م.

تطوف زرافات وتتغذى على الخردل الذي يسيل في الجداول والذي يستطيع، حسب ما يُعتقد، أن يشفي أسوأ الجراح. كان القبطان يتسلى بنسخ الخرائط وإضافة أماكن من اختراعه مع شروح تفصيلية، يبيعهها بعد ذلك بسعر الذهب لمحلات بيع التحف في لندن. لم يكن ينوي الخداع، فقد كان يوقعها دائماً باسمه، ويُضيف جملة محكمة يعرفها أي رجل خبير: «عمل مرقم من موسوعة الرغبات، نسخة كاملة».

كانت الحمولة قد صارت يوم الجمعة على متن السفينة لكن لامار ديبوس لم تُقلع لأن يسوع مات يوم الجمعة. وهذا يوم نحس للشروع بالإبحار. ويوم السبت رفض البحارة الأربعون الانطلاق لأن شخصاً أحمر الشعر مرّ بهم في الميناء وسقطت بجعة ميتة على جسر السفينة، وهذا دليل شؤم. أخيراً استطاع سانتياغو دليون يوم الأحد أن يقنع رجاله بنشر أشراعتهم. وكان المسافرون الوحيدون هم ديبغو وبرناردو ومستشار قانوني كان عائداً من المكسيك إلى الوطن مع ابنته، ابنة الثلاثين عاماً، القبيحة والبكاءة. عشقت الأنسة البحارة الأفظاظ واحداً فواحداً، إلا أنهم نفروا منها كما ينفرون من الشيطان، لأن الجميع كان يعرف أن النساء الشريفات على متن السفينة يجلبن الطقس السيئ وماسٍ أخرى. خلصوا إلى أنها شريفة لقلّة فرص الخطيئة، أكثر مما هي فضيلة طبيعية. كان المستشار القانوني وابنته يتمتعان بقمرة صغيرة، بينما كان ديبغو وبرناردو، مثلهما مثل البحارة، ينامان في سريرين معلقين على السطح السفلي المُنْتِن، وكانت قمرة القبطان في مقدّمة السفينة ويستخدمها مكتباً ومقراً للقيادة ومطعماً وصالةً لتسلية المستخدمين والمسافرين. كانت أبوابها وأثاثها، مثل معظم الأشياء على متنها، تُطوى حسب الضرورة، وبذلك كان الفضاء أكبر ترف. لم يتمتع الفتيان، خلال أسابيع في عرض البحر، قط بلحظة خلوةٍ واحدة، فحتى الحاجات الأساسية قوضوها في سطل على مرأى من الآخرين، إذا كانت هناك أمواج وإلا فجالسان على لوح فيه فتحة مباشرة على البحر، لا أحد

عرف كيف تدبّرت ابنة المستشار النانوني النظيفة أمرها لأنهم لم يروها قط تُفرغ مبولّة. وكان البحارة يتراهنون على ذلك، ميتين ضحكاً في البداية ثم مذعورين لأنّ كبتاً متواصلاً يبدو عملاً سحرياً كان الضجيج، إضافة إلى الحركة المتواصلة والتزاحم هو الأبرز فالخشب يصزّ والحبال تنزّ والماء يسوط السفينة. لم يكن التكيف مع حياة البحارة أمراً سهلاً بالنسبة إلى ديبغو وبرناردو المعتادين على العزلة في فضاءٍ وصمتٍ كاليفورنيا الهائلين.

فكر ديبغو أن يجلس على كتفي تمثال القيدوم، المكان المثالي لمراقبة خطّ الأفق اللانهائي، والتبلّ برداذ الماء المالح والسلام على الدلافين. كان يعانق رأس الفتاة الخشبية ويسند قدميه إلى حلمتها. ونظراً لأنّ الفتى كان رياضياً اقتصر القبطان على الطلب منه بأن يربط نفسه بحبل من خصره، لأنّه إذا سقط من هناك ستمرّ السفينة فوقه، لكنّه لم يقل له شيئاً، عندما فاجأه بعدها معتلياً أعلى نقطة في الصارية الكبرى، على ارتفاع أكثر من مئة قدم. وجزم بأنّه مكتوب على الفتى أن يموت قريباً ولا يستطيع منع ذلك. كانت هناك نشاطات دائمة في السفينة، لا تتوقّف لا ليلاً ولا نهاراً، لكنّ غالبيتها تتمّ نهاراً. وكانت المناوبة الأولى تحدّد بقرع الناقوس عند الظهر، حين تكون الشمس في سمتها، والقبطان يقوم بالعملية الأولى لتحديد موقعه. في هذه الساعة يوزّع الطباخ حصّة كلّ رجل من الليمونادة، للوقاية من داء الحفر ويوزّع المستخدم الثاني الروم والتبغ، الرذيلتين الوحيدتين المسموحتين على متن السفينة، حيث القمار والشجار والعشق بل والتشاتم ممنوعة. كان القبطان يقوم في غسق الإبحار، ساعة الغروب الغامضة هذه وفي الفجر والنجوم تتلألأ في قبة السماء، وخطّ الأفق ما يزال مرئياً، بإجراءات جديدة بسدسيته ويراجع مقاييسه وكتاب زيغ السماء، الذي يُحدّد موقع كلّ نجم في كلّ لحظة. جاءت هذه العملية الهندسية مذهلة بالنسبة لديبغو، لأنّ النجوم كلّها كانت تبدو له متشابهة فأنى نظر لا يرى غير بحر الفولاذ ذاته والسماء البيضاء ذاتها، لكنّه سرعان ما تعلّم

أن يُراقب بعيني البحار. كذلك القبطان كان يعيش مشدوداً إلى مقياس الضغط الجوي، لأنّ التغيرات في الضغط في الهواء تُنذره بالعواصف وبالأيام التي تولمه فيها ساقه أكثر.

في الأيام الأولى كان يتوافر الحليب واللحم والخضراوات، لكنهم اضطروا قبل أسبوع من وصولهم أن يقتصروا على البقول والرز والفواكه المجففة والبسكويت الأبدّي القاسي كالمرمر، الذي يفور بالسوس. كما كان يوجد لحم مملّح، ينقعه الطباخ في الماء والخلّ عدّة أيّام قبل أن يرمي به في القدر، كي يزيل عنه زنخة سرج الحصان. فكّر ديبغو أنّ باستطاعة والده أن يقيم تجارة رائحة باللحوم المدخّنة التي يصنعها، لكنّ برناردو بينّ له أنّ نقلها بكميات كافية إلى بورتوبلو حلم. على طاولة القبطان، التي كان يدعى إليها ديبغو من دون برناردو، والمستشار القانوني وابنته دائماً، كانت تُقدّم إضافة إلى ذلك ألسنة بقر مخلّلة وزيتون وجبن مانتشّي ونبيد. وضع القبطان تحت تصرّف المسافرين رقعة شطرنجه وورق لعبه، ورزمة كتبه، التي لم تلقَ اهتمام أحد غير ديبغو، الذي وجد بينها عدداً من الرسائل حول استقلال المستعمرات. كان ديبغو معجباً بنموذج الأمريكيين الشماليين، الذين تحرّروا من نير الإنكليز، لكن لم يخطر له أنّ تطلّع المستعمرات الإسبانية في أمريكا للحرية جدير أيضاً بالثناء إلى أن قرأ منشورات القبطان.

حدث أنّ سانتياغو دي ليون كان متحدّثاً مسلّياً إلى حدّ أنّ ديبغو ضحى بساعات ألعابه البهلوانية السعيدة على حبال السفينة ليتحدث معه ويدرس خرائطه المذهلة. اكتشف القبطان، الانعزالي، متعة مشاركة عقل شاب ومتقصّ له في معارفه. كان قارئاً نهماً، يحمل معه صناديق من الكتب، يبدّلها بأخرى في كلّ ميناء. طاف عدّة مرّات حول العالم، وصار يعرف بلاداً غريبة غرابة البلاد الموصوفة في خرائطه الخرافية وأوشك أن يموت عدّة مرّات، مما جعله يفقد الخوف من الحياة. أكثر ما كان موحياً لديبغو، المعتاد

على الحقائق المطلقة، هو أن هذا الرجل كان يتمتع بعقلية نهضوية،  
وشكك بكل الأساس الفكري والأخلاقي عند أليخاندرو دي لا بيجا، القس  
مندوثا ومعلمه في المدرسة، وكانت تصدر عن دييغو أحيانا أسئلة  
حول النظم الجاهزة في دماغه منذ ولادته، لكنه لم يتجرأ قط على  
تحديها جهراً. عندما كانت القواعد تفرض إزعاجها يخفف منها،  
يقلل من أهميتها بشكلٍ موارب، ولا يتمرد عليها بشكلٍ مفتوح. لقد  
تجرأ فتطرق بالكلام مع سانتياغو دي ليون إلى مواضيع ما كان  
ليتطرق إليها أبداً مع أبيه. اكتشف مندهشاً أن هناك طرقاً مختلفة لا  
نهاية لها في التفكير. وبين له دي ليون أنه ليس الإسبان وحدهم من  
يظنون أنهم متفوقون على بقية البشرية، فكل الشعوب كانت تعاني  
من هذا السراب ذاته؛ وأن الإسبان كانوا يرتكبون الفظائع نفسها  
التي يرتكبها الفرنسيون أو أي جيش آخر: يفتصبون، يسرقون،  
يُعذبون، يقتلون وأن المسيحيين والمسلمين واليهود يؤكدون أن  
إلههم هو الوحيد الحقيقي، ويزدرون الديانات الأخرى. كان القبطان  
من أنصار إلغاء الملكية واستقلال المستعمرات، المفهومين الثوريين  
بالنسبة لدييغو، الذي تربى على الاعتقاد بأن الملك مقدس وأن  
الواجب الطبيعي لكل إسباني هو احتلال وتنصير البلاد الأخرى. كان  
سانتياغو دي ليون يدافع بحماس عن مبادئ الثورة الفرنسية،  
المساواة والحرية والمواخاة؛ ومع ذلك لا يقبل احتلال الفرنسيين  
إسبانيا. في هذا الموضوع أظهر وطنية ضارية: قال إنه يفضل أن  
يرى وطنه غارقاً في ظلمات العصور الوسطى على انتصار الأفكار  
الحديثة إذا كانت ستفرض من قبل الأجانب. لم يغفر لنابليون أنه  
أجبر ملك إسبانيا على التنازل عن العرش ووضع محله أخاه،  
خوسيه بونايرت، الذي أسماه الشعب ببّ القنينة.

- كل طغيان مكروه، أيها الشاب - خلص القبطان - ونابليون  
طاغية، بماذا أفادت الثورة إذا كان الملك قد استُبدل بإمبراطور؟  
البلاد يجب أن يحكمها مجلس من الرجال المستنيرين، المسؤولين  
عن أعمالهم أمام الشعب.

- سلطة الملوك مصدرها إلهي، أيها القبطان - علق ديبغو  
بخفوت، مكرراً كلمات والده، دون أن يفهم ما يقول.  
- ومن يضمن ذلك؟ ما أعرفه، أيها الشاب دِ لابغا، أن الله لم يقل  
كلمته بهذا الخصوص.  
- حسب الكتاب المقدس...

- هل قرأته؟ - قاطعه، سانتياغو دِ ليون بشدة - فالكتاب  
المقدس لا يقول في أي مكان أن آل بوربون يجب أن يحكموا  
إسبانيا أو نابليون فرنسا. ثم إن الكتب المقدسة ليس فيها أي شيء  
مقدس، فقد كتبها بشر ولم يكتبها الله.

كان الوقت ليلاً وكانا يتنزّهان على الجسر. البحر هادي، وبين  
صرير السفينة الأبدية كان يسمع ناي برناردو مذهلاً يبحث عن برقي  
الليل وعن أمّه في النجوم.

- هل تعتقد أن الله موجود؟ - سأله القبطان.  
- طبعاً، أيها القبطان!

أشار سانتياغو دِ ليون بحركة مطولة إلى قبة السماء المظلمة  
المرصعة بالمجرات.

- إذا كان الله موجوداً، فهو بالتأكيد ليس معنياً بتعيين ملوك  
كل كوكب سماوي... - قال.

أطلق ديبغو دِ لابغا صيحة رعب. فالشك بالله هو آخر ما يمكن  
أن يمرّ بذهنه، وهو أخطر ألف مرّة من الشكّ بسلطة الملكية  
المقدسة. ولأسباب أقل من هذه بكثير أحرقت محاكم التفتيش  
المخيفة الناس في نيران مشينة، وهو ما لا يبدو أنه يشغل القبطان  
إطلاقاً.

رأى ديبغو، المتعب من ربح حبات الحمص والأصداف في لعب  
الورق مع البحارة، أن يخيفهم بقصص مرعبة مستلهمة من كتب

القبطان وخرائطه المذهلة التي أغناها مستعيناً بخياله الذي لا ينضب، حيث كانت تظهر أخطبوطات عملاقة قادرة على أن تدمر بمجساتها سفينة بحجم لامادر دي ديوس وسمندرات ملتزمة بحجم سمكة القرش وعرائس بحر تبدو له من بعيد فتيات شقيقات، لكنها في الحقيقة مسوخ لها ألسنة على شكل أفعى. يجب عدم الاقتراب منها أبداً لأن أذرعها مفرضة، تعانق الغافلين وتقبلهم وعندئذ تدخل ألسنتها القاتلة في حناجر الضحية الشقية وتلتهمها من داخلها، فلا تترك منها غير هيكلها العظمي مغطى بالجلد.

- هل رأيتم تلك الأنوار التي تلمع أحياناً فوق البحر، تلك النيران التي يسمونها بالمشؤومة؟ طبعاً تعرفون أنها تمثل وجود الموتى الأحياء. إنهم بحارة مسيحيون قضوا نحبتهم في هجمات القراصنة الأتراك. لم يتمكنوا من الخلاص من آثامهم، وأرواحهم لا تهتدي إلى طريق المطهر. إنهم عالقون مع بقايا سفنهم في قاع البحر، دون أن يعرفوا أنهم موتى. في ليالٍ كهذه تصعد هذه الأرواح المعذبة إلى السطح. وإذا ما شاء الحظ السيء وتواجدت هناك سفينة تسلق الموتى - الأحياء إلى متنها وسرقوا ما يعثرون عليه، المرساة والدفة وأدوات القبطان والحبال بل وحتى الصواري. ليس هذا هو أسوأ ما في الأمر، يا صديقي، فهم يحتاجون إلى بخارة. ومن يمسكون به يجرونه إلى أعماق المحيط ليساعدهم على إنقاذ السفن والإبحار إلى الشواطئ المسيحية. أمل ألا يحدث هذا لنا في هذه الرحلة، لكن علينا أن نكون منتبهين. فإذا ما ظهرت أشباح سوداء حذرة تستطيعون أن تكونوا على يقين من أنهم الموتى - الأحياء. ستعرفونهم من أذرتهم التي يرتدونها كي يخفوا عظامهم البائسة المخشخة.

تأكد راضياً، من أن بلاغته تحدث خوفاً جماعياً. كان يحكي قصصه ليلاً، بعد العشاء، في الوقت الذي يتلذذ فيه الناس بحضنتهم من الروم ويمضفون تبغهم، لأنه كان أسهل عليه أن يجعل شعرهم

ينتصب ذعراً في شبه الظلمة. سارع، بعد أن هبّ الجو بعدة أيام من  
القصص المرعبة، لتوجيه الضربة القاضية. بلباسه الأسود الأبدى  
وقفازيه ودثاره ذي الأزرار الطليطلية راح يقوم بظهورات مباغته  
وقصيرة جداً في أكثر الزوايا ظلمة، وبهذا الزي كان يتحوّل إلى  
كائن خفي ليلاً، باستثناء الوجه، لكن خطر لبرناردو أن يغطيه أيضاً  
بمنديل أسود، فتح فيه فتحتين للعينين. رأى عدد من البحارة ميتاً -  
حيّاً واحداً على الأقل. وسرعان ما دبّ الصوت بأن السفينة مسحورة  
واتهموا بذلك ابنة المستشار القانوني، التي لا بدّ أنّها مسكونة  
بالشيطان، لأنّها لم تستخدم المبولة. وحدها من يمكن أن تكون  
مسؤولة عن جذب الأشباح. وصلت التقولات إلى العانس العصبية  
فتسببت لها بشقيقة مريضة، اضطرت القبطان إلى أن يغيّبها يومين  
عن الوعي بجرعات رائعة من صبغة الأفيون. حين علم سانتياغو  
دي ليون بما جرى جمع البحارة في غرفة القيادة وهددهم بحرمانهم  
من الكحول والتبغ جميعاً إذا ما استمروا بنشر الترهات. وقال إنّ  
النيران المشؤومة ظاهرة طبيعية، مصدرها غازات تصدر عن تفسّخ  
الطحالب، والأشباح التي يعتقدون أنّهم يرونها إنّما هي نتاج  
التوهّم. لم يصدّقه أحد، لكنّ القبطان فرض النظام وما إن استعيد  
مظهر الهدوء بين ناسه حتى قاد ديبغو من جناحه إلى قمرة وحذّره  
على انفراد من أنّه إذا ما عاد أيّ ميت - حيّ ليطوف في لا ماري دي  
ديوس فلن يتوانى عن جلده.

- لي الحق بالموت والحياة في سفينتي، ولدي مبرر كبير لأنّ  
أترك علامات على جلدك للأبد. هل نحن متفاهمان، أيّها الشاب دي  
لابغا؟ - قال له مدمماً - ومؤكداً على كل كلمة.

كان واضحاً وضوح الظهيرة، لكنّ ديبغو لم يردّ، لأنّه سها  
متأملاً ميدالية ذهبية وفضيّة، متدلّية من عنق القبطان، نُقِشت عليها  
رموز غريبة. وحين أحسّ سانتياغو بأنّ ديبغو رآها سارع إلى  
إخفائها وتزوير السترة. كانت حركته من الفظاظة بحيث لم يتجرأ



الفتى على سؤاله ما معنى تلك الجوهرة. وما إن فرّج القبطان عن نفسه حتى رق.

- إذا ما حالفنا الحظ بالريح ولم يعترضنا القراصنة فإن هذه الرحلة ستدوم ستة أسابيع. وسيكون لديك من الوقت ما يكفي كي تسأم أيها الشاب. وأقترح عليك أن تدرس بدل أن تُخيف أتباعي بمقالبك الصبيانية. فالحياة قصيرة ودائماً ينقصنا الوقت كي نتعلم.

قدّر ديفغو أنه قرأ كل ما هو مهم على متن السفينة وصار يتقن السدسية والعقد البحرية والأشعة، لكنه أوماً بالموافقة دون تردد لأنّ علماً آخر كان في دماغه. اتجه إلى قاع السفينة الخائق حيث كان الطباخ يعدّ تحلية الأحاد، حلوى الدبس والجوز، التي كان البحارة ينتظرونها الأسبوع كله بفارغ الصبر. كان جنوياً انضم إلى البحرية الإسبانية التجارية هرباً من السجن، حيث كان عليه أن يكون تنفيذاً للعدالة، لأنه قتل زوجته بضربة فأس واحدة. وكان له اسم غير مناسب بالنسبة إلى بحار: غاليليو تمبستا<sup>(\*)</sup>. وقبل أن يعمل طاهياً في لا مار دي ديوس عمل تمبستا ساحراً، وكسب عيشه بحيل إيهامه جانباً الأسواق والاستعراضات. كان له وجه مُعبّر وعينان مهيمتان ويديا بارع أصابعهما كالمجسات، يستطيع أن يخفي قطعة نقدية بمهارة تجعل من المحال أن يكتشف أحد عن بعد شبر، بأية طريقة فعل ذلك. وكان يستغل لحظات فراغه في المطبخ كي يتمرن، فحين لا يُقلّب النقود وأوراق اللعب والسكاكين بين يديه، يخط مناطق سرية في القبعات والأحذية وبطانات الملابس وأطراف أكمال السترات، ليخفي فيها المناديل متعددة الألوان والأرانب الحية.

- أرسلني القبطان، يا سيد تمبستا كي تعلمني كل ما تعرفه - أعلن له ديفغو بسرعة.

- ليس كثيراً ما أعرفه عن الطهي، أيها الفتى.

- أقصد السحر أكثر من غيره...

(\*) Galileo Tempesta: غاليليو العاصفة. م.

- هذا لا يتم تعلمه بالكلام، بل بالعمل - ردّ غاليليو تمبستا.

كرّس بقية الرحلة لتعليمه حيله، للأسباب ذاتها التي كان يحكي له فيها القبطان عن أسفاره ويريه خرائطه، لأنّ هذين الرجلين لم يحظيا قط بمثل الانتباه الذي قدّمه لهما ديفغو. عند انتهاء الرحلة بعد واحدٍ وأربعين يوماً أصبح باستطاعة ديفغو، بين ماثر أخرى، أن يبلغ دوبلونا ذهبياً وأن يخرجّه على حاله من إحدى أذنيه البارزتين.

غادرت لا مار دي ديوس ميناء بورتوبلو واتجهت مستقلة تيارات الخليج إلى الشمال بمحاذاة الشاطئ. عبرت المحيط الأطلسي بالقرب من جزر برمودا وتوقفت بعد أسابيع في جزر لاس أزورس للتزود بالماء والأغذية الطازجة. كان أرخبيل الجزر البركانية التسع، الذي يعود للبرتغال يعتبر ممراً إجبارياً لصيادي الحيتان من عدة جنسيات. عرّجوا على جزيرة فلوريس، وهي اسم على مسمى<sup>(\*)</sup>، فقد كانت مغطاة بالقرطاسية والورود، وصادف يوم عيد وطني. بشم البحارة من النبيذ والحساء القوي الذي يشتهر به المكان، وتسلاوا بعدها قليلاً بالتشاجر والتلاكم مع صيادي الحيتان الأمريكيين والنرويجيين؛ ولكي يتوجّوا نهاية أسبوع رائع خرجوا جماعياً للمشاركة في حفل مصارعة الثيران الشامل. انطلق سكّان الجزيرة الذكور والبحارة الزائرون أمام الثيران في شوارع البلدة المنحدرة يصرخون بالعبارات الفاحشة التي كان يمنعهم عنها القبطان سانتياغو دي ليون على متن السفينة، وكانت نساء المنطقة الجميلات والمتزينات بالأزهار في الشعر وتقوية الصدر يشجّعنهم من مسافة مدروسة، بينما الراهب وزوج من الراهبات يُعدّون الضمادات والقربان والسرّ المقدّس للعناية بالجرحى والمحتضرين.

(\*) Flores: أزهار. م.

كان ديفغو يعلم أن أيّ ثورٍ هو أسرع دائماً من أسرع كائن بشري،  
لكن بما أنه يُهاجم وقد أعماه الغضب كان من الممكن السخرية منه،  
وكان قد رأى منها في حياته القصيرة ما جعله لا يخافها. وبفضل  
هذا استطاع أن يُنقذ خلال ثمانية غالييو تمبستا حين استعدّ قرنان  
لشكّه من الخلف. هرع الفتى وضرب البهيمة بقضيب وأجبره على  
تغيير مساره، بينما ارتدى الساحرُ على رأسه في دغلة من  
القرطاسية وسط تصفيق وسخرية الحشود. بعدها جاء دور ديفغو  
ليهرب مثل وعل والثور في أعقابه. على الرغم من أن عدداً لا بأس  
به أصيب بالرضوض والكدمات إلا أنه ما من أحد مات نطحاً في ذلك  
العام. وكانت المرة الأولى في التاريخ التي يحدث فيها هذا فلم يعلم  
أهل لاس أزورس ما إذا كان فالاً حسناً أم نحساً. لقد تركوا هذا  
للمستقبل. في جميع الأحوال عملت الثيران من ديفغو بطلاً. أهدها  
غالييو تمبستا شاكراً خنجراً مراكشياً، مزوداً بنايخ مموّه يسمح  
بسحب الشفرة إلى المقبض.

تابعت السفينة مخورها أسابيع أخرى، تدفعها الرياح، مرّت  
بمحاذاة شاطئ إسبانيا مقابل قادش دون أن تتوقّف، واتجهت إلى  
مضيق جبل طارق، بؤابة الدخول إلى البحر الأبيض المتوسط الذي  
يتحكّم به الإنكليز، حلفاء إسبانيا وأعداء نابليون. وتابعت طريقها  
على طول الساحل دون أن تقع أمور مخيفة أو تتوقّف في مياه أيّ  
ميناء ورست أخيراً في برشلونة، حيث انتهت رحلة ديفغو وبرناردو.  
ظهر الميناء الكتالاني القديم أمام أعينهما مثل غابة من الصواري  
والأشعة. كان هناك مراكب من مختلف المصارر والأشكال  
والحجوم. وإذا كانت قرية بنما قد أذهلت الشابين فتصوّروا  
الانطباع الذي خلّفته عندهما برشلونة. كان مشهد المدينة الجانبية  
الشامخ والمدمج ينقطع بأسواره وأبراجه العالية وأبراج نواقيسه  
على خلفية سماء رصاصية. كانت تبدو من الماء مدينةً بهيئة، لكنّ  
النزول حتى صباح اليوم التالي، حين أنزل سانتياغو دي ليون

القوارب لتتنقل البحارة والمسافرين الذين عيل صبرهم. مئات  
الزوارق كانت تطوف بين السفن في بحر مزيت وآلاف التوارس تملأ  
الجو بزقوها.

ودع دييغو وبرناردو القبطان وغالييو تمبستا وبقية الرجال  
الذين كانوا على متنها، والذين كانوا يتدافعون لشغل الزوارق،  
مستعجلين، كما هو حالهم، لإنفاق رواتبهم على الكحول والنساء،  
بينما أسند القاضي بين ذراعيه، ذراعَي العجوز، ابنته الدائخة من  
رائحة النتن التي تملأ الهواء، وهو أقل ما يتوقع حدوثه. حين  
وصلوا البر كان بانتظارهم ميناء جميل وضاح بالحياة، لكنه وبيل،  
مُغطى بقمامة، تمرح فيها جردان بحجم الكلاب بين أرجل حشد  
مُستعجل. في السواقي المكشوفة تجري مياه مستخدمة، يربط فيها  
أطفال حفاة، ومن نوافذ الطوابق العليا يقذف الناس بمحتوى  
مباولهم قائلين، انتبه ماء! وعلى المارة أن يتعدوا كيلا يتبللوا  
بالبول. كانت برشلونة بسكانها المئة والخمسين ألفاً، إحدى أكثر  
مدن العالم كثافة. منفقة بين أسوار سميكة، يحرسها حصنها  
المشؤوم ومحصورة بين البحر والجبال، ليس أمامها مجال  
للاتساع، إلا طابقياً. فتُضاف للبيوت ملاحق، وتُقسم الغرف إلى  
حجيرات بئسة وضيقة، بلا تهوية ولا مياه نظيفة، يتكدس فيها  
المستأجرون. كان يسير في المرفأ بجانب أزياء مختلفة، يشتم  
بعضهم بعضاً بلغات غير مفهومة، بحارة بقبعات جمهورية، وعلى  
أكتافهم ببغاوات وأحزمة روماتيزم نتيجة حمل الأحمال، تجار  
بدينون يدللون على اللحم المقدد والبسكويت، ومتسولون يعجّون  
بالقمل والبتور، فساق بعيون يائسة جاهزون لسحب مداهم. لم يكن  
المرفأ ينقصه العاهرات من المستوى المتواضع، بينما تنتزه  
رفيعات الشأن منهن في العربات، يناقسن السيدات الوجيهاات في  
ألقهن. كان الجنود الفرنسيون يسرون جماعات، يدفعون المارة  
بأعقاب بنادقهم، لا هدف لهم غير استفزازهم، بينما النساء من  
خلفهم يرسمن إشارة اللعنة بأصابعهن وييصقن على الأرض. ومع

كانت بشرية  
السخرية  
أقها. وبفضل  
استعد قرنا  
وأجبره على  
في دغلة  
دور دييغو  
عدداً لا بأس  
طحا في تلك  
هذا فلم يعط  
تركوا هنا  
بطلاً. أهذا  
مموه يسبح  
ريح، مرث  
اتجهت إلى  
نوسط الذي  
ت طريقها  
ي مياه أي  
وبرناردو  
الصواري  
والأشكال  
فتصوروا  
ة الجانبية  
نواقيس  
هية، لكن  
يستطيعوا  
ي ليون

ذلك لم يكن هناك ما يستطيع أن يعتم على أنيقة المدينة الفائقة،  
المستحمة بنور البحر الفضي. كاد ديبغو وبرناردو عندما وطنا  
اليابسة، كما حدث لهما في جزيرة فلورس، أن يسقطا على الأرض،  
لأنهما أضاعا عادة السير على اليابسة. واضطراً أن يسند الواحد  
منهما الآخر كي يتمكننا من التحكم بارتجاف الركب وتركيز النظر.

- والآن ماذا سنفعل، يا برناردو؟ أنا معك بأن أول ما علينا  
فعله هو البحث عن عربة أجرة ومحاولة تحديد مكان بيت السيد  
توماس دي رومو. هل تقول إن علينا أن نستعيد أولاً ما تبقى من  
متاعنا؟ صحيح، معك حق.

وهكذا شقاً طريقهما كيفما استطاعا، ديبغو يتكلم وحيداً  
وبرناردو مستنفر وراءه بخطوة، لأنه كان خائفاً من أن يفتزعوا  
الحقيقية من أخيه الساهي. اجتازا السوق، حيث تعرض بعض النسوة  
منتجات البحر، بين أحشاء ورووس السمك العطنة على الأرض في  
سحابة من الذباب. وهنا اعترضهما رجل طويل، له جانب زجاج  
ملكي، يرتدي سترة مزأبرة زرقاء، بدا في نظر ديبغو أميراً بالنظر  
إلى نياشين سترته الذهبية وقبعته الثلاثية الشكل فوق شعره  
الأبيض. حياه بانحناء عميقة، كانساً البلاط بقبعته الكاليفورنية.  
- السيد ديبغو دي لايفغا؟ - استفسر المجهول، المرتبك بشكل  
ظاهر.

- لخدمتكم، أيها الفارس - رد ديبغو.

- لست فارساً، أنا جوردي، سائق السيد توماس دي رومو.  
أرسلوني للبحث عنكم. بعدها سأعود في طلب أمتعتكم - وضع  
الرجل بنظرة مٌخيفة، لأنه اعتقد أن صبي البلاد الأمريكية كان يسخر  
منه.

صارت أذنا ديبغو بلون الشوندر واستعد ليُتبعه وهو يعتم  
القبة بقوة، بينما برناردو يختنق من الضحك. قادهما جوردي إلى

عربة مُضعضة يجرها جوادان، حيث كان ينتظرهما رئيس خدم العائلة. جابوا شوارع قاسية ومرصوفة بالحجارة، ابتعدوا عن الميناء وسرعان ما وصلوا إلى حي فاخر البيوت. دخلوا فناء مسكن توماس دي رومو، وهو منزل كبير بثلاث طوابق ينهض بين كنيستين. علق رئيس الخدم قائلاً بأن قرع الأجراس القوي ما عاد يزعج في غير أوقاته، لأن الفرنسيين نزعوا ألسنة النواقيس انتقاماً من الرهبان، الذين كانوا يزكون المقاومة. ديفغو وپرناردو اللذان أربهما حجم المنزل، لم ينتبها كم صار فقيراً. قاد جوردي پرناردو إلى قسم الخدم وقاد رئيس الخدم ديفغو عبر الدرج الخارجي إلى الطابق الراقى أو الرئيسي. عبرا قاعات عتمتها أبدية وممرات شديدة البرودة، حيث تعلق سجاجيد منسلة وأسلحة من عصر الحروب الصليبية. وصلا أخيراً إلى مكتبة يعلوها الغبار، يضيئها بشكل سيئ عدد من القناديل وناار فقيرة في المدخنة. هناك كان ينتظر توماس دي رومو ديفغو، الذي استقبله بعناق أبوي، كما لو أنه يعرفه منذ الأبد.

- يشرفني أن يعهد صديقي أليخاندرو إلي بولده - هتف - أنت منذ هذه اللحظة فرد من الأسرة، يا سيّد ديفغو. سأسهر أنا وبناتي على راحتك وسعادتك.

كان رجلاً أكرش يطفر الدم من وجهه، يقارب الخمسين من عمره، ذا صوت مدوّ وسوالف وحواجب كثيفة. شفتاه تتقوسان إلى الأعلى بابتسامة لا إرادية تحلي مظهره المتكبر قليلاً. كان يدخن سيجاراً وببيده كأس من نبيذ شيرش. سأله بعض أسئلة المجاملة عن الرحلة والعائلة التي تركها ديفغو في كاليفورنيا، وشدّ على الفور حبل حرير ليستدعي بقرع الجرس رئيس الخدم، الذي أمره بالقطانية أن يقود الضيف إلى غرفته.

- سنتناول العشاء في العاشرة. ليس من الضروري أن ترتدي ملابسك الرسمية، سنكون في جو أسروي - قال.

في تلك الليلة وفي غرفة الطعام، القاعة الهائلة بأثاثها القديم،  
 الذي خدم عدة أجيال، تعرّف ديفغو على ابنتي توماس دي رومو. كفتة  
 نظرة واحدة كي يقرّر أنّ خوليانا، الكبرى، أجمل امرأة في العالم.  
 ربّما بالغ، لكنّ الشابّة كانت معروفة، في جميع الأحوال بأنّها، كما  
 كانوا يقولون، واحدة من جميلات برشلونة، مثلها مثل مادام  
 ركامبير الشهيرة في أفضل أيّامها في باريس. كانت بهيئتها الأنيقة،  
 وتقاسيم وجهها الكلاسيكية والتضاد بين شعرها الداكن وبشرتها  
 الحليبية وعينيها اللتين بخضرة اليشم، لا تُنسى. بلغ طالبو ودّها حدّ  
 أنّ العائلة والفضوليين أضاعوا عددهم. كانت ألسنة السوء تقول  
 أنّهم رُفِضوا جميعاً لأنّ أباهما كان يطمح إلى أن يرتقي اجتماعياً  
 بتزويجها من أمير. كانوا مخطئين. فتوماس دي رومو لم يكن قادراً  
 على مثل تلك الحسابات. كانت خوليانا بالإضافة إلى مفاتها  
 الجسدية مثقفة، ورعة، وعاطفية، تعزف على الجناك بأصابع جنيّة  
 مرتعشة وتحسّن للمعوزين. حين ظهرت في غرفة الطعام بلباسها  
 المصنوع من الموسلين الأبيض الرقيق والطرانز الإمبراطوري،  
 المجموع تحت النهدين بشريط من القطيفة الحمراء التي تُبرزُ العنق  
 الطويل والذراعين الرخاميين الشفافين الدائريين، وخذائهما الزاحف  
 وتاج لؤلئها بين تجاعيد شعرها الأسود، أحسّ ديفغو بأنّ ركبته  
 تنطويان وبذهنه يخونه. انحنى بحركة من سيقيل يدها قبلها في  
 ارتباكها، عند لمسها، باللحاف. تتمم مذعوراً ومعتذراً، بينما راحت  
 هي تبتسم مثل ملاك وتُنظف بحشمة قفا يدها بفستانها، فستان  
 الحورية.

بالمقابل كانت إيزابيل من التواضع في هيئتها بحيث بدت  
 وكأنّها من دم غير دم أختها المبهرة. كانت في الحادية عشرة من  
 عمرها، انعكست عليها بشكل سيّئ، فأسنانها لم تأخذ مكانها بعد  
 وعظامها تبرز في عدة زوايا، وإحدى عينيها تنحرف جانباً بين  
 فينة وأخرى، وهو ما كان يُضفي عليها مظهر السهو والعدوئية  
 الخادعة، لأنّها كانت ذات مزاج أقرب إلى الملاحاة. وكان شعرها

استلها الأهل  
 عشت مسكنة إيزابيل  
 عظمياً بأربعة مرافق  
 بخلويانا، يلقي  
 دون موارد، متوقفة  
 الغريبة، آدابها التي  
 البارزتين. وخلصت  
 كما كان يبدو  
 تنفست إيزابيل  
 لا بد من تغييره  
 مادة أولية جيّدة: ف  
 كان العشاء مكوّناً  
 بالنس فيه السمك اللحم،  
 نطلاني وجميعها مضمخ  
 رومو لن يدرك بهذا  
 سنبجان سمينتين مثل  
 من الجوع، بينما موائد  
 لعشاء إلى واحدة من  
 ما بعد منتصف الليل  
 النفس بزحير تنزعه  
 بالنسبة إلى برشلونة  
 نوريا، القهرمانه لتقتنر  
 كانت امرأة في الأربعين  
 التقاسيم، تُشوّها طلوع  
 (1) mac y montana  
 والسك م

الكستنائي دغلة متمرّدة، لا تكاد تُسيطر عليها بستة شرائط،  
وفستانها الأصفر ضيق، ولكي تكمل مظهر يتمها كانت تنتعل جزمة.  
كانت المسكينة إيزابيل تبدو، كما سيقول دييغو فيما بعد لبرناردو،  
ميكلاً عظيماً بأربعة مرافق وشعرٍ يكفي لاثنتين. لم يكد دييغو،  
المبهور بخوليانا، يلقي عليها نظرة واحدة طوال الليل، لكن إيزابيل  
راقبته دون موارد، متوقّفةً عند بدلته التي صار موديلها قديماً،  
نبرته الغريبة، آدابه التي مضت موصتها، مثلها مثل ثيابه، وبالطبع  
أذنيه البارزتين. وخلصت إلى أنّ هذا الفتى الأمريكي معتوه إذا كان  
يفكر، كما كان يبدو واضحاً من سلوكه المضحك، بأنه سيذهل  
أختها. تنفست إيزابيل الصعداء مُفكرة أنّ دييغو مشروع طويل  
المدى، لا بدّ من تغييره بالكامل تقريباً، لكن من حسن الحظ أنه كان  
يمك مادّة أولية جيّدة: ظرافة، جسم متناسق وعينان بلون العنبر.

كان العشاء مكوّناً من حساء الفطر ومار إي مونتانيا<sup>(\*)</sup> لذيذ،  
ينافس فيه السمك اللحم، وسلطة أجبان وطبق أخير عبارة عن كريم  
قطلاني وجميعها مضمخة بنبيذ كروم العائلة. قدّر دييغو أنّ توماس  
دي رومو لن يدرك بهذا النوع من الطعام الشيخوخة، وأنّ ابنتيه  
ستصبحان سمينتين مثل أبيهما. كان الشعب يعاني في تلك السنوات  
من الجوع، بينما موائد الناس القادرين عامرة دائماً. انتقلوا بعد  
العشاء إلى واحدة من القاعات الموحّشة، حيث أطربتهم خوليانا إلى  
ما بعد منتصف الليل بالعزف على جنكها، تُرافقها إيزابيل بشقّ  
النفس بزحيرٍ تنتزعه من بيانو قديم ناشز. في تلك الساعة، المبكرة  
بالنسبة إلى برشلونة والمتأخّرة جداً بالنسبة إلى دييغو، وصلت  
نوريا، القهرماننة لتقترح على الصغيرتين أنّ عليهما أن تنسحبا.  
كانت امرأة في الأربعين من عمرها تقريباً، منتصبية الظهر ونبيلة  
التقاسيم، تُشوّهها طلعة قاسية وصرامة ثياب رهيبية. كانت ترتدي

(\*) mar y muntanya: بحر وجبل، وهو طبق كما يدل اسمه مكوناته الأساسية هو اللحم  
والسمك. م.



فستاناً أسوداً ذا قبة منشأة، وقبعة من اللون ذاته مشدودة برباط ساتان تحت الذقن. كان احتكاك ثيابها الداخلية ورنين مفاتيحها وطققة جزمها تعلن عن وصولها قبل ظهورها. حيث ديفغو بانحناءة لا تكاد تُلحظ، بعد أن تفحصته من رأسه إلى قدميه بتعبير استنكاري.

- ماذا عليّ أن أفعل بهذا المسمى برناردو، الهندي الأمريكي؟ -  
سألت توماس دي رومو.

- أودّ إذا كان ممكناً يا سيّدة أن يُشاطرني غرفتي. في الحقيقة نحن مثل أخوين - تدخل ديفغو.

- طبعاً، أيها الشاب. أعدي ما هو ضروري، يا نوريا - أمر دي رومو، مفاجئاً قليلاً.

لم تكذ خوليانا تذهب حتى شعر ديفغو بالتعب المتراكم يسوطه وبثقل العشاء في معدته، لكن كان عليه أن يبقى ساعةً أخرى يستمع فيها إلى أفكار مُضيفه السياسيّة.

- خوسيه بونابرت رجل مستنير وصرّيح وصادق، يكفي أن أقول لك إنّه يتكلم القشتالية ويحضر مصارعات الثيران - قال دي رومو.

- لكنّه اغتصب عرش ملك إسبانيا الشرعي - تعلل ديفغو.  
- برهن كارلوس الرابع على أنّه سليل رجال بارزين من أمثال أسلافه، وهو غير جدير بهم. الملكة طائشة وولي العهد فرناندو غير كفؤ، حتى أبواه لا يثقان به. لا يستحقّ أن يحكم. بينما جاء الفرنسيون بأفكارٍ جديدة. وإذا ما سمحوا لخوسيه الأول بأن يحكم بدل أن يُحاربوه، سيخرج هذا البلد من التخلف. الجيش الفرنسي لا يُهزم، بينما جيشنا منهار، لا يوجد خيل، ولا سلاح ولا أحذية، والجنود يقتاتون على الخبز وبالماء...

- ومع ذلك، فالشعب الإسباني قاوم الاحتلال عامين - قاطعه ديفغو.

- هناك عصابات مدنية مسلحة تقود حرب عصابات مجنونة.  
يشجعها المتعصبون والإكليروس الجاهل. الدهماء تقاتل على  
عماها، ليس لديها أفكار، ولا تملك غير الضفينة.

- حدثوني عن وحشية الفرنسيين.

- الطرفان يرتكبان فظائع، أيها الشاب د لايفغا. فرجال  
العصابات لا يقتلون الفرنسيين فقط بل ومعهم المدنيين الإسبان  
الذين يرفضون مساعدتهم أيضاً. أسوأهم هم القطلانيون،  
لا تستطيع أن تتصور الفظائع التي يقدرّون على ارتكابها. المعلم  
فرانسيسكو د غويا رسم هذه الفظائع. هل أعماله معروفة في  
أمريكا؟

- لا أظنّ، يا سيّد.

- عليك أن تشاهد لوحاته، يا سيّد ديبغو، كي تدرك أنّه لا يوجد  
طيبون في هذه الحرب، فقط أشرار - تنهّد د رومو وتابع في  
موضوعات أخرى إلى أن أغمضت عينا ديبغو.

في الأشهر التالية كوّن ديبغو فكرة إجمالية عن الحالة المعقدة  
والمتقلّبة في إسبانيا وكم كانت أخبارها متخلّفة في بيته. كان والده  
يقتصر السياسة على الأبيض والأسود، لأنها كانت كذلك في  
كاليفورنيا، لكن في فوضى أوروبا يُسيطر اللون الرمادي. حكى  
ديبغو لوالده في رسالته الأولى إليه عن رحلته وانطباعاته عن  
برشلونة والقطلانيين، الذين وصفهم بأنهم حذرون من حزيتهم  
وانفجاريون في طبيعتهم، وحساسون في موضوع الشرف،  
ويعملون مثل بغال الحمولة. هم أنفسهم يصنعون شهرة بخلهم،  
قال له، لكنهم في الصداقة كرماء. وأضاف إنهم لا يستأوون من  
شيء أكثر من الضرائب، حين يكون عليهم أن يدفعوها إلى  
الفرنسيين. كما وصف حال أسرة د رومو، متجاوزاً حبه الأعمى

لخوليانا، الذي يمكن أن يُفسَّر تطاولاً على حسن الضيافة التي  
يتلقاها. حاول في رسالته الثانية أن يشرح لوالده الأحداث  
السياسية، على الرغم من أنه كان يعتقد أنها ستكون قد تغيرت  
عند استلام والده لها.

### صاحب السعادة

أنا بخير وأتعلّم كثيراً، خاصّة الفلسفة واللغة اللاتينية في  
مدرسة العلوم الإنسانية. سيسرّ حضرتك أن تعرف أنّ الأستاذ مانويل  
إسكالانت قد رعاني في أكاديميته، ويكرّمني بصداقته، وبالمناسبة،  
هذا شرف لا أستحقّه. اسمح لي أن أحكي لحضرتك عن الوضع  
المُعاش هنا. صديقك الصدوق، توماس دي رومو، متفرنس. هناك  
ليبراليون مثله، يشاطرونه الأفكار ذاتها، لكنهم يكرهون الفرنسيين.  
يخافون أن يُحوّل نابليون إسبانيا إلى تابع يدور في فلك فرنسا،  
وهو ما يظهر أنّ توماس دي رومو ينظر إليه بعين الرضا.

تماماً، وكما أمرني حضرتكم، زرتُ سعادة دونيا إيولاليا  
دي كاليبس. منها علمت أن النبلاء والكنيسة الكاثوليكية والشعب  
ينتظرون عودة الملك فيرناندو السابع، الذي يسمونه بالمرغوب.  
الشعب الذي لا يثق بالفرنسيين ولا بالليبراليين ولا بالنبلاء ولا بأيّ  
تغيير، على حدّ سواء، قرّر طرد الفرنسيين وهو يقاتل بما يملك:  
الفؤوس، العصي، السكاكين والمعاول والمعازق.

بدت له هذه الموضوعات مهمّة، فهمم، في مدرسة العلوم  
الإنسانية وبيت توماس دي رومو، لم يكونوا يتكلمون عن شيء آخر.  
لكنها لم تكن تقض مضجعه. فقد كان مشغولاً بألف مسألة مختلفة،  
أولها تأمل خوليانا. ففي هذا البيت الكبير، الذي من المحال إنارته  
أو تدفنته لم تكن العائلة تستخدم إلا بعض القاعات من الطابق

الفاخر وجناحاً من الطابق الثاني. وقد فاجأ برناردو ديبغو أكثر من  
مرة متدلياً مثل ذبابة من الشرفة يتلصص على خوليانا وهي تخط  
مع نوريا أو تدرس دروسها. كانت الصغيرتان قد تحررتا من الدير،  
حيث كانت تُربى بنات العائلات المترفة وذلك بفضل نفور أبيهما من  
رجال الدين. كان توماس دِ رومو يقول إنَّ الفتيات المسكينات خلف  
مشربيات الأديرة كنَّ مرعى راهبات حاققات يملأن رؤوسهن  
بالشياطين، وبالرهبان الفاسقين يتحسسونهنَّ بحجة الاعتراف.  
عينَ لهما وصياً هو شخص أعجف مجدور الوجه، كان يدوخ في  
حضرة خوليانا وكانت نوريا تراقبه عن كثب، مثل صقر. كانت  
إيزابيل تحضر الدروس، على الرغم من أنَّ المعلم كان يتجاهلها إلى  
حدِّ أنه لم يحفظ قط اسمها.

كانت خوليانا تتواصل مع ديبغو، كأخ صغير طائش؛ تناديه  
باسم التعميد ودون تكلفٍ متبعةً مثلَّ إيزابيل، التي عاملته منذ البداية  
بوداً وحميمية. بعد ذلك بكثير، عندما تعقدت حياة الجميع ومرّوا  
جميعاً بالعوز. صارت نوريا تناديه دون تكلفٍ أيضاً، لأنها صارت  
تُحبه مثل حفيد، لكنها في تلك المرحلة كانت ما تزال تناديه بالسيد  
ديبغو، ذلك لأنَّ المخاطبة العادية لم تكن تُستخدم إلا بين الأقرباء أو  
عند التوجّه بالحديث إلى من هو أدنى مستوى. أمضت خوليانا  
أسابيع دون أن تنتبه إلى أنها مزقت قلبَ ديبغو، تماماً كما لم تنتبه  
قط إلى أنها فعلت الشيء ذاته مع وصيها. عندما نبهتها نوريا راحت  
تضحك منتشية، من حسن الحظِّ أنه لم يعرف ذلك إلا بعد سنوات عدّة.

لم يتأخّر ديبغو كثيراً حتى أدرك أنَّ توماس دِ رومو لم يكن  
نبيلاً ولا غنياً إلى الحدِّ الذي تصوّره في البداية. فالمنزل وأملاكه  
كانت في الأساس لزوجته، وريثة الأسرة البرجوازية الوحيدة، التي  
حققت ثروتها من صناعة الحرير. عندما توفّي حمؤه، بقي توماس  
على رأس التجارة، لكنّه لم يكن رجل مبادرات تجارية كبيرة وبدأ  
يخسر ما ورثه. وكان بعكس سمعة القطلانيين، يعرف كيف ينفق

المال بسهولة، لكنه لا يعرف كيف يربحه. راحت واردة تناقص  
سنة بعد أخرى وعلى هذا الإيقاع كان سيجد نفسه مجبراً على بيع  
داره وتخفيض مستواه الاجتماعي. كان رافائيل مونكادا، وهو نبيل  
نو ثروة معتبرة، من بين الذين طمحووا بخوليانا. وكان التحالف معه  
سيحل مشاكل توماس دي روميو، لكن علينا أن نقول على شرفه أنه لم  
يضغط قط على ابنته كي تقبل بمونكادا. قدّر ديبغو أن أملاك والده  
في كاليفورنيا أكبر قيمة بعدة مرات من أملاك توماس دي روميو،  
وتساءل عما إذا كانت خوليانا مستعدة للذهاب معه إلى العالم  
الجديد. طرح الموضوع على برناردو فأفهمه هذا بلغته الشخصية  
أنه إذا لم يستعجل فمنافس آخر أنضج وأجمل وأهم سينتزع  
الحسنة منه. لم يُخَبَط ديبغو المعتاد على سخرية أخيه اللاذعة، لكنه  
قرّر أن يُسرّع تعليمه إلى أقصى حدّ. لم يتصوّر الساعة التي يكسب  
فيها شرف النبيل بحق وحقيقة. تأقلم مع اللغة القطلانية، التي بدت له  
رخيمة جداً. كان يحضر إلى المدرسة ويذهب يومياً إلى دروس  
المعلم مانول إسكالانت في أكاديمية المبارزة للنبلاء والفرسان.

لم تكن الفكرة التي كوّنوها ديبغو عن المعلم الشهير تتطابق أبداً  
مع الواقع. فهو بعد دراسة الكتاب الذي وضعه إسكالانت حتى آخر  
فاصلة فيه، كان يتصوّرهُ مثل أبولو مختصر فضائل وجمال الرجل.  
فوجده بالنتيجة رجلاً مقيتاً، دقيقاً، ونظيفاً، زاهد الوجه ومزدرى  
الشفنتين ذا شارب مقسى، يعتبر المبارزة دينه الوحيد الصالح. كان  
طلابهُ نبلاء، أنقياء النسب، باستثناء ديبغو دي لايفغا، الذي قبله ليس  
لتوصية توماس دي روميو به، بقدر ما لأنه اجتاز امتحان القبول  
بدرجة شرف.

- تأهب، يا سيّد! - أمر المعلم.

اتخذ ديبغو الوضعية الثانية: القدم اليمنى على مسافة قصيرة  
من اليسرى، رؤوس أصابع قدميه تشكل زاوية قائمة، وركبته

منحنيّتان قليلاً، جسمه منتصب عمودياً فوق وركيه، نظرتّه إلى  
الأمّام وذراعاه مسترخيان.

- بدّل وضعيّة الاحتراس إلى الأمّام! عميقاً! بدّل وضعيّة  
الاحتراس إلى الخلف!..... الاحتراس الثالث، مدّ الذراع! كويّبة!

سرعان ما تخلّى المعلّم عن إسداء التعليمات. انتقلاً بسرعة من  
التكلّف إلى الأحداث، طعنات عميقة، جرح وجه وقفا، مثل رقصة  
عنيقة وقاتلة. اشتعل ديبغو حماساً وبدأ يتبارز كما لو أنّ حياته في  
خطر، بان دفاع وهو أقرب ما يكون إلى الغضب. شعر إسكالانت لأول  
مرّة منذ سنوات طويلة أنّ العرق يتصبّب من جبينه ويبلّ قميصه. سرّ  
وارتسمت على شفّتيه الرقيقتين ابتسامة. لم يمدح أحداً قط، لكنّه  
ذهل من سرعة ودقّة وقوّة الشاب.

- أين تقول إنّك تعلّمت المبارزة؟ - سأل بعد أن بارزه دقائق  
عدّة.

- مع أبي، في كاليفورنيا، يا معلّم.

- كاليفورنيا؟

- شمال المكسيك...

- لا ضرورة لكي تشرحها لي، رأيّتها على الخريطة - قاطعه  
مانول إسكالانت بجفاف.

- عفواً، يا معلّم. درستُ كتابك وتمرّنت سنوات... - دمدم  
ديبغو.

- أرى ذلك. أنت طالب مُجتهد كما يبدو. ينقصك أن تتحكّم بقلّة  
صبرك وتكتسب رشاقة. لك طريقة قرصان، لكن هذا يمكن تفاديه.  
الدرس الأوّل: هدوء. يجب ألا تُقاتل بغضب أبداً. ثبات السيف  
واستقراره رهن برباطة الجأش. لا تنس ذلك. سأستقبلك في الثامنة

منحنيّتان قليلاً، جسمه منتصب عمودياً فوق وركبته، نظرتَه إلى  
الأمّام وذراعاه مسترخيان.

- بدّل وضعيّة الاحتراس إلى الأمام! عميقاً! بدّل وضعيّة  
الاحتراس إلى الخلف!..... الاحتراس الثالث، مدّ الذراع! كويّة!

سرعان ما تخلى المعلّم عن إسداء التعليمات. انتقلاً بسرعة من  
التكلّف إلى الأحداث، طعنات عميقة، جرح وجهه وقفاً، مثل رقصة  
عنيقة وقاتلة. اشتعل ديبغو حماساً وبدأ يتبارز كما لو أنّ حياته في  
خطر، باندفاع وهو أقرب ما يكون إلى الغضب. شعر إسكالانت لأول  
مرّة منذ سنوات طويلة أنّ العرق يتصبّب من جبينه ويبلّ قميصه. سرّ  
وارتسمت على شفّتيه الرقيقتين ابتسامة. لم يمدح أحداً قط، لكنّه  
ذهل من سرعة ودقّة وقوّة الشاب.

- أين تقول إنك تعلمت المبارزة؟ - سأل بعد أن بارزه دقائق  
عدّة.

- مع أبي، في كاليفورنيا، يا معلّم.

- كاليفورنيا؟

- شمال المكسيك...

- لا ضرورة لكي تشرحها لي، رأيتهَا على الخريطة - قاطعه  
مانول إسكالانت بجفاف.

- عفواً، يا معلّم. درستُ كتابك وتمرّنت سنوات... - دمدم  
ديبغو.

- أرى ذلك. أنت طالب مُجتهد كما يبدو. ينقصك أن تتحكّم بقلة  
صبرك وتكتسب رشاقة. لك طريقة قرصان، لكن هذا يمكن تفاديّه.  
الدرس الأوّل: هدوء. يجب ألا تُقاتل بغضب أبداً. ثبات السيف  
واستقراره رهن برباطة الجأش. لا تنسَ ذلك. سأستقبلك في الثامنة

تماماً، من الاثنين وحتى السبت، إذا ما أخلت مرة واحدة فلا حاجة لأن تعود ثانية. مساوئك سعيد أيها الفارس.

بهذا الشكل ودّعه. كان على ديبغو أن يتحكّم بنفسه كيلا يزعم فرحاً، لكنّه ما إن أصبح في الشارع حتى راح يقفز حول برناردو، الذي كان ينتظره في الباب مع الجوادين.

- سنصبح أفضل لاعبي سيف في العالم، يا برناردو. بلي، يا أخي، هل سمعتني جيداً، ستتعلّم ما أتعلّمه تماماً. أنا موافق، المعلم لن يقبلك، فهو حساس جداً، ولو علم أنّ ربع دمي هندي لطرمني ضرباً من الأكاديمية. لكن لا تهتمّ، فأنا أفكر أن أعلمك كل ما أتعلّمه. يقول المعلم إنّ ما ينقصني هو الطريقة. ما هذا؟

وفى مانول إسكالانت بوعده بصقل ديبغو؛ ووفى هذا بوعده بنقل معارفه إلى برناردو. كانا يتدربان على المبارزة يومياً في إحدى القاعات الكبرى الفارغة من منزل توماس دي رومو بحضور إيزابيل دائماً تقريباً. كانت هذه الطفلة بحسب نوريا تملك فضولاً شيطانياً تجاه أمور الرجال، لكنها كانت تُغطّي على جسارتها لأنّها ربّتها منذ أن فقدت أمّها عند ولادتها. تمكّنت إيزابيل من جعل ديبغو وبرناردو يُعلّمانها المبارزة وركوب الخيل مفرشحة، كما كانت تفعل النساء في كاليفورنيا، وكانت تقضي ساعاتٍ ومعها كتاب تعليم المبارزة، تتدرب وحيدة أمام المرآة، أمام نظر أختها ونوريا، اللتين كانتا تطرّزان السجاجيد بغرزات متصالية. أذعن ديبغو لرفقة الصغيرة انطلاقاً من مصلحة، فقد أقنعتّه أنّ باستطاعتها أن تتدخّل لصالحه أمام خوليانا، الأمر الذي لم تقم به قط. بالمقابل برهن برناردو دائماً عن سروره بوجودها.

كان برناردو يشغل مكانة غير محدّدة في سلّم المنزل الذي كان يعيش فيه قرابة الثمانين شخصاً، بين خدام ومستخدمين وأمناء وأتباع، كما كانوا يُسمون الأقرباء الذين كان توماس دي رومو يؤويهم تحت سقفه. كان ينام في واحدة من الغرف الثلاث التي



وضعت تحت تصرف ديبغو، لكنه لم يكن مسموحاً له بالدخول إلى قاعات الأسرة، إلا إذا استدعي، وكان يأكل في المطبخ، لم يكن له عمل محدد ويملك فائضاً من الوقت كي يجوب المدينة. تمكن من معرفة وجوه برشلونة الصاخبة المختلفة، بدءاً من بيوتات نبلاء قطلونيا الفاخرة وحتى غرف الدهماء المتزاحمة التي تعج بالجرذان والقمل، بمشاجراتها وأوبئتها الحتمية، بدءاً من حي الكاتدرائية القديم، المشاد على أنقاض رومانية، بمتاهة أزقة المضنية، التي لاتكاد تتسع لمرور حمار، وحتى الأسواق الشعبية، وحوانيت الصناعات اليدوية وخانات الخرداوات التركية وأرصفة الميناء، المزدهمة بالحشود المتنوعة الأجناس. كان يمضي يوم الأحد بعد الخروج من القداس، تائهاً بالقرب من الكنائس، ليتأمل المجموعات التي كانت ترقص الساردانة<sup>(\*)</sup>، التي بدت له انعكاساً تاماً للتضامن والنظام والتفاخر القطلاني. تعلم، مثل ديبغو، القطلانية كي يعرف ما يدور حوله. كانت تُستخدم القشتالية والفرنسية في الدوائر الحكومية وعند الطبقة العليا، واللاتينية في المسائل الأكاديمية والدينية، بينما تُستخدم القطلانية في بقية الأمور. كان صمته ومظهر الكبرياء الذي يشع منه قد أكسبه احترام أهل البيت. الخدم الذين كانوا ينادونه ودأب الهندي، لم يتحققوا مما إذا كان أصمّاً أم لا، فاعتبروه كذلك، وبالتالي راحوا يتكلمون أمامه دون حذر، وهو ما سمح له بالتحقق من أشياء كثيرة. لم يكثر توماس قط بوجوده، فالخدم بالنسبة إليه لا يرؤن. أمّا نوريا فقد أثار كونه هندياً فضولها، لأنه أول هندي تراه وجهاً لوجه. توجّهت إليه في الأيام الأولى بحركات قرد وإيماءات مسرحية على أساس أنه لا يسمعها، لكنها ما إن علمت بأنه لم يكن أصمّاً حتى راحت تُكلمه. وما إن علمت أنه معمد حتى صارت تستلطفه. لم تملك قط مستمعاً بمثل اهتمامه. بدأت، واثقة من أن برناردو لا يمكن أن يخون مسارتها تحكي له

(\*) Sardana: اسم رقصة شعبية قطلانية. م.

أحلامها، الملاحم الخيالية الرائعة، وتدعوه للاستماع إلى قراءات خوليانا بصوت عالٍ ساعة تناول الشوكولا. كانت خوليانا من ناحيتها تتوجّه إليه بالرفقة ذاتها التي تتوجّه بها إلى جميع الناس. علمت أنّه لم يكن خادماً لدييغو، بل هو أخوه في الرضاعة، لكنّها لم تجهد نفسها بالتواصل معه، لأنّها افترضت أنّ ليس لديه الكثير مما يقوله. بالمقابل أصبح برناردو أفضل صديق وحليف لإيزابيل. تعلّمت منه لغة إشارات الهنود وتفسير موجات صوت نايه، لكنّها لم تستطع قط أن تُشارك في التخاطر الذي كان يقيمه عن بعد، ودون جهد مع دييغو. في جميع الأحوال، وبما أنّهما لم يكونا بحاجة إلى الكلمات فقد كانا يتفاهمان تماماً. ووصل ودهما حدّاً أنّها صارت مع مرور السنين تنافس دييغو على المكان الثاني في قلب برناردو. فالمكان الأوّل كانت تشغله دائماً برق الليل.

في الربيع، حين كان هواء المدينة يعبق برائحة البحر والزهر، وجوقات الطلاب تخرج لتبهج الليل بموسيقاها والعشاق ليقدموا أغاني ليلهم، يراقبهم الجنود الفرنسيين عن بعد، لأنّه حتى هذه التسلية البريئة يمكن أن تُخفي غايات مشؤومة لعصابات الحرب، كان دييغو يتمرن عازفاً أغاني على المندولين، لكنّه لو وقف تحت نافذة خوليانا، التي يعيش في بيتها، ليقدم لها أغنية ليلية لأصبح مثار سخرية. أراد أن يُرافقها بمعزوفاتها على الجناك بعد العشاء، لكنّها كانت عازفة حقيقية بينما هو ينشز على آله، كما تنشز إيزابيل على البيانو، فتُخلف السهرات صداعاً في رؤوس المستمعين. كان عليه أن يقتصر على تسليتها بحيل سحره التي تعلّمها من غاليليو تمبستا، ووسّعها وأتمّها عبر شهور من التمرن. فأغشي عليها يوم ابتلع فيه خنجر غاليليو تمبستا المراكشي وكادت تسقط أرضاً، بينما كانت إيزابيل تتفحص السلاح باحثّة عن النابض الذي يُخفي الحدّ في المقبض. حذّرته نوريا أنّه إذا عاد وحاول

القيام بمثل هذه الحيل السحرية السوداء بحضور الصغيرتين فهي نفسها سوف تدخل السكين التركية في حلقه. أعلنت عليه المرأة في الأسابيع الأولى حرب أعصاب صامتة، لأنها اكتشفت بطريقة ما أنه خلاصي. وبدا لها أن السيل بلغ الزبي بقبول سيدها ألفة الأسرة لهذا الشاب الذي لم يكن نبيل الدم، بالإضافة إلى أنه يتجرأ على عشق خوليانا. ومع ذلك ما إن قرّر ديفغو عشقها حتى كسب قلب القهرمانه القاسي باهتماماته الصغيرة بها: حلوى البسماط<sup>(\*)</sup>، صورة قديسين، وردة يخرجها بالسحر من قبضته. وعلى الرغم من أنها بقيت تردّ عليه بالصياح الغاضب والشتائم، إلا أنّها لم تكن تتمالك نفسها عن الضحك خفية، حين كان يتحرّشُ بها بأحد أعماله البهلوانية.

وذات ليلة مرّ ديفغو ببرهة مضنية سمع خلالها رافائيل مونكادا يُغني سيرينادا في الشارع، يُرافقه عدد من الموسيقيين. فتيقن مُنزعجاً، من أن منافسه لا يملك صوتاً صادحاً يدغدغ المشاعر وحسب بل ويُغني بالإيطالية أيضاً. حاول أن يسخر منه على مرأى من خوليانا، لكنّ استراتيجيته لم تُثمر. لأنها بدت متأثرة لأول مرّة بتطور مونكادا. كان هذا الرجل يُثيرُ عند الشابة مشاعر مختلطة، خليط من عدم الثقة الغريزية والفضول الخجول. كانت تشعر في حضوره بالوهن والعري، ويشدّها في الوقت ذاته الأمان الذي يشعّ منه. لم تكن تحبّ إيماءة الازدراء أو القسوة التي كانت تباغتها في وجهه، الإيماءة التي لا تنسجم مع الكرم الذي كان يورّع به النقود على المتسولين الرايضين عند الخروج من الصلاة. في جميع الأحوال كان الشاب في الثالثة والعشرين من عمره، وهو يتودّد إليها منذ أشهر، وعليها أن تعطيه جواباً قريباً. كان مونكادا غنياً، وذا نسبٍ صافٍ، ويولد انطباعاً جيّداً لدى الجميع، باستثناء أختها

(\*) Mazapán: يُعتقد أنّها من العربية بسماط، وهي حلوى أندلسية كانت تُصنع من مسحوق اللوز والسكر وزلال البيض. م.

إيزابيل، التي كانت تمقته دون مواربة ولا توضيح. كانت هناك حجج قوية لصالح هذا المتوند ولم يكن يكبحها إلا حدس مفاجئة. تابع هو خلال ذلك تضييقه عليها برقة، خائفاً من أن أدنى إزعاج سوف نجفلها. كانا يتقابلان في الكنيسة، والحفلات الموسيقية والمسرحيات والنزهات والحدائق والشوارع. وكثيراً ما كان يرسل إليها هدايا ورسائل رقيقة، لا يوجد فيها شيء محرج. لم يتمكن من أن يجعل توماس دي رومو يدعو إلى بيته ولا أن يجعل عمته إيولاليا تضم توماس دي رومو إلى قائمة مسامريها. فقد أظهرت له بصلابتها المعتادة أن خوليانا خيار في غاية السوء. وكان قولها الفصل: «أبوها خائن، متفريس، وليس لهذه العائلة مكانة ولا ثروة، أو أي شيء تقدمه». لكن مونكادا كان قد وضع خوليانا نصب عينيه منذ زمن، رآها تتألق فقرّر أنها المرأة الوحيدة الجديرة به. كان يظن أن عمته ستدع عن مع الزمن لفضائل الشابّة، فكل شيء رهن بالتعامل مع المسألة بدبلوماسية. لم يكن مستعداً للتنازل عن خوليانا، ولا عن ثروتها، فهو لم يشك قط بأنه سيحقق الهدفين.

لم يكن رافائيل مونكادا في عمر يسمح بالسيرينادات، وكان معتاداً بنفسه أكثر مما يسمح بتلك الاستعراضات، لكنّه وجد الطريقة للقيام بذلك بدعابة. حين أطلت خوليانا من الشرفة رآته مقنعاً بثياب أمير فلورنسي من البروكار والحرير من رأسه وحتى قدميه وصدارة مزركشة من جلد القندس؛ وريش نعام في القبعة وعود في يده. كان هناك عدد من الفتية يُنيرون له فوانيس بلورية أنيقة وبجانبه الموسيقيون مزيّنون مثل وصفاء الأوبريتا، ينتزعون من آلاتهم ألحاناً موقّعة. لا شك أن صوت مونكادا الرائع كان أفضل ما في الاستعراض. تحمل ديفغو، متخفياً وراء ستارة، الإهانة، عارفاً بأن خوليانا كانت في الشرفة، تقارن بين هذه الألحان التامة الموقّعة ومندولينه المرتبك الذي أراد أن يدهشها به. كان يدمم لاعناً بصوت منخفض حين وصل برناردو ليشير إليه أن يتبعه معززاً بسيفه. قاده إلى طابق الخدم، الذي لم يكن قد وضع ديفغو

قدمه فيه بعد، على الرغم من مرور سنة عليه تقريباً وهو يعيش في هذا المنزل، ومن هناك إلى الشارع من باب الخدمة. وصلا ملاصقين للجدار دون أن يراهما أحد إلى حيث وقف غريمه ليتألق بأغانيه بالإيطالية. أشار برناردو إلى باب خلف مونكادا فشعر ديبغو بالغيظ وقد راح يتحوّل إلى سرور شيطاني، لأن من كان يُغني لم يكن غريمه، بل رجل آخر متخفّ في الظلمة.

انتظر ديبغو وبرناردو انتهاء السيرينادا. تفرقت المجموعة متوزعة على عربتين، بينما الفتى الأخير يُسلم الصادح الحقيقي بعض النقود. ما إن تأكّد الفتيان من أنّ المغني صار وحيداً حتى اعترضاه بغتة. أطلق المجهول سأساة أفعى وأراد أن يمدّ يده إلى مدية معقوفة، جاهزة في زناره، لكنّ ديبغو وضع رأس سيفه في عنقه. تراجع الرجل بخفة مذهشة، لكنّ برناردو عَقَلَه برجله ورماه أرضاً. أفلتت من شفّتيه شتيمة حين شعر من جديد برأس سيف ديبغو يخزه في رقبته. كان النور في تلك الساعة يصدر عن قمر خجول وعن مصابيح المنزل، وهو ما كفاهما كي يريا أنّ الأمر يتعلّق بفجريّ أسمر وقويّ، محض عضلات وألياف وعظام.

- أية شياطين تريد منّي؟ - باغته بوقاحة وضراوة.

- اسمك فقط. تستطيع أن تحتفظ بهذه النقود، التي أسأت كسبها - ردّ ديبغو.

- ولماذا تريد اسمي؟

- اسمك! - طالبه ديبغو، ضاغطاً عليه بسيفه حتى أخرج منه قطرة دم.

- بلأيو - قال الفجري.

سحب ديبغو النصل وتراجع الرجل خطوة إلى الوراء، وعلى الفور اختفى بصمتٍ وسرعة نمرٍ في ظلمات الشارع.

- لتتذكّر هذا الاسم، يا برناردو. أعتقد أنّنا سنعود ونقع على

هذا السافل. لا أستطيع أن أقول شيئاً من هذا لخوليانا، لأنها  
ستعتبر أنني أفعل ذلك بؤساً أو غيرة. عليّ أن أعثر على طريقة  
أخرى كي أكشف لها أن هذا الصوت ليس صوت مونكادا. هل يخطر  
لك شيء؟ حسناً، قله لي حين يخطر لك - ختم دييغو.

أحد الزوار المواظبين على منزل توماس دي رومو كان المكلف  
بشؤون نابليون في برشلونة، الفارس رونالد دوشامب، المعروف  
بـ الشافالير. كان الظل الرمادي للسلطة الرسمية، أكثر تأثيراً، كما  
كانوا يقولون من الملك خوسيه الأول. كان نابليون قد بدأ يُقلص  
السلطة من أخيه، لأنه لم يعد يحتاجه لتخليد سلالة بوناپرت، فقد  
صار له ولد، طفل هزيل، لُقّب بالنسر الصغير وقد خنقوه منذ نعومة  
أظفاره بلقب ملك روما. وكان الشافالير يُحرّك شبكة واسعة من  
الجواسيس الذين يخبرونه عن مخططات أعدائه حتى قبل أن  
يصيغوها. كان برتبة سفير، لكن في الحقيقة حتى كبار القادة  
العسكريين كانوا يُقدّمون له الطاعة. لم تكن حياته في تلك المدينة  
التي تمقتُ الفرنسيين، مريحة؛ فالطبقة العليا تقاطعه، رغم أنه يتملق  
الأسر الثرية بالرقص وحفلات الاستقبال والأعمال المسرحية، تماماً  
كما كان يعمل على كسب الدماء بتوزيع الخبز عليهم وبالسماح  
لهم بمصارعة الثيران، الممنوعة سابقاً. لا أحد كان يريد أن يظهر  
متفرنساً. فالنبلاء، من أمثال إيولاليا دي كاليبس، الذين لا يجروون  
على عدم رمي السلام عليه، كانوا يرفضون دعواته. بالمقابل كان  
توماس دي رومو يتشرف بصدافته، لأنه مُعجّب بكل ما كان يأتي من  
فرنسا، بدءاً من الأفكار الفلسفية والتهذيب وحتى نابليون نفسه،  
الذي كان يُقارنه بالاسكندر المقدوني. كان يعرف أن الشافالير  
مرتبط بالشرطة السرية، لكنه لا يُصدّق الإشاعات التي تحمله  
مسؤولية التعذيب والإعدامات في القلعة. بدا له محالاً أن يتلوّث رجل  
رقيق ومثقف مثله بالوحشية التي كانت تُعزى للعسكر. كانا

يتناقشان بالفن، والكتب، والاكتشافات العلمية، وتقدم علم الفلك،  
ويعلقان على وضع المستعمرات في أمريكا، مثل فنزويلا وتشيلي  
ومستعمرات أخرى أعلنت استقلالها.

وبينما كان الفارسان يمضيان معاً الساعات الممتعة بكوؤوس  
الكونياك والسيجار الكوبي، كانت أغنيس دو شامب، ابنة الشافالير  
تتسلى مع خوليانا بقراءة الروايات الفرنسية من وراء ظهر توماس دي  
رومو، الذي ما كان يسمح أبداً بهذه القراءات. كانتا تذوبان ضنئ  
حتى الموت بحب الشخصيات المصدود، وتتهدان ارتياحاً للنهايات  
السعيدة. لم تكن الرومانسية قد درجت بعد في إسبانيا، وقبل أن  
تظهر أغنيس في حياة خوليانا لم يكن يُسمح لها أن تقرأ غير بعض  
المؤلفين الكلاسيكيين في مكتبة العائلة، التي اختارها والدها  
بمعيار تعليمي. كانت إيزابيل ونوريا تحضران القراءات. الأولى  
تسخر، لكنها لا تضيع كلمة واحدة والثانية تذرف دموعاً حارة.  
وضحتا لها أن لا شيء من هذا يحدث في الواقع، وأنها مجرد  
أكاذيب من المؤلف، لكنها لم تصدقهما، وصل الأمر إلى حد أن  
الشخصيات صارت تشغلها فراحت الصبيتان تغيران حبكة الروايات  
كيلا تُنفصا حياتها. لم تكن القهرمانه تعرف القراءة، لكنها تشعر  
باحترام مقدس تجاه أي مادة مطبوعة. كانت تشتري براتبها بعض  
النشرات المصوّرة عن حياة القديسين الشهداء، وهي مختصرات  
حقيقية للوحشيات، التي كان على الصغيرتين أن تقرأها مرة  
وأخرى. كانت مقتنعة تماماً بأنهم جميعاً بوّساء من أبناء بلدها  
عذبهم مسلمو غرناطة. وكان من العيب أن توضح لها أن ستاد  
الكوليسوم موجود، كما يدل اسمه، في روما. كما كانت مقتنعة، مثل  
كل إسبانية حقيقية، بأن المسيح مات على الصليب من أجل البشرية  
بشكل عام، لكن من أجل إسبانيا بشكل خاص. ما لم تكن تغفره  
للفرنسيين هو أنهم، بالنسبة إليها، ملحدون، لذلك كانت ترش  
الكرسي الذي يجلس عليه الشافالير بالماء المبارك بعد كل زيارة.  
كانت توضح أن سيدها أيضاً لا يؤمن بالله، نتيجة موت زوجته، أم

على طريق  
هل يخطر  
كان المكلف  
المعروف  
تأثيراً، كما  
بدأ يقلص  
برت، فقد  
منذ نعومة  
اسعة من  
قبل أن  
أر القادة  
المدينة  
أنه يملك  
ة، تماماً  
بالسماح  
ن يظهر  
جروون  
بل كان  
أأتي من  
نفسه،  
شافالير  
تحمله  
ث رجل  
كانا

الصغيرتين، المبكر. كانت واثقة من أن حالة السيد توماس مؤقتة،  
وسيستعيد عقله على فراش الموت وسيطلب معرفاً يغفر له ذنوبه،  
وهو، بعد كل حساب، ما كان يفعله الجميع، مهما أعلنوا أنهم  
ملحدون ما داموا ينعمون بالصحة.

كانت أغنيس رقيقة حالمة وحيوية، ذات بشرة صافية ونظرة  
خبيثة وغمازتين في خديها، وبراجمها ومرفقيها. أنضجتها  
الروايات قبل الأوان، وفي العمر الذي لم تكن تخرج فيه الأخريات  
من البيت كانت هي تمارس حياة المرأة الناضجة. كانت تستعمل  
أجراً موضات باريس لترافق أبيها في نشاطاته الاجتماعية. تحضر  
حفلات الرقص بثياب مبللة، كي يلتصق القماش بجسدها فلا يبقى  
هناك من لا يقدر وركيها المستديرين وحلمتيها، حلمتي العذراء  
الجبسورة. وضعت منذ اللقاء الأول عينها على ديفغو، الذي خلف  
وراءه في ذلك العام مرارات المراهقة ونما نمو مهر، فصار بطول  
توماس برومو وكسب، بفضل الوجبات القطالانية وتدلليل نوريا له،  
وزناً، كان بأمرس الحاجة إليه. استقرت تقاسيمه بشكل نهائي، وبناءً  
على اقتراح إيزابيل ترك شعره طويلاً كي يغطي أذنيه. كان يبدو  
بالنسبة إلى أغنيس مقبولاً، غريباً ويمكن تخيله في براري أمريكا  
الوحشية محاطاً بالهنود الوديعين والعراة. لم تكن تمل من سؤاله  
عن كاليفورنيا، التي تخط بينها وبين جزيرة غامضة وحارة، مثل  
تلك التي ولدت فيها جوزفين بونايرت فائقة الوصف، التي كانت  
تحاول أن تقلدها بلباسها الشفاف وعطور بنفسجها. تعرّفت عليها  
في باريس، في بلاط نابليون، وهي طفلة في العاشرة من عمرها،  
في أثناء غياب الإمبراطور في إحدى حروبها، خصت جوزفين  
الشافالير بصداقة شبه غرامية. بقيت صورة هذه المرأة منقوشة في  
ذاكرة أغنيس، التي ودون أن تكون جميلة بدت لها كذلك من مشيتها  
المتماوجة وصوتها الحالم وعطرها الفرور. مضى على ذلك أكثر  
من أربع سنوات. لم تعد جوزفين إمبراطورة فرنسا، فقد استبدلها  
نابليون بأميرة نمساوية تافهة، ملاحظتها الوحيدة حسب أغنيس، أنها



أنجبت له ولداً. آه ما أصفق الإخصاب! عندما علمت أن ديبغو هو  
الوريث الوحيد لألجاندرو د لا بيجا، صاحب أرض بحجم بلد صغير،  
لم يكلفها شيء تخيل أن تصبح قشتالية تلك الأرض الأسطورية.  
انتظرت اللحظة المناسبة، وهمست له من خلف مروحتها أن يذهب  
لزيارتها كي يتكلما على انفراد، لأنهما في بيت توماس د رومو كانا  
دائماً تحت مراقبة نوريا. أضافت إن من لم يكن عنده في باريس  
قهرمان، فهذا يمثل ذروة التخلف. ولكي تختم الدعوة سلمته منديلاً  
من القماش المخرم طرّزت الراهبات عليه اسمها الكامل وغطر بعطر  
البنفسج. لم يدري ديبغو بماذا يجيبها. حاول خلال أسبوع أن يثير  
غيرة خوليانا متكلماً عن أغنيس وهاراً المنديل في الهواء، لكن  
الطلقة ارتدت عليه، لأن الجميلة عرضت عليه بلطف أن تساعد في  
غرامه. كما أن إيزابيل ونوريا سخرتا منه بلا رحمة، فانتهى به  
الأمر إلى أن رمى بالمنديل إلى القمامة؛ فأخذه برناردو الوفي  
لنظريته القائلة بأن كل شيء يمكن أن يفيد في المستقبل، وخبأه.

كثيراً ما كان ديبغو يلتقي أغنيس دوشامب، لأن الفتاة تحوّلت  
إلى زائرة مواظبة إلى المنزل. كانت أصغر من خوليانا، لكنها  
تفوقها حيوية وتجربة. لو كانت الظروف مختلفة لما تنازلت أغنيس  
وصادقت فتاة ببساطة خوليانا، لكن موقف والدها أغلق أمامها  
أبواباً كثيرة وحرماً من الصديقات. ثم إن خوليانا كانت تملك  
لصالحها شهرتها بأنها جميلة، وعلى الرغم من أن أغنيس تفادت من  
حيث المبدأ مثل هذه المنافسة، إلا أنها سرعان ما انتبهت إلى أن  
مجرد اسم خوليانا كان يشد انتباه الفرسان، فتستفيد عرضاً من  
ذلك. وللتهرب من تلميحات أغنيس دوشامب الغرامية، التي راحت  
تتكثف وتزداد، حاول ديبغو أن يغيّر الصورة التي كوّنتها الشابة  
عنه، فلا هو غني ولا ملاك شجاع يخبّ وسيفه على جنبه في وديان  
كاليفورنيا. وبدل ذلك راح يتكلم عن رسائل مفترضة من والده  
تُعلمه، بين كوارث أخرى، عن إفلاس العائلة الاقتصادية الحتمي. لم  
يكن يدري في تلك اللحظة كم كان قريباً بأكذوباته من الحقيقة، التي

ستحل بعد سنوات قليلة. ولكي يكمل الصورة كان يُقلد آداب مُعظم خوليانا وإيزابيل في الرقص السارة وبنطلوناته الضيقة. كان يرد على نظرات أغنيس الروائية بحساسية شديدة وألم مُفاجئ في الرأس، حتى أنه ولد عند الشابة شكاً بأنه مُخنث. هذا اللعب المرائي كان ينسجم تماماً مع شخصيته التهريجية. إيزابيل، التي عاملته منذ البداية بصراحة تقارب القسوة، سألته أكثر من مرّة: «لماذا تتظاهر بالبله؟». خوليانا الشاردة كما هي دائماً في عالمها الروائي، لم تعتبر قط أنها معنيّة بالكيفية التي تغيّر بها ديفغو في حضور أغنيس. بالمقارنة مع إيزابيل، التي كانت أفعال ديفغو المسرحية بالنسبة إليها جليّة، كانت خوليانا فتاة تتمتع ببراءة مُقلقة.

بدأ توماس د رومو عادةً دعوة ديفغو ليشرب بعد العشاء كأس العقبة مع الشافالير، لأنه لاحظ أنه كان يهتمّ بضيفه الشاب. كان الشافالير يسأل عن نشاطات الطلبة في مدرسة العلوم الإنسانية، وعن ميول الشباب السياسية، عن شائعات الشارع والخدم، لكنّ ديفغو كان يعرف سمعته وينتبه كثيراً إلى أجوبته. فهو إذا قال الحقيقة سيخرج أكثر من شخص، خاصّة رفاقه وأساتذته، أعداء الفرنسيين الألداء، على الرغم من أنّ غالبيتهم كانت متفقة مع الإصلاحات المفروضة من قبلهم. وبنوع من الحذر تظاهر أمام الشافالير بالآداب المتكفّة نفسها وبمخّ البعوضة الذي كان يتخذه مع أغنيس دو شامب، وفعل ذلك بنجاح جعل هذا يعتبره فضولياً تافهاً ورخواً. كان الفرنسيّ يستغرب اهتمام ابنته بِ د لايفغا. كان يرى أنّ ثروة الشاب المفترضة لا تعوّض برودته. كان الشافالير رجلاً حديدياً، فلولا ذلك ما استطاع أن يخنق قطلونيا بالشكل الذي فعله، وسرعان ما انزعج من تفاهات ديفغو. لم يعد يستنطقه؛ وكان يقوم أحياناً بتعليقات في حضوره، كان سيتفادها لو أنّ رأيه به أفضل.

- عند مجيئي البارحة من جرونا، رأيت أجساداً مُقطّعة مُعلّقة

على الأشجار ومشكوكة في رماح من قبل رجال حرب العصابات.  
كانت النسور في عيد. لم أستطع أن أنزع عني النتن... - علق  
الشافالير.

- وكيف عرفت أنه من عمل رجال حرب العصابات وليس من  
عمل الجنود الفرنسيين؟ - سأل توماس د رومو.

- أنا حسن الاطلاع، يا صديقي. الحرب في قطلونيا ضروس.  
في هذه المدينة تمر آلاف قطع الأسلحة المهربة، يوجد مخازن منها  
حتى في أماكن الاعتراف في الكنائس. رجال حرب العصابات  
يقطعون طرق الإمداد والسكان يتضورون جوعاً لأن الخضر  
والخبز لا يصلان.

- إذن، ليأكلوا بسكويت - ابتسم ديفو، مُقلداً جملة الملكة ماري  
أنطوانيت الشهيرة، بينما راح يدفع بحبة حلوى اللوز إلى فمه.

- الحالة جدية ولا تتحمل النكات، أيها الشاب - رد الشافالير  
مُنزعجاً. منذ غد سيكون ممنوعاً حمل الفوانيس ليلاً، لأنهم  
يستخدمونها في تبادل الإشارات وكذلك ارتداء الأذرة، لأنهم يخفون  
تحتها البنادق القصيرة والخناجر. يكفي أن أقول لكم، أيها  
الفرسان، أن هناك خطراً لنشر الجدري بين العاهرات اللواتي  
يخدمن القوات الفرنسية!

- بالله عليك أيها الفارس دوشامب! - صاح ديفو بنبرة  
استنكار.

- نساء ورهبان يخفون أسلحة في ملابسهم ويستخدمون  
الأطفال لنقل الرسائل وإشعال مخازن البارود. علينا أن نسوي  
المستشفى بالأرض لأنهم يخبئون أسلحة تحت طرحات الناموسيات.

تدبر ديفو أمره بعد ساعة كي يُنبئه مدير المستشفى إلى أن  
الفرنسيين سيصلون بين لحظة وأخرى. وتمكن بفضل المعلومات  
التي راح يُسهلها إليه الشافالير أن يُنقذ أكثر من رفيق من رفاق

مدرسة العلوم الإنسانية أو جار في وضع خطير. من ناحية أخرى  
أوصل للشافاليير ملاحظة مجهولة المصدر حين علم بأنهم ستموا  
الخبز المخصّص لإحدى الثكنات. وأبطل تدخله العملية وأنقذ ثلاثين  
جندياً عدواً. لم يكن ديفغو واثقاً من أسبابه، كان يكره كل أشكال  
الخيانة والغدر، كما كان يحبّ اللعب والمجازفة. كان يمقت أساليب  
رجال حرب العصابات كما يمقت أساليب قوات الاحتلال.

- من المحال البحث عن العدالة في هذه الحالة، يا برناردو،  
لأنها ليست موجودة عند أيّ من الجانبين. فقط نستطيع أن نتجنّب  
مزيداً من العنف. سئمت من كثرة الرعب والفظائع. لا شيء نبيل أو  
مجيد في الحرب - علق مخاطباً أخاه.

كانت حرب العصابات تسوط الفرنسيين بلا هوادة وتُلهب  
الشعب. فلاحون، خبازون، بناؤون، حرفيون، تجّار، ناس عاديون  
خلال النهار، كانوا يُقاتلون في الليل؛ يحميهم السكان المدنيون،  
يسهّلون لهم الإمدادات والمعلومات والبريد والمشافي والمقابر  
السريّة. استنزفت المقاومة الشعبيّة الضروس قوّة الاحتلال، لكنها  
أيضاً دمّرت البلد، لأنّ الفرنسيين كانوا يردّون على الشعار  
الإسباني: «الحرب والسكين» بوحشيّة مماثّلة.

شكّلت دروس المبارزة نشاط ديفغو الأهمّ، فلم يصل إلى درس  
متأخراً قط، لأنّه كان يعلم أنّ المعلم سيصرفه للأبد. كان يقف في  
الثامنة إلا ربع أمام باب الأكاديمية، فيفتح له خادم بعد خمس دقائق  
وفي الثامنة يتسمّر وشيشه في يده أمام معلمه. كان هذا يدعوّه بعد  
انتهاء الدرس ليبقى دقائق أكثر ويتحدّث معه عن نبل فنّ المبارزة،  
وفخر الإمساك بالسيف، وعن أمجاد إسبانيا العسكرية، والضرورة  
الملحّة لكلّ فارس يملك عزّة نفس ليقاتل حتى الموت باسمها، على  
الرغم من أنّ المبارزات كانت ممنوعة. وقد قادت هذه الموضوعات  
إلى موضوعات أخرى أعمق وهذا الرّجيل المتكبر، له مظهر غندود

منشئ مفرد في منح التوافه أهمية، حساس إلى حد أنه لامس  
اللامعقول حين تعلق الأمر بشرفه وكرامته الخاصتين فكشف عن  
الجانب الآخر في طبيعته. كان مانول إسكالانت ابن تاجر، لكنه نجا  
من مصير متواضع، مثل مصير أخوته، لأنه كان فذاً مع السيف.  
رفعت المبارزة من مكانته، وسمحت له باختراع شخصية جديدة  
والتجول في أوروبا محتكاً بالنبلاء والفرسان. لم يكن هوسه  
الطعنات التاريخية ولا ألقاب النبالة، كما كان يبدو من النظرة  
البسيطة، بل العدالة. تنبأ بأن ديفغو كان يُشاطره القلق ذاته، وإن  
كان لا يعرف نظراً لصغر سنّه أن يُسميه. عندها شعر بأنه صار  
لحياته غاية سامية: هداية هذا الشاب كي يتبع خطواته، وتحويله  
إلى بطل مناضل من أجل القضايا العادلة. كان قد علم المبارزة  
لمئات الفرسان، لكن ما من أحد منهم برهن أنه أهل لهذه الواجهة.  
كان ينقصهم الوهج الذي عرفه على الفور عند ديفغو، لأنه هو أيضاً  
كان يتمتع به. لم يسمح لنفسه أن يُؤخذ بالحماس الأولي، فقرر أن  
يعرفه بشكل أفضل ويختبره قبل أن يجعله شريكاً له في أسراره.  
جس نبضه في تلك الأحاديث القصيرة في ساعة تناول القهوة.  
ديفغو، المستعد دائماً للانفتاح حكى له بين أشياء أخرى، عن  
طفولته في كاليفورنيا، عن مغامرة الدب والقبعة، هجوم القراصنة،  
خرس برناردو، وتلك المناسبة التي أحرق فيها الجنود قرية الهنود.  
كان صوته يرتعش وهو يتذكر كيف شنقوا زعيم القبيلة العجوز،  
وساطوا الرجال وقادوهم للعمل لصالح البيض.

التقى ديفغو، في إحدى زيارات المجاملة التي قام بها إلى  
قُصير إيولاليا د كاليبس، برافائل مونكادا. كان يزور السيدة من  
حين لآخر، بتكليف من أبويه أكثر منه مبادرة خاصة. كان المنزل  
يقع في شارع سانتا إيولاليا، فظن ديفغو في البداية، أنهم سموا  
الشارع باسم هذه السيدة. انقضى عام قبل أن يتحقق من أنها كانت

إيولاليا الأسطورية، قديسة برشلونه المفضلة، العذراء المعذبة، التي  
قطعوا، حسب الأسطورة، ثدييها ودحرجوها في نفق فوق شطايا  
زجاج قبل أن يصلبوها. وكان عقار حاكمة كاليفورنيا القديمة  
جوهرة من الجواهر المعمارية في المدينة، وقد زينت داخله بترف  
مفرط، كان يصدم القطلانيين المعتدلين، الذين يعتبرون الأبهة دليلاً  
أكيداً على الذوق السيء. عاشت إيولاليا سنواتٍ كثيرة في المكسيك،  
فأصبحت بعدوى الازدحام الباروكي. في بلاطها الخاص كان هناك  
عدة مئات من الأشخاص، يعيشون بشكلٍ أساسي على تجارة  
الكاكاو. أنشأ زوج إيولاليا قبل أن يموت بالغشية في المكسيك  
تجارة في الأنتيل كي يغطي حاجة محلات الشوكولا في إسبانيا وهذا  
ما زاد من ثروة العائلة. لم تكن ألقاب إيولاليا قديمة أو مُدهشة، لكن  
مالها كان يُعوّض بسخاءٍ ما كان ينقصها من ألقاب. فبينما كانت  
الطبقة النبيلة تخسر مداخيلها وامتيازاتها وأراضيها وإيراداتها  
بقيت هي تزداد ثراءً بفضل نهر الشوكولا الفواح الذي كان يجري من  
أمريكا مباشرة إلى خزائنها. لو كان الزمن آخر لأخفى النبلاء الأكثر  
عراقةً في النسب، أولئك الذين كان باستطاعتهم أن يؤكّدوا زرقة  
دمهم قبل العام 1400، إيولاليا، التي كانت تنتمي إلى نبالة الدهماء،  
لكن الوضع لم يعد مناسباً للتشدّد الأرستقراطي. فالآن ما يحسب  
حسابه هو المال وليس النسب، وكانت تملك الكثير منه. ملاكون  
آخرون كانوا يَشْكُون من أنّ فلاحيهم يرفضون دفع الضرائب  
والكراء، لكنّها لم تكن تُعاني من هذه المشكلة، لأنّها كانت تملك  
مجموعة مختارة من القبضيات المكلفين بالتحصيل. ثمّ إنّ معظم  
دخلها كان مصدره الخارج. أصبحت إيولاليا واحدة من أبرز  
شخصيات المدينة. وكانت تتنقل دائماً حتى في زهابها إلى الكنيسة  
في عدّة عربات برفقة موكب من الخدم والكلاب. وكان خدمها  
يلبسون بزّات سماوية وقبّعات مزيّنة بقنزعات من الريش صممتها  
لهم بنفسها مستلهمة إياها من الأوبرا. ومع الزمن زاد وزنها  
وتراجعت أصالتها وصارت امرأة متسلّطة بلباس جدادها، نهمة،

أقمت  
بال  
بيع  
تعم  
كانت  
إسبانيا  
لابغا  
أعترافاً  
الواجب  
أرب  
أن يستخ  
الوزن الثقيل  
المؤسف  
الرئيسي كان يعيش  
كان لا بد لها  
خطأ  
ارتباط بينه وبين  
بمنع زواج رافائيل  
السيدة  
في أثناء زيارته الرأ  
عن حادث السيرينادا تحت  
بعض النشاطات الاجتماعية  
بإستثناء التحية بانحناء  
سبباً خالياً من أية

محاطة بالرهبان والورعات وكلاب التشهواهوا، هذه الحيوانات التي تُشبه الجرذان الحليقة وتبول على الستائر. وقد تخلصت تماماً من عواطفها التي أقضت مضجعها في ألق شبابها، حين كانت تصبغ شعرها بالأحمر وتستحم بالحليب. صارت اهتماماتها تقتصر على الدفاع عن نسبها، وعلى بيع الشوكولا وتأمين مكان لها في الجنة بعد مماتها، والتهيئة بكل الوسائل الممكنة لعودة فرناندو السابع إلى عرش إسبانيا. كانت تمقت الإصلاحات الليبرالية.

قرّر ديفغو د لا بغا أن يزور هذه السيدة، بين الفينة والأخرى، بأوامر من والده واعترافاً بتصرفها الحسن مع رخيها، أمه، على الرغم من أنّ هذا الواجب كان يُثقل عليه كالذبح. لم يكن عنده ما يقوله لهذه الأرملة غير أربع جمل مجاملة صارمة، ولم يعرف قط الترتيب الذي عليه أن يستخدم به الملاعق الصغيرة والشوكات على المائدة. كان يعلم أنّ إيولاليا د كاليبس تمقت توماس د رومو لسببين من الوزن الثقيل: أولاً لأنه متفرنس، وثانياً لأنه والد خوليانا، التي من المؤسف أنّ رافائيل مونكادا، حفيدها المفضل ووريثها الرئيسي كان يعشقها. كانت إيولاليا قد رأت خوليانا في الصلاة، وكان لا بدّ لها من أن تعترف بأنها ليست قبيحة، لكنها وضعت لحفيدها خطأً أكثر طموحاً. فقد كانت تفاوض سرّاً من أجل ارتباط بينه وبين واحدة من بنات دوق مدينة سالم. كانت الرغبة بمنع زواج رافائيل من خوليانا الشيء الوحيد المشترك بين ديفغو والسيدة.

في أثناء زيارته الرابعة لقصر دونيا إيولاليا، بعد عدّة أشهر من حادث السيرينادا تحت نافذة خوليانا، حالفت الفرصة ديفغو ليعرف رافائيل مونكادا بشكل أفضل. كان قد التقى به مصادفة في بعض النشاطات الاجتماعية والرياضية، لكن لم تقم بينهما أية علاقة باستثناء التحيّة بانحناءة من الرأس. كان مونكادا يعتبر ديفغو صبيّاً خالياً من أية أهمية، فضيلته الوحيدة أنّه يعيش تحت سقف

واحد مع خوليانا دي رومو. لم يكن هناك من سبب لتمييزه عن رسوم  
السجادة. في تلك الليلة فوجئ ديفغو بمنزل إيولاليا مناراً بإسراف  
وأن هناك عشرات العربات المصطفة في الفناء. قبلها لم تدعه إلا  
إلى مسامرات الفنانين وعشاءٍ ودّي، استقصت منه خلاله عن رخيننا.  
كان ديفغو يعتقد أنها تشعر بالحجل منه، ليس لأنه قادم من  
المستعمرات بقدر ما لأنه خلاسي. كانت إيولاليا قد عاملت أمه  
معاملة حسنة جداً في كاليفورنيا، على الرغم من أن رخيننا فيها من  
الهندية أكثر مما من البيضاء، لكنها منذ أن استقرت في إسبانيا  
أصيبت بعدوى احتقار أهل العالم الجديد. كان يقال إن المتحدرين  
من أصل إسباني، ونظراً للطقس والاختلاط بالسكان الأصليين  
عندهم استعداد مسبق وطبيعي للبربرية والفساد. أرادت إيولاليا قبل  
أن تقدمه إلى صفوة أصدقائها أن تكون فكرة تامّة عنه. لم تبغ أن  
تقع في خيبة أمل، لذلك تأكدت من أن يكون أبيض في مظهره وحسن  
الهندام ويتمتع بالآداب المناسبة.

اقتيد ديفغو في تلك المناسبة إلى قاعة رائعة، اجتمع فيها  
صفوة النبلاء القطلانيين برئاسة المرأة المتسلطة، التي ترتدي دائماً  
القطيفة السوداء، حداداً جلياً على بدرو فاخس، مسربة بالماس،  
جالسة في كرسي أسقفى بمظلة. كانت الأرامل الأخريات يقبرن وهن  
حيات مسربلاتٍ بالسواد الذي يغطيهن من رؤوسهن وحتى مرافقهن،  
ولم تكن هذه حالها. كانت إيولاليا تنشر مجوهراتها فوق صدرها،  
الصدر المكتنز لدجاجة حسنة التغذية. كانت التقوية تظهر منبت  
ثديين هائلين وبضين، مثل بطيختين في عز الصيف، لم يستطع  
ديفغو أن يرفع نظره عنهما، دائخاً من بريق الماس ووفرة اللحم.  
أعطته السيّدة يداً غليظةً فقبلها كما يجب، سألته عن أبويه وصرفته  
بحركة مبهمة دون أن تنتظر منه جواباً.

كانت غالبية الفرسان تتناقش بالسياسة والتجارة في قاعات  
منفصلة، بينما الأزواج الشبان يرقصون على إيقاع الأوركسترا،



تراقبهم أمهات الفتيات الحسنات. في إحدى القاعات كان هناك  
عدة طاولات قمار، وهي أكثر تسلية البلاطات الأوروبية شعبية،  
حيث لم يكن هناك طريقة أخرى لمحاربة الضجر، غير التأمير  
والصيد والغرام العابر. كانوا يُقامرون بثروات، واللاعبون  
المحترفون يُسافرون من قصرٍ إلى قصرٍ ليُفقدوا النبلاء عديمي  
النفع، الذين إذا لم يجدوا لاعبين من طبقتهم كي يخسروا المال،  
قاموا بذلك مع الأشرار في مقامر وأكواخ متوافرة بالمئات في  
برشلونة. على إحدى الطاولات رأى ديفغو رافائيل مونكادا يلعب 21  
رنال مع فرسان آخرين. كان واحد منهم الكونت أورلوف. عرفه  
ديفغو على الفور من وجاهته الرائعة وعينيهِ الزرقاوين اللتين ألهبتا  
خيال نساء كثيرات خلال زيارته إلى لوس أنجلوس، لكنه لم يتوقع  
من النبيل الروسي أن يعرفه. فهو قد رآه مرةً واحدةً، حين كان  
صبيّاً صغيراً. «دِ لايفغا!» صاح أورلوف ونهض على قدميه، وعانقه  
بحرارة مفرطة فرفع رافائيل مونكادا عينيه عن الورق مُندهِشاً  
وانتبه لأول مرةً انتبهاً تاماً إلى وجود ديفغو. قاسه من أعلاه إلى  
أسفله، بينما الكونت الأنيق يروي بأعلى صوته كيف اصطاد هذا  
الشابُّ عدداً من الدببة حين لم يكد يكون أكثر من صعلوك صغير  
السن. هذه المرة لم يكن هناك أَلْخاندرو دِ لايفغا كي يُصحح له  
روايته الملحمية. صفق الرجال بلطف وعادوا على الفور إلى ورق  
لعبهم. وقف ديفغو قرب الطاولة كي يُراقب تفاصيل اللعبة، دون أن  
يتجرأ على طلب إذن بالمشاركة، على الرغم من أنهم كانوا لاعبين  
متواضعين، لأنه لم يكن يملك المبالغ التي يُقامرون بها هناك.  
فوالده كان يُرسل إليه المال بانتظام لكنه لم يكن كريماً، لأنه كان  
يعتبر أن التقشف يُشذب الطبيعة. خمس دقائق كانت كافية لديفغو كي  
ينتبه إلى أن رافائيل مونكادا كان يغش، لأنه هو نفسه كان يعرف  
كيف يفعل ذلك؛ وخمس دقائق أخرى كي يُقرر أنه إذا كان لا يستطيع  
أن يكشفه، ويوقع فضيحة لن تغفرها له دونيا إيولاليا، فهو على

الأقلّ يستطيع أن يمنعه. بدا له إغواء إهانة غريمه لا يُقاوم. وقف بجانب مونكادا يراقبه بإمعانٍ جعل هذا الأخير يتململ منزعجاً.

- لماذا لا تذهب لترقص مع الفتيات الجميلات في القاعة الأخرى؟ - سأله مونكادا، دون أن يخفي وقاحته.

- تهمني جداً طريقتك الخاصّة في اللعب، يا صاحب السعادة، لاشكّ أنني أستطيع أن أتعلّم الكثير منك... - ردّ ديفغو مبتسماً بوقاحة الآخر ذاتها.

وعلى الفور التقط الكونت أورلوف قصديّة كلمات مونكادا فجعله يعرف غارزاً عينيّه فيه، وبنبرة باردة برودة سهوب بلاده قال بأنّ حظّه بالورق يبدو فعلاً عجيباً. لم يردّ رافائيل مونكادا، لكنّه لم يستطع منذ تلك اللحظة أن يستمرّ بالغشّ، لأنّ اللاعبين الآخرين صاروا يراقبونه بانتباهٍ واضح. لم يتحرّك ديفغو خلال الساعة التالية من جانبه وهو يُراقبه، إلى أن اعتبرت اللعبة منتهية. حيناً الكونت أورلوف، خابطاً كعبيه وانسحب بثروة صغيرة في جيبيه، مستعداً لأنّ يقضي بقيّة الليل بالرقص. كان يعرف أنّه ما من امرأة في الحفلة لم تُمعن في قدّه الرشيق، وعينيّه الصفيرتي اللون<sup>(\*)</sup> وبزّته الإمبراطورية المدهشة.

كانت ليلة من ليالي برشلونة الرصاصية، الباردة والرطبة. كان برناردو ينتظر ديفغو في الفناء يتقاسم زقّ نبيذه وجبنته القاسية مع جوائت، أحد الخدم الكثيرين الذين يعتنون بالعربات. كلاهما كان يُدْفئ قدميه خابطاً بهما البلاط. كان جوائت متحدّثاً يصعب إصلاحه، وجد أخيراً شخصاً يصفى إليه دون أن يُقاطعه. وعرّف بنفسه أنّه خادم رافائيل مونكادو، الأمر الذي كان برناردو يعرفه ولذلك دنا منه، فراح يروي قصّة لا تنتهي مليئة بالنكات بينما برناردو يصفّ تفاصيلها ويخزنها في ذاكرته. تأكّد من أنّ كلّ معلومة، حتى أكثرها

(\*) Zafiro: الصغير هو الياقوت الأزرق. م.

ابتدأً يمكن أن تفيد في لحظة من اللحظات. في هذه الأثناء خرج رافائيل مونكاد بمزاج سيء وطلب عربته.

- منعتك من الكلام مع خدم آخرين - باغث جوائت.

- ليس أكثر من هندي من أمريكا، يا صاحب السعادة، خادم السيد ديفغو د لايفغا.

وبدافع الانتقام من ديفغو، الذي وضعه في موقف حرج على طاولة القمار، رجع رافائيل مونكادا القهقري، رفع عصاه وأفرغها على ظهر برناردو، الذي سقط على ركبتيه، مبالغاً أكثر من أي شيء آخر. من على الأرض سمعه برناردو يأمر جوائت بالبحث عن بلايو. لم يتمكن رافائيل من أن يستوي في عربته لأن ديفغو ظهر في الفناء في الوقت المناسب ورأى ما حدث. نحى الخادم جانباً، أمسك باب العربة وواجه مونكادا.

- ماذا تريد - سأل هذا مرتبكاً.

- ضربت برناردو! - صاح ديفغو وقد امتقع لونه.

- من؟ هل تعني هذا الهندي؟ لقد قلل أدباً معي، رفع صوته

علي.

- برناردو لا يستطيع أن يرفع صوته ولا حتى على الشيطان بعينه، لأنه أخرس. أنت مدين له بالاعتذار، أيها الفارس - طالبه ديفغو.

- هل فقدت رشذك! - صاح الآخر، غير مُصدّق.

- بضربك برناردو أهنتني. عليك أن تتراجع أو أنك ستستقبل كفيلي - ردّ ديفغو.

راح رافائيل مونكادا يضحك برغبة. لم يكن يستطيع أن يُصدّق أن هذا المولد الإسباني، غير المربّي ولا طبقة اجتماعية له مستعد لمقارعة. أغلق الباب بطريقة واحدة وأمر سائق العربة أن ينطلق.

أخذ برناردو ديبغو من ذراعه وأوقفه بقوة، متوسلاً إياه بنظره أن يهدأ، فالأمر لا يستحق إثارة كل تلك الضجة، لكن ديبغو كان قد خرج عن طوره، راح يرتجف من الإهانة. تخلص من أخيه، امتطى حصانه وتوجه خائباً إلى مكان إقامة مانول إسكالانت.

على الرغم من أن تلك الساعة من الفجر لم تكن مناسبة، فقد طرق ديبغو باب مانول إسكالانت بعصاه إلى أن فتح له الخادم العجوز نفسه الذي كان يقدم القهوة بعد الدرس. قاده إلى الطابق الثاني، حيث اضطر أن ينتظر نصف ساعة قبل أن يظهر المعلم. كان المعلم في فراشه منذ برهة لكنه حضر بتهذيبه المعتاد وشاربه المقسى، مرتدياً دثار نومه. حكى له ديبغو بكلام متدافع ما جرى وتوسله أن يكون كفيلاً. فأمامه أربع وعشرون ساعة كي تصبح المباراة رسمية والمعاملة يجب أن تتم بتكتم، من وراء ظهر السلطات، لأنه كان سيعاقب مثل أي قاتل. وحدهم النبلاء يستطيعون المباراة لأن جرائمهم تلقى الحصانة التي لا يتمتع بها.

- المباراة شيء جدّي، يتعلق بشرف النبلاء. لها لباقتها وقواعدها الصارمة جداً. الفارس لا يقاثل في مباراة دفاعاً عن خادم - قال مانول إسكالانت.

- برناردو أخي، وليس خادمي، يا معلم. لكن حتى ولو كان كذلك فليس من العدل أن يسيء مونكادا لشخص أعزل.

- تقول ليس من العدل؟ هل حقاً تفكر بأن الحياة عادلة، يا سيدي لايفغا؟

- لا، يا معلم، لكنني أفكر أن أعمل بكل ما في وسعي كي تكون كذلك - رد ديبغو.

جاء الإجراء أكثر تعقيداً مما افترضه ديبغو. فأولاً جعله مانول إسكالانت يكتب رسالة يطالب فيها بتوضيحات، حملها بنفسه إلى

بيت المعتدي. بدءاً من تفاهم اللحظة تفاهم المعلم مع كفيلي مونكادا، اللذين عملاً ما بوسعهما لتجنب المباراة، كما هو واجبهما، لكن ما من أحد من الخصمين أراد أن يتراجع. إضافة إلى كفلاء الجانبين، كان يتطلب الأمر طبيباً حصيماً وشاهدين غير منحازين، باردي الدم وعارفين بالقواعد، تكفل مانول إسكالانت بالحصول عليهم.

- كم عمرك، يا سيّد ديبغو؟ - سأل المعلم.

- سبعة عشر عاماً تقريباً.

- إذن لست في عمر يسمح لك بالمبارزة.

- أرجوك، يا معلم، لا تجعلنا نعمل من هذه الحبة من الرمل قبة. ماذا تهتمّ أشهر أكثر أو أشهر أقل؟ شرفي في خطر، وهذا ليس له عمر.

- حسناً، لكن يجب أن يُعلم السيّد توماس دي رومو بهذا، وإلاّ اعتبرت إهانة له، فهو قد خصّك بثقته وضيافته.

وهكذا كان أن عُيّن دي رومو كفيلاً ثانياً. عمل الممكن لإقناعه، لأنّه إذا ما كانت النهاية سيئة بالنسبة إلى الشاب، فلن يكون عنده مايقوله لألخاندرو دي لايفغا، لكنّه لم يتمكّن. كان قد حضر لديبغو درسين في المباراة في أكاديمية إسكالانت وكان يثق بمهارة الشاب، لكنّ اطمئنانه النسبي ذهب إلى الشيطان حين أعلمه كفيلاً مونكادا أنّ هذا الأخير قد لوي مرفقه تواءً ولا يستطيع أن يقاتل بالسيف. فالمبارزة ستكون بالمسدس.

التقوا في غابة مونتيجويك في الخامسة صباحاً، حين أصبح هناك بعض النور وصار التجوال ممكناً في المدينة، ففي تلك الساعة كان يُرفع حظر التجوّل، كان ينبعثُ بخار خفيف من الأرض ونور الفجر الخافت يتسرّبُ بين الأشجار. كان المشهد من الوداعة بحيث بدت تلك المباراة أكثر فظاظة، لكن ما من أحد من الحضور غير

بيت المعتدي. بدءاً من تفاهم اللحظة تفاهم المعلم مع كفيلى مونكادا، اللذين عملاً ما بوسعهما لتجنب المباراة، كما هو واجبهما، لكن ما من أحد من الخصمين أراد أن يتراجع. إضافة إلى كفلاء الجانبين، كان يتطلب الأمر طبيياً حصيفاً وشاهدين غير منحازين، باردي الدم وعارفين بالقواعد، تكفل مانول إسكالانت بالحصول عليهم.

- كم عمرك، يا سيّد ديفغو؟ - سأل المعلم.

- سبعة عشر عاماً تقريباً.

- إذن لست في عمر يسمح لك بالمبارزة.

- أرجوك، يا معلم، لا تجعلنا نعمل من هذه الحبة من الرمل قبة. ماذا تهتمّ أشهر أكثر أو أشهر أقل؟ شرفي في خطر، وهذا ليس له عمر.

- حسناً، لكن يجب أن يُعلم السيّد توماس دي رومو بهذا، وإلاّ اعتُبرت إهانة له، فهو قد خصّك بثقته وضيافته.

وهكذا كان أن عُيّن دي رومو كفيلاً ثانياً. عمل الممكن لإقناعه، لأنّه إذا ما كانت النهاية سيئة بالنسبة إلى الشاب، فلن يكون عنده مايقوله لألخاندرو دي لايبغا، لكنّه لم يتمكّن. كان قد خصر لديفغو درسين في المباراة في أكاديمية إسكالانت وكان يثق بمهارة الشاب، لكنّ أطمئنانه النسبي ذهب إلى الشيطان حين أعلمه كفيلاً مونكادا أنّ هذا الأخير قد لوي مرفقه توّاً ولا يستطيع أن يقاتل بالسيف. فالمبارزة ستكون بالمسدّس.

التقوا في غابة مونتيجويك في الخامسة صباحاً، حين أصبح هناك بعض النور وصار التجوال ممكناً في المدينة، ففي تلك الساعة كان يُرفع حظر التجول، كان ينبعث بخار خفيف من الأرض ونور الفجر الخافت يتسرّب بين الأشجار. كان المشهد من الوداعة بحيث بدت تلك المباراة أكثر فظاظاً، لكن ما من أحد من الحضور غير

برناردو لاحظته. بقي الهندي بصفته خادماً على مسافة معينة. دون  
 أن يُشارك في الطقس الصارم. وعملاً بالبروتوكول تبادل الخصمان  
 التحية وفتش الشهود على الفور جسديهما كي يتأكدوا من أنهما  
 لا يحملان ما يقيهما من الطلقات. رموا قرعة ليروا من يكون في  
 مواجهة الشمس فخسر ديبغو، لكنه فكر أن نظره الحسن سيكون  
 كافياً كي يُعوضه عن هذا العائق. ونظراً لأن ديبغو هو المهان  
 استطاع أن يختار المسدسين فاختر المسدسين اللذين أرسلتهما  
 إيولاليا إلى والده في كاليفورنيا قبل سنوات كثيرة، فهما نظيفان  
 وشحماً حديثاً للمناسبة. ابتسم أمام مهزلة أن يكون حفيد إيولاليا  
 بالتحديد أول من يستخدمه. فحص الشهود والكفلاء السلاحين  
 ولقموهما. كانوا قد اتفقوا على أنها لن تكون مبارزة أول دم يسيل،  
 فكلا المقاتلين لهما الحق بالرماية دورياً، حتى ولو كانا جريحين،  
 ما دام الطبيب يأتز بذلك. اختار مونكادا المسدس قبله لأنه لم يكن  
 صاحب السلاحين، ثم اقترعا على من سيكون البادئ بالرماية -  
 أيضاً مونكادا - وقاسوا مسافة الخمس عشرة خطوة التي يجب أن  
 تفصل بين الخصمين.

أخيراً تواجه رافائيل مونكادا وديبغو د لايفغا. ما من أحد منهما  
 كان جباناً، لكنهما كانا شاجبين، وقميصاهما مُبللّين بالعرق  
 البارد. ديبغو وصل إلى هذه الحالة حنقاً ومونكادا كبرياءً، وتأخر  
 الوقت، فلم يعد باستطاعتها دراسة إمكانية التراجع. في هذه  
 اللحظة أدركا أنهما سيقامران بحياتيهما دون أن يكونا واثقين من  
 السبب. ولم تكن المبارزة، كما بين برناردو لديبغو، بسبب ضربة  
 العصا التي أنزلها مونكادا ببرناردو، بل بسبب خوليانا، وعلى  
 الرغم من أن ديبغو أنكر ذلك إنكاراً قطعياً، إلا أنه في أعماقه كان  
 يعرف أنه على حق. عربة مُغلقة كانت تنتظر على بعد مدتي ذراع كي  
 تحمل جثة الخاسر بأكبر قدر من الكتمان الممكن. لم يفكر ديبغو  
 بوالديه ولا بخوليانا. في اللحظة التي اتخذ فيها وضعيته، بجسده  
 جانبياً كي يعرض أقل قدر من المساحة منه لخصمه، حضرت إلى

ذهنه صورة البومة البيضاء بكل جلاء، فرآها إلى جانب برناردو.  
كانت جدته الغربية منتصبية على قدميها، بالموقف ذاته ودثار جلد  
الأرنب ذاته حين ودعتهما عندما غادرا كاليفورنيا. رفعت البومة  
البيضاء عصاها، عصا الشامان بإيماءة الكبرياء، التي رآها تقوم  
بها مرّات كثيرةً وحركتها بثقة في الهواء. عندها شعر بنفسه حصيناً  
فاختفى الخوف بالسحر واستطاع أن ينظر إلى وجه مونكادا.

طرق أحدُ الشهود، المُعينَ مديراً للمعركة، يداً بيد مرةً واحدة  
للاستعداد. تنفّس ديبغو عميقاً وواجه دون أن يرف له جفن مسدّس  
الآخر، الذي كان يرتفع إلى وضعيّة الإطلاق. طرقت يدا المدير  
مرّتين من أجل التسديد. ابتسم ديبغو لبرناردو وجدّته، مستعداً  
للرماية. اليدان صفقتا ثلاثاً فرأى ديبغو اللمعة، سمع انفجار  
البارود، وأحسّ في الوقت ذاته بالألم يحرقه في ذراعه الأيسر.

تردّد الشابّ وبدا للحظة طويلة أنه سيسقط، بينما كمّ قميصه  
يتبلل بالدم. في ذلك الفجر الضبابي، اللوحة المائية الخفيفة،  
وحواف الأشجار والرجال تتبخّر، كانت بقعة الدم تلمع مثل اللك.  
أشار المدير لديبغو بأنّه لا يملك غير دقيقة واحدة كي يردّ على رمية  
خصمه. أشار برأسه موافقاً ووقف في وضعيّة الرماية بيده اليمنى  
بينما اليسرى تقطر دماً، متدلّية متخشبة. استدار مونكادا أمامه  
جانبياً ممتقع اللون، مرتعداً، ومغمض العينين. صفق المدير صفقة  
فرفع ديبغو مسدّسه، اثنان وسدّد، ثلاثة. على بعد خمس عشرة  
خطوة سمع مونكادا الطلقة وتلقّى جسده صدمة الطلقة. سقط بركبتيه  
على الأرض ومرّت عدّة ثوان قبل أن ينتبه إلى أنّه سليم: لقد أطلق  
ديبغو على الأرض. عندها تقيّاً، مرتعداً كمن أصابته برديّة. اقترب  
كفيلاه شاعرين بالعار لمساعدته بالنهوض وتنبيهه بصوت خافت  
إلى أنّ عليه أن يتمالك نفسه.

خلال ذلك ساعد برناردو ومانول إسكالانتِ الطبيب على تمزيق  
قميص ديبغو، الذي بقي منتصباً على قدميه هادئاً ظاهرياً. كانت



الطالقة قد مسّت الجانب الخلفي من ذراعه دون أن تصيب العظم أو  
تؤذي العضلة كثيراً. ضمّده الطبيب ولفّه لوقف الدم، حتى يستطيع أن  
يغسله ويخيطه براحة فيما بعد. تصافح المتقاتلان تماماً كما كانت  
تتطلب آداب المبارزة. لقد غسلا الشرف، لم تبق هناك من إهانة  
عالقة.

- أحمد السماء على أن جرحك خفيف أيها الفارس - قال  
رافائيل مونكادا، وقد صار في أوج سيطرته على أعصابه - وأعتذر  
منك لضربي خادمك.

- عذرك مقبول، يا سيّد، وأذكرك بأن برناردو أخي - أجاب  
دييغو.

سنده برناردو من ذراعه السليمة وحمله بما يشبه التناقل إلى  
العربة. سأله توماس دي رومو فيما بعد لماذا تحدّى مونكادا، إذا لم  
يكن مستعداً لإطلاق النار عليه. فأجابه دييغو أنّه لم يحاول قط أن  
يُثقل ذاكرته بقتيل سيدمر حلمه، فقط أراد أن يهيئته.

اتفقا على ألا يقولوا شيئاً عن المبارزة لخوليانا وإيزابيل،  
ويجب عدم جرح حساسية الجنس اللطيف، فهذه مسألة تخص  
الرجال، لكن ما من واحدة منهما صدّقت رواية سقوط دييغو عن  
الجواد. وزّت إيزابيل في رأس برناردو إلى أن حكى لها هذا بعدة  
إشارات ما جرى. وعلقت الصغيرة: «لم أفهم قط مسألة شرف الذكر.  
يجب أن يكون المرء أخرق تماماً كي يُخاطر بحياته من أجل أمر  
تافه» لكنها كانت مندهشة، كما استطاع أن يُقدّر برناردو، لأنّها في  
الانفعالات القويّة كانت تحول عينها. منذ تلك اللحظة صارت خوليانا  
وإيزابيل وحتى نوريا يتشاجرن على شرف حمل الطعام إلى دييغو.  
فالتبيب أمر بالراحة أيّاماً عدّة تفادياً للتعقيدات. كانت أسعد أربعة  
أيّام في حياة الشاب؛ كان مستعداً أن يسقط في المبارزة مرّة في

الأسبوع شرط أن يلقي عناية خوليانا. فغرفته تمتلئ بنور خارق حين تدخلها، ينتظرها بدثار نوم أنيق، مستلقياً على كرسي كبير، وكتاب سونتات على ركبتيه، متظاهراً بالقراءة، مع أنه كان يعدّ دقائق غيابها. كانت ذراعه تؤلمه في هذه الحالة حتى أنّ خوليانا كانت تُضطرّ لأن تضع الحساء في فمه، وتمسح جبينه بماء الزهر وتُسليه لساعات بجنكها وقراءتها ولعب الداما.

لم يعد برناردو المشغول بجرح ديبغو، لا لخطورته بقدر ما لاهتمامه، ليفكر بأنه سمع رافائيل مونكادا يذكر اسم بلايو إلا بعد عدة أيام، حين علم من فم الخدم أنّ الكونت أورلوف قد هوجم ليلة حفلة إيولاليا بكاليس ذاتها. كان النبيل الروسي قد بقي حتى ساعة متأخرة جداً في القصير، أخذ بعدها عربته، التي استأجرها مدة وجوده القصير في المدينة، ليعود مكان إلى إقامته. في الطريق اعترضت العربة في شارع ضيقٍ مجموعة من قطاع الطرق المسلحين بالبنادق القصيرة، وأخضعوا الخدم الأربعة دون مشاكل ثم وبعد أن أفقدوا الكونت وعيّه جرّدوه من محفظته ومجوهراته ودفنوه المصنوع من جلد الشنشيلة الذي كان يرتديه. عُزي الهجوم إلى رجال حرب العصابات، على الرغم من أنّها لم تكن طريقتهم في العمل. وكان التعليق العام أنّ برشلونة فقدت الحد الأدنى من النظام. ماذا كان يهمّ حسن سلوك بالنسبة لمنع التجوّل إذا لم يعد باستطاعة الناس المحترمين أن يسيروا في الشوارع؟ وكانت ذروة الأزمة أن لا يكون باستطاعة الفرنسيين أن يحافظوا على الحد الأدنى من الأمن! أعلم برناردو ديبغو أنّ المحفظة المسروقة كانت تحتوي على الذهب الذي ربحه الكونت أورلوف من رافائيل مونكادا على طاولة القمار.

- هل أنت متأكد من أنّك سمعت مونكادا يذكر اسم بلايو؟ أعرف ما تفكر به، يا برناردو. أنت تفكر بأنّ مونكادا متورط بالهجوم على الكونت. هذا اتهام جدي أكثر من اللازم، ألا ترى ذلك؟ ليس لدينا

صليب العظم  
حتى يستطيع  
تماماً كما كانت  
سناك من إيمان

الفارس - قال  
صاحبه - واعتبر

أخي - أجل

به التناقل إلى  
ونكادا، إذا لم  
يحاول قط أن

نا وإيزابيل  
سألة تخص

ط ديبغو عن  
ها هذا بعدة

شرف الذكر  
من أجل أمر

و، لأنها في  
ارت خوليانا

إلى ديبغو  
أسعد أربعاً

مرة في

أدلة، لكنني أتفق معك بأن قدراً كبيراً من المصادفة يوجد في الأمر حتى ولو لم يكن لمونكادا أية علاقة بالأمر، فهو محتال. لا أريده قريباً من خوليانا، لكنني لا أدري كيف أمنعه من ذلك - علق ديفغو.

في عام 1812 وقع الإسبان في مدينة قادش دستوراً ليبرالياً مرتكزاً على مبادئ الثورة الفرنسية، مع فارق أنه يعلن الكاثوليكية ديناً رسمياً للبلد ويمنع ممارسة أية ديانة أخرى. تماماً كما قال توماس د رومو لم يكن هناك من داعٍ لكل ذلك القتال ضد نابليون إذا كانوا في نهاية المطاف متفقين على الجوهر: سيبقى حبراً على ورق لأن إسبانيا ليست جاهزة للأفكار المستنيرة، ذلك كان رأي الشافاليير الذي أضاف بحركة قلقه إلى أن إسبانيا بحاجة إلى خمسين عاماً كي تدخل القرن التاسع عشر.

بينما كان ديفغو يقضي الساعات في الدراسة في قاعات مدرسة العلوم الإنسانية العريقة ويمارس المبارزة ويخترع حيلاً سحرية جديدة لإغواء خوليانا التي لا شيء كان يحركها وعادت، ما إن شفي جرحه، لتعامله كأخ، كان برناردو يجوب برشلونة مجرماً حذاء القس مندوثا الثقيل، الذي لم يتمكن قط من الاعتقاد عليه. كان يحمل دائماً كيسه السحري معلقاً على صدره، حيث ضفيرة برقي الليل السوداء، التي صارت تحمل حرارة جلده ورائحته، وتشكل جزءاً من جسمه، صارت ملحقةً لقلبه. أرفف الخرس الذي فرضه على نفسه حواسه الأخرى، صار باستطاعته أن يهتدي بالشَّم والسمع. كان ذا طبيعة انعزالية وصار بصفته أجنبيّاً أكثر انعزالاً، لكنه كان يحب ذلك. لم يكن الزحام يُضايقه، لأنه يجد وسط الصخب مكاناً هادئاً لروحه. كان يشناق للفضاءات المفتوحة التي عاش فيها من قبل، لكنه أيضاً أحب تلك المدينة التي تراكمت عليها قرون الزمن، أحب شوارعها الضيقة، وأبنيتها الحجرية، وكنائسها المظلمة، التي كانت تذكره بإيمان القس مندوثا. كان يُفضّل حيّ الميناء، حيث يستطيع أن يتأمل البحر ويتواصل مع دلافين المياه البعيدة. كان يتنزّه على

غير هدى، صامتاً، خفياً، مختلطاً بالناس، يلتقط نبض برشلونة  
والبلد. عاد ورأى بلأيو في إحدى نزواته الساهية.

في مدخل حانة كانت قد تربعت غجرية، وسخة وجميلة، لتفوي  
المارة بالكشف عن مستقبلهم، الذي باستطاعتها الكشف عنه بالورق  
أو بخارطة اليد، كما كانت تعلن بلفجة قشتالية مقلوبة. قبل دقائق  
كانت قد تنبأت لبخار سكران، لتواسيه، أن كنزاً ينتظره على شاطئ  
بعيد، على الرغم من أنها رأت في راحة يده صليب الموت. على بعد  
خطوات انتبه الرجل إلى أنه فقد المحفظة والنقود فاستنتج أن  
الغجرية قد سرقتها. كانت نظرتة رمادية وراح يرغي ويزبد مثل كلب  
كلب حين أخذ اللصة المفترضة من شعرها وراح يهزها. خرج  
زبائن الحانة على عوائه ولعناته وراحوا يحمسونه بسخرياتهم  
الشيطانية، لأنه إذا كان هناك من شيء يوحد الناس جميعاً فهو  
الكراهية العمياء للعجر، ثم إنه كان يكفي في سنوات الحرب تلك  
أدنى ذريعة كي ترتكب الفوغاء أعمال الشغب. كانوا يتهمونهم بكل  
الردائل التي عرفت بها البشرية، بما في ذلك سرقة الأطفال الإسبان  
لبيعهم في مصر. وكان باستطاعة الأجداد أن يتذكروا الحفلات  
الشعبية الحيوية التي أحرقت فيها محاكم التفتيش ملحدين وسحرة  
وعجراً على حدٍ سواء. في اللحظة التي فتح فيها البحار سكينه كي  
يشطب وجه المرأة تدخل برناردو ودفعه بقوة بغل ورمى به أرضاً،  
حيث بقي يتخبط في أبحرة الكحول المزمنة. وقبل أن يقوم الحشد  
برد فعل أخذ برناردو الغجرية من يدها وجرياً معاً ليضيعا في نزلة  
الشارع. لم يتوقفاً حتى حي لا برثلونيتا، حيث أصبحا إلى هذا الحد  
أو ذاك في منأى من الحشد المهتاج. هناك أفلتها برناردو وأشار  
مودعاً، لكنها أصرت على أن يتبعها فراسخ عدة باتجاه عربية ثقيلة  
مزوقة بالرسوم وعلامات الأبراج، مربوطة إلى جواد بدين عريض  
القوائم، وضعت في زقاق جانبي. كان داخل تلك العربية المخلعة من  
تمادي عدة أجيال من الرخالة في استعمالها، كهف تركي، مزدحم  
بالأشياء الغريبة، فيه شلال من المناديل الملونة، وفوضى من

الجلال ومتحف من التقاويم والصور الدينية الملصقة بالسقف  
كانت تصدر عنها رائحة هي مزيج من عطر البتشولي والخرق  
الوسخة. أثاثها فراش ووسائد بروكار فخمة، وحائلة اللون.  
أشارت إليه مومنة أن يستريح وجلست على الفور مقابله منكمشة  
الساقين تراقبه بنظرة قاسية. أخرجت زجاجة مشروب كحولي،  
شربت جرعة وأعطتها له، وهي ما تزال مهزوزة من الرقص. كانت  
سمراء البشرة، عضلية الجسد، ضارية العينين، مصبوغة الشعر  
بالحناء؛ حافية ترتدي فستانين أو ثلاثة واسعة الدارة وقميصاً  
حائل اللون وصدارة قصيرة، مربوطة من الأمام بأربطة متصالبة  
وشال مهدب على كتفيها ومنديل عقده على رأسها، علامة النساء  
المتزوجات في قبيلتها، على الرغم من أنها كانت أرملة. وكانت  
تُخشخش في معصمها ببضع عشرة سوار وبعدد من الجلال  
الفضية في كعبيها، وبيعض النقود الذهبية المخاطة إلى المنديل  
على جبينها.

كانت تستخدم اسم أماليا بين الغدج، أي بين من ليسوا غجراً.  
حين ولدت تلقت من أمها اسماً آخر، لا يعرفه غيرها بهدف إبعاد  
الأرواح الشريرة والمحافظة على سرية هوية الصغيرة الحقيقية.  
كان لها اسم ثالث أيضاً، تستخدمه بين أبناء قبيلتها. رامون، رجل  
حياتها، قتله فلاحون في سوق لريدا بهراواتهم بتهمة سرقة الدجاج.  
كانت قد أحبته منذ نعومة أظفارها. واتفقت العائلتان على العرس  
حين لم يكن لها من العمر إلا أحد عشر عاماً. دفع حمواها ثمناً  
غالياً، لأنها كانت حسنة الصحة، وقوية العريكة، وجيدة التدريب  
على الأعمال المنزلية ثم إنها كانت درباردي حقيقية، فقد ولدت  
بموهبة طبيعية بالتنجيم والشفاء بالسحر والأعشاب. كانت تبدو في  
ذلك العمر قطعة هزيلة، لكن الجمال لا يدخل في الحساب حين اختيار  
الزوجة. فوجئ زوجها مفاجأة سارة حين رأى تلك الكومة من  
العظام تتحول إلى امرأة جذابة، لكنه أصيب من ناحية أخرى  
بالخيبة لأن أماليا لم تكن تستطيع الإنجاب. كان شعبها يعتبر

الأولادَ بركة، والبطن الجاف كان سبباً للطلاق، لكن رامون كان يُحبّها كثيراً. وقد أدخلها موت زوجها في حداثٍ طويل، لن تخرج منه أبداً. كان عليها ألا تلفظ اسم المتوفى كيلا تستدعيه من العالم الآخر، لكنّها كانت تبكيه سرّاً كل ليلة.

منذ قرون وشعبها يتيه في العالم، ملاحقاً ومكروهاً. أسلاف قبيلتها خرجوا من الهند قبل ألف عام وعبروا أوروبا وآسيا كلّها قبل أن ينتهي بهم المطاف إلى إسبانيا، حيث كانوا يسيئون معاملتهم كما في أماكن أخرى، لكنّ الطقس كان أفضل قليلاً بالنسبة إلى حياة التشرد. استقرّوا في الجنوب، حيث كانت ما تزال هناك بعض الأسر الرحالة، مثل عائلة أماليا. هؤلاء الناس الذين تحمّلوا من الخيبات ما يجعلهم لا يثقون حتى بظلمهم، والسبب ذاته حرّك تدخّل برناردو غير المتوقّع لواعج الغجرية. لم يكن بمقدورها أن تتعامل مع الغرباء إلا لأسباب تجارية وإلا عرّضت نقاء عرقها وتقاليد الخطة للخطر. وبحكمة دقيقة كان الغجر يثقون على الهامش، لا يثقون مطلقاً بالأجانب ويحتفظون بولائهم للعشيرة، لكنّ ذلك الشاب بدا لها أنّه لم يكن أجنبيّاً تماماً، كان قادماً من كوكب آخر، غدج (غريباً) في كلّ مكان. ربّما كان غجرباً من قبيلة ضائعة.

حدث أنّ أماليا كانت أخت بلابو، كما سيكتشف برناردو في ذلك اليوم ذاته، حين دخل هذا إلى العربية الثقيلة. لم يعرف بلابو الهندي، لأنّه في الليلة التي بوغت فيها وهو يُغنّي لخوليانا بالإيطالية، بتكليف من مونكادا، لم يملك عينين إلا ليري ديبغو، الذي كان سيفه يضغط على عنقه. شرحت أماليا لبلابو ما جرى، بالرومية<sup>(\*)</sup>، لغتها ذات الأصوات المتهمّسة، المشتقة من السنسكريتية. واعتذرت منه

(\*) en romani لغة هندية أوروبية صفة مشتقة من Roma، وهو اسم الشعب الذي تنتمي إليه أماليا. كما نلاحظ أنّ ياء النسبة هي اشتقاق عربي موجود في اللغة الإسبانية، كيلا يقع خلط بينها وبين romano نسبة إلى روما أو rumano نسبة إلى رومانيا. م.

لأنها خرقت حرمة عدم التعامل مع الغدج (الغرباء). هذا الخطأ  
الخطير الذي يمكن أن يدينها بـ الماريمة، حالة الدنس، التي تستحق  
نبد الجماعة، لكنها كانت تستند إلى أن القواعد تراخت منذ بداية  
الحرب. كانت القبيلة قد عانت كثيراً في تلك السنوات، فالعائلات  
تشقت. وصل بلابو إلى النتيجة ذاتها وبدل أن يُوبخ أخته، كما كانت  
العادة، شكر برناردو على حركاته. وكان مندهشاً مثلها من طيبة  
الهندي، لأنه لم يحصل أن عاملهم غدج (غريب) بمثل تلك المعاملة  
الطيبة قط. انتبه الأخوان إلى أن برناردو كان أحرص أو متخفاً.  
كانا يُشكلان جزءاً من مجموعة تقيم أودها من أي شغل يقع في  
أيديهم، ويقتصر دائماً تقريباً على شراء وبيع الخيول، ومداواتها  
إذا كانت مريضة أو جريحة. يكسبون عيشهم من كيرهم، من صناعة  
المعادن، الحديد والذهب والفضة. يصنعون بدءاً من نعال الخيل  
وحتى السيوف والمجوهرات. كانت الحرب تجعلهم يتنقلون كثيراً،  
لكنها من ناحية أخرى لصالحهم، لأنّ الفرنسيين والإسبان، نسوهم  
على حدّ سواء في حمأة قتل بعضهم البعض. كانوا في أيام الأحاد  
والأعياد الأخرى ينصبون خيمة ممزّقة في الساحات ويقومون  
بتجارب سيرك. وسيتعرّف برناردو على بقية المجموعة قريباً  
سريعاً، ومن بينهم رودولفو، العملاق المغطى بالوشم، الذي كان  
يلفّ أفعى ضخمة حول عنقه ويرفع حصاناً بين ذراعيه. كان  
يتجاوز الستين من عمره، فهو أكبر أفراد العائلة سنّاً وبالتالي  
أكثرهم سلطة. كانت بترينا تساهم بالدور الأقوى في السيرك  
البائس. كانت طفلة ضئيلة الحجم، في التاسعة من عمرها تنطوي  
مثل منديل وتدخل كلّها في جرّة من جرار حفظ الزيتون. وكان بلابو  
يقوم بألعاب بهلوانية على ظهر حصان أو حصانين بينما يُمتع أفراد  
العائلة الآخرين الجمهور، قاذفين بعضهم بعضاً بالخناجر بعيون  
معصوبة. كانت أماليا تبيع أوراق يانصيب، تقرأ الأبراج وتتنبأ  
بالمستقبل بوساطة كرة زجاجية كلاسيكية، بحدس صائب يجعلها

هي نفسها ترتعب من سداد رؤيتها المبهرة؛ كانت تعرف أن القدرة على فك رموز المستقبل عادة ما تكون لعنة، لأنه إذا كان من غير الممكن تغيير ما سيحدث فمن الأفضل عدم معرفته.

لم يكد ديفغو د لايفغا يعلم أن برناردو أقام علاقة صداقة مع الغجر حتى أصر على معرفتهم، لأنه كان يريد التحقق من تعامل بلايو مع رافائيل مونكادا. لم يكن يتصور أنه سيتعلق بهم ويشعر بالراحة برفقتهم. في ذلك الوقت كان القسم الأعظم من قبائل شعب روما، كما كان الغجر البوهيميون يُسمون أنفسهم، يعيشون حياة مستقرة. كانوا يقيمون مخيماتهم في أطراف البلدات والمدن؛ وراحوا شيئاً فشيئاً يُشكلون جزءاً من المشهد، إلى أن اعتادهم السكان المحليون وتخلّوا عن إزعاجهم، رغم أنهم لم يقبلوا بهم قط. بالمقابل لم يكن يوجد في قطلونيا مخيمات ثابتة، فأهل روما في المنطقة كانوا رحلاً. وكانت قبيلة بلايو وأماليا أول قبيلة تُقيم لتبقى، فقد مضى عليها ثلاث سنوات في المكان ذاته. انتبه ديفغو منذ اللحظة الأولى إلى أنه لا يتوجب عليه أن يسألها عن مونكادا أو عن أي موضوع آخر، لأنّ هؤلاء الناس لديهم من الأسباب ما يكفي كيلا يتقوا ويراعوا أسرارهم. وما إن اندمل جرح ذراعه القبيح تماماً وحمل بلايو على أن يغفر له الوخزة التي وخزه إيّاها في رقبتة بسيفه، حتى تمكن من أن يسمح له بالمشاركة مع برناردو في سيركه المرتجل. قاموا بتجربة صغيرة لم تكن لامعة كما توقعوا، لأنّ ذراع ديفغو كان ضعيفاً، لكنّه كان كافياً كي يضمّاهما إليهم كبهلوانين. صنعوا بمساعدة بقيّة الفرقة شبكة ذكية من الأوتاد والحبال وأراجيح البهلوانات، المستلهمة من حبال لامادر د ديوس. كان الشابان يظهران في الحلبة بأدثرة سوداء يخلعونها بحركة أولمبية ليقفوا بعدها في ثياب من اللون ذاته. في هذا المظهر كانا يطيران في الهواء دون حذر شديد، لأنّهما فعلاً ذلك من قبل في



أشركة السفن على ارتفاع مضاعف وهما يتأرجحان فوق الأمواج.  
أيضاً كان ديبغو يُخفي دجاجة ميتة سرعان ما يخرجها حية من  
تقوية أماليا، ويُطفئ بسوطه شمعة ووضعت على رأس العملاق  
رودولفو، دون أن يُخرب له شعره. هذه الأعمال لم تكن تحكى خارج  
جو الفجر، لأنّ تسامح توماس بـ رومو كانت له حدود وبالتأكيد ما  
كان ليوافق عليها. كثيرة هي الأشياء التي كان يجهلها هذا الفارس  
عن ضيفه الشاب.

وذات أحد من تلك الآحاد أطل برناردو من خلف ستارة الفنانين  
فرأى خوليانا وإيزبيل ترافقهما القهرمانان بين الجمهور. عند  
عودتهما من القداس، الذي كانت نوريا تُصرّ على أن تأخذها إليه،  
مع أنّ الفكرة لم تكن تروق لتوماس بـ رومو، رأت الصغيرتان  
السيرك وأصرتا على الدخول. كانت الخيمة، المصنوعة من قطع  
مصفرّة من أشعة بالية في الميناء، تحتوي على حلبة مركزية  
مغطاة بالتبن وبعض المقاعد الخشبية للمشاهدين ذوي المكانة  
وفضاء في العمق للدهماء الواقفة. في دائرة التبن كان العملاق يرفع  
الجواند وأماليا تُدخل بترينا في جرّة الزيتون وديبغو وبرناردو  
يتسلقان الأراجيح. وفي المكان ذاته كانت تقوم ليلاً مصارعة الديكة  
التي يُنظّمها بلابيو. لم يكن المكان الذي يودّ توماس بـ رومو أن يرى  
ابنتيه فيه، لكنّ نوريا لم تكن قادرة على المعارضة حين تتحالف  
خوليانا وإيزابيل كي يكسرا إرادتها.

- لو علم السيد توماس أنّنا نكرّس أنفسنا لهذا لأعادنا إلى  
كاليفورنيا في أول سفينة جاهزة - همس ديبغو لبرناردو حين رأى  
الصغيرتين تحت الخيمة.

عندئذٍ تذكر برناردو القناع الذي استخدماه لتخويق بحارة لا  
مادري بـ ديوس. فتح فتحتين للعينين في منديلين من مناديل أماليا  
وبذلك غطيا وجهيهما داعيين الرب كيلا تتعرّف عليهما الأختان بـ  
رومو. امتنع ديبغو عن عروض السحر، لأنّه قام بها مرّات كثيرة

أمامهما. في جميع الأحوال ترسخ لديه انطباع بأنهما عرفتاها، إلى أن سمع خوليانا تعلق في المساء ذاته على تفاصيل الفرجة مع أغنيس دوشامب. حكّت لها همساً من خلف ظهر نوريا عن البهلوانين الجريئين اللذين كانا يرتديان السواد ويخاطران بحياتهما على الأراجيح، وقالت إنها مستعدة لأن تمنحهما قبلة مقابل أن ترى وجهيهما.

لم يحالف ديبغو الحظ ذاته مع إيزابيل. فقد كان يحتفل بالمزحة مع برناردو حين دخلت الصغيرة إلى غرفته دون أي سابق إنذار كما كانت تفعل، رغم المنع الصارم لها بالتواصل الودّي مع ديبغو. انتصبت أمامهما وذراعاها على خصريهما وأبلغتهما أنها تعرف هويّة البهلوانين وهي مستعدة لأن تكشف عنها، إلا إذا أخذاها في الأحد التالي لتتعرّف على فرقة الغجر. كانت ترغب بالتأكد من حقيقة وشم العملاق، الذي بدا رسماً والأفعى المسبوطة، التي من الممكن أن تكون مُحنّطة.

في الأشهر التالية وجد ديبغو، الذي كان دمه في فورة السابعة عشرة، راحته في حضان أماليا. كانا يلتقيان خفية مخاطرين مخاطرة كبيرة. فهي بممارسة الحبّ مع غريب تخرق حرمة أساسية يمكن أن تكلفها غالياً جداً. كانت قد تزوّجت عذراء، كما هي العادة بين نساء شعبها، وكانت وفيّة لزوجها حتى وفاته. وقد تركها الترمّل في وضعية معلّقة، هي فيها شابة لكنّها تُعامل كأنّها جدّة، إلى أن وفّى بلأيو، المُكلّف بالبحث لها عن زوج آخر حين تجفّ دموع حدادها الأخيرة، بوعدده. كانت الحياة في العشيرة تجري على مرأى من البقيّة. لم تكن أماليا تملك وقتاً ولا مكاناً كي تبقى لوحدها، لكنّها كانت تتمكّن أحياناً من التواعد مع ديبغو في زقاق منعزل، فتهدده بين ذراعيها، ينتابها دائماً الخوف القاتل من أن يباغتوهما. لم تكن تدخله في متاهة المطالب الرومانسية، لأنّ مقتل زوجها الفظيع أسلمها إلى الأبد إلى الوحدة. كانت في ضعف عمر ديبغو وبقيت متزوّجة أكثر من عشرين عاماً، لكنّها لم تكن خبيرة في

كان فوق الأمواج  
يخرجها حياة من  
على رأس العملاق  
تكن تحكي خاتمة  
حدود وبالتأكيد ما  
هلها هذا الفارس

ستارة الفنانين  
الجمهور. عند  
أن تأخذهما إليه  
رأت الصغيرتان  
صنوعة من قطع  
على حلبة مركزية  
ن ذوي المكان  
بان العملاق يرف  
ديبغو وبرناردو  
مصارعة الديكة  
رومو أن يرى  
حين تتحالف

ذا لأعادنا إلى  
اردو حين رأى  
ويف بحارة لا  
مناديل أماليا  
هما الأختان  
مرات كثيرة

أمور الحب. كانت قد شاطرت رامون ودأ عميقاً وأميناً دون مبالغة  
بالعواطف. كانا قد تزوجا في طقس بسيط تقاسما فيه قطعة خبز  
مدهونة بقطرات من دميهما. لم يكن يُطلب أكثر من ذلك. فمجرد  
اتخاذ القرار بالعيش المشترك يُبارك الارتباط، لكنهما قدما مائدة  
عرس كريمة وموسيقى ورقصاً دامت ثلاثة أيام بكاملها. بعدها  
تدبراً أمرهما في زاوية من الخيمة المشتركة. منذ تلك اللحظة لم  
يفترقا، جابا طرق أوروبا، جاعا في أشد الأيام فقراً، هربا من  
اعتداءات كثيرة واحتفلا باللحظات السعيدة. وكانت حياتهما، كما  
روتها لدييغو، سعيدة. كانت تعرف أن رامون ينتظرها غير ممسوس  
وكاملاً في مكان ما وقد نجا من عذابه بمعجزة. منذ أن رأت جسده  
الذي مزقته معاول ومجارف القتلة انطفاً الوهج الذي كان يضيء  
داخلها قبل ذلك ولم تعد لتفكر بمتع الحواس أو بعزاء العناق. قررت  
أن تدعو دييغو إلى عربة ثقيلة لمجرد الصداقة. رأتها مضطرباً  
لانعدام وجود المرأة فخطر لها أن تُروِّح عنه، هذا هو كل شيء.  
كانت تجازف بأن تأتي روح زوجها متحوّلة إلى مولو، لتعاقبها  
على تلك الخيانة اللاحقة على وفاته، لكنها كانت تأمل أن يتفهم  
رامون دوافعها: فهي لم تكن تفعل ذلك شيقاً، بل كرمماً. المسألة أنها  
كانت مُحبّة مُحْتَشِمَة، تمارس الحب في الظلمة، دون أن تخلع ثيابها.  
كانت تبكي أحياناً بصمت. عندها كان دييغو يُجفّف لها دموعها  
بقبلات ناعمة، متأثراً حتى العظم، وهكذا تعلم أن يفك بعض رموز  
ألغاز قلب الأنثى الخفيّة. ورغم القواعد الجنسية الصارمة في  
تقاليدها كان من الممكن لأماليا أن تفعل المعروف ذاته مع برناردو  
استلطافاً غير مصلحي، لو أنّه ألمح إلى ذلك، لكنّه لم يفعل ذلك قط،  
لأنّه كان يعيش مصحوباً بذكرى برق الليل.

راقب مانول إسكالانت دييغو د لا بيجا زمناً طويلاً قبل أن يُقرّد  
الكلام معه حول أهمّ المواضيع في حياته. في البداية فقد الثقة  
بلطافة الشاب الساحرة، فبالنسبة إليه، هو الرجل الذي يتمتع برزانة

جنازوية، كانت خفة ديفو تُشكّل عيباً في طبيعته، لكنه وجد نفسه مضطراً لأن يُراجع ذلك الحكم، حين حضر مبارزته مع مونكادا، كان يعلم أن الهدف من المباراة لم يكن الانتصار، بل مواجهة الموت بنبل لاكتشاف نوعية روحه ذاتها. كانت المباراة بالنسبة إلى المعلم - وبمنطق أكبر المباراة - صيغة صائبة لمعرفة الرجال. في حمى المعركة تظهر للعيان جواهر الشخصية الأساسية، فالفائدة في التجربة أن يكون خبيراً في استخدام السيف، وأن تكون مكتسبة بالشجاعة والرزانة لمواجهة الخطر. لاحظ أنه لم يملك، خلال السنين الخمس والعشرين التي قضاها في تعليم فنّه، تلميذاً مثل ديفو. رأى آخرين لهم فطنة واجتهاد مماثلين لفطنته واجتهاده، لكن ما من أحدٍ منهم كان يملك رباطة جأشه وقوة يده التي تمسك بالسيف. تحوّل الإعجاب الذي كان يشعر به تجاه الشاب إلى حنان والمبارزة إلى ذريعة لرؤيته يومياً. كان ينتظره متأهباً قبل الثامنة بكثير، لكنه أدباً وكبرياءً لم يكن ليظهر قبل دقيقة واحدة من تلك الساعة. كان الدرس يتمّ بأكبر قدر من الجدّية وبصمتٍ تقريباً، ومع ذلك كان في الأحاديث التي يتبادلانها، يُشاطرُ ديفو أفكاره وتطلّعاته الحميمة. وما إن ينتهي الدرس حتى يجففا عرقهما بمنديل مبلّل ويبدلان ملابسهما ويصعدا إلى الطابق الثاني، حيث كان يعيش المعلم. كانا يجتمعان في حجرة مظلمة ومتواضعة، يجلسان على كرسيين غير مُريحين، من الخشب المحفور، محاطين بالكتب على رفوف قديمة وبالأسلحة الجميلة المعروضة على الجدران. الخادم العجوز نفسه الذي كان يدمدم بلا توقّف، كما لو أنه في صلاة أبدية، كان يُقدّم لهما قهوة داكنة في فنجانين من خزف الروكوكو. سرعان ما انتقلا من الموضوعات المتعلقة بالمبارزة إلى الكلام عن موضوعات أخرى. أسرة المعلم، الإسبانية والكاثوليكية طوال أربعة أجيال، لم تكن رغم ذلك تتباهى بنقاء دمها، لأنها كانت من أصل يهودي. كان أجدادها قد اعتنقوا الكاثوليكية وبدلوا أسماءهم للتهرب من الملاحقات. وقد فعلوا ذلك

بإتقان مكنهم من تقادي حصار محاكم التفتيش الرجيم، لكنهم خسروا في العملية الثروة التي راكموها خلال أكثر من مئة سنة من التجارة الناجحة والاعتدال في العيش. عندما وُلد مانول بالكاد كانت توجد نكري باهتة لماضٍ رغيد ورهيف، لم يبقَ شيء من أملاكهم وأعمالهم الفنية وجواهرهم. كان والده يكسب عيشه من مخزن صغير في أستورياس، واثنان من أخوته يعملان في المهن اليدوية، بينما ضاع الثالث في شمال أفريقية. كان انهماك أقرب أقربائه إليه في التجارة والأعمال اليدوية يُشعره بالخجل. كان يعتبر أن الأشغال الوحيدة التي تليق بسيد غير إنتاجية. لم يكن الوحيد في هذا. إذ ما من أحد كان يعمل في إسبانيا تلك الأيام غير الفلاحين الفقراء. كل واحدٍ منهم كان يعيل أكثر من ثلاثمئة عديم فائدة. لم يعرف ديبغو ماضي المعلم إلا بعد ذلك بكثير. حين كُلم هذا عن العدالة وأراه رصيعتها لأول مرة، ولم يقل له شيئاً عن ماضيه اليهودي. كانا في ذلك اليوم، كما في كل صباح، في القاعة يتناولان القهوة. خلع مانول إسكالانت من عنقه سلسلة رقيقة فيها مفتاح، توجه إلى صندوق من البرونز، موجود على المكتب، فتحه بوقار وأرى تلميذه محتواه: رصيعة من الذهب والفضة.

- رأيت هذه من قبل، يا مُعلم... - تمتم ديبغو، متعرّفاً عليها.

- أين؟

- كان يحملها السيد سانتياغو د ليون، قبطان السفينة التي أقلتني إلى إسبانيا.

- أعرف القبطان سانتياغو د ليون. إنه مثلي ينتسب إلى العدالة.

كانت واحدة من الجمعيات السرية الكثيرة الموجودة في أوروبا في ذلك العصر. تشكلت قبل منتي سنة كرد فعل على سطوة محاكم التفتيش، ذراع الكنيسة المخيف، الذي كان يُدافع منذ عام 1478 عن الوحدة الروحية للكاثوليكين بملاحقة اليهود.

اللوثريين، الملحدين، المأفونين، الكفار، السحرة، والعرافين  
ومستحضري الشياطين، والمشعوذين، والمنجمين والكيمياويين،  
وكذلك قارئ الكتب الممنوعة. كانت أملاك المتهمين تنتقل إلى  
مُتهميهم، بحيث أن كثيرين من الضحايا أحرقوا لأنهم أغنياء وليس  
لأسباب أخرى. وقد احتفل حماس الشعب الديني خلال أكثر من  
ثلاثمئة سنة بمحارق الملحدين، وحفلات المجون الوحشية العلنية  
التي كانت تُنفذ فيها أحكام حرق المدانين، لكن محاكم التفتيش بدأت  
تدهور في القرن الثامن عشر. بينما استمرت هذه المحاكمات فترة،  
لكن خلف الأبواب المغلقة، إلى أن ألغيت محاكم التفتيش. وكان عمل  
العدالة يقوم على إنقاذ المتهمين، وإخراجهم من البلد ومساعدتهم  
على الشروع بحياة جديدة في مكان آخر. كانوا يوزعون الغذاء  
واللباس ويؤمنون لهم وثائق مزورة وحين يكون الأمر ممكناً  
يدفعون الفدية. في المرحلة التي جُند فيها مانول إسكالانت ديبغو  
كان توجه العدالة قد تبدل، فهي لم تعد تحارب التعصب الديني فقط،  
بل أشكالاً أخرى من القمع، مثل قمع الفرنسيين في إسبانيا والرق  
في الخارج. كان الأمر يتعلق بتنظيم تراتبي ونظام عسكري، لا مكان  
فيه للمرأة وكانت رتبة المبتدئ تحدّد بالألوان والرموز وكانت  
الاحتفالات تُقام في أماكن خفية، والطريقة الوحيدة للقبول هي عبر  
عضوٍ آخر، يعمل كحام له. كان المشاركون يُقسمون على أن يضعوا  
حياتهم في خدمة القضايا النبيلة التي تتبناها العدالة، على ألا يقبلوا  
أي شيءٍ مقابل خدماته، وأن يحافظوا على السرية وإطاعة الرؤساء  
مهما كان الثمن. وكان القسم ذا أناقة بسيطة: «البحث عن العدالة،  
إطعام الجائع، حماية الأرملة واليتامى، استضافة الغريب وعدم هدر  
دم الأبرياء».

لم يجد مانول إسكالانت صعوبة في إقناع ديبغو لايفغا  
بالالتحاق بالعدالة، فاللغز والمغامرة كانتا تشكّلان إغواء لا يُقاوم  
بالنسبة إليه، وشكّه الوحيد كان في الطاعة العمياء، لكنّه حين اقتنع  
بأن أحداً لن يأمره بما يتناقض مع مبادئه تجاوز هذه العقبة. درس

النصوص المرمزة التي قدمها إليه المعلم وخضع للتدريب بطريقة القتال الوحيدة التي كانت تتطلب رشاقة عقلية ولياقة بدنية عالية. وكانت تقوم على سلسلة دقيقة من الحركات بالسيف والخنجر التي كان يقوم بها على مخطط مرسوم على الأرض، يُسمى دائرة المعلم. الرسم ذاته كان منسوخاً على ميداليات الذهب والفضة التي تحدد هوية أعضاء التنظيم. تعلم ديبغو أول ما تعلم تسلسل وتقنية القتال، كرس نفسه بعدها أشهراً لتطبيق ذلك مع برناردو، إلى أن صار بمقدوره أن يقاتل دون تفكير. ولن يكون جاهزاً، كما قال له مانول إسكالانت إلا عندما يستطيع أن يلتقط ذبابة في أوج طيرانها بحركة عرضية واحدة من يده. لم يكن هناك طريقة أخرى للانتصار على عضو قديم في العدالة، كما يجب أن يفعل كي يُقبل.

جاء أخيراً اليوم الذي صار فيه ديبغو جاهزاً لحفلة الابتداء. قاده معلم المبارزة عبر أماكن مجهولة حتى من قبل المعماريين والبنائين الذين كانوا يتبحّجون بمعرفة المدينة مثل راحة كفهم. لقد توسعت برشلونة فوق طبقات متتالية من الأنقاض، فقد مرّ بها الفينيقيون والرومان دون أن يُخلّفوا أثراً كبيراً، جاء بعدهم الرومان وبصموا طابعهم، حلّ محلّهم القوط ثم أخيراً المسلمون، الذين مكثوا فيها قرناً عدّة. حين ساهم أحدهم في تعقيدها، من وجهة النظر المعمارية، كانت برشلونة حلوى من ألف توريقة. حفر العبريون مكامن وممرات وأنفاقاً لحماية أنفسهم من عملاء محاكم التفتيش. وعندما هجرها اليهود تحوّلت هذه الممرات الغامضة إلى مأوى لقطاع الطرق إلى أن راحت منظمة العدالة وطوائف أخرى تستولي شيئاً فشيئاً على أحشاء المدينة العميقة. وقد جاب ديبغو ومعلمه متاهةً من الأزقة الملتوية، توغّلا في الحي القديم، عبرا بوابات خفية، نزلوا أدراجاً أكلها الزمن، دخلا أقبية ملتوية، غاصا في أنقاض كفهية وعبرا مجاري أقنية لا يجري فيها ماء، بل سائل

لذبح وداكن له رائحة فاكهة عفتة. أخيراً وجدا نفسيهما أمام باب  
معلم بعلامات قبالية، فُتِحَ أمامهما حين أعطى المعلم كلمة السر  
ودخلاً قاعة لها أبهة معبد مصري. وجد ديفغو نفسه مُحاطاً بقرابة  
عشرين رجلاً مزدانين بعباءات ملونة ومزينة بعلامات مختلفة.  
جميعهم كانوا يتقلدون ميداليات شبيهة بميدالية المعلم إسكالانت  
وسانتياغو دي ليون. كان في الخيمة اليهودية النقالة، قلب العدالة ذاته.

دام الطقس الليل بأكمله وتخطى ديفغو في هذه الساعات  
الطويلة الامتحانات التي أُخِضَ لها واحداً بعد الآخر. في مكان  
مسور ربما كان أطلالا رومانية، كانت دائرة المعلم محفورة في  
الأرض. تقدّم رجل ليواجه ديفغو واصطفّ البقية من حوله، حكماً.  
قدّم نفسه على أنه خوليو ثسر، اسمه الرمزي. كلاهما خلع قميصه  
ونعليه وبقي في البنطلون. كانت المصارعة تتطلب دقة، وسرعة  
ودماً بارداً. كان يهاجم كل منهما الآخر بخنجر مسنون، وكان  
الغاية أن يجرحه جرحاً قاتلاً. كل طعنة كانت عميقة، لكنهما في  
الجزء الأخير من الثانية عليهما أن يوقفا الضربة في الهواء. وأدنى  
خدش في جسد الآخر يكفي لإخراجه على الفور. لم يكن  
باستطاعتها الخروج من التصميم المرسوم على الأرض. والنصر  
يكون لمن يتمكن من تثبيت الآخر من كتفيه على الأرض، في وسط  
الدائرة ذاتها. كان ديفغو قد تدرب أشهراً وكان واثقاً من رشاقته  
ومقاومته، لكن لم تكّد تبدأ المصارعة حتى انتبه إلى أنه لا يملك أية  
ميزة على خصمه. كان خوليو ثسر في الأربعينات من عمره، نحيلاً،  
بادي الذراعين، منتفخ الشرايين، الخنجر يلمع في يده اليمنى، لكن  
وجهه كان في هدوء تام، كان خصماً مُخيفاً. وبأمرٍ راح الاثنان  
يدوران في الدائرة، باحثين عن أفضل زاوية للهجوم. ديفغو هو أوّل  
من فعل، مهاجماً من أمام، لكن الآخر قفز ودار دورة في الهواء، كما  
لو أنه طار، وسقط خلفه، لا يكاد يمنحه الوقت كي يلتفت ويقرفص  
كي يتفادي حدّ السلاح الذي كان ينقضّ به عليه. ثلاث حركات أو  
أربع ونقل الخنجر إلى اليد اليسرى. ديفغو كان أيضاً يستخدم يديه



الإثنتين، لكنه لم يحدث أن واجه أحداً كذلك فارتبك لحظة، فاستغل  
 خصمه ذلك ليقفز قفزةً ويطاله برفسة على صدره رمته أرضاً، لكن  
 ديبغو وثب على الفور، وباستخدامه اندفاعه صوب إليه طعنة  
 مباشرة في حنجرته، بحيث لو أنها كانت قتالاً حقيقياً، لذبحه، لكن  
 يده توقفت عند هدفها لدرجة ظن أنه قد جرحه، لكنه لم يتمكن من  
 التأكد من ذلك لأن خصمه انقض عليه. واشتبكا في معركة متلاحمين،  
 وكلاهما يدافع عن نفسه من يد الآخر التي تمسك بالخنجر، بينما  
 يحاول بساقيه ويده الطليقة أن يقلب عدوه ويتركه على ظهره. تمكن  
 ديبغو من الإفلات وعادا ليدورا، متحفظاً للقاء جديد. شعر ديبغو أنه  
 يشتعل، كان محمراً وسابحاً بعرقه، لكن خصمه لا يكاد يلهث وبقي  
 وجهه هادئاً كما في البداية. وجاءت كلمات مانول إسكالانت إلى  
 ذهنه: «يجب ألا تقاوم أبداً بحنق». تنفّس عميقاً مرتين، مانحاً نفسه  
 الوقت كي يهدأ، دون أن يضيع عن بصره أي حركة من حركات  
 خوليو ثسر. انجلى ذهنه، وانتبه إلى أن عضو العدالة مثله لم يكن  
 مستعداً لمواجهة من يستخدم يدين. نقل الخنجر من يده بالسرعة  
 التي تتطلبها حيل سحر غاليليو تمبستا، وهجم قبل أن ينتبه الآخر  
 إلى ما جرى. مأخوذاً على حين غرة، قفز هذا إلى الورا، لكن ديبغو  
 أدخل قدمه بين ساقيه وأفقدته التوازن. وما إن سقط حتى انقض عليه  
 ديبغو وهرسه دافعاً صدره بذراعه اليمنى، بينما حمى نفسه  
 باليسرى من الخنجر المعادي. تغالبا بكل قواهما دقيقة طويلة،  
 وعضلاتهما مشدودة مثل حبال من فولاذ وعينا كل واحد منهما  
 مغروزان في عيني الآخر، مشدود الأسنان. ولم يكن على ديبغو أن  
 يبقى عليه على الأرض وحسب بل أن يجره أيضاً إلى وسط الدائرة،  
 المهمة الصعبة لأن الآخر لم يكن مستعداً للسماح بذلك. وبطرف عينه  
 قدر المسافة، التي بدت له هائلة، ولم يكن هناك من ير قط مثل ذلك  
 الطول. لم يكن هناك غير طريقة واحدة لفعل ذلك. تدحرج فوق نفسه  
 فصار خوليو ثسر فوقه، ولم يستطع الرجل أن يتفادى صرخة  
 انتصار، لأنه وجد نفسه في تفوق نهائي. وبجهد خارق تدحرج

من جديد فصار  
 الدائرة على الأرض  
 لكنها كافية كي  
 من تثبيت كتفيه على  
 - حسناً فعلت - قال  
 بعدما كان على ديبغو  
 الذي يديه إلى ظهره، كي  
 الرجلين كان يعرف  
 أعين أعدائه فاستطاع أن  
 الانتحانات الجسدية جاء  
 يعرف جيداً تاريخ العدالة،  
 لها طولا أصيلة، تتطلب  
 نظري بنجاح كل العوائق  
 لرموز التي عليه أن يبجله  
 وردة. كان الخبر يعني و  
 على النضال من أجل العدالة  
 يضرب على إكسير الرحمة  
 بأن الحياة ليست تضحية  
 عنها عند الانتهاء من الطق  
 الأشين بتقليد ديبغو الميدا  
 - ما الإسم الرمزي  
 الأطي  
 زورو - ردّ ديبغو دو  
 لم يكن قد فكر بالأمر،  
 على الشطب الحمر اوين الك  
 سوان كثيرة، في غا

دييغو من جديد فصار خصمه تماماً على العلامة التي تشير إلى مركز الدائرة على الأرض. تعكّرت رزانة خوليو ثسر بطريقة لا تكاد تُلحظ، لكنّها كافية كي ينتبه دييغو إلى أنه انتصر. وبدفعة أخيرة تمكّن من تثبيت كتفيه على الأرض.

- حسناً فعلت - قال خوليو ثسر مبتسماً ورامياً بالخنجر.

بعدها كان على دييغو أن يواجه اثنين آخرين بالسيف. ربطوا إحدى يديه إلى ظهره، كي يعطوا ميّزة لخصميه، لأنّه ما من أحدٍ من هذين الرجلين كان يعرف بالمبارزة مثله. كان مانول إسكالانت قد أحسن إعدادَه فاستطاع أن يتغلّب عليه في أقلّ من عشر دقائق. بعد الامتحانات الجسدية جاءت الامتحانات الفكرية. وبعد أن برهن أنّه يعرف جيداً تاريخ العدالة، طرحوا عليه مسائل مُعقّدة، عليه أن يُقدّم لها حلولاً أصيلة، تتطلّب دهاءً وشجاعة ومعرفة. أخيراً وبعد أن تخطى بنجاح كلّ العوائق، قادوه إلى مذبح. هناك كانت تُعرض الرموز التي عليه أن يُبجّلها: قطعة خبز، ميزان، سيف، كأس طقسي ووردة. كان الخبز يعني واجب مساعدة الفقراء، الميزان تمثّل العزم على النضال من أجل العدالة؛ السيف يُجسّد الشجاعة؛ كأس الطقس يحتوي على إكسير الرحمة؛ والوردة تُذكر أعضاء الجمعية السريّة بأن الحياة ليست تضحية فقط، بل هي جميلة وبالتالي يجب الدفاع عنها. عند الانتهاء من الطقس قام مانول إسكالانت بصفته الحامي الإشبين بتقليد دييغو الميدالية.

- ما الإسم الرمزي الذي سيكون لك؟ - سأل حامي المعبد الأعلى.

- زورو - ردّ دييغو دون تردّد.

لم يكن قد فكّر بالأمر، لكنّه تذكر في تلك اللحظة بجلاء مُطلق عيني الثعلب الحمراويين اللتين رآهما في طقس ابتداءٍ آخر، قبل سنواتٍ كثيرة، في غابات كاليفورنيا.

- مرحباً بك، يا زورو - قال حامي المعبد السامي وردت جميع الأعضاء الاسم بصوت واحد.

كان ديفغو لا يفا من الانتعاش بسبب تخطيه للامتحانات، ومن الخجل من وقار أعضاء الطائفة، ومن الدوخان من خطوات الاحتفال وأسماء الترتيبية الرنانة - فارس الشمس، فارس هيكل النيل، معلّم الصليب، حارس الأفعى - بحيث لم يكن باستطاعته أن يفكر بوضوح. كان على وفاق مع مبادئ الطائفة ويشرّفه أنه قد تم قبوله فيها. فقط فيما بعد وعندما تذكر التفاصيل ورواها لبرناردو، حكم على الطقس الصبياني قليلاً. حاول أن يسخر من نفسه لأنه أخذها بكل جدية، لكن أخاه لم يضحك، بل أراه كم تتشابه مبادئ العدالة مع أكاهو قبيلته.

فاجأ ديفغو معلّمه بعد شهر من قبوله من قبل مجلس العدالة بفكرة جنونية: كان يحاول تحرير مجموعة من الرهائن. كل هجوم من رجال حرب العصابات يأتي بسلسلة فورية من انتقامات الفرنسيين. يأخذون مجموعة من الرهائن تعادل أربعة أضعاف قتلاهم ويشنقونهم أو يرمونهم بالرصاص في مكان عام. ولم تكن هذه الطريقة لتثني الإسبان، بل كانت تُشعل الكراهية فقط، لكنها تجرح قلب الأسر المفجوعة أسيرة الصراع.

- يتعلّق الأمر هذه المرّة بخمس نساء ورجلين وطفل في الثامنة من عمره يا معلّم. لقد قتلوا خوري الكنيسة أمام كنيسته. وضعوه في الحصن وسيرمونهم بالرصاص ظهر يوم الأحد - وضّح ديفغو. - أعرف هذا، يا سيّد ديفغو. رأيتُ الإعلانات في كلّ أنحاء المدينة - أجاب إسكالانت.

- يجب إنقاذهم، يا معلّم.

- سيكون من الجنون محاولة ذلك. فالحصن منيع. فيما عدا

ذلك، وعلى افتراض أنك تمكنت من ذلك، أوكد لك أن الفرنسيين سيعدمون ضعف الرهائن أو ثلاثة أضعافهم.

- وماذا تفعل العدالة في مثل هذه الحالة، يا مُعلم؟

- أحياناً لا يكون هناك غير الإذعان لما لا يمكن تفاديه. في الحرب يموت كثير من الأبرياء.

- سأتذكر هذا.

لم يكن ديفغو مستعداً للإذعان، لأنَّ أماليا كانت واحدة من المحكوم عليهم ولا يستطيع أن يتركها لقدرها بين أسباب أخرى. وبخطأ من أخطاء القدر، نسيت أوراق لعبها أن تحذرها، فكانت في الشارع في أثناء إحدى جولات الفرنسيين وأسرت مع أشخاص آخرين رغم براءتها. ولم يُفكر ديفغو بالعوائق التي عليه أن يواجهها، حين جاءه برناردو بالخبر، بل فكر فقط بضرورة التدخل ومنتعة المغامرة التي لا تُقاوم.

- نظراً لاستحالة النفوذ إلى القلعة، يا برناردو، فإبني سأدخل إلى قصر دوشامب. أرغب بالتحدث إليه، ما رأيك؟ أرى أن الفكرة لا تُعجبك، لكنه لا يخطر لي غيرها. أعرف بماذا تُفكر: أن هذه جسارة شبيهة بجسارة عملية أدب حين كنا طفلين. لا، هذه المرة جدية، هناك حياة بشر في الموضوع، لا نستطيع أن نسمح لهم بأن يعدموا أماليا. إنها صديقتنا. حسناً، بالنسبة إلي هي أكثر من صديقة، لكن ليست هذه هي المسألة. من سوء الحظ أنني لم ألق دعم العدالة، لذلك أنا بحاجة إلى مُساعدتك، يا أخي. إنها عملية خطيرة، لكن ليس إلى الحد الذي تبدو لك فيه. اسمعني...

رفع برناردو يديه في إشارة إلى استسلامه وحضر نفسه للحاق به، كما كان يفعل دائماً. أحياناً في لحظات التعب والوحشة القصوى كان يُفكر بأن ساعة عودتهما إلى كاليفورنيا قد حانت. كان ديفغو يملك مظهر المراهق الأيدي. وكان يتساءل كيف يمكن أن يكونا

بمثل ذلك الاختلاف ويحبان بعضهما بعضاً إلى ذلك الحد. فبينما كان القدر يُثقل كاهله، كان أخوه بخفة القبيرة. أماليا التي كانت قادرة على فكّ ألغاز النجوم، قدّمت لهما تفسيراً لشخصيتيهما المتناقضتين. قالت إنهما ينتميان إلى برجين فلكيين مختلفين، على الرغم من أنّهما وُلدا في المكان نفسه والساعة ذاتها. ديبغو كان من برج العذراء وپرناردو من برج الثور وهذا ما كان يُحدّد مزاجهما. استمع پرناردو إلى خطّة ديبغو بصبره المعهود، دون أن يكشف عن الشكوك التي كانت تنتابه، لأنّه في أعماقه كان يثق بحظّ أخيه الحسن والذي يفوق التصوّر. قدّم أفكاره وشرعا بالعمل.

تدبّر پرناردو أمره فأقام صداقة مع جندي فرنسي، أسكره بعدها حتى أفقده وعيه. أخلعه بزّته وارثداها، سترة زرقاء طويلة بقبّة حمراء عالية، بنروال وكشكش أبيض وطماقان سوداوان وقبّعة عالية. هكذا دخل إلى حدائق القصير يجرّ جوادين، دون أن يلفظ انتباه الحراس الليليين. لم تكن الحراسة في إقامة الشافاليير الفاخرة مشدّدة، لأنّه لم يخطر لأحد مهاجمتها. في الليل كان يقف حراس يحملون فوانيس، لكنّ مع مرور الساعات الممّلة ترتخي همّتهم. ديبغو، المرتدي بزّة البهلوان السوداء والقناع، اللباس الذي كان يُسميه هو زورو، استغلّ العتمة للاقتراب من البناء. وبومضة إلهام وضع شاربياً، حصل عليه من خزائن أقنعة السيرك، يشبه ضربة ريشة سوداء فوق الفم. كان القناع يُغطّي فقط الجزء العلوي من وجهه فخاف أن يتمكّن الشافاليير من معرفته، لذا فإن الشارب يقوم بمهمّة إلهائه وتشويشه. استخدم السوط لتسلّق شرفة الطابق الثاني ولم يصعب عليه حين أصبح فيه أن يحدّد موقع الغرف الخاصة للعائلة، لأنّه سبق ورافق خوليانا وإيزابيل في عدّة زيارات. كانت الساعة تُقارب الثالثة فجراً، وهي ساعة متأخرة، فلا يعود هناك خدم يتجولون والحراس يكبون في مواقعهم. لم يكن المسكن يملك شيئاً من النقشف الإسباني، فقد كان مزيتاً على الطريقة الفرنسية، بكثير من الستائر والأثاث والنباتات والتماثيل، بحيث أنّ

كان باستطاعة ديفغو أن يجتازها دون أن يرى. كان عليه أن يقطع  
ممرات لا تُحصى ويفتح قرابة عشرين باباً قبل أن يصل إلى حجرة  
الشافاليير، الذي وجد أنها بسيطة بساطة غير متوقّعة بالنسبة إلى  
سلطته ونسبه.

كان ممثل نابليون ينام على سرير جنديّ قاسٍ، في غرفة تكاد  
تكون عارية، يُضيئها شمعدان بثلاثة أضواء في زاوية. كان ديفغو  
يعرف من خلال تعليقات أغنيس دوشامب غير المتحفّظة، أنّ أباهما  
كان يُعاني من الأرق ويلجأ إلى الأفيون كي يرتاح. ورغم الأفيون  
استيقظ الفرنسيّ على الفور، لكنّه وقبل أن يتمكّن من الصراخ أغلق  
ديفغو فمه بيده المُقْفَزة.

- اسكت وإلاّ متّ مثل فأر، يا صاحب السعادة - ابتسم.

وضع رأس سيفه في صدره. نهض الشافاليير إلى الحدّ الذي  
سمع له به السيفُ وأشار بانحناءة من رأسه أنّه فهم. عرض عليه  
ديفغو ما يريده همساً.

- أنت تعزو إليّ سلطة أكثر من اللازم. فإذا ما أمرت بإطلاق  
هؤلاء الرهائن، سيُصدر قائد الموقع غداً أمراً آخر - ردّ الشافاليير  
بالنبرة ذاتها.

- سيكون من المؤسف أن يحدث هذا. ابنتك أغنيس طفلة رائعة  
ولا نودّ أن نعذبها، لكن وكما تعلم سيادتكم، في الحرب يموت أبرياء  
كثيرون - قال ديفغو.

رفع يده إلى السترة الحريريّة، أخرج المنديل المطرّز عليه اسم  
أغنيس دوشامب، الذي أخذه برناردو من القمامة وهزّه في وجه  
الشافاليير، الذي لم يجد صعوبةً في التعرف عليه، رغم قلّة الضوء،  
من عطر البنفسج الذي لا يُخطأ.

- أقترح عليك ألاّ تنادي الحرّس، يا صاحب السعادة، لأنّ  
رجالي في هذه اللحظات موجودون في غرفة ابنتك. فإذا ما حدث لي

أي مكروه، لن تعود لتراها حية. سينسحبون بمجرد إشارة مني -  
قال ديبغو بالطرف نبرة، وهو يشتم المنديل ويخبئه في الصدر.

- تستطيع أن تخرج حياً هذه الليلة، لكننا سنقبض عليك وعندها  
ستلعب اللحظة التي ولدت فيها. نعرف أين نبحث عنك - دمددم  
الشافاليير.

- لا أظن ذلك، يا صاحب السعادة، لأنني لست رجل حرب  
عصابات، وليس لي شرف أن أكون واحداً من أعدائك الشخصيين.  
- حسن! تذكر أن أغنيس في رفقة طيبة... خاتمك اسمي زورز -  
تمتم ديبغو.

توجه الفرنسي مدفوعاً بخاطفه وكتب ملاحظة صغيرة على  
ورقة شخصية، يأمر فيها بتحرير الرهائن.  
- سأكون لك شاكرًا لو وضعت خاتمك الرسمي، يا صاحب  
السعادة - أشار إليه ديبغو.

نفذ الآخر ما طلب منه مكرهاً، نادى بعدها خاتمها، الذي أطل  
من العتبة. كان ديبغو خلف الباب مصوباً سيفه، مستعداً لأن يطعنه  
عند أول ارتياب.

- أرسل هذه مع حارس إلى القلعة وقل له إن عليه أن يأتيني  
بهذه على الفور، موقعة من قائد المنطقة، كي أتأكد من أنني سأطاع.  
هل فهمت؟ - أمر الشافاليير.

- بلى، يا صاحب السعادة - رد الرجل وانطلق سريعاً.

نصح ديبغو الشافاليير أن يعود إلى فراشه كيلا يبرد؛ فالليل  
بارد والانتظار يمكن أن يطول. كان يأسف لأن عليه أن يفرض نفسه  
بتلك الطريقة، أضاف، لكن عليه أن يبقى برفقته حتى يعيدوا الرسالة  
موقعة. ألا يوجد عندك شطرنج أو ورق كي تُقضي الوقت؟ لم يتشرف  
الفرنسي بالجواب. ودخل مفتاحاً تحت الملاحف مراقباً من المقنع،

الذي استراح على حافة السرير، كما لو أنهما صديقين حميمين.  
تملى الواحد منهما الآخر بصمت لأكثر من ساعتين، وفي اللحظة  
التي خاف فيها ديبغو أن يكون قد حدث شيء سيء، طرقت الخادم  
الباب برؤوس أصابعه وسلم سيده الورقة موقعة من شخص يدعى  
فوغت.

- إلى اللقاء، يا صاحب السعادة. أرجوك أن تُبلِّغ تحياتي  
للحسنة أغنيس - ودعه زورو.

كان واثقاً من أن الشافاليير يُصدّق تهديداته ولن يُثير ضجة  
قبل الموعد المتوقع، ومع ذلك ربطه وكمّم فمه احتراساً. رسم برأس  
سيفه حرف زد على الجدار وقام على الفور بانحناءة تقدير ساخرة  
ونزل متدلياً من الشرفة. وجد الجواد ينتظره حيث خبأه برناردو  
وقد لفت حوافره بالخرق كيلا تحدث صوتاً، واختفى دون أن يُثير  
بلبلة، لأنه ما من أحد كان يجول في شوارع برشلونة. في اليوم  
التالي كان الجنود يلصقون إعلانات على جدران المباني الرسمية  
تعلن أنه وبمبادرة حُسن نوايا من السلطات تمّ العفو عن الرهائن.  
وبدئاً في الوقت نفسه بحفلة صيد سرية للعثور على الجسور المدعو  
زورو. آخر ما كان ينتظره قادة رجال حرب العصابات هو العفو  
المجاني عن الرهائن، وقد بلغ بهم الإرباك حدّ أنه لم تُسجّل  
اعتداءات جديدة على الفرنسيين في قطلونيا أسبوعاً كاملاً.

لم يستطع الشافاليير أن يمنع دبّ الصوت، أولاً بين الخدم ثم  
حراس القصر الصغير، ثم في كل مكان، بأن لصاً وقحاً دخل إلى  
غرفته ذاتها. ضحك القطلانيون مقهقهين مما حدث وراح اسم زورو  
الثعلب الغامض ينتقل من فم إلى فم أياماً عديدة، إلى أن شغلت  
اهتمام الشعب قضايا أخرى ونُسي. سمعه ديبغو في مدرسة العلوم  
الإنسانية، في الحانات، وفي بيت دي رومو. وكان يعضّ على لسانه  
كيلا يتبجح جهراً ولا يعترف بمأثرته لأماليا. ظنّت الغجرية أنها  
أنقذت بفعل طلسماتها وتمائمها، التي تحملها دائماً معها، وتدخل  
روح أمّها المناسب.



## القسم الثالث

برشلونة 1812 - 1814

لا أستطيع أن أقدم تفاصيل حول العلاقة بين ديفغو وأماليا.  
فقد كان الحب الجسدي جانباً من جوانب أسطورة الثعلب (زورو)  
الذي لم يخونني بنشره، ليس خوفاً من السخریات أو التّكذيب بل  
كحدّ أدنى من الشهامة. معروف جيّداً أنّه ما من رجل محبوب تماماً  
من النساء يتبجّح بانتصاراته الغرامية. والذين يفعلون ذلك يكذبون.  
ثمّ إنني لا أحبّ أن أنقب في حميميات الغير. إذا كنتم تتوقعون مني  
صفحات بذيئة فسأخيب آمالكم. فقط أستطيع أن أقول أنّ ديفغو في  
الفترة التي كان ينتشي فيها مع أماليا كان قلبه مستسلماً تماماً  
لخوليانا. كيف كانت عناقاته مع الخجيرية الأرملة؟ فقط نستطيع أن  
نتصوّرها. ربّما كانت هي تُغمض عينيها وتُفكّر بزوجها القليل،  
بينما هو يستسلم غائب الفكر لمتعة عابرة. هذه اللقاءات السريّة لم  
تكن تُعكّر شعور ديفغو النظيف الذي كانت تُلهمه إيّاه خوليانا  
العفيفة، كانا يُشكلان منطقتين منفصلتين، خطّين متوازيين  
لا يتقاطعان أبداً. أخشى أنّ هذه كانت حال الثعلب (زورو) على  
امتداد حياته. راقبته خلال ثلاثة عقود وأعرفه تقريباََ تماماً كما  
يعرفه برناردو ولذلك أجرؤ على القيام بهذا التأكيد. فبفضل سحره -  
وهذا ليس قليلاً - وحسن حظّه المذهل، كان محبوباً، حتى دون أن  
يتقصد ذلك، من عشرات النساء. كانت تكفي بشكلٍ عامّ تلميحاً  
غامضة، نظرةً جانبية، ابتساماً من ابتساماته المشعّة، كي تدعوه  
حتى من اشتهرت منهنّ بالورع لتسلّق شرفتها في ساعات الليل

البهيم. ومع ذلك فالثعلب (زورو) لا يتعلق بهن، لأنه يفضل الحالات  
الرومانسية المستحيلة. أستطيع أن أقسم أنه ما إن كان يهبط من  
الشرفة ويطأ اليابسة حتى ينسى السيدة التي كان قبل لحظات  
يُعانقها. هو نفسه لا يعرف كم مرة نازل بالسيف زوجاً مغتاضاً وأياً  
مُهاناً، لكنني أملك الإحصاء، ليس حسداً ولا غيراً، بل دقة مؤرخة.  
دييفو لا يتذكر إلا النساء اللواتي أُصنبنه بلامبالاهن، مثل خوليانا  
منقطعة النظر. كثير من مآثره في تلك السنوات كانت محاولات  
محمومة للفت انتباه الشابة. ولم يكن يلعبُ أمامها دور الغنود  
الجبان الذي كان يخدع به أغنيس دوشامب والشافالير وشخصيات  
أخرى، بل على العكس كان ينفش في حضرتها كل ريش طاووسه.  
كان باستطاعته أن يواجه لأجلها تنيناً، لكن وبما أنه لم يكن موجوداً  
في برشلونة اضطر أن يكتفي برافائل مونكادا. وبما أننا ذكرناه  
يبدو لي أن من العدل أن نُكرّم هذه الشخصية. الوغدُ أساسيٌّ في كل  
قصة، لأنه لا يوجد بطل دون وجود عدوٍّ بمستواه. لقد حالف الحظ  
زورز كثيراً بمواجهته لرافائل مونكادا، ولولا ذلك ما كان عندي  
كثير مما أرويهِ في هذه الصفحات.

كانت خوليانا ودييفو ينامان تحت السقف ذاته، لكنهما كانا  
يعيشان حياتين منفصلتين ولم تكن تتوافر لهما فرص الالتقاء في  
ذلك البيت ذي الغرف الفارغة الكثيرة. كان ينتظر أحياناً ساعاتٍ كي  
يُفاجئها وحيدةً في أحد الممرات ويرافقها عدّة خطوات دون شهود.  
كانا يتصادفان في قاعة الطعام ساعة العشاء وفي القاعة خلال  
عزفها على الجناك، وقدّاسات أيام الأحاد والمسرح حين يكون هناك  
أعمال للوبّ دِ بَغا وكوميديات لموليير التي كانت تسحر توماس  
دِ روميو. في الكنيسة كما في المسرح كان الرجال والنساء يجلسون  
منفصلين، فكان على ديفو أن يكتفي بالنظر إلى نقرة حبيبته من  
بعيد. عاش في بيت الصبية ذاته أكثر من أربع سنوات، يلاجئها

بعناد صياد مُطلق، دون نتائج تستحق الذكر إلى أن صفت المأساة  
العائلة ومالت كفة الميزان لصالح ديبغو. كانت خوليانا تتلقى  
اهتماماته بشعور مرتاح، كما لو أنها لا تراه، لكن ما كان يحتاجه  
كي يُغذي آماله كان قليلاً جداً. كان يعتقد أنّ لا مبالاتها نوع من  
استراتيجية تخفي بها مشاعرها الحقيقية. هناك من قال له إنّ  
النساء عادةً ما يفعلن ذلك. مسكين الرجل، كان منظره يُثير الشفقة.  
كان من الأفضل لو أنّ خوليانا تكرهه؛ فالقلب جهاز نزويّ عادةً ما  
يدور دورة كاملة، لكن عاطفة أخت دافنة كانت عملياً شيئاً لا رجعة  
عنه.

كان آل دي رومو يذهبون في نزهاتٍ إلى سانتا فيّة، حيث يملكون  
عقاراً شبه مهجور. كان بيت الأبوّة بناءً مربعاً على رأس شير  
صخري سادت فيه جداً رُوجة توماس دي رومو المرحومة على  
أولادها وعلى رعايا الإقطاع. كان المنظر رائعاً، فالتلال زُرعت  
من قبل كرمة تُنتج نبيذاً يستطيع أن يُنافس أفضل نبيذ فرنسي. لكن  
أحداً لم يهتمّ بها خلال الحرب فتحوّلت إلى جذوع جافة ومسوّسة.  
والبيت غزته فئران سانتا فيّة الشهيرة، تلك الحيوانات الضخمة وسيئة  
المزاج، كان الفلاحون يطبخونها في أزمنة الحاجة القصوى، فهي  
بالثوم والكرّاث لذيذة جداً. كان توماس يُرسل قبل أن يذهب إلى  
هناك بأسبوعين، سريةً من الخدم لتدخين الغرف، الطريقة الوحيدة  
التي كانت تجبر الفئران على الانسحاب مؤقتاً. صارت هذه الرحلات  
في كلّ مرّة أقل، لأنّ الطرق أصبحت خطيرة أكثر من اللازم. كانت  
كراهية الشعب تحسّ في الهواء، مثل نفْسٍ ثقيل، لهاث مشوّوم  
يقشع البدن المشعّر. لم يكن توماس دي رومو، مثله مثل الكثيرين من  
ملاك الأراضي، ليجروا على الخروج من المدينة، وأقل من ذلك قبض  
الأجور من المستأجرين خوفاً من الموت ذبحاً. هناك كانت خوليانا  
تقرأ وتعزف الموسيقى وتُحاول التقرب من الفلاحين مثل حورية  
مُحسنة كي تكسب ودّهم دون نتائج تُذكر. وكانت نوريا تقاتل  
الأشجار وتشكو من كلّ شيء. بينما إيزابيل تتسلّى برسم لوحات

الطبيعة والوجوه بالألوان المائية. هل ذكرت أنها كانت رسامة جيدة؟ يبدو أنني نسيت ذلك، وهذا إغفال لا يُغْتَفَر، لأنها كانت موهبتها الوحيدة. بشكل عام كان هذا يُكسبها ودَّ الناس البسطاء أكثر من كل أعمال إحسان خوليانا. وكانت تحقق الشبه من خلال الرسم بطريقة ملحوظة، لكنَّها كانت تُحسِّن موديلاتِها، تضع لهم مزيداً من الأسنان، وتُخفِّف من تجاعيدهم وتمنحهم تعابير الكرامة التي نادراً ما كانوا يملكونها.

لكن لنعد إلى برشلونة، حيث كان ديبغو يقضي أيامه مشغولاً بدروسه، بـ العدالة، والحانات، التي كان يجتمع فيها مع طلاب آخرين، وبمغامرات «الدثار والسيف»، كما كان يسميها بدأب رومانسي. بينما كانت خوليانا تمارس حياة بطالة آنسات تلك السنوات. أيضاً لم يكن ممكناً أن تُرى وهي تتكلم مع رجال دون الستين من العمر. كانت تذهب للرقص مع والدها، يُرافقهما أحياناً ديبغو، الذي يُقدِّمُها على أنه ابن العمِّ الأمريكي. لم تكن خوليانا تُظهر أي استعجال في الزواج، على الرغم من أنَّ العشاق كانوا يقفون في الصف. كان على والدها أن يُؤمن لها زواجاً جيداً، لكنَّه لم يكن يعرف كيف يختار صهراً جديراً بابنته الرائعة. لم يكن ينقصها إلا عامين كي تُكمل العشرين، العمر الأقصى للحصول على خطيب، فهي إن لم تملكه في تلك السن تضاءلت فرصة الزواج شهراً بعد آخر. وكان ديبغو، بتفاؤله الحصين يعمل الحسابات ذاتها ويخلص إلى أنَّ الزمن يعمل لصالحه، لأنَّها حين ترى أنَّها بدأت تذبل ستتزوج منه كيلا تصبح عانساً. بهذه الحجَّة كان يُحاول أن يقنع برناردو، الوحيد المتمتع بالصبر لسماعه يشطح في كل لحظة حول حبه اليائس.

في نهاية العام 1812 هُزِم نابليون بوناپرت في روسيا. كان الإمبراطور قد غزا هذا البلد الشاسع بجيشه المكون من مئتي ألف رجل. وكانت الجيوش الفرنسية التي لا تُهزَم تملك نظاماً حديدياً

وتنتقل بإيقاع إجباري وأسرع من أعدائها بكثير، فهم لا يحملون إلا أثقالاً قليلة لأنهم يعيشون في أرض مُحْتَلَّة. ومع تقدّمهم نحو الداخل الروسي، كانت القرى تُحلى ويتبخّر سكّانها والفلاحون يحرقون محاصيلهم. وبمرور نابليون كانت الأرض تُمحَق. دخل الغزاة موسكو منتصرين، فاستقبلهم دخان حريق هائل ونيران متفرقة من قناصة مختبئين بين الأنقاض، مستعدين للموت وهم يقاتلون. أحرق الموسكوفيون، مُقلّدين الفلاحين البواسل، ممتلكاتهم قبل أن يُخلوا المدينة. لم يبق أحد كي يُسلّم المفاتيح لنابليون، ولا جندي واحد يُهينونه، فقط بعض العاهرات المذعنات لإرضاء المنتصرين، لأنّ زبائنهن المعتادين اختفوا. وجد نابليون نفسه معزولاً وسط جبل من رماد، بقي ينتظر، لا يدري ماذا، وهكذا انقضى الصيف. وحين قرّر العودة إلى فرنسا كانت الأمطار قد بدأت والثلوج القاسية كالمبرد ستغطي الأرض الروسية قريباً. لم يتصوّر الإمبراطور قط الامتحانات الرهيبة التي على جنوده أن يتحمّلوها. إلى سياط القوزاق وكمائين الفلاحين أضيف الجوع والبرد القارس، الذي لم يختبره أيّ من أولئك الجنود قط. آلاف الفرنسيين بقوا منتصبين على امتداد طريق الانسحاب المخزي متحوّلين إلى تماثيل من جليد أبدّي. اضطروا لأن يأكلوا الجياد والنعال، بل وأحياناً جثث رفاقهم. فقط عشرة آلاف رجل، حطّمهم العوز والقنوط عادوا إلى وطنهم. وحين رأى نابليون جيشه محطماً علم أنّ النجم الذي أنار له صعوده العجيب إلى السلطة بدأ ينطفئ. اضطّر لأن يسحب قواته، التي كانت تحتلّ جزءاً كبيراً من أوروبا. وسُحب ثلثا القوّات المنتشرة في إسبانيا. أخيراً لمح الإسبان نهاية منتصرة بعد سنوات من المقاومة القاسية، لكنّ هذا النصر لن يصل إلا بعد ستّة عشر شهراً.

في تلك السنة، في المرحلة ذاتها التي كان يلحق فيها نابليون جراح هزيمة العودة إلى فرنسا، أرسلت إيولاليا د كاليبس حفيدها رافائيل مونكادا إلى بلاد الأنتيل بمهمّة نشر تجارة الكاكاو. كانت تُفكر ببيع الشوكولا، وعجينة اللوز ومحفوظات الجوز والسكر

العطير لصانعي الحلوى والملبسات الناعمة في أوروبا والولايات المتحدة. كانت قد سمعت أن الأمريكيين يُحبّون الحلوى كثيراً. وكانت مهمّة الحفيد نسج شبكة من العلاقات التجارية في أهم المدن، بدءاً من واشنطن وحتى باريس. وبقيت موسكو أمراً يُنظرُ فيه، لأنها كانت مدمّرة، لكنّ إيولاليا كانت واثقة من أنّ دخان الحرب سرعان ما سينقشع، وسيعاد بناء العاصمة الروسية بالألق ذاته الذي كان لها من قبل. انطلق رافائيل في رحلة عبور لمدة أحد عشر شهراً، عابراً بحاراً وساحقاً كليتيه في مطيات أبدية كي يؤسس أخوة الشوكولا العطرة التي تخيلتها إيولاليا.

طلب رافائيل مقابلة توماس د رومو قبل ذهابه إلى بلاد الأنتيل، دون أن يقول كلمة واحدة لخالته عن نواياه. لم يستقبله هذا في بيته، بل في أرضٍ محايدة من جمعية الجغرافيا والفلسفة، التي كان عضواً فيها وكان يوجد فيها مطعم رائع في الطابق الثاني. كان إعجاب توماس د رومو بفرنسا لا يتسع ليشمل مطبخها الطيب، لا السنة كناري، فهو كان يُفضّل صحوناً قطلانية قويّة، إسكودلاً واللحم بالقدر، وهو طبيخ يحي الموتى، يخنة العجل، قنبلة من لحم وسجق الأسقف، وهي سجق أكثر سواداً وغلظة من أنواع السجق الأخرى. رافائيل مونكادا، الجالس إلى المائدة مقابل مُضيفه وكومة من اللحم والشحم، كان شاحباً قليلاً. لم يكد يُجرب الطعام، لأنّه كان مرهف المعدة وكان متوتراً. عرض وضعه الشخصي على والد خوليانا، بدءاً من شهاداته وحتى يسره الاقتصادي.

- يؤسفني جداً، يا سيّد د رومو، أنّنا تعارفنا في مناسبة المباراة المفجعة مع ديبغو د لايفغا. إنّه شابٌ مُندفع، وأنا، عليّ أن أعترف، كذلك أحياناً. بدأنا بالكلام وانتهينا إلى ميدان الشرف. من حسن الحظ أنّه لم ينتج عن ذلك شيء خطير. أمل ألا يكون لذلك وزن سلبيّ في حكم حضرتك عليّ... - قال المتطلّع لأن يكون صهره.

- ولا بشكلٍ من الأشكال، أيّها الفارس. الهدف من المبارزات

إزالة العار. وما أن يتبارز نبيلان حتى تزول الضغينة بينهما - رد  
الآخر بلطف، على الرغم من أنه لم ينسَ تفاصيل ما حدث.  
وعندما حانت ساعة تناول الحلوى التي كانت تحتوي في ذلك  
المطعم من السكر ما يجعلها تلتصق بالأضراس، عبّر مونتكادا عن  
رغبته بالحصول على يد خوليانا عند عودته من رحلته. كان توماس  
قد راقب، زمناً طويلاً ودون أن يتدخل، العلاقة الغريبة بين ابنته  
وبين طالب ودها العنيد ذاك. كان عزوفاً عن الكلام عن المشاعر،  
ولم يجهد نفسه قط في التقرب من ابنتيه، فالمسائل النسائية كانت  
تُربكه ويُفضّل أن يوكلها لنوريا. رأى خوليانا تتعثّر على بلاط  
ممرات بيته المثلج حين كانت صغيرة، وحين بدلت أسنانها وراحت  
تنمو وتُجرّ في سنين البلوغ بلا ملاحه. ظهرت مرّة أمامه بجداول  
طفلة وجسد امرأة ولباس تفجّر عند الخصرين، عند ذلك أمر نوريا  
أن تُفصل لها ملابس مناسبة، وتتعاقد مع مدرّس رقص، وألا تتركها  
تغيب عن نظرها لحظة واحدة. والآن يُحاصره رافائيل مونتكادا من  
بين فرسان آخرين ذوي وضع جيّد، ليطلبوا منه خوليانا زوجة وهو  
لا يعرف بماذا يجيب. إن ارتباطاً كهذا مثالي، وأي والد مكانه  
سيكون راضياً، لكنّه لم يكن يستلطف مونتكادا، ليس لأنهما يختلفان  
بمواقفهما الفكرية، بقدر ما للتقولات التي لا تُريح والتي سمعها عن  
طبيعة هذا الرجل. الرأي العامّ كان يرى أن الزواج يقوم على تسوية  
اجتماعية واقتصادية، ليست المشاعر فيها أساسية، فهذه تسوى  
بسرعة، لكنّه لم يكن موافقاً. هو تزوّج حباً وكان سعيداً جداً، إلى حدّ  
أنّه لم يستطع أن يستبدل أية امرأة أخرى بزوجته. كانت خوليانا من  
طبيعته ذاتها، ثمّ إنّها حشت رأسها بالروايات الرومانسية. كان  
يكبحه الاحترام الهائل الذي تمنحه له ابنته. كان عليه أن يلوي  
ذراعها كي تقبل أن تتزوّج دون حبّ، وهو ليس قادراً على فعل ذلك.  
كان يريد لها سعيدة ويشكّ بأن يستطيع مونتكادا أن يُساهم في ذلك.  
كان عليه أن يطرح الأمر على خوليانا، ولا يعرف كيف يفعل ذلك،

الطوى ك...  
ية في أهم...  
رأ ينظر فيه...  
أن الحرب...  
ذاته الذي كان...  
عشر شهراً...  
س أخوة الشرك...  
ذهابه إلى...  
اه. لم يستقبل...  
يا والفلسفة...  
طابق الثاني...  
طبخها الطيب...  
ة قوية، إسكو...  
جل، قنبلة من...  
من أنواع الس...  
ابل مُضيفه وك...  
الطعام، لأنك...  
شخصي على...  
ي...  
أرفنا في...  
فيع، وأنا...  
ميدان الشرف...  
لا يكون...  
يكون...  
العبارة...



فجمالها وفضائلها تُخيفه. كان يشعر بارتياح أكثر مع إيزابيل، التي جعلتها عيوبها ألين جانباً. كان يُدرك أنّ الموضوع لا يقبل التأجيل فأبلغها اقتراح مونكادا في الليلة ذاتها. هزت هي كتفيها، ودون أن تُضيع إيقاع الإبرة في تطريزها، وعلقت قائلة إنّ ناساً كثيرين يموتون في بلاد الأنتيل بالملايا، ولذلك لا حاجة للاستعجال في اتخاذ القرار.

كان ديفغو سعيداً. فرحلة هذا المنافس الخطير منحتة فرصة أن يكون وحيداً كي يكسب ودّ خوليانا. لم تتبدّل الفتاة في غياب مونكادا، كما لم تعتبر نفسها مقصودة بتقدّمات ديفغو. بقيت تعامله بالودّ المتسامح والشهود ذاته، دون أن تُبدي أدنى فضولٍ تجاه نشاطات الفتى الغامضة. كما لم تُدهشها قصائده، فقد كانت تجد صعوبة في فهم معنى أسنان اللؤلؤ، والعينين الزمرديتين والشفيتين الياقوتيتين. قرّر ديفغو، الباحث عن وقت أطول يقضيه معها، المشاركة في دروس الرقص، فأصبح راقصاً رشيقاً وحيوياً. وتمكّن حتى من إغواء نوريا كي تحرك عظامها على إيقاع الفاندانغو، على الرغم من أنّه لم يتمكن من جعلها تتدخل لأجله مع خوليانا، ففي هذا الأمر برهنت أنّها قاسية، مثلها مثل إيزابيل. ولكي ينال إعجاب نساء البيت راح ديفغو يقطع الشموع من وسطها بضربة من شيشه وبدقة جعلت اللهب لا يهتزّ والجزء المقطوع يبقى في مكانه. كذلك كان يستطيع إطفاءها برأس سوطه. أتقن العلم الذي علّمه إيّاه غاليليو تمبستا وتوصّل إلى فعل العجائب بورق اللعب. كذلك كان يقوم بألعاب بهلوانية بالمشاعل المشتعلة، ويخرج من صندوق مقفل بالأقفال دون مساعدة من أحد. وحين استنفذ هذه الحيل حاول أن يُدهش حبيبته بمغامراته، بما في ذلك تلك التي وعد برناردو والمعلم مانول إسكالانتِ ألا يذكرها أبداً. فقد ألّمح لها في لحظة ضعفٍ بوجود جمعية سرّية لا ينتمي إليها إلا بعض الرجال

المصطفين. هنأته، معتقدة أنه كان يُشير إلى ثلثة طلابية من تلك التي  
تعضي في الشوارع عازفة الموسيقى العاطفية. لم يكن موقف  
خوليانا مزدرياً، فهي كانت تُقدِّره كثيراً، ليس خُبثاً، فهي لم تكن  
قادرة عليه، بل شروداً روائياً. كانت تنتظر بطل كتبها، الشجاع  
والدرامي، الذي سيخلصها من السأم اليومي، ولم يكن يخطر في  
ذهنها أن هذا يمكن أن يكون ديفغو د لايفغا. ولا رافائيل مونكادا.

بدأ الوضع السياسي يتغيّر في إسبانيا. وكان يتضح في كل يوم  
أكثر أن نهاية الحرب قد أوفت. كانت إيولاليا د كاليبس تستعد بفارغ  
الصبر لتلك اللحظة، بينما حفيدها يحبك تجارتها في الخارج. لم  
تحلّ الملاريا مشكلة مونكادا بالنسبة إلى خوليانا فعاد في تشرين  
الثاني من العام 1813 أكثر ثروة من قبل، لأنّ خالته منحتة نسبة  
مئويّة مرتفعة من تجارة الملابس. فقد لاقت نجاحاً في أفضل  
صالونات أوروبا وفي الولايات المتحدة تعرّف لا أكثر ولا أقل على  
توماس جفرسون، الذي اقترح عليه أن يزرع الكاكاو في فرجينيا.  
وما إن نقض مونكادا عن نفسه غبار الطريق حتى اتصل بتوماس د  
رومو كي يوكّد على نيّته بخطبة خوليانا. مضى عليه سنوات وهو  
ينتظر منها أن تقول كلمتها ولم يكن مستعداً لقبول جواب متملّص.  
بعد ساعتين تواعد توماس مع ابنته في المكتبة، حيث كان يحل  
مُعظّم مسائله ويوضّح شكوكه الوجودية بمساعدة كأس من  
الكونياك، ونقل إليها رسالة عاشقها.

- أنت في سنّ الزواج، يا بُنيّتي. والزمن يمرّ بالنسبة للجميع -  
علل - رافائيل مونكادا فارس جدّي وبموت خالته سيصبح واحداً من  
أغنى أغنياء قطلونيا. أنا لا أحكم على الأشخاص من وضعهم  
المالي، كما تعلمين، لكن عليّ أن آخذ أمّنك بعين الاعتبار.

- زواج شقيّ أسوأ بالنسبة للمرأة من الموت، يا سيّدي. لا  
مخرج. فكرة إطاعة الرجل وخدمته رهيبية إذا لم توجد الثقة والوثق.

- هذا ما يحدث بعد الزواج، يا خوليانا.

- ليس دائماً، يا سيدي. ثم إنه يجب أن ننظر في حاجاته وواجبي. من سيعني بك حين تشيخ؟ فايزابيل ليس لديها مزاج لذلك؟

- بالله عليك يا خوليانا! لم يحدث قط أن ألمحتُ إلى أن علي ابنتي أن تعتنيا بي في الشيخوخة. ما أُرغب به هم أحفاد وأن أراكما أنتِ وهي مستقرتين جيداً في وضع جيد. لا أستطيع أن أموت ما لم أترككما محميتين.

- لا أدري ما إذا كان رافائيل مونكادا هو رجلي. لا أستطيع أن أتصور أي نوع من الحميمية معه - تمتت وهي محررة.

- أنت لا تختلفين عن الأنسات الأخريات، يا بُنتي. أية شابة ورعة يمكنها أن تتصور هذا؟ - ردّ توماس دِ رومو، خجلاً مثلها.

كان موضوعاً لم يتوقع أن يطرحه قط مع ابنتيه. افترض أنه حين تحين اللحظة ستشرح لهما نوريا ما هو ضروري، وإن كانت القهرماننة في غاية الجهل في هذا الموضوع، مثلها مثل الطفلتين. لم يكن يعلم أن خوليانا كانت تتكلم بهذا مع أغنيس دوشامب وبحثت عن التفاصيل في روايتها الغرامية.

- أحتاج إلى بعض الوقت كي أقرر، يا سيدي - توصلت خوليانا.

فكر توماس دِ رومو أنه لم يحدث أن افتقد زوجته المرحومة كما افتقدتها وقتذاك، هي التي كانت ستحلّ الأمور بحكمة وبيد راسخة، كما تفعل الأمهات عادة. كان متعباً من الشدّ والرخي. تكلم مع رافائيل مونكادا كي يطلب منه تأجيلاً آخر، ولم يكن أمام هذا إلا أن يذعن. ثم أمر خوليانا أن تستشير وصادتها، فإذا لم تحصل على جواب خلال أسبوعين، قبل اقتراح مونكادا وانتهى الأمر. تلك كانت كلمته الأخيرة، خلص، لكنّ صوته لم يكن صارماً. كان حصار مونكادا الطويل قد بلغ مستويات من التحدي الشخصي؛ فراحوا يعلقون في الصالونات الرفيعة كما في فناءات الخدم، بأن هذه

الشابة التي لا تملك ثروة ولا شهادات تهين أكرم شخص في  
برشلونة. وإذا ما استمرت ابنته تجعلهم يتوسلون لها، فإن توماس  
برومو سوف يواجه خلافاً جدياً مع مونكادا، وهي كانت بالتأكيد  
ستستمر بتسويق المسألة لو لم يقع حادثٌ غريب استعجل النهاية.

كانت الصبيتان برومو قد ذهبتا في ذلك اليوم مع نوريا  
لتوزيع الصدقات كما كانتا تعلان دائماً في أول يوم جمعة من كل  
شهر. كان هناك ألف وخمسمئة متسول في المدينة وعدة آلاف من  
الفقراء والمعوزين، لا أحد يزعج نفسه بإحصائهم. منذ خمس  
سنوات كان بالإمكان رؤية خوليانا في اليوم ذاته والساعة ذاتها  
دائماً، محروسة بشخص قهرمانتها المتخشبة، تزور بيوتات  
الإحسان. وكانتا تتغطيان من أعلى رأسيهما وحتى أقدامهما  
بالطرح والأدثرة القاتمة اللون، احتشاماً وتقادياً للتسبب بالإهانة  
بما يدل على الفخامة، وتجوiban الأحياء سيراً على الأقدام وكان  
جوردي ينتظرهما بعربته في ساحة قريبة، متسلماً عن الضجر  
بزجاجة كحوله. وكانتا تقضيان المساء بطوله في هذه الرحلة،  
لأنهما بالإضافة إلى مساعدة الفقراء تزوران الراهبات المكلفات  
بالمياتم. بدأت إيزابيل ترافقهما في ذلك العام، فقد أصبحت في  
الخامسة عشرة وفي عمر عليها أن تُمارس فيه الإحسان، بدل أن  
تقضي الوقت في التجسس على ديفغو، وتصارع نفسها أمام المرأة،  
كما كانت تقول فورياً. كان عليهن أن يسرن في أزقة ضيقة من  
أحياء مُدقعة الفقر، القلط ذاتها لا تسهو فيها خوفاً من أن تُصطاد  
لتباع على أنها أرانب. وكانت خوليانا تستسلم بصرامة مثالية لهذا  
العمل البطولي، بينما كانت إيزابيل تمرض، ليس لأن القروح  
والدمامل، والأسمال والعكاكيز والأفواة الدرداء والأنوف التي  
تأكلها الزهري عند تلك الحشود البائسة، التي كانت أختها تعاملها  
مثل مبشرة، ترعبها، بل لأن أعمال الإحسان كانت تبدو لها سخرية.

أن تنظر في  
ليس لديها مزاج  
أن المحث إلى  
فب به هم أخط  
يد. لا أستطيع أن  
رجلي. لا أستطيع  
هي محزنة  
يا بِنْتِي. أيتها  
رومو، خجلت  
مع ابنتيه. افترض  
ضروري، وإن  
لها مثل الطفلين  
دوشامب وبخنة  
توشلت خوليانا  
زوجته المرمية  
الأمر بحكاية  
الشدة والرضي  
م يكن أمام  
فإذا لم تحصل  
الأمر. تلك  
رماً. كان  
الشخصي  
بأن

كانت تُقدَّر أن نقود محافظة خوليانا لا تُجدي شيئاً أمام هول الفقر.  
فترد عليها أختها: «عدمه أسوأ منه».

كُنَّ قد بدأن جولتهنَّ قبل نصف ساعة، ولم يزرن بعد إلا ميتماً  
واحداً حين خرج في وجههن عند إحدى الزوايا ثلاثة رجال بمظهر  
مريع. لا تكاد تُرى عيونهم، لأنهم اعتمروا قبّعات هابطة حتى  
حواجبهم وربطوا على وجوههم مناديل. ورغم منع ارتداء الأثرية  
كان أطولهم متدثراً بمعطف. كانت تلك ساعة القيلولة الخمولة، حيث  
يندر الناس الذين يسرون في المدينة. وكانت الأزقة محمية  
الجوانب بأسوار كنيسة حجرية مصمتة لا يوجد فيها باب واحد  
قريب يمكن اللجوء إليه. راحت نوريا تصرخ مذعورة، لكنَّ صفة  
على وجهها من واحد من أولئك الأوغاد رمتها أرضاً وأخرستها،  
حاولت خوليانا أن تُخفي محافظة نقود إحسانها تحت معطفها، بينما  
إيزابيل راحت تنتظر شزراً باحثة عن طريقة لطلب المساعدة. انتزع  
أحد اللصوص المحافظة من خوليانا وحاول آخر أن ينتزع قرطي  
اللؤلؤ، لحظة وضعتهم حوافر جواد فجأة في حالة الدفاع. صاحت  
إيزابيل بأعلى صوتها فظهر بعد برهة ظهوراً ربانياً لا أكثر ولا أقل  
رافائيل مونتكادا. ففي مدينة مكتظة مثل تلك كان وصوله أقل من  
أعجوبة بقليل. كفت مونتكادا نظرة كي يُقدَّر الوضع ويُجرّد سيفه  
بسرعة ويواجه أولئك الشياطين السفلة. اثنان منهما امتشقا  
خنجرين معقوفين، لكنَّ توبيخين من مونتكادا وموقفاً حازماً  
أربكهما. بدا هائلاً ونبيلاً على مطيته بجزمته السوداء اللامعة في  
الركاب الفضّي والسروال الناصع البياض المشدود على ساقيه،  
وسترة القطيفة الخضراء الداكنة بطيئتي استبرقها والسيف الطويل  
ونهاية المقبض الدائرية المزركشة بالذهب. كان باستطاعته من  
مكانه أن يقضي على أكثر من خصم دون أية تدابير أخرى، لكنه بدأ  
مستمعاً بتخويفهم. وكان يمكن أن يكون بابتسامته الضارية وسيفه  
الذي يلمع في الهواء الصورة المركزية للوحة معركة. كان الآخرون  
يلهثون بينما هو ينخسهم من الأعلى دون هوادة. وقف الجواد

الغاضب من المشادة، على قائمتيه الخلفيتين وبدا لبرهة على وشك أن يرمي بفارسه أرضاً، لكنّ هذا شدّ ساقيه عليه. بدت رقصة غريبة وعنيفة. كان الجوادُ يدور وسط دائرة الخناجرِ حول نفسه، صاهلاً رعباً، بينما مونكادا يُسيطر عليه بيدي ويرفع سلاحه باليد الأخرى يحيط به اللصوص، الذين يبحثون عن مناسبة كي يطعنوه، لكنهم لم يجرؤوا على الاقتراب منه. انضمت إلى صرخات إيزابيل صرخات نوريا، وسرعان ما أطلّ عدد من الرجال على الشارع، لكنهم حين رأوا الحديد يلمع في ضوء النهار الشاحب، بقوا حذرين. خرج فتى راكضاً يبحث عن الشرطة، لكن لم يكن هناك أمل بأن يعود بالمساعدة في الوقت المناسب. استغلت إيزابيل الارتباك لتنتزع المحفظة من يدي رجل المعطف، وأخذت أختها من جانب ونوريا من جانب آخر كي تجبرهما على الهرب، لكنهما لم تستطع تحريكهما، فكلاهما تسمرت بالبلاط. لم تدم المواجهة إلا دقائق، جرت ببطء الكوابيس المستحيلة الحدوث واستطاع مونكادا أخيراً أن يرمي خنجر أحد الرجال وبذلك أدرك المهاجمون الثلاثة أنّ من الأفضل لهم أن ينسحبوا. قام الفارس بحركة من سيلاحقهم، لكنه تراجع عندما رأى روع النساء وقفز عن مطيته ليساعدهن. لطفة حمراء ظهرت على بنطلونه. هرعت خوليانا لتلوذ بذراعيه مرتعدةً مثل أرنب.

- أنت جريح! - صاحت حين رأت الدم على ساقه.

- مجرد خدش - ردّ هو.

كانت الحالة بالنسبة إلى الشابة حالة تأثر مفرطة. زاغت عيناها وخانتها ركبتها، لكنّ ذراعي مونكادا اليقظين رفعها قبل أن تسقط على الأرض. علقت إيزابيل قائلةً بأنه لم يكن ينقص المشهد كي يكتمل غير هذا: إغماءة أختها. تجاهل مونكادا السخرية اللاذعة وحمل خوليانا بين ذراعيه إلى الساحة وهو يعرج قليلاً، لكن دون تعثر. تبعتهما إيزابيل ونوريا، جارتين الجواد من رهنه، يحيط بهما

الفضوليون الذين اجتمعوا وكان لكل واحد منهم رأيه بما حدث،  
وجميعهم يريد أن يقول كلمته الأخيرة حول ما جرى. عندما رأى  
جوردي ذلك الموكب نزل عن مقعد الحوذني وساعد مونكادا على  
وضع خوليانا في العربة. سادت بين المتلصّين موجة من  
التصفيق. نادراً ما كان يحدث في شوارع برشلونة شيء بمثل هذه  
الدونكيشوتية والرومانسية؛ صار هناك موضوع لعدة أيام. بعد  
عشرين دقيقة وصل جوردي إلى فناء بيت رومو يتبعه مونكادا  
على جواده. كانت خوليانا تبكي منهارة الأعصاب، ونوريا تعدّ  
أسنانها التي أسقطتها الصفعة، بينما إيزابيل تطلق شرراً وهي  
تحتضن المحفظة.

لم يكن توماس رومو من الرجال الذين تُدهشهم كثيراً الكنى  
العريقة، لأنه كان يطمح لأن تمحي النبالة عن وجه الأرض، ولا ثروة  
مونكادا، لأنه كان ذا طبيعة كريمة، لكنه تأثر حتى البكاء حين علم  
أن هذا الفارس، الذي عانى كثيراً من صدود خوليانا، قد خاطر  
بحياته كي يحمي ابنتيه من أذى ماحق. ورغم أنه كان يقول إنه  
مُلجّد، فقد كان متفقاً تماماً مع نوريا بأن العناية الإلهية أرسلت  
مونكادا في الوقت المناسب لينقذهن. أصرّ على أن يرتاح الفارس  
ريثما يذهب جوردي للبحث عن طبيب يداوي له جرحه، لكنّ الفارس  
فضّل أن ينسحب بلباقة. وما من شيء غير اضطرابه عند التنفس  
وشى بألمه. الجميع علّق بالقول بأنّ برودة دمه أمام الأكم مذهلة مثل  
جراته أمام الخطر. وحدها إيزابيل لم تُبد أية علامة امتنان. وبدل  
أن تنضمّ إلى تأثر بقيّة العائلة الطافح راحت تُططق بلسانها  
طقطقات ازدراء قوبلت بالاستهجان. أمرها أبوها بأن تذهب وتُغلق  
على نفسها الباب في غرفتها، ولا تعود لتطلّ بأنفها قبل أن تعتذر  
عن دهمائيتها.

اضطرّ ديفو إلى أن يستمع بصبر وإكراهٍ إلى تفاصيل الهجوم

من فم خوليانا، إضافة إلى التخيلات حول ما كان من الممكن أن يحدث لو لم يتدخل المخلص في اللحظة المناسبة. لم يحدث قط للشابة شيء يمثل تلك الخطورة، كبرت صورة رافائيل مونكادا في عينيها، تزيّتها فضائل لم ترها فيه من قبل: فهو قوي ووسيم، له يدان أنيقتان وخصلة شعر متماوجة. ورجل يمثل هذه الأناقة أمامه الكثير مما يكسبه في هذه الحياة. فجأة لاحظت أنه يشبه أشهر مصارع ثيران في إسبانيا، قرطبي طويل الساقين ناري العينين. وقررت أن خاطب ودّها لم يكن قبيحاً أبداً، وهكذا أصابتها الوعكة الرهيبة بالحصى فذهبت باكراً إلى فراشها. كان على الطبيب أن يفسد دم نوريا، التي صار رأسها مثل قرعة بعد أن وضع لها كؤوس هواء.

ونظراً إلى أن ديفغو لن يرى الجميلة على العشاء فقد انسحب بدوره إلى غرفته، حيث كان ينتظره برناردو. وللحشمة لم يكن باستطاعة الصغيرتين أن تقتربا من جناح البيت الذي يضمّ غرف الذكور، الاستثناء الوحيد حدث يوم كان ديفغو يتعافى من جرح المباراة، لكن إيزابيل لم تكترث قط بهذه القاعدة، كما لم تطبق حرفياً العقوبات التي كان يفرضها عليها أبوها. تجاهلت في تلك الليلة أمر العزل في غرفتها فظهرت في غرفة الفتيتين دون سابق إعلان، كما كانت تفعل أحياناً كثيرة.

- ألم أقل لك أن تقرعي الباب؟ سيأتي يوم تجدينني فيه عارياً -  
احتج ديفغو.

- لا أظن أنني سأظفر بانطباع لا ينسى - ردت هي.

جلست على حافة سرير ديفغو، بتعابير داهية يملك معلومات ولا يريد أن يقدمها، بانتظار أن يتوسل إليها، لكن ديفغو حاول مبدئياً ألا ينصاع لحيلها وبرناردو كان ساهياً يعمل عقداً في حبله. مضت برهة طويلة انصاعت بعدها لرغبتها بالكلام بلغتها الجميلة التي تستخدمها بعيداً عن مسمع نوريا، قائلة إنه إذا كانت أختها

أرايه بما  
جرى. عنما  
ساعد مونكادا  
صصين مرجع  
نة شيء يمثل  
ع لعدة أيام.  
ومو يتبعه مونك  
صاحب، ونوريا  
تطلق شرراً وم

هشهم كثيراً  
الأرض، ولا  
البكاء حين  
خوليانا، قد  
أنه كان يقول  
اية الإلهية أرسل  
أن يرتاح الفارس  
رحة، لكن الفارس  
طرايه عند التفر

ام الأم مذهلة  
رامة امتنان.  
تططبق بلسا  
بأن تذهب وتظ  
فها قبل أن تظ

تفاصيل



لاتشك بمونكادا فلأنها بلهاء، وأضافت أن كل شيء كانت تفوح منه رائحة سمك فاسد، لأن أحد المهاجمين كان رودولفو، عملاق السيرك. قفز ديبغو قفزة قرد وأفلت برناردو الحبل الذي كان يعقده.

- هل أنت متأكدة؟ ألم تقولي إنهم كانوا أوغاداً ويغطون وجوههم - زجرها ديبغو.

- بلى، ثم إن هذا كان ملفوفاً بدثار، لكنه كان ضخماً وحين انتزع منها المحفظة رأيت ذراعيه. كانا موشومين.

- يمكن أن يكون بخاراً. كثيرون منهم موشومون، يا إيزابيل - أضاف ديبغو.

- كان وشم عملاق السيرك ذاته، لا شك عندي في ذلك، لذلك من الأفضل لك أن تُصدّقني - ردت هي.

وبين هذا واستنتاج ديبغو وبرناردو بأن الغجر كانوا متورّطين لم يكن يوجد غير خطوة واحدة خطياها على الفور. كانا يعلمان منذ فترة أن بلايو وأصدقائه ينفذون أعمالاً قذرة لمونكادا، لكنهما لا يتمكنان من التحقق منها. لم يجرؤا قط على التطرّق إلى الموضوع مع الفجري، الذي كان في جميع الأحوال كتوماً ولن يعترف لهما بشيء. أماليا بدورها لم تكن تدعن لاستفسارات ديبغو المبطّنة، حتى في أكثر اللحظات ودّية كانت حذرة بخصوص أسرار العائلة. وديبغو لم يكن يستطيع أن يمثل أمام توماس دي رومو بريبة مثل تلك، دون براهين ودون أن يرى نفسه مجبراً على أن يقبل بتعامله الخفي مع قبيلة البوهيميين، لكنه قرّر التدخّل. كما قالت إيزابيل، لم يكن باستطاعتهم أن يقبلوا أن تنتهي الشابة بالزواج من مونكادا لامتنان لا أساس له.

تمكّنوا في اليوم التالي من إقناعها بأن تنهض من الفراش وتُرافقهم إلى حيث كانت تتوضّع أماليا لتقرأ حظّ المارّة. ذهبت

نوريا معهم، لأنه كان واجبها، على الرغم من أن وجهها كان يبدو أسوأ من اليوم السابق. كان أحد خديها مزرقاً وأجفانها منتفخة وتبدو مثل ضفدع. تأخروا أقل من نصف ساعة في العثور على أماليا، بينما كانت الفتاتان وقهرمانتهما ينتظرن في العربة. توصل ديفغو للعجريّة بفصاحة هو نفسه لا يعرفها، أن تنقذ خوليانا من قدر مشؤوم.

- كلمة واحدة منك يمكن أن تمنع حدوث كارثة زواج بلا حب بين فتاة بريئة ورجل بلا ضمير. عليك أن تقولي لها الحقيقة - تعلل بمأساوية.

- لا أعرف عما تكلمني - ردت أماليا.

- بل تعرفينه. العناصر الذين هاجموا من قبيلتك. أعرف أن واحداً منهم هو رودولفو. أعتقد أن مونكادا دير المشهد كي يظهر بمظهر البطل أمام الصغيرتين ب رومو. كل شيء كان مُدبراً، أليس صحيحاً؟ - أصر ديفغو.

- هل أنت عاشق لها؟ - سألت أماليا دون خبث.

اضطر ديفغو مُختنقاً، أن يعترف بأنه كذلك فعلاً. أخذت هي يديه، فحصتهما بابتسامة مُبهمة ثم بلّلت إصبعاً بريقها ورسمت إشارة الصليب على كفيه.

- ماذا تفعلين؟ هل هذه لعنة؟ - سأل ديفغو، مذعوراً.

- إنه تنبؤ. لن تتزوج منها أبداً.

- هل تعنين أن مونكادا سيتزوج منها؟

- هذا ما لا أعرفه. سأفعل ما تطلبه مني، لكن لا تتوهم، لأن على هذه المرأة أن تُكمل قدرها، تماماً كما عليك أنت أن تفعل، ولا شيء مما أقوله يمكن أن يُغيّر ما هو مكتوب في السماء.

تسلقت أماليا العربة، حيث بإشارة إيزابيل، التي كانت قد رأتها أحياناً، حين كانت تُرافق ديفغو وبرناردو، وجلست على المقعد

مقابل خوليانا. كتمت نوريا نَفْسَهَا مذعورةً، لأنها كانت واثقة من أن البوهيميين يتحدّرون من قابيل ومن أنهم لصوص محترفين. صرفت خوليانا قهرمانتها وإيزابيل، اللتين نزلتا من العربية مدممتين. حين أصبحتا وحيدتين راقبت كلّ منهما الأخرى دقيقة كاملة. جردت أماليا خوليانا جرداً تاماً: الوجه الكلاسيكي، المحاط بخواتم شعر أسود، عينا القطة الخضراوان، الرقبة الدقيقة، الضمار والقبعة الجلدية، جزمة جلد الجدي. من جهتها كانت خوليانا تفحص العجرية بفضول، لأنها لم تر قط عجريّة عن مثل ذلك القرب. لو أنّها أحبّت ديبغو لكان حدسها نبيّها إلى إنّها خصمها، لكنّ هذه الفكرة لم تخطر ببالها. أحبّت رائحة التبغ فيها، وجهها الناشز الوجنتين، تنورتها الواسعة وندنة مجوهراتها الفضية. بدت لها في غاية الجمال. وباندفاع ودية خلعت قفازيها وأمسكت يديها. فقط قالت لها: «شكراً على تكلمك معي». أماليا وقد جردتها تلقائية الحركة من سلاحها، قرّرت أن تحرق قاعدة شعبيها: لا تتقي أبداً بغريب، خاصة إذا كان هذا يضع عشيرتك في خطر. وبكلمات قليلة وصفت الجانب الغامض من مونكادا، كشفت لها أنّه بالفعل كان هجوماً مبرمجاً، فهي وأختها لم تكونا قط في خطر. ولم تكن البقعة الحمراء على بنطلون مونكادا ناتجة عن جرح، بل عن مصران ملئ بدم دجاجة. قالت إنّ بعض رجال القبيلة يُنقذون من حين لآخر ما يكفهم به مونكادا من مسائل معينة غالباً ما تكون غير ذات أهمية. في مناسبات معدودة ارتكبوا خطأً جدّياً، مثل الهجوم على الكونت أورلوف. «لسنا مجرمين»، وضّحت أماليا وأضافت أنّها تأسف لأنها اعتدت على الروسي ونوريا، لأنّ العنف ممنوع في قبيلتها. وبضربة قاضية أعلمتها أنّ بلايو هو من كان يُغني لها السيرينادات، لأنّ مونكادا كان ينشز مثل بطّة. استمعت خوليانا إلى الاعتراف الكامل دون أن توجه إليها أسئلة. ودّعت الواحدة منهما الأخرى بإيماءة خفيفة وهبطت أماليا من العربية فانفجرت خوليانا بالبكاء.

في ذلك المساء ذاته استقبل توماس بـ رومو رسمياً في منزله  
رافائيل مونكادا، الذي أبدى عبر رسالة قصيرة أنه تعافى من فقدانه  
للدّم ويرغب بأن يُقدّم احتراماته لخوليانا. في الصباح كان قد جاء  
إليها خادمٌ بإكليل من الزهر وعلبة تورّون لوز لإيزابيل، اللفتان  
المهذبتان غير التبعّحيتين اللتان سجّلهما توماس لصالح طالب  
الوث. وصل مونكادا بأناقة تامّة مستنداً إلى عكاز. استقبله توماس  
في القاعة الرئيسية، الذي رفض الغبار عنها على شرف الصهر  
المستقبلي، قدّم له نبيذ شيرش وما إن جلسا حتى شكره مرّة أخرى  
على تدخله المناسب. وأمر على الفور باستدعاء الصغيرتين.  
حضرت خوليانا هزيلة بزّي دير، غير مناسب كثيراً لمثل تلك  
المناسبة المهمّة. أختها إيزابيل جاءت بعينين مضطربتين وتصغيرة  
ساخرة تسندها من ذراعها بقوة بدا منها وكأنّها تجرّها. عزا  
رافائيل مونكادا وجه خوليانا المتجهّم إلى التوتر العصبي.

- لا يتوقّع أقل من ذلك بعد العدوان الرهيب الذي تعرّضت له...  
- بادر معلقاً قبل أن تُقاطعه هي كي تُعلن له بصوت مرتعش لكن  
بإرادة حديدية، أنّها لن تتزوّجه ولا حتى وهي ميتة.

وأمام رفض خوليانا القاطع انسحب رافائيل مونكادا من هذا  
البيت شاحباً، وإن بقي متحكماً بأدابه الحسنة. اصطدم في سنته  
السبع والعشرين ببعض العوائق، لكنّه لم يفشل قط. لم يفكر أن يعتبر  
نفسه مهزوماً، ما زال في كمّه عدد من الحيل، فهو لذلك يملك موقفاً  
اجتماعياً وثروة وعلاقات. امتنع عن سؤال خوليانا عن أسبابها،  
لأنّ الحدس نبّهه إلى أنّ شيئاً ما خاّنه في استراتيجيته. هي كانت  
تعرف أكثر من اللازم، وهو لم يكن مستعداً لأن يرى نفسه مُخرجاً.  
إذا كانت خوليانا تشك بأنّ الهجوم كان مسرحية هزلية، فليس هناك  
غير سبب واحد: بتلايو. لم يُصدّق بأنّ الرجل يمكن أن يكون قد تجرّأ  
على خيانتته، لأنّه لا يربح من هذا شيئاً، لكن من المحتمل أن يكون قد

ارتكب حماقة. لم يكن ممكناً كتمان السرّ هناك لزمان طويل، فالخدم كانوا يُشكّلون شبكة معلومات أكثر فعالية من الجواسيس الفرنسيين في القلعة. يكفي تعليق من أيّ من المتورّطين في غير مكانه حتى يصل إلى مسمع خوليانا. كان قد استخدم الغجر في عدّة مناسبات، تماماً لأنّهم رخّالة، فهم لا يملكون أصدقاء ومعارف في برشلونة، وكانوا محتشمين بالضرورة. في أثناء رحلته فقد الاتصال ببلايو وشعر بطريقة ما بالراحة لذلك. فالعلاقة مع هؤلاء الناس كانت تُزعجه. وعند عودته اعتقد أنّ باستطاعته أن يضرب عرض الحائط وينسى كوابيس الماضي ويبدأ بشكل نظيف، بعيداً عن ذلك العالم التحتي من الشرّ المدفوع الأجر. لكنّ نيّة الولادة الجديدة لم تدم سوى بضعة أيّام. حين طلبت خوليانا أسبوعين آخرين كي تردّ على طلبه بالزواج، جاء ردّ فعله مذعوراً وهو أمر نادر عنده، هو الذي كان يقدر في نفسه أنّه قادر حتى على السيطرة على مسوخ كوابيسه. كتب إليها خلال غيابه عدّة رسائل لم تُجب عليها. عزا هذا الصمت إلى الخجل، لأنّ خوليانا كانت في عمرٍ، النساء الأخريات فيه أمّهات، بينما هي تتصرّف كغرة. كانت تلك البراءة في نظره أفضل ما في الشابة، لأنّها كانت تضمن له أنّها حين تستسلم له فسيكون ذلك دون تحفّظ. لكنّ أمانه اصطدم بالتأجيل الجديد الذي فرضته بنفسها، وعندئذٍ قرّر الضغط عليها. قدر أنّ تصرّفاً رومانسياً، كتلك التصرفات التي تزخر بها كتب الحبّ التي كانت تتمتع بها، سيكون الأكثر فعالية بالنسبة إلى أهدافه، لكنّ لم يكن باستطاعته أن ينتظر أن تأتي الفرصة من تلقاء ذاتها، وعليه أن يستعجلها؛ وسيحصل على ما يرغب دون أن يضرّ بأحدٍ، والحقيقة لم تكن المسألة خداعاً، لأنّه لو حدث وهوجمت خوليانا - أو أيّة امرأة أخرى - سيخرج للدفاع عنها دون تردّد. لم يبدُ له ضرورياً أن يُقدّم هذه المبررات لبلايو، طبعاً اقتصر على إعطائه الأوامر التي نفّذها دون تلكؤ. وجاء المشهد الذي ركّبه البوهيميون أقصر من المخطّط له، لأنّهم ولّوا الأديار بعد دقائق قليلة، حين شعروا أنّ سيف مونكادا يعمل

بجدية. لم يمنحوه الفرصة كي يتألق بالبهاء الدرامي الذي كان يطمح إليه، لذلك عندما جاءه بلابو ليقبض منه اعتبر من العدل مساومته على السعر المتفق عليه. تجادلا وانتهى الأمر بأن قبل بلابو التخفيض، لكن رافائيل مونكادا بقي يشعر بطعم حريف في حلقه، فالرجل كان يعرف أكثر من اللازم ويمكن أن يقع في إغواء أن يفضحه. بالنتيجة ختم أنه لم يكن يناسب أن يكون لعنصر من هذه الطبيعة بلا قانون ولا أخلاق، سلطة عليه. يجب أن يتخلص منه ومن قبيلته بأسرع ما يمكن.

من ناحيته كان برناردو يعرف جيداً نسيج التقولات القوي الذي كان يخافه كثيراً الأشخاص من نوع مونكادا. فهو بصمته، صمت القبر، وبمظهر الهندي الجليل وطيب إرادته في صنع المعروف قد استلطفه ناس كثيرون، باعة السوق، حمالو الميناء، حرفيو الأحياء، الحوذيون، أزلام وخدم بيوت الأغنياء. كان يُخزن المعلومات في ذاكرته العجيبة، المقسمة إلى أقسام مثل أرشيف هائل، حيث يحفظ المعلومات منظمة وجاهزة للاستخدام في اللحظة الضرورية. كان قد تعرّف على جوانيت، أحد خدم مونكادا، في فناء منزل إيولاليا د كاليس، في الليلة التي ضربه فيها مونكادا بعصاه. في أرشيف تلك الليلة لا يذكر ضربة العصا التي تلقاها، بل الهجوم على الكونت أورلوف. بقي على تواصل مع جوانيت، وهكذا كان باستطاعته أن يراقب بيت مونكادا من بعيد. لم يكن الرجل متنوراً كثيراً ويكره كل ما ليس قطلانياً، لكنه كان يتسامح مع برناردو لأنه لم يكن يقاطعه وكان مُعقداً. وما إن اعترفت أماليا بتعامل مونكادا مع الفجر حتى قرّر برناردو أن يعرف المزيد عن هذه الشخصية. قام بزيارة جوانيت، حاملاً إليه هدية وهي أفضل كونيكاك عند توماس د رومو، سهّلت أمر الحصول عليه إيزابيل عندما علمت أن الكحول سيستخدم لأهداف غيرية. لم يكن الرجل يحتاج للكحول كي يطلق العنان للسانه، لكنه شكره وراح يحكي له على الفور الأخبار الجديدة. هو نفسه كان قد حمل رسالة من سيده إلى قائد القلعة العسكري، وفيها

يتهم مونكادا قبيلة الفجر بإدخال أسلحة مهزبة إلى المدينة والتآمر على الحكومة.

- الفجر تحيق بهم لعنة أبدية، لأنهم صنعوا مسامير صليب المسيح. ويستحقون أن يُحرقوا جميعاً دون رحمة، أنا أقول ذلك - ذلك كان استنتاج جوانيت.

كان برناردو يعلم أين يجد ديبغو في تلك الساعة. اتجه على الفور إلى الخلاء خارج أسوار برشلونة، حيث نصب الفجر خيامهم الوسخة ووضعوا عرباتهم المخلعة. في السنوات الثلاث التي مضت على وجودهم هناك اكتسب المخيم مظهر قرية من خرق. لم يكن ديبغو قد جدّ غرامياته مع أماليا، لأنها خافت أن تُضيع مصيرها للأبد؛ فهي قد أنقذت من الإعدام على يد الفرنسيين وهذا أكبر برهان على أن روح زوجها رامون تحميها من الجانب الآخر. لم يكن يناسبها أن تُثير غضبه بالنوم مع غريب. كما أُثر في معنوياتها أن ديبغو اعترف لها بحبه لخوليانا، وبذلك يكون الاثنان غير وقيين، هي لذكرى المرحوم وهو للفتاة العفيفة. تماماً كما قدر برناردو كان ديبغو قد ذهب إلى المخيم ليساعد أصدقاءه في تحضير الخيمة لسيرك الأحد، الذي لن يكون في هذه الحالة في ساحة كما هو معتاد، بل هناك بالذات. كان أمامه عدة ساعات، لأن العرض يبدأ في الرابعة مساءً. حين وصل برناردو كان يجز مع رجال آخرين الحبال لشدّ القماش على إيقاع أغاني تعلمها من بخارة لامادري ديوس. كان باستطاعته أن يُحسّ بأفكاره عن بعد وكان ينتظره. لم يحتج لأن يرى تعابير وجه أخيه المكفهرة كي يعلم أن شيئاً ما سيئاً يحدث. امحت ابتسامته، التي طالما كانت تتراقص على وجهه عند سماعه ما تحقق برناردو منه من خلال جوانيت فجمع القبيلة على الفور.

- إذا كانت المعلومات صحيحة فأنتم في خطر حقيقي. أتساءل لماذا لم يوقفوكم حتى الآن - قال لهم.

- بالتأكيد سيأتون خلال العرض، حين نكون جميعاً هنا ويكون  
هناك جمهور. فالفرنسيون يُحبّون تلقين الدروس، هذا ما يجعل  
السكان خائفين، وليس هناك ما هو أفضل من أن يفعلوه بنا - أجاب  
رودولفو.

جمعوا أطفالهم وحيواناتهم بصمت وبحذرٍ قرونٍ من الملاحقة  
وحياة التيه؛ حزموا ما لا غنى لهم عنه، امتطوا خيولهم، واختفوا في  
أقل من نصف ساعة باتجاه الجبال. عندما ودّعهم ديبغو قال لهم أن  
يرسلوا في اليوم التالي أحداً إلى كاتدرائية الحي القديم. قال لهم  
«عندي شيء لكم»، وأضاف إنّه سيحاول أن يلهي الجنود كي يكون  
لديهم الوقت للهرب. كان الفجر يخسرون كل شيء. فالمخيم بقي  
خلفهم مقفراً وفيه خيمة السيرك الحزينة، العربات بلا خيول،  
الصلاوات التي ما يزال ينبعث منها الدخان، الخيام المهجورة وكومة  
من الأواني والفرش والخرق. في هذه الأثناء جال ديبغو وبرناردو  
وهما يعتمران قبعتي بهلوان ويقرعان الطبل كي يستدعوا الجمهور  
الذي راح يتبعهم إلى السيرك. وسرعان ما توافر ما يكفي من  
المتفرجين ينتظرون تحت الخيمة. باغتت صفرة قلقة ديبغو، الذي  
ظهر في الحلبة بلباس زورو وقناع وشاربٍ قاذفاً في الهواء ثلاثة  
مشاعل مشتعلة، يلتقطها في الهواء ويمزرها من بين رجليه وخلف  
ظهره قبل أن يعود ويقذف بها من جديد. لم يبذ الجمهور مندهشاً  
كثيراً وبدأ يمازحه، أخذ برناردو المشاعل وطلب ديبغو متطوعاً من  
أجل حيلة مدهشة جداً، كما أعلن. خرج له بخار مفتول العضلات  
متحدياً ووقف متبعباً التعليمات على بُعد خمس خطوات وسيجارة  
مشتعلة بين شفتيه. أزد ديبغو سوطه مرّتين على الأرض قبل أن يوجه  
إليه ضربة صائبة. حين شعر الرجل بأزيز يلامس وجهه احمرّ  
غضباً، لكن حين طارت السيجارة في الهواء دون أن يلمس السوط  
جلده أطلق قهقهةً تبعثها قهقهات الحضور. عندئذٍ تذكر أحد  
القصص التي كانت تدور في المدينة حول الثعلب (زورو)، الذي كان  
يرتدي الأسود والقناع، وتجراً على إخراج الشافالير من فراشه



لإنقاذ بعض الرهائن. زوروا... ثعلب؟ ... أي ثعلب... ودب الصوت بلمح البصر وأشار أحدهم إلى ديبغو، الذي حياهم بانحناء عميقة وتسلق بقفزة واحدة الحبال باتجاه الأرجوحة. وفي اللحظة التي أعطاه برناردو إشارة سميع وقع حوافر خيول. كان ينتظرهم. دار دورة بالأرجوحة وبقي متدلّياً من قدميه، مترنحاً في الهواء فوق رؤوس الجمهور.

بعد دقائق دخلت مجموعة من الجنود الفرنسيين، بقبعاتهم المائلة خلف ضابط يزار مُهدداً. دبّ الذعر بين الناس الذين راخوا يُحاولون الخروج، اللحظة التي استغلها ديبغو لينزل إلى الأرض، منزلقاً على الحبل. دوت عدة طلقات وحدثت جلبة رهيبة. راح المتفرجون يتزاحمون للخروج متعثّرين بالجنود فهرب ديبغو مثل ابن عرس قبل أن يدركوه، وراح يقطع الحبال التي تشدّ الخيمة بمساعدة برناردو. وسقط القماش على رؤوس الحضور المحاصرين في الداخل، جنوداً وجمهوراً على حدّ سواء. وقد منح الارتباك الشايبين الوقت كي يمتطيا مطيّتيهما وينطلقا باتجاه بيت توماس دي رومو. تجرّد ديبغو وهو على حصانه من الدثار والقبعة والقناع والشارب. قدراً أنّ الجنود سيحتاجون إلى برهة طويلة كي يتخلّصوا من الخيمة فوقهم وينتبهوا إلى أنّ الغجر هربوا، وينظّموا أنفسهم ليلحقوا بهم. كان ديبغو يدرك ان اسم زورو سيكون في اليوم التالي على كل لسان. رمقه برناردو من فوق حصانه بنظرة عتاب بليغة. فالغرور يمكن أن يكلفه ثمناً غالياً، لأنّ الفرنسيين سيبحثون في السماء والأرض عن هذه الشخصية الغامضة. وصلا إلى مقرّهما دون أن يلفتا انتباه أحد، دخلا عبر باب الخدمة وبعدها بقليل كانا يتناولان الشوكولا مع البسكويت برفقة خوليانا وإيزابيل. لم يكونوا يعرفون أنّ مخيم الغجر في تلك اللحظة ذاتها كانت تلتهمه النيران، فقد أضرم الجنود النار بقش أرضية السيرك الذي اشتعل مثل الهشيم ووصل بعد قليل إلى الخيش القديم.

مثل ديفغو ظهيرة اليوم التالي في جناح من أجنحة الكاتدرائية.  
كان ظهور زورو الثاني قد جاب برشلونة كاملة ووصل إلى  
مسامعه. في يوم واحد استطاع البطل الغامض أن يستولي على  
المخيلة الشعبية. وظهر حرف Z محفوراً بالسكين على عدد من  
الجدران، من عمل صبية متحمسين لتقليد زورو. قال ديفغو: «هذا  
ما نحتاجه، يا برناردو، ثعالب كثيرة تلهي الصيادين». كانت  
الكنيسة في تلك الساعة فارغة إلا من سادنين يُبدلان الأزهار في  
المذبح الرئيسي. كانت تسود عتمة وسكون ضريح باردين. فنور  
الشمس القاسي وضجة الشارع لا يصلان إلى هناك. انتظر ديفغو  
جالساً على مقعد، مُحاطاً بتمائيل قديسين، يستنشق رائحة البخور  
المعدنية المميّزة، التي تشرّبتها الجدران. عبر الزجاج الملون كانت  
تنفذ انعكاسات خجولة لألوان تغمر الجو بنور خيالي. ذكره سكون  
اللحظة بأمه. لم يكن يعرف شيئاً عنها، كانت كما لو أنها تبخرت.  
كان يستغرب ألا يذكرها أبوه أو الأب مندوثا في رسائلهما، وأنها  
نفسها لم ترسل له سطرأً واحداً. لكنّه لم يكن قلقاً. كان يعتقد أنه لو  
حدث شيء لأمه لشعر به في عظامه. بعد ساعة وحين أوشك أن  
يغادر مقتنعاً أنّ أحداً لن يأتي إلى الموعد، ظهرت إلى جانبه صورة  
أماليا كأنها شبح. تبادلوا التحية بنظرة دون أن يتلامسا.

- ماذا سيحدث لكم الآن؟ - همس ديفغو.

- سنغيب حتى تهدأ الأمور، إذ سرعان ما سينسوننا - ردت هي.

- أحرقوا المخيم، لم يبق لكم شيء.

- ليس هذا بجديد أبداً، يا ديفغو. نحن أهل روما معتادون على  
فقدان كل شيء، حدث لنا هذا وسيحدث من جديد.

- هل سأراك ثانية، يا أماليا؟

- لا أدري، ليس معي ولا حتى كرة زجاجية - ابتسمت مازة  
بكتفيتها.

أعطاهما ديبغو ما استطاع جمعه في تلك الساعات القليلة: القسم  
الأعظم مما تبقى معه من إرسالية والده وما حصلته ابنتا د رومو  
بعد أن علمتا بما جرى. وبتكليف من خوليانا سلمها صرة ملفوفة  
بمنديل.

- طلبت مني خوليانا أن أسلمك هذه للذكرى - قال ديبغو.

فكّنت أماليا المنديل فوجدت أنه يحتوي على تاج رقيق من  
اللؤلؤ، ذاته الذي رأى ديبغو خوليانا تستعمله عدداً من المرات،  
والذي كان أثمن جواهرها.

- لماذا؟ - سألت المرأة مستغربة.

- أعتقد لأنك أنقذتها من الزواج من مونكادا.

- هذا ليس أكيداً. على كل حال، ربما كان قدرها أن تتزوج  
منه...

- إطلاقاً! الآن صارت خوليانا تعرف أي نوع من الأوغاد هو -  
قاطعها ديبغو.

- القلب متقلب - ردت هي. خبأت الجوهرة في كيس بين طيات  
تنوراتها المتراكبة الفضفاضة. أومات بأصابعها لديبغو مودعة،  
وتراجعت ضائعة في ظلال الكاتدرائية المثلجة. بعد لحظات كانت  
تجري في أزقة الحي باتجاه لاس رامبلاس.

بعد فترة قصيرة من هرب الفجر وقبل عيد الميلاد، وصلت  
رسالة من الأب مندوثا. كان المبعث يكتب له كل ستة أشهر كي يخبره  
عن العائلة والبعثة. كان يحكي مثلاً أن الدلافين عادت إلى الشاطئ،  
ونبيذ تلك الفترة حامض، والجنود ألقوا القبض على البومة البيضاء،  
لأنها انهالت عليهم ضرباً بعضاها دفاعاً عن هندي، لكنهم أخلوا  
سبيلها بعد أن توسط لها ألخاندرو د لايفغا. ومنذ ذلك الوقت،

أضاف، لم يزل الطيبية الشعبية في تلك الفواحي. وكان بأسلوبه الدقيق  
والجدل يُثير عواطف ديفغو أكثر بكثير من الجاندرو دي لايفغا، الذي  
كانت رسائله مواظمة مبهرّة بنصائحها الأخلاقية. كانت لا تختلف إلا  
قليلاً عن النبوة المعتادة التي أسّسها الجاندرو في علاقته مع ابنه،  
ومع ذلك فرسالة الأب مندوثا القصيرة، لم تكن موجهة إلى ديفغو بل  
إلى برناردو وجاءت مختومة بالشمع. كسر برناردو الختم بسكين  
وجلس قرب النافذة ليقرأها. ديفغو، الذي كان يُراقبه على بعد  
خطوات قليلة، رأى أن لونه يتبدل كلما مرّ بعينه على كتابة المبرّ  
الرقيقة. قرأها برناردو مرّتين ثم مرّها إلى ديفغو.

البارحة، الثاني من آب من العام ألف وثمانمئة وثلاثة عشر،  
جاءت لزيارتنا في البعثة فتاة من بنات البلد من قبيلة البومة  
البيضاء. جاءت بابنها معها، وعمره أقل من سنتين بقليل، وهي  
تناديه ببساطة طفل. عرضتُ عليها تعميده كما يجب، ووضّحت لها  
أنه في حال لم تفعل فإنّ روح هذا البريء ستكون في خطر، ذلك أنه  
إذا ما شاء الله أن يأخذه، لن يستطيع أن يذهب إلى السماء وسيبقى  
عالقاً في اليمبوس. رفضت الهندية تعميده. وقالت إنها تنتظر عودة  
الأب كي يختار هو اسمه. كذلك رفضت أن تسمع كلمة المسيح وتنضمّ  
إلى البعثة، حيث ستتعلم هي وابنها بحياة متحضّرة. وقدّمت لي  
الذريعة ذاتها: عندما يعود والد الطفل سيتخذ قراره بهذا الخصوص.  
لم ألح عليها لأنني تعلمت أن أنتظر بصبر أن يأتي الهنود إلى هنا  
بمحض إرادتهم، وإلا كان تحولهم إلى الإيمان الحقيقي مجرد طلاء  
اسم المرأة برق الليل. باركك الرب دائماً وسدد خطاك، يا بُني.

يُعانقك في المسيح ربنا.

القس مندوثا

أعاد ديفغو الرسالة إلى برناردو ولزم الاثنان الصمت، بينما

القليلة: القس  
ملته ابتداءً في ربيع  
عنها صرة ملقونة

- قال ديفغو.

في تاج رقيق من  
عدداً من المرات

بدرها أن تتزوج

من الأوغاد هو.

كيس بين طيات

لديفغو مودعة

لحظات كانت

الميلاد، وملك

أشهر كي يُغزى

ت إلى الشاطئ

البومة البيضاء

نظرتهم

نظرتهم

نظرتهم

راح نور النهار ينطفئ في النافذة. برناردو، الذي كان وجهه معتبراً  
جداً بحكم الحاجة للتواصل، بدا في تلك اللحظة منحوتاً من الغرائب.  
بدأ يعزف مقطوعة حزينة، لائذاً بالناي كيلاً يقدم توضيحات لم  
يطلبها منه ديبغو، لأنه كان يشعر في صدره ذاته بضربات قلب أخيه.  
أنت لحظة انفصالهما. برناردو لم يعد يستطيع العيش كصبي،  
فجذوره تستدعيه، كان يرغب بالعودة إلى كاليفورنيا وتحمل  
مسؤولياته الجديدة. لم يشعر بالراحة قط بعيداً عن أرضه. كان قد  
عاش عدة سنوات بعد الأيام والساعات في مدينة من حجر وشتاءات  
من ثلج، بوفاء فولاذي ربطه بديبغو، لكنه لم يعد يستطيع أكثر، فقد  
راحت الفجوة في صدره تكبر مثل كهف لا يدرك غوره. الحب المطلق  
الذي كان يشعر به تجاه برق الليل صار إلحاحه الآن رهيباً، لأنه لم  
يساوره أدنى شك بأن ذلك الطفل ابنه. قبل ديبغو الصمت بخطاب  
يطفخ من روحه.

- سيكون عليك أن تذهب وحيداً، يا أخي، لأنه بقي لدي عدة  
أشهر كي أخرج من مدرسة العلوم الإنسانية وأريد خلال هذه  
الأشهر أن أقنع خوليانا بأن تتزوج مني. لكنني وقبل أن أصرح لها  
بذلك وأطلب يدها من السيد توماس علي أن أنتظر أن تتعافى من  
خيبة الأمل التي أحدثها رافائيل مونكادا. اعذرني يا أخي،  
فأنا أناني جداً، فليست هذه هي لحظة أن أدوخ رأسك من جديد  
بخيالات الحب، بل أن أتكلم عنك. خلال هذه السنوات الثلاث مرحتُ  
مثل صبي مدلل، بينما أنت مريض حيناً لبرق الليل، دون أن تعلم  
حتى أنها أنجبت لك ولداً. كيف استطعت تحمل كل هذا؟ لا أريدك أن  
تذهب، لكن مكانك في كاليفورنيا، لا شك في ذلك. الآن أفهم ما قاله  
لي والدي وما قلته لي أنت أيضاً، يا برناردو، إن قدرينا مختلفان،  
فأنا ولدتُ وعندي ثروة وامتياز لا تملكه أنت. وهذا ليس عدلاً، لأننا  
أخوان. سيأتي يوم أصير فيه صاحب أملاك لا يبغها عندها سيكون  
باستطاعتي أن أعطيك نصفها، الذي هو لك، وبينما يحدث ذلك  
ساكتب لأبي أن يعطيك ما يكفي من المال كي تستقر مع برق الليل

وابنك حيث تشاء. ليس عليك أن تعيش في البيت الكبير. أعدك أنني ما دمت أستطيع لن ينقص عائلتك شيء مادي أبداً. لا أعرف لماذا أبكي مثل صبي صغير. يبدو لأنني أشتاق إليك سلفاً. ماذا سأفعل من دونك؟ لا أستطيع أن أتصور مدى حاجتي لقوتك وحكمتك، يا برناردو.

تعانق الاثنان، متأثرين في البداية ثم ضاحكين ضحكة مكرمة، لأنهما كانا يتبجحان بأنهما ليسا عاطفيين. لقد انتهت مرحلة من مراحل الشباب.

لم يستطع برناردو أن يغادر فوراً، كما كان يرغب. اضطر أن ينتظر حتى كانون الثاني كي يؤمن فرقاطة تجارية تنقله إلى أمريكا. قليل جداً ما كان معه من النقود، لكنهم قبلوا أن يدفع ثمن رحلته بالعمل بحاراً على متن السفينة. ترك رسالة لدييغو، يوصيه فيها بأن ينتبه من زوروا، ليس من خطر أن يكتشف، بل لأن الشخصية ستنتهي إلى التمكن منه. قال له في الرسالة: «لا تنس أنك دييغو لا بيجا من لحم ودم، بينما هذا زوروا من بنات أفكارك». صعب عليه كثيراً وداع إيزابيل، التي صار يحبها مثل أخت صغيرة، لأنه خاف ألا يعود ويراها، رغم أنها وعدته مئة مرة بأنها ستذهب إلى كاليفورنيا ما إن يسمح لها والدها بذلك.

- سنتقابل من جديد، يا برناردو، حتى ولو لم يتزوج دييغو من خوليانا أبداً. العالم كروي وإذا ما درت حوله سأصل ذات يوم إلى بيتك - أكدت له إيزابيل، ماخطة ومُجففة دموعها بحركة من يديها.

أطل العام 1814 مُفعماً بالأمل بالنسبة إلى الإسبان. لقد ضعف نابليون نتيجة هزائمه في أوروبا ووضع فرنسا الداخلي. أعادت معاهدة فالنساى التاج إلى فيرناندو السابع، الذي استعجل العودة إلى وطنه. في كانون الأول أعطى الشافالير الأوامر لرئيس خدمه

بأن يحزم محتويات قصره الصغير، المهمة غير السهلة أبداً لأنه كان ينتقل بألق أمير. كان يتوقع أنه لم يبق غير القليل لنابليون في الحكم وفي هذه الحالة سيكون مصيره نفسه في خطر، لأنه وبحكم أنه رجل الإمبراطور الموثوق، لن يكون له مستقبل في أية حكومة تحل محله. ولكي لا يُعكّر مزاج ابنته قدّم لها الرحلة على أنها ترقُّ في منصبه: أخيراً ها هم يعودون إلى باريس. لفت أغنيس عنقه بذراعيها مسحورة. كانت قد سئمت الظلمات الإسبانية وأبراج النواقيس الخرساء، الشوارع الميته نتيجة منع التجوّل وخاصة من إلقاء القمامة على عربتها ومعاكستها. كانت تكره الحرب، والحرمان وزهد القطلانيين والإسبان بشكل عام، في الطعام والشراب. وأطلقت العنان لاستعدادات جنونية للسفر. وفي زيارتها إلى بيت خوليانا راحت تُثرثر منفعلة حول الحياة الاجتماعية والتسلّيات في فرنسا. «عليك أن تزوريني في الصيف، أجمل فترة في باريس. سنكون أنا ووالدي قد استقرينا كما يجب. سنعيش قريباً جداً من قصر اللوفر». وبالمناسبة عرضت استضافتها على ديفو، لأنه برأيها لا يستطيع أن يعود إلى كاليفورنيا قبل أن يتعرف على باريس. كل ما هو مهمّ يحدث في تلك المدينة، الموضحة، الفنّ والأفكار، قالت، حتى الثوريون الأمريكيون تشكّلوا في فرنسا. ألم تكن كاليفورنيا مستعمرة إسبانية؟ إذاً يجب العمل على استقلالها. وربما شفي ديفو من تدلّله ووجع رأسه وتحوّل إلى عسكري شهير، مثل ذلك الأمريكي الجنوبي الذي يُسمّونه بالمحرّر، سيمون بوليفار، أو ما شابه ذلك.

خلال ذلك كان الشافالير دوشامب يشارك توماس دي رومو الذي كان أقرب ما يكون للصديق الذي كسبه خلال عدّة سنوات من وجوده في تلك المدينة المعادية، آخر كأس كونياك. وطرح عليه، دون أن يكشف له عن معلومات استراتيجية، الوضع السياسي واقترح عليه أن يستغلّ تلك اللحظة ليذهب في رحلة إلى الخارج مع ابنتيه. فالصغيرتان في العمر المناسب تماماً كي تكتشفا فلورنسا

والبنديقية، وما من أحد يُقدّر الثقافة يستطيع أن يتخلى عن معرفة  
هاتين المدينتين، وردّ توماس بأنه سيفكر بالأمر، ليست فكرة سيئة،  
وربما يقوم بذلك في الصيف.

- أذن الإمبراطورُ بعودة فرناندو السابع إلى إسبانيا. يمكن أن  
يحدث هذا بين لحظة وأخرى. أعتقد أن من المناسب ألا تكونوا هنا  
- ألمح الشافاليير.

- لماذا، يا صاحب السعادة؟ أنت تعلم كم أجلّ التأثير الفرنسي  
في إسبانيا، لكنني أعتقد أن عودة المرغوب ستنتهي حرب العصابات  
المستمرة منذ ستّ سنوات، وستسمح لهذا البلد بأن يُعيد تنظيم نفسه.  
سيكون على فرناندو السابع أن يحكم بدستور 1812 الليبرالي - ردّ  
توماس بـ رومو.

- أمل ذلك، لخير إسبانيا وخيرك، يا صديقي - خلص الآخر.

بعد وقت قصير عاد الشافاليير دو شامب مع ابنته أغنيس إلى  
فرنسا. اعترضت عصابة من آخر رجال حرب العصابات المتبقية،  
المتحمسين قافلة عرباته عند سفح جبال البيرينيه. كان المهاجمون  
حسني المعلومات، يعرفون هوية المسافرين الأنيق، ويعرفون أنه كان  
ظلّ القلعة الرمادي، المسؤول عن عمليات تعذيب وإعدام لا تحصى.  
لم يتمكنوا من الانتقام، كما أرادوا، لأنّ الشافاليير كانت تحميه فرقة  
من الحراس المسلّحين جيّداً، الذين استقبلوهم ببنادق جاهزة.  
الرشقة الأولى تركت عدداً من الإسبان يسبحون في بركة من الدم  
وتكفلت السيوف بالباقي. دام اللقاء أقلّ من عشر دقائق. تفرّق  
بعدها رجال العصابات الناجون، مُخلفين وراءهم عدداً من  
الجرحي، شكّوا بالفولاذ دون رحمة. كان الشافاليير، الذي لم  
يتحرّك من العربية، وبدا ملولاً أكثر منه خائفاً، سينسى المناوشة لو  
لم تجرح رصاصة طائشة أغنيس. مرّت ملامسة وجهها فمزقت  
رجلها وقسماً من أنفها. الدم المريع سوف يُغيّر حياة الفتاة.  
أغلقت على نفسها بيت العائلة الريفي في سان - موريس سنوات



طويلة. وقعت في البداية في الكتابة المطلقة، لأنها فقدت جمالها، لكنها تخلت مع مرور الزمن عن البكاء وبدأت تقرأ شيئاً آخر غير الروايات العاطفية التي كانت تُشارك فيها خوليانا دي روميو. راحت تقرأ كتب مكتبة والدها واحداً فواحداً، ثم طلبت منه غيرها. خلال شتاءات شبابها الموحشة، الذي قطعته تلك الرصاصة المشؤومة، درست الفلسفة والتاريخ والسياسة. بدأت بعدها تكتب باسم رجل مستعار، واليوم بعد سنوات طويلة صارت أعمالها معروفة في مناطق كثيرة من العالم؛ لكن ليست هذه هي حكايتنا. فلنعد إلى إسبانيا والمرحلة التي تهتمنا.

على الرغم من نصائح برناندو، وجد ديبغو نفسه ملفوفاً بحوادث ستحوّله بشكل نهائي إلى زوروا. غادرت القوات الفرنسية إسبانيا، بعضها في السفن وبعضها الآخر بتثاقلٍ برّاء، مثل بهيمة ثقيلة، تحت شتائم وحجارة الشعب. عاد في شهر آذار فرناندو السابع من منفاه الذهبي في فرنسا. عبّر الموكب الملكي مع المرغوب، الحدود في نيسان ودخل البلد عبر قطلونيا. أخيراً تتوج نضال الشعب بطرد الغزاة. كانت الفرحة الوطنية في البداية طافحة وبلا حدود. من النبلاء إلى آخر فلاح، بمن فيهم غالبية المتتورين من أمثال توماس دي روميو، نظروا بسعادة إلى عودة الملك وتجاوزوا عيوبه الرهيبة، التي ظهرت جليّة منذ عمره المبكر. كانوا يفترضون أنّ المنفى قد أنضج هذا الأمير، قليل الأنوار، وأن يكون قد عاد وقد شفي من غيرته وخساساته وشغفه بمؤامرات البلاط. أخطأوا. فقد بقي فرناندو السابع صغير النفس، يرى أعداءً في كل مكان، ويحيط به المنافقون.

بعد شهر أجبر نابليون بوناپرت على التنازل عن عرش فرنسا. خزّ أقوى ملوك أوروبا مهزوماً بتكتل قوى سياسية وعسكرية هائلة. وانضمت البلاد الخاضعة له، مثل إسبانيا، إلى تحالف بروسيا والنمسا وبريطانيا العظمى وروسيا لتدميره. ونفني إلى

جزيرة إلبا، لكنهم سمحوا له بالاحتفاظ بلقب إمبراطور، الذي صار مهزلة الآن. حاول نابليون في اليوم التالي أن ينتحر دون أن ينجح في ذلك.

في إسبانيا تحولت الفرحة بعودة المرغوب إلى عنف بعد أسابيع قليلة. ألقى الملك المستجد، المحاط بالكهنوت الكاثوليكي وبالنبلاء وقوى الجيش والإدارة العامة الأشد محافظاً، دستور 1812 والإصلاحات الليبرالية، معيداً البلد في أشهر قليلة إلى عصر الإقطاع. وأعيدت محاكم التفتيش، وكذلك امتيازات النبلاء والكهنوت والعسكر، وأطلق العنان لملاحقة لا رحمة فيها للمنشقين والمعارضين الليبراليين والمتفرنسين والمتعاونين القدماء مع حكومة خوسيه بونايرت. واعتقل حكام ووزراء وبرلمانيون، واضطرت اثنتا عشر ألف أسرة لاجتياز الحدود باحثة عن ملاذ لها في الخارج، وانتشر القمع بشكل لم يعد يوجد فيه من هو آمن، إذ يكفي شك أو اتهام لا أساس له كي يقبض عليه ويُعدم دون إجراءات.

كانت إيولاليا في قمة مجدها. انتظرت عودة الملك زمناً طويلاً كي تستعيد المكانة التي كانت لها أيام زمان. لم تكن تحب وقاحة الدهماء ولا الفوضى، وتفضل حكم ملك مطلق، حتى ولو كان من النوع الرديء. كان شعارها: «كل في مكانه ومكان لكل واحد». طبعاً كان مكانها في القمة. على العكس من نبلاء آخرين أضاعوا ثروتهم في تلك السنوات الثورية لتمسكهم بالتقاليد. لم تجد هي حياء من اللجوء إلى أساليب برجوازية للثراء. كانت تملك حاشية شم تجارية. كانت أغنى من أي وقت مضى، قوية، لها أصدقاء في بلاط فرناندو السابع، وكانت مستعدة أن ترى القضاء الممنهج على الأفكار الليبرالية، التي شكلت خطراً على قسم كبير مما كان يدعم وجودها. ومع ذلك فشياء من كرم الماضي كان ما يزال مختبئاً في طبقات أنسانيتها الضخمة، لأنها حين رأت كل تلك المعاناة من حولها فتحت خزائنها لتنفذ الجياح دون أن تسألهم إلى أية عصابة سياسية

ينتمون. وهكذا انتهت إلى أن خبأت في بيتها الريفى، وبحثت عن وسيلة لترسل إلى فرنسا أكثر من عائلة من اللاجئين.

ورغم أنه لم يكن بحاجة لفعل ذلك، لأنَّ حالته في جميع الأحوال كانت مزدهرة، دخل رافائيل مونكادا هيئة ضباط الجيش، حيث تضمن له القاب واتصالات حالته ترقيات سريعة. كان إعلانه للجهات الأربع أنه صار باستطاعته أن يخدم إسبانيا في جيش ملكي كاثوليكي وتقليدي، أخيراً يمنحه امتيازات. وكانت خالته معه في الرأي، لأنها كانت ترى أنه حتى أغبي الأغبياء يظهر بمظهر الحسن باللباس الموحد.

عندئذ أدرك توماس د رومو كم كان صديقه الشافليير دوشامب على صواب عندما نصحه بأن يذهب إلى الخارج مع ابنتيه. دعا محاسبه بهدف مراجعة وضع أملاكه واكتشف أن مردودها لا يكفيه كي يعيش بحشمة في بلد آخر. ثم إنه خاف إذا ما انزل في مكان آخر أن تُصادر حكومة فرناندو السابع الأملاك المتبقية له. وصار عليه الآن أن يتشبَّث بأملاكه، بعد أن أظهر طوال عمره احتقاره للمسائل المادية. كان الفقير يُرعبه. لم يهتم كثيراً بالتآكل المضطرد للثروة التي ورثها عن زوجته، لأنه افترض أنه سيكون لديه دائماً ما يكفيه كي يستمر بالعيش بالطريقة التي اعتاد عليها. لم يضع نفسه قط أمام احتمال أن يفقد موقعه الاجتماعي. لم يكن يريد أن يتخيل ابنتيه محرومتين من الرغد الذي تمتعتا به دائماً. قرَّر أن من الأفضل أن يذهب بعيداً، بانتظار أن تمر موجة العنف والملاحقة في عمره رأى أشياء كثيرة، كان يعرف أن الرقاص السياسي سينجأ أجلاً أو عاجلاً إلى الاتجاه المعاكس. كل شيء يتعلق بالتخفي إلى أن يستتب الأمر. لم يكن باستطاعته حتى أن يفكر بالذهاب إلى البيت الأبوي في سانتا في، حيث كان معروفاً ومكروهاً أكثر من اللازم، لكنه تذكر بعض أراضى زوجته المرحومة على طريق ليريدا، التي لم يزرها قط. هذه الملكية التي لم تعد عليه بأي مردود، بل بالمشاكل

فقط، يمكن أن تُشكّل الآن خلاصه. كانت تتألف من هضاب مزروعة  
بالزيتون الهرم، تعيش فيها بعض العائلات الفلاحية الفقيرة  
والمتخلفة جداً، التي مرّ زمن طويل عليها لم ترّ فيه مالكا، حتى  
ظنوا أنه غير موجود. كان في المزرعة بيت كبير مربع، يكاد يكون  
خراباً، بُني حوالي العام 1500، مكعب بشكلٍ مصمت، مطلق مثل قبر  
كمي يحفظ سكانه من أخطار المسلمين والجنود واللصوص، الذين  
خرّبوا المنطقة قرّوناً طويلة، لكنّ توماس رأى أنه دائماً أفضل من  
سجن. يستطيع أن يمكث هناك مع ابنتيه بضعة أشهر. فصل غالبية  
الخدم، أغلق نصف منزله في برشلونة، وترك الباقي على مسؤولية  
رئيس الخدم وشرع بالرحلة في عدد من العربات، لأنّه كان عليه أن  
ينقل الأثاث الضروريّ معه.

حضر ديفغو نزوح العائلة بإحساس سيء، لكنّ توماس دي رومو  
طمأنه بحجّة أنه لم يشغل مناصب في الإدارة البونابرتية وقليلون هم  
الناس الذين يعلمون بعلاقته بالشافاليير، ولذلك ليس هناك  
مايخشاه. «لمرّة واحدة أنا سعيد لأنني لستُ شخصاً مهماً» ابتسم  
مودعاً. لم تكن خوليانا وإيزابيل تملكان فكرة كاملة عن الوضع  
الذي هم فيه وانطلقتا كمن يذهب في إجازة غريبة. لم تُدركا دوافع  
والدهما للذهاب بهما إلى هناك، بعيداً كلّ هذا البعد عن الحضارة،  
لكنهما كانتا معتادتين على الطاعة ولم تطرحا أسئلة. قبل ديفغو  
خوليانا على خديها وهمس في أذنها ألا تقنط، لأنّ الانفصال  
سيكون قصيراً، فردّت عليه بنظرة مرتبكة. ومثل الكثير من الأشياء  
التي كان يُلمح إليها بها ديفغو، بدت لها تلك التلميح غير مفهومة.

لا شيء كان سيُسعد ديفغو مثل أن يرافق العائلة إلى الريف، كما  
طلب منه توماس دي رومو. ففكرة أن يقضي زمناً بعيداً عن العالم  
وبرفقة خوليانا كانت مغوية جداً، لكنّه لم يكن يستطيع أن يبتعد عن  
برشلونة في تلك اللحظات. فأعضاء العدالة مشغولون جداً، وعليهم

أن يُضاعفوا مواردهم لمساعدة جمهور اللاجئين الذين يُحاولون أن يغادروا إسبانيا. كان من الضروري أن يخبطوهم، ويؤمفوا لهم وسيلة النقل ويدخلوهم إلى فرنسا عبر جبال البيرينه أو يرسلوهم إلى بلدان أوروبية أخرى. إنكلترا، التي قاتلت نابليون بعزيمة حتى هُزم، تُساند الآن الملك فرناندو السابع، وباستثناء بعض الحالات لم تُقدّم الحماية لأعداء حكومته. ولم تكن منظمة العدالة، كما وُضِع له المعلم إسكالانتِ قط على وشك أن تنكشف كما في ذلك الوقت. صارت محاكم التفتيش تتمتع بقوة أكبر من السابق، وبتفويض تام للدفاع عن الإيمان بأيّ ثمن، وبما أنّ الخطّ الفاصل بين الملحدين والمعارضين للحكومة كان غامضاً كان يمكن لأيّ شخص أن يقع في براثنها. خلال الأعوام الذي أُلغيت فيها أهمل أعضاء العدالة الإجراءات الأمنية، مُقتنعين بأنّه لا مكان في العالم الحديث للتعصب الديني. اعتقدوا أنّ الأزمنة التي يُحرق فيها الناس بالنار قد وُت للأبد. والآن يدفعون نتيجة تقاؤلهم المفرط. كان ديبغو منخرطاً في مهمات العدالة إلى حدّ أنّه لم يعد يحضر إلى مدرسة العلوم الإنسانية، حيث كانت التربية، كما في البلد كلّه، مراقبة. كثير من أساتذته ورفاقه أوقفوا نتيجة التعبير عن آرائهم. في تلك الأيام نطق رئيس جامعة ثريرا الرهيب الجملة التي تُعرّف بالحياة الجامعية في إسبانيا: «بعيدٌ عنّا هوس التفكير المشوّوم».

أوقفوا في بداية شهر أيلول عضواً من العدالة، تخفى خلال عدة أسابيع في بيت المعلم إسكالانتِ. وكانت محاكم التفتيش، كندراع للكنيسة، تُفضّل ألا تسفك الدماء. وأكثر الأساليب المتبعة في استنطاق الضحايا هي فسخهم بآلة التعذيب المعروفة بالمهر، أو حرقهم بالحديد المحمّي. السجين الشقي اعترف بأسماء الذين أتجدوه وبعدها بقليل اعتقل معلم المبارزة. ومثلك قبل أن يُجزأ إلى عربة الشرطة المشوّومة الوقت الضروري لإخبار خابمه، الذي حمل الخبر السيء إلى ديبغو. استطاع هذا في فجر اليوم التالي أن يبتلع من أنّهم لم يقودوه إلى القلعة، كما كانت العادة مع السجناء

تكنة في حي  
طالبتة،  
الفور  
خيمة الجمعية  
خطير جداً. يمكن  
إطلاقاً أن يحص  
لا تُخطئ، طو  
لديهم معلوما  
نحل الجمعية م  
إسكالانتِ؟  
أجل ومن أجل خير الجميع  
أن يخضروه للتعذيب - تنه  
وضعوا المعلم في تكنة  
إفقاذه... - اقترح ديبغو  
إفقاذه؟ محال!  
سب لكّه ليس محالاً  
معلم بذلك هذه الليلة ذاتها -  
بيرو لي ذلك جنوناً، لكنّه  
علينا أن نُخرج المعلم م  
طبعاً. سيكون هناك زور  
سواء اعتقد أنّ باستطاعتنا  
تعليم المعلم إلى سفينة ستمض  
السنجى منهم

السياسيين، بل إلى ثكنة في حي الميناء، لأنهم كانوا يفكرون بأخذه في اليوم التالي إلى طليطلة، حيث تتمركز بيروقراطية محاكم التفتيش المشؤومة. وعلى الفور اتصل ديبغو بخوليو ثيسر، الرجل الذي تكلم معه في خيمة الجمعية السرية أثناء التدريب.

- هذا شيء خطير جداً. يمكن أن يلقوا القبض علينا جميعاً - قال هذا.

- لن نستطعوا إطلاقاً أن يحملوا المعلم إسكالانت على الاعتراف - عبر ديبغو.

- لديهم طرق لا تخطئ، طوّرت خلال قرون. لقد اعتقلوا عدداً من أتباعنا، صار لديهم معلومات كثيرة. الدائرة تنفلق من حولنا. سيكون علينا أن نحل الجمعية مؤقتاً.

- والسيد مانول إسكالانت؟

- أمل ومن أجل خير الجميع أن يتمكن من وضع نهاية لحياته قبل أن يخضعوه للتعذيب - تنهد خوليو ثيسر.

- وضعوا المعلم في ثكنة حي، وليس في القلعة. علينا أن نحاول إنقاذه... - اقترح ديبغو.

- إنقاذه؟ محال!

- صعب لكنه ليس مُحالاً. أحتاج إلى مساعدة من العدالة. سنقوم بذلك هذه الليلة ذاتها - وشرع يشرح خطته.

- يبدو لي ذلك جنوناً، لكنه يستحق المحاولة. سنساعدكم - قرّر زميله.

- علينا أن نخرج المعلم من المدينة فوراً.

- طبعاً. سيكون هناك زورق مع مجذّف موثوق تماماً ينتظر في الميناء. أعتقد أن باستطاعتنا أن نحتال على الحراسة. المجذّف سيقود المعلم إلى سفينة ستمخر غداً فجراً باتجاه نابولي. سيكون هناك بمنجى منهم.

تنهّد ديبغو مُفكراً أنّه لم يكن قط بمثل تلك الحاجة إلى برناتدو  
كان ذلك الامتحان أكثر جدية من الدخول إلى قصر الشافاليسير  
دوشامب. ليست مهاجمة تكتية بمزاج، وقهر الحراس - لم يكن يعرف  
عدد هم - وتحرير الأسير وحمله سالماً إلى زورق، قيل أن يقع بين  
برائن القانون.

توجّه على حصانه إلى بيت إيولاليا بـ كاليس، التي عكف على  
دراسة طباقها باهتمام في كل مرة زاره. ترك الحصان في الشارع،  
دون أن يرى، تقدّم متخفياً في الحدائق وتوجّه إلى فناء الخدمة،  
حيث كانت تضج حيوانات منزلية بين غرف لذبح الخنازير والطيور،  
وأحواض الغسيل، وقدور غلي الملاحف وأسلاك نشر الغسيل  
للتجفيف. في العمق كانت عنابر العربات وإسطبلات الخيول. وفي  
كل مكان كان يرى الطباخون والخدم والأزلام، كل واحد مشغول  
بشأنه. ما من أحد أولاه نظرة. دخل إلى العنابر متخفياً بين  
العربات، اختار التي تناسبه وانتظر منزوياً فيها، راسماً الصليب  
بأصابعه كيلا يكتشفه أي من خدم الإسطبل. كان يعرف أنهم  
يقرعون في الخامسة جرساً يدعون به الخدم إلى المطبخ، إيولاليا  
نفسها حكّت له ذلك. كانت الساعة التي تُقدّم فيها المرأة المتسلطة  
وجبتها الخفيفة لجيش الخدم: فناجين كبيرة من الشوكولا المزبدة  
وحليب مع الخبز الذي يببل فيه. بعد نصف ساعة سمع ديبغو قرع  
الناقوس وفرغ الفناء بلمح البصر. حملت له النسمة عبق الشوكولا،  
فامتلاً فمه باللعب. فمنذ أن ذهبت عائلة بـ رومو إلى الريف ساء  
الطعام جداً في بيته. ديبغو الواعي إلى أنّه لا يملك غير عشر أو  
خمس عشرة دقيقة نزع شعار السلاح الخاص بها باب العربة  
واستولى على سترتين من سترات خدم الموكب الأنيقة، المعلقة إلى  
مشاجبها. كانت زياً من القطيفة السماوية ذات القبّة والبطانة  
القرمزيّتين والأزرار والشراشيب الذهبية. ومكملاتها من القبّات  
المطرزة والبنطلونات البيضاء، والأحذية السوداء الملقّعة ذات  
الأبازيم الفضية ومآزر البروكار الأحمر على الخصر. ولم يكن كما

كان يقول توماس د رومو، حتى نابليون بونابرت يرتدي ملابس فاخرة مثل خدم إيولاليا. وما إن تأكّد من أنّ الفناء أصبح خالياً حتى خرج بحمله مُتخفياً بين الشجيرات وبحث عن جواده. بعد قليل كان يهبط الشارع.

في منزل توماس د رومو كانت عربة العائلة المُخلّعة، الهشّة والقديمة أكثر من اللازم حتى لأخذها إلى الريف. وبالمقارنة بينها وبين أية عربة من عربات السيّد إيولاليا كانت خراباً. لكنّ ديفغو كان يأخذ بالحسبان أنّه في الليل والسرعة لن يلاحظ أحد مظهرها المهلهل. كان عليه أن ينتظر غياب الشمس ويقيس وقته بدقة، فعلى هذا يعتمد نجاح مهمّته، وتوجّه، بعد أن سمّر الشعار في العربة، إلى ديماس المشروبات الكحولية، الذي كان رئيس الخدم يبقي عليه مقللاً دائماً، وهو عائق تافه بالنسبة إلى ديفغو، الذي تعلم السخرية من أي نوع من أنواع الأقفال. فتح الديماس، أخرج برميل نبيذ وأخذه دحرجة على مرأى من الخدم، الذين لم يوجّهوا إليه أية أسئلة، معتقدين أنّ السيّد توماس د رومو أعطاه المفتاح قبل أن يذهب.

حفظ ديفغو أكثر من أربع سنوات قنينة الشراب المنوم الذي أعطته إليه جدّته البومة البيضاء هديّة وداع واعداء إيّاها ألا يستخدمه إلا لإنقاذ حياة إنسان. هذا هو تماماً المصير الذي أراد له. قبل ذلك بسنوات كثيرة كان القسّ مندوثا قد بتر باستخدام ذلك المشروب ساقاً وصعق هو ديباً. لم يكن يعلم كم هو جبّار هذا المخدر محلولاً في تلك الكميّة من النبيذ، ربّما لن يكون له التأثير الذي كان يتوقّعه، لكن عليه أن يُحاول. سكب محتوى القنينة في البرميل ودحرجه كي يخلطه. بعد قليل جاء اثنان من أعضاء العدالة، اللذان اعتمرا شعر الأزلام الأبيض المستعار وسترات اللباس الموحد في منزل د كاليس ليرافقاه. ارتدى ديفغو ملابس أمير وأفضل سترة قطيفة بنّية داكنة بقمطين من ذهب وفضّة، وقبّة جلدية وربطة عنق من البلاسترون مثبتة بمشبك من اللؤلؤ وبنطلون زبدي اللون وحذاء



غندور بأبازيم ذهبية وقبعة عالية. وهكذا حمله رفيقاه في العربة إلى الثكنة. كان الليل مُطبقاً حين ظهر في الباب، الذي أضاعته الفوانيس بشكل سيء. أمر ديبغو الحارسين بصوت رثان لمن اعتاد أن يأمر، أن يناديا رئيسهما. وكان هذا رقيباً شاباً له نبرة أندلسية قوية، صعقته أنيقة ديبغو الماحقة وشعار السلاح على العربة.

- سعادتها، السيّدة إيولاليا د كاليبس تُرسل إليك برميلاً من أفضل نبيذ ديماساتها كي تشرب النخب مع رجالك هذه الليلة ذاتها. إنه عيد ميلادها. أعلن ديبغو بنبرة فوقية.

- يبدو لي أمراً مستغرباً... - بادر الرجل أن يقول، مُفاجأً.

- مستغرب. لا بد أنك جديد في برشلونة! - قاطعه ديبغو - سعادتها دائماً تُرسل نبيذاً للثكنة في عيد ميلادها، ولها الآن أسبابها، خاصة وقد تحرّر البلد من الطاغية الملحد.

أمر الرقيب مرتبكاً مروّوسيه أن يسحبوا البرميل، بل ودعا ديبغو كي يشرب معهم. لكنّ هذا اعتذر بحجّة أنّ عليه أن يوزع هدايا مشابهة في القلعة.

- بعد قليل سترسل إليكم سعادتها طبيخها المفضّل، كوارع الخنزير باللفت. كم من الأفواه يوجد هنا؟ - سأل ديبغو.

- تسعة عشر فماً.

- طيب. ليلة سعيدة.

- اسمك، من فضلك...

- أنا رافائيل مونكادا، حفيد سعادتها، السيّدة إيولاليا د كاليبس - ردّ ديبغو وأمر، صافقاً باب العربة، الحوزي أن يشرع بالانسحاب.

في الثالثة فجراً، والمدينة غافية وشوارعها خالية، قرّر ديبغو القيام بالمرحلة الثانية من الخطة. قدر أن يكون رجال الثكنة في تلك

الساعة قد شربوا النبيذ، فإن لم يكونوا نائمين، فهم مخبولون. تلك هي ميزته الوحيدة. كان قد بدل ثيابه وارتدى ثياب زور. كان يحمل معه سوطاً ومسدساً وسيفاً حاداً مثل مثل سكين. ولكي لا يلفت الانتباه بصوت حوافر حصانه على البلاط ذهب سيراً على الأقدام، متسللاً بملاصقة الجدران. فوصل إلى أحد الأزقة القريبة من الثكنة، حيث تأكد من أن الحارسين إياهما كانا يتشاءمان تعباً وهما ما يزالان تحت الفانوسين. يبدو أنه لم تُتَحَ لهما الفرصة ليُجرَّبوا النبيذ. في ظل أحد الدهاليز كان ينتظره خوليو ثسر وأعضاء آخرون من العدالة، مموهين بلباس بخارة، كما اتفقوا. أعطاهم ديفغو تعاليمه، التي تضمنت الأمر القاطع بالألا يتدخلوا لمساعدته، مهما حدث. كل واحد يجب أن يكفي ذاته. تمنوا كل للآخر حظاً طيباً باسم الله وتفرقوا.

تظاهر البحاران بمشاجرة سكرانين قرب الثكنة، بينما راح ديفغو ينتظر فرصته، متخفياً في العتمة. لفتت المشاجرة انتباه الحارسين اللذين غادرا برهة قصيرة موقعهما كي يتحققا من سبب المشاجرة. اقتربا من السكرانين المزعومين كي ينبهاهما للابتعاد وإلا فإنهما سيتعرضان للاعتقال، لكن هذين استمرا يوجّهان لبعضهما بعضاً صفعات متلكئة، وكأنهما لم يسمعاهما. تعثرا وتلعثما بحماقات بلغت حد أن الحارسين راحا يضحكان برغبة حقيقية من كل قلبيهما، لكن حين هما بتفريقهما بالضرب، استعاد السكرانان توازنهما بمعجزة وانقضا عليهما. الحارسان اللذان أخذوا بالمباغثة لم يقدرآ على الدفاع عن نفسيهما. صعقاهما في لحظة وأخذاهما من كعبيهما جزاً إلى زقاق مجاور، دون ترو، حيث توجد خوخة معدنية في باب كبير. قرعا ثلاث مرات ففتحت طاقة صغيرة، أعطيا كلمة السر فتحت لهما الباب امرأة ستينية ترتدي السواد. دخلا منحنيين كيلا يطرقا رأسيهما بالعتبة المنخفضة وأدخلا أسيريهما المتخشبين إلى ديماس الفحم. وتركاهما هناك مربوطي الأيدي ومعصوبي العينين، بعد أن نزعا عنهما ملابسهما. ارتديا

اللباس الموحد وعادا إلى باب الثكنة ووقفا تحت الفانوسين. كان  
دييغو قد دخل إلى البناء والمسدس والسيف في يديه.

بدا المكان من الداخل مقفراً، يسوده صمتٌ مقبرة وليس فيه إلا  
قليل من الضوء، لأن نصف المصابيح نفذ زيتها. عبر زوروا خفياً  
مثل شبح - وحده بريق سيفه يشي بوجوده - المدخل. دفع بحذر أحد  
الأبواب وأطل على قاعة السلاح، حيث ولا شك وزعوا محتوى  
البرميل، لأنه كان يوجد ستة رجال يشخرون على الأرض بينهم  
الرقيب. تأكد من أنه ما من أحدٍ منهم مستيقظ، فتش البرميل فوجده  
فارغاً حتى آخر قطرة.

- صخّة، أيها السادة! - هتف بسرور وبحركة لعوب رسم على  
الجدار حرف Z بثلاثة خطوط من سيفه. فورد إلى ذهنه تنبيه  
برناردو له بأن الثعلب سينتهي بالتمكّن منه، لكن الوقت فات.

صادر على الفور الأسلحة النارية والسيوف وكومها في خزائن  
المدخل وتابع على الفور نزهته في المبنى، وهو يُطفئ الفوانيس  
والشموع في طريقه. لقد كانت الظلمة دائماً حليقه الأفضل. وجد  
ثلاثة رجال آخرين هزمهم شراب البومة البيضاء وقدر أنه إذا لم  
يكونوا قد كذبوا عليه بقي هناك قرابة الثمانية. كان يأمل بالعثور  
على زنانات السجناء دون أن يضطرّ لمواجهتهم، لكن أصواتاً  
قريبة وصلته فأدرك أنّ عليه أن يختبئ بسرعة. كان في غرفة  
واسعة تكاد تكون عارية. لم يكن هناك من مكانٍ يتمترس خلفه، كما  
لم يملك وقتاً لإطفاء المشعلين الموجودين على الجدار المقابل، على  
بعد خمس عشرة خطوة منه. نظر حوله فوجد أنّ الشيء الوحيد الذي  
يمكن أن يفيدته هي عوارض السقف الخشبية السميقة العالية أكثر  
من اللازم كي يتمكن من إدراكها بقفزة واحدة. وضع سيفه في غمده  
ومسدسه في الحزام وأفلت سوطه، ولفّ بحركة من معصمه رأس  
السوط حول إحدى العوارض وجذبه ليثبتته وتسلقه بحركتين من  
ذراعيه، كما فعل ذلك مرّات كثيرة على حبال الصواري وسيرك

الفجر. وما أن أصبح في الأعلى حتى لم السوط وانبسط على  
العارضة، مُطمئناً لأن نور المشعلين لم يكن يصل إلى هناك. في هذه  
الأثناء دخل رجلان يتحدثان وبدا بالحكم من حماسهما أنهما لم  
يأخذا حصتهما من التبيذ.

قرّر ديفغو أن يعترضهما قبل أن يصلا إلى قاعة السلاح حيث  
يرقد رفاقهما غارقين في أفضل أحلامهم. انتظر أن يمرا تحت  
العارضة ورمى بنفسه من الأعلى مثل طائر أسود عملاق وانتشر  
نثاره المفتوح مثل مروحة والسوط في يده. تأخر الرجلان اللذان  
شلتها المفاجأة في إخراج سيفيهما من غمديهما، فملك وقتاً كي  
يلوي سيقانهما بضربتين صائبتين من سوطه.

صوت بسوطه محذراً، بينما هو يخرج مسدّسه الذي يضعه في  
حزامه. أطاعه الرجلان دون أن ينبسا ببنت شفة ورفس السيفين  
باتجاه إحدى الزوايا.

- لنرى ما إذا كنتما ستساعدانتي. أعتقد أنكما لا تريدان أن  
تموتا. أين أستطيع أن أحبسكما كيلا تسببا لي مشاكل؟ - سألهما  
ساخراً.

نظر الجنديان إليه مرتبكين، لا يعلمان ماذا كان يقصد. كانا  
فلاحين، فتيين، فظين جندهما الجيش، رأيا في حياتهما القصيرة  
أهوالاً وخرجا من مجازر الحرب وجاعاً كثيراً. لم يكونا مؤهلين  
للتكهن. بسط الثعلب السؤال، مؤكداً على كلماته بفرقة السوط.  
أشار أحدهما، وكان من الخوف بحيث لم يستطع أن يُخرج صوته،  
إلى الباب الذي دخلا منه. اقترح عليهما المقنع أن يتلوا صلاتيهما،  
لأنهما إذا ما خدعاه سيموتان. كان الباب يؤدي إلى ممرٍ طويل  
وفارغ جابوه صفّاً واحداً، الأسيران في الأمام وهو خلفهما. كان  
الممر يتفرّع في نهايته. وهناك إلى اليمين باب مثلوم وإلى اليسار  
آخر أحسن حالاً بقفلٍ يعمل من الجانب الآخر. أمرهما زورو أن

بفتحها الباب الأيمن. ظهر له مرحاض مشير للغثيان، فيه أربع حفر في الأرض مليئة بالبراز وبعض دلاء الماء ومصباح مغطى بالذباب. لم يكن هناك اتصال آخر مع الخارج غير باب صغير بقضبان حديدية.

- تمام! يؤسفني أن الرائحة ليست رائحة غاردينيا. لنرى ما إذا كانوا سينظفونها في المستقبل بشكل أفضل - علق وأشار بحركة من مسدسه للرجلين المذعورين أن يدخلوا.

أوصد زورز الباب من الخارج وسار باتجاه الباب الآخر الذي كان قفله أكثر بساطة، فاستطاع أن يفتحه خلال ثوانٍ قليلة بإبرة فولاذية كان يحملها معه دائماً في درزة جزمته، للقيام بحيك السحرية. فتحه بحكمة وهبط حذراً سلماً بعدة درجات. قدر أنه يقود إلى القبو، الذي لا بد أن الزنازين فيه. في نهاية الدرج ألقى نظرة وهو ملتصق بالجدار. مشعل واحد كان يُضيء دهليزاً بلا تهوية، يحرسه حارس، كان من الواضح أنه أيضاً لم يُجرب النيذ المنوم، لأنه كان يلعب لعبة الورق المفردة متربّعاً على الأرض وبندقيته في متناول يده، لكنه لم يسنح له أن يأخذها، لأن زورز ظهر أمامه بفتة ورفضه على نقنه فرماه على ظهره، ثم أبعد البندقية برفسة أخرى. كانت رائحة النتن في المكان مريعة إلى حد أنه شعر بالرغبة في التراجع، لكنه لم يكن وقت التأنيق. أخذ المشعل وأطل على الزنازين الصغيرة، وهي عبارة عن فجوات موبوءة، رطبة ومليئة بالحشرات، يتكاثرون فيها السجناء في الظلمة. كان في كل زنزانة ثلاثة أو أربعة، عليهم أن يبقوا واقفين أو يجلسوا بالتناوب. بدوا هياكل عظمية بعيون مجنونة. كان الهواء الموبوء يهتز من تنفس أولئك المساكين اللاهث. نادى الشاب المقنع مانول إسكالانت فأجابه صوت من إحدى الزنازين. رفع المشعل ورأى رجلاً ممسكاً بالقضبان، وقد صار وجهه من كثرة الضرب قطعة واحدة مشوهة ومزرقّة، لا تبرز فيها التقاسيم.

- إذا كنت الجراد فأهلاً بك - قال السجين فعرفه عندئذ من عزّة نفسه وثبات صوته.

- جئت أحرّزك، يا مُعلّم، أنا زورز.

- فكرة حسنة جداً! المفاتيح معلقة بالقرب من الباب، وبالمناسبة اعتن في طريقك بالحارس فقد بدأ يصحو... - ردّ مانول إسكالانت هادئاً.

أخذ تلميذه حزمة المفاتيح وفتح القضبان. خرج السجناء الثلاثة، الذين كانوا يتقاسمون الزنزانة، مثل حيوانات، متدافعين ومتعثّرين، بمزيج من الرعب والأمل المثير. سدّد زورز عليهم مسدّسه.

- ليس بهذه السرعة، أيّها الفرسان، عليكم أولاً أن تنجدوا رفاقكم - أمرهم.

كان للمظهر المُهدّد للمسدّس الضخم فضيلة أنّه أعاد إليهم بعضاً من إنسانيّتهم المفقودة. وبينما هم يُعملون المفاتيح والأقفال، حبس ديفغو الحارس في الزنزانة المخلاة واستولى إسكالانت على البندقية. وما إن فُتحت كلّ الزنازين حتى قادا معاً كلّ تلك الأشباح المحزنة بخرقهم وشعورهم الشعثاء، المغطّاة بالدم الجاف والخراء والقيء. صعدوا الدرج وقطعوا الممرّ وعبروا الغرفة الفارغة التي تسلق فيها ديفغو العارضة وتمكّنوا من الوصول إلى مقربة قاعة السلاح حين ظهرت أمامهم مجموعة من الجنود، استنفرهم الضجيج في الزنازين. جاؤوا مستعدّين وسيوفهم في أيديهم. أطلق زورز الطلقة الوحيدة في سلاحه فأصاب أحد الحراس الذي سقط مثل خرقة، وهنا اكتشف إسكالانت أنّ بندقيته غير مُلقمة ولا يملك وقتاً لتهيئتها، أمسكها من سبطانيتها واندفع إلى الأمام مثل إعصار يوزّع الضربات في كلّ اتجاه. جرّد ديفغو حسامه وشرع بدوره بالهجوم. تمكّن من حشر الخصوم لثوان مفسحاً المجال

إسكالانت كي يأخذ أحد السيوف التي انتزعها ديبغو من الرجال  
الذين حبسهم في المرحاض. كانا فيما بينهما يُحدثان من الجلبة  
والضرب أكثر من فصيل. كان ديبغو قد استخدم شيشه يومياً منذ كان  
طفلاً، لكنه لم يُقاتل جدّياً. مبارزته الوحيدة حتى الموت كانت  
بالمسدس وكانت أكثر نظافة بكثير. تأكد من أنه لا يوجد شيء  
مشرّف في القتال الحقيقي، حيث لا مكان للقواعد. القاعدة الوحيدة  
هي النصر مهما كلف الأمر. لم تتصادم النصول في تصميم أنيق كما  
في دروس المبارزة، بل كانت تُسدّد إلى العدو مباشرة كي تخرقه.  
لا وجود للفروسية؛ فالضربات ضارية ولا توفر أحداً. كان  
الإحساس عند دخول السيف في لحم رجل لا يوصف. خالطه  
إحساس من الهيجان الذي لا يرحم والقرف والنصر، فقد الشعور  
بالواقع وتحول إلى بهيمة. صرخات الألم والملابس المصبوغة بدم  
أعدائه جعلته يُقدّر تقنية القتال عند أعضاء العدالة، التي لا تُخطئ في  
دائرة المعلم كما في قتال ملتحم جسداً بجسد. بعدها حين تمكن من  
التفكير عبّر عن امتنانه لأشهر التدريب مع برناردو، حين كان ينتهي  
منهكاً فلا تكاد ساقاه تحملانه. خلال العملية طوّر انعكاسات سريعة  
ورؤية دائرية، وتنبأ بالغريزة ما كان يحدث خلفه. ففي جزء من  
ثانية كان يستطيع أن يُدرك الحركات التلقائية لعدد من الأعداء،  
ويقدّر المسافة، ويقيس السرعة والاتجاه لكل طعنة سيف، يحمي  
نفسه ويهاجم.

أثبت المعلم إسكالانت أنه بفعالية تلميذه على الرغم من العمر  
والضرب المبرّح الذي تعرّض له على يد جلاّديه. لم تكن له رشاقة  
ولا قوّة زورز، لكنّ خبرته وهدوءه عوّضتا النقص وأكثر. في حمة  
المعركة غطى العرق الشاب وأفقده نفسه، بينما كان المعلم يهزّ  
حسامه بالحمية ذاتها وبأناقة أكبر. استطاعا خلال دقائق قليلة أن  
يهزما خصومهما ويُجرّداهم من أسلحتهم أو يجرحاهم. ولم يجرؤ  
السجناء المحرّرون على الاقتراب إلا بعد أن صارت ساحة المعركة  
أمنة. ما من أحد منهم تجرّأ على مساعدة مُخلّصيهما، لكنهم صاروا

الآن أكثر من مستعدين لجزّ الحراس المهزومين باتجاه الزنازين  
التي شغلوها، هم أنفسهم قبل دقائق، حيث حبسوهم بالسباب  
والضرب. عندها استعاد زورز وعيه وألقى نظرة حوله. أغمار من  
الدم على الأرض، دماء متناثرة على الجدران، دم على أجساد  
الجرحي الذين حملوا إلى الزنازين، دم على سيفه، دم في كل مكان.  
- يا أمّ الربّ، يا قديسة! - صاح مذعوراً.

- هيا بنا، لا وقت للتفكير - أشار إليه المعلم إسكالانت.

خرجوا من الثكنة دون مقاومة. الفارّون الآخرون تبعثروا في  
أزقة وعمّة المدينة. سيتمكّن بعضهم من النجاة بالهرب إلى الخارج  
أو بالتخفي لسنوات، لكنّ آخرين سيلقى عليهم القبض من جديد  
وسيخضعون للتعذيب قبل أن يُنفذ فيهم حكم الإعدام كي يعترفوا  
كيف هربوا. لم يستطع هؤلاء الرجال أن يقولوا قط من كان ذلك  
الرجل الجسور المقنّع الذي حرّره، لأنهم لا يعرفونه. فقط سمعوا  
اسمه: زورز، الذي ينطبق على حرف Z المرسوم على جدار قاعة  
السلاح.

إجمالاً انقضت أربعون دقيقة بين اللحظة التي ألهى بها  
سكرانان مزعومان حارسي الثكنة واللحظة التي أنقذ فيها زورز  
معلمه. في الشوارع كان يريّض رجلاً العدالة، وهما ما يزالان في  
لباس الحارسين الموحّد، اللذين أخذوا السجين الفارّ إلى المنفى.  
عندما ودّع ديبغو وإسكالانت بعضهما بعضاً تعانقا لأول وآخر  
مرة.

عند الفجر، وما إن استعاد رجال الثكنة وعيهم من تأثيرات  
المخدّر واستطاعوا أن ينظّموا أنفسهم ويعتقوا بالجرحي حتى كان  
على الرقيب أن يُقدّم لرؤسائه كشفاً بما جرى. الشيء الوحيد الذي  
كان لصالحه هو أنّه ما من أحد من مرؤوسيه قُتل في الاشتباك.  
أخبرهم بأنّ إيولاليا د كاليبس ورافائيل مونكادا كانا حسب علمه



مُتَوَرِّطِينَ فِي الْعَمَلِيَّةِ، لِأَنَّ بَرْمِيلَ النَّبِيذِ الْمَشْوُومِ الَّذِي سَمَّ الْجُنُودَ  
هُمَا أَرْسَلَاهُ.

فِي الْمَسَاءِ ذَاتَهُ حَضَرَ نَقِيبٌ أَمَامَ الْمَشْكُوكِ بِهِمَا يِرَافِقُهُ أَرْبَعَةٌ  
حِرَاسٌ مُسَلَّحِينَ، لَكِنَّ بَتْدُلُّ وَابْتِهَالٌ وَرِعٌ زَائِفٌ عَلَى رَأْسِ لِسَانِهِ.  
اسْتَقْبَلْتَهُ إِيُولَالِيَا وَرَافَائِيلُ كِتَابِعٌ، مَطَالِبِينَ إِيَّاهُ بِالْإِعْتِذَارِ لِتَعْكِيْرِهِ  
صَفْوَهُمَا بِحَمَاقَاتِهِ. أَرْسَلْتَهُ السَّيِّدَةَ إِلَى الْإِسْطِبَلَاتِ كَيْ يَتَأَكَّدَ مِنْ أَنَّ  
شَعَارَ السَّلَاحِ الْخَاصِّ بِهَا قَدْ انْتَزَعَ مِنْ إِحْدَى الْعَرَبِيَّاتِ، الدَّلِيلُ الَّذِي  
لَمْ يَبْدُ لِلنَّقِيبِ كَافِيًا، لَكِنَّهُ لَمْ يَجْرُؤْ عَلَى النُّطْقِ بِهِ. كَانَ مَظْهَرُ رَافَائِيلِ  
مُونِكَادَا بِمَلَابِسِ ضَبَّاطِ الْمَلِكِ الْمُوَحَّدَةِ، مَخِيفًا إِلَى حَدِّ أَنَّهُ لَمْ يَطْلُبْ  
مِنْهُ تَوْضِيحَاتٍ. لَمْ يَكُنْ مُونِكَادَا يَمْلِكُ مَا يُثَبِّتُ بِهِ عَدَمَ وَجُودِهِ فِي  
مَكَانِ الْجَرِيْمَةِ، لَكِنَّ وَضْعَهُ الْاجْتِمَاعِيَّ يَجْعَلُهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى ذَلِكَ.  
وَبِرْفَةِ جَفْنِ كَانَ الشَّخْصَانِ الرَّفِيعَانِ خَارِجَ آيَةِ شَبْهَةٍ.

- الضَّابِطُ الَّذِي سَمِحَ بِأَنَّ يُخَدَّعَ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةَ أَحْمَقُ مَكَّارٍ وَيَجِبُ  
أَنْ يَلْقَى عِقَابَهُ لِيَكُونَ عِبْرَةً لْغَيْرِهِ. أَطَالِبُ بِمَعْرِفَةِ مَاذَا يَعْنِي حَرْفُ Z  
الْمَرْسُومِ عَلَى جِدَارِ التُّكْنَةِ، وَهَوِيَّةِ اللَّصِّ الَّذِي يَتَجَرَّأُ عَلَى اسْتِخْدَامِ  
اسْمِي وَاسْمِ حَفِيدِي فِي أَعْمَالِهِ الشَّرِيرَةِ. هَلْ فَهَمْتُ، أَيُّهَا الضَّابِطُ؟ -  
بَاغْتَتِ إِيُولَالِيَا الْعَسْكَرِيَّ.

- لَا تَشْكِي وَلَا لِلْحِظَّةِ بِأَنَّنا سَنَعْمَلُ كُلَّ مَا بُوَسَعْنَا لِاسْتِجْلَاءِ هَذَا  
الْحَادِثِ الْمَفْجِعِ، يَا صَاحِبَةَ السَّعَادَةِ - أَكَّدْ لَهَا النَّقِيبِ، وَهُوَ يَتَرَاوِجُ  
إِلَى الْخَلْفِ نَحْوِ الْمَخْرُجِ بِانْحِنَاءَاتٍ كَبِيرَةٍ.

فِي تَشْرِينِ الْأَوَّلِ قَرَّرَ رَافَائِيلُ مُونِكَادَا أَنَّهُ قَدْ حَانَ الْوَقْتُ كَيْ  
يَجْعَلَ الْآخَرِينَ يَشْعُرُونَ بِسُلْطَتِهِ فِي مَوَاجِهَةِ خَوْلِيَانَا، طَالَمَا أَنْ  
الدِّبْلُومَاسِيَّةِ وَالصَّبْرَ لَمْ يُجْدِيَا نَفْعًا. قَدْ تَكُونُ شَكَّتُ بِأَنَّ الْهَجُومَ الَّذِي  
تَعَرَّضْتُ إِلَيْهِ فِي الْمَشَارِعِ كَانَ مِنْ صَنْيَعِهِ، لَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَمْلِكُ أَدْلَةً  
وَمَنْ كَانَ بِاسْتِطَاعَتِهِ أَنْ يُقَدِّمَهَا إِلَيْهَا، الْغُجْرُ، وَقَدْ صَارُوا بِعَيْدِينَ

ولا يجرون على العودة إلى برشلونة. وكان من ناحيته قد تحقق  
من أن وضع توماس في رومو الاقتصادي عصي على الحل.  
فالأزمان قد تبدلت وهذه العائلة لم تعد في ظرف يسمح لها بأن  
ترتجى. وضعه هو كان رائعا، ولا ينقصه غير خوليانا كي يمسك  
بزمَام قدره في قبضته. صحيح أنه لم يكن يحظى بموافقة إيولاليا  
في كاليبس كي يخطب الشابة، لكنه قرّر أنه لم يعد في عمر يسمح فيه  
بأن يؤمر من خالته المتسلطة. ومع ذلك حين عزم على زيارة  
توماس في رومو ليعرض عليه خطه، فأعادوا إليه الرسالة لأن هذا  
كان غائبا عن المدينة مع ابنتيه. ولم يعرفوا أين هو، لكنه كان يملك  
وسائله للتحقق من ذلك. بالمصادفة استدعتة إيولاليا كي يُحدّد تاريخ  
تقديم ابنة دوق مدينة سالم له.

- أنا آسف، يا خالتي. مهما يكن هذا الارتباط مناسبا إلا أنني  
لا أستطيع القيام به. كما تعلمين، أنا أحبّ خوليانا في رومو - أعلمها  
رافائيل بكلّ حزم استطاع أن يملكه.

- أبعد هذه الفتاة عن رأسك، يا رافائيل - حدّرتة إيولاليا. لم  
يكن هذا الأمر يوماً شيئاً مهماً وهو اليوم يعادل الانتحار  
الاجتماعي. هل تعتقد أنهم سيستقبلونها في البلاط حين يعلمون أن  
والدها كان متفريساً؟

- أنا مستعدّ لهذه المجازفة. إنها المرأة الوحيدة التي لاقت  
اهتمامي في حياتي.

- حياتك لا تكاد تبدأ. أنت ترغب بها لأنها صدّتك وليس لأي  
سببٍ آخر. لو أنك حصلت عليها لكنت مللتها الآن. أنت بحاجة إلى  
زوجة من مستواك، يا رافائيل، امرأة تساعدك في مسيرتك. ابنة  
في رومو لا تكاد تصلح أن تكون عشيقته لك.

- لا تتكلمي بهذا الشكل عن خوليانا! - صاح رافائيل.

- ولماذا لا؟ أتكلّم كما يحلو لي حقيقة، خاصة حين أكون على  
حق - رنت المرأة المتسلطة - أنت بموهلات ابنة دوق مدينة سالم

دوم الذي علم  
شكوك بهما يرفقه  
زائف على رأس  
إياه بالاعتذار لتكسب  
سبيلات كي يتأكد من  
في العربات، السليل  
كان مظهر رافائيل  
شيفاً إلى حد أنه لم يطر  
بثبت به عدم وجود  
عنه لا يحتاج إلى  
ح أية شبهة.

طريقة أحرق مكار  
عرفة ماذا يعني  
ذي يتجرأ على است  
فهمت، أنها الضاب  
بوسعنا لاستجلاء  
ها النقيب، وهو ي

أنه قد حان الوقت  
خوليانا، ط  
شككت بأن الهج  
لم تكن تظن  
مادراً

وشروتي تستطيع أن تصل بعيداً. منذ موت ابني المسكين، صرت  
أسرتي الوحيدة، لذلك أعاملك كأُم، لكن لصبري حدوداً، يا رافائيل.

- حسب علمي، زوجك المرحوم، بدرو فاجس أيضاً لم يكن  
يملك مؤهلات وألقاباً ومالاً حين عرفته - علق الحفيد.

- الفرق هو أن بدرو كان شجاعاً، وكان لديه سجل خدمة  
ناصح في الجيش، وكان مستعداً لأن يأكل السحالي في العالم الجديد  
مقابل الحصول على ثروة. بينما خوليانا تافهة مُدَلَّة ووالدها ليس  
سيد أحد. إذا كنت تريد أن تُدمر حياتك معها، فلا تعتمد علي إطلاقاً.  
واضح؟

- واضح جداً، يا خالتي، مساء سعيد.

وانحنى مونكادا ضارباً كعباً بكعب، وخرج من القاعة. بدا  
رائعاً في لباسه الموحّد، وشدائهُ اللامع وسيفه وشراشيبه على  
خصره. لم تتبدّل السيّدَة إيولاليا. كانت تعرف الطبيعة البشرية وتثق  
بانتصار الطموح الطافح على أي جنون غرامي. ولم يكن هناك  
ما يجعل من حالة حفيدها استثناءً.

بعد أيام قليلة عادت خوليانا وإيزابيل ونوريا إلى برشلونة  
فجأة في عربة العائلة، دون أي موكب غير جوردي وخادمين.  
ضجّة الحوافر والجلبة في الفناء استنفرتا ديفغو، الذي كان يهجم  
بالخروج. ظهرت النساء الثلاث مغطيات ومموهات بالغبار، يحملن  
خبر أن توماس دي رومو قد اعتقل. فقد حضرت إلى البيت الريفي  
مجموعة من الجنود ودخلوا عابثين، واقتادوه دون أن يفسحواله  
مجالاً حتى يأخذ دثاراً. لم تعرف الفتيات شيئاً آخر غير أنه اتهم  
بالخيانة وسيُنقل إلى القلعة.

حين اعتقل توماس دي رومو تولّت إيزابيل أمور الأسرة، لأن  
خوليانا، التي تكبرها بأربع سنوات، فقدت رشدها. وبنضج لم

نظيره لأحد من قبل أمرت بحزم الأشياء الضرورية وإغلاق الدار.  
وفي أقل من ثلاث ساعات كانت تمضي خابئة مع نوريا وأختها في  
الطريق إلى برشلونة. انتبهت في الطريق إلى أنها لا تملك حليفاً في  
هذا الوضع. والدها الذي لم يؤذ، حسب رأيها، أحداً قط ليس له الآن  
غير الأعداء. ما من أحدٍ كان مستعداً لأن يمدَّ يده المساعدة لضحايا  
ملاحقة الدولة. الشخص الوحيد الذي كان باستطاعتها أن تلجأ إليه  
لم يكن صديقاً، ومع ذلك لم تتردد لحظة في اللجوء إليه. على  
خوليانا أن تركع عند قدمي رافائيل مونكادا، إذا دعت الضرورة، ما  
من ذل لا يُسمح به حين يتعلق الأمر بإنقاذ والدها، كما قالت. وسواء  
أكانت ميلودراما أم لا، فهي على حق. هكذا قبلت خوليانا المسألة  
وبعدها اضطرَّ ديبغو لقبول القرار، لأنه لا يمكن ولا عشرة زوروات  
أن يُنقذوا أحداً من القلعة. كان الحصن منيعاً. فالدخول إلى ثكنة من  
ثكنات الأحياء، يقوم عليها ملازم ثانٍ لم تنبت لحيته بعد لإنقاذ  
إسكالانت، شيء ومواجهة قوات الملك في برشلونة شيء آخر  
مختلف. ومع ذلك فإن فكرة أن تذهب خوليانا وتتصرع إلى مونكادا  
أثارته. أصرَّ على أن يذهب هو نفسه.

- لا تكن ساذجاً، يا ديبغو، الوحيدة التي تستطيع أن تحصل  
على شيء من هذا الرجل هي خوليانا. وأنت ليس عندك ما تقدّمه له  
- رنت إيزابيل دون توسّل.

هي نفسها كتبت رسالة تُعلن فيها زيارة أختها وأرسلتها مع  
أحد الخدم إلى الغندور العنيد، ثم أمرت أختها بأن تستحم وترتدي  
أفضل ملابسها. وأصرّت خوليانا على ألا يُرافقها أحد غير نوريا،  
لأن إيزابيل تفقد صوابها بالسعادة وديبغو لم يكن فرداً من الأسرة.  
ثم أنه هو ومونكادا يكرهان بعضهما بعضاً. بعد ساعات، وعيناها  
ما زالتا مزرقتين من السفر، قرعت خوليانا باب منزل الرجل الذي  
كانت تمقته، متحديةً عرف الحشمة المعمول به منذ قرون. وحدها  
امرأة مربية السمعة تجرّو على زيارة رجل أعزب، حتى ولو حضرت

برفقة قهرمانه صارمة. ورغم أن ريحاً خريفية بدأت تهب فقد ارتدت تحت الدثار الأسود لباساً صيفياً، مكوناً من فستان هفهاف بلون الذرة، وسترة قصيرة مطرزة بالخرديل وقبعة بلون الفستان ذاته، شدت إليها شريطة من الحرير الأخضر، وتوجت بريش نعام أبيض. كانت تبدو عن بعد طائراً غريباً وعن قرب أجمل من أي وقت مضى. انتظرت نوريا في المدخل بينما قاد خادم خوليانا إلى القاعة، حيث كان ينتظرها عاشقها.

رأها رافائيل تدخل طافية مثل حورية ماء في هواء المساء الساكن، وفكر أنه ينتظر تلك اللحظة منذ أربع سنوات، وكانت رغبته في جعلها تدفع ثمن إهانات الماضي على وشك أن تسيطر عليه، لكنه افترض أن عليه ألا يشد الحبل، ولا بد أن تلك الحمامة الرقيقة كانت في آخر حدود مقاومتها. آخر ما كان يتصوره هو أن تملك تلك الحمامة الرقيقة مهارة مساومة تركي في سوق. لا أحد عرف بالضبط كيف تحادثا، لأن خوليانا لم توضح بعد ذلك غير النقاط الأساسية للاتفاق الذي توصلا إليه: هو يحصل على إطلاق حرية سراح توماس دي رومو مقابل أن تتزوج هي منه. ما من إيماءة ولا كلمة زائدة جرحت مشاعر خوليانا. بعد نصف ساعة خرجت من القاعة في غاية الهدوء، يرافقها مونكادا الذي يسندها برقة من ذراعها. أومأت إيماءة حازمة لنوريا واتجهت إلى عربتها، حيث كان جوردي منهدماً يغط في نومه على مقعد الحوذي. ومضت دون أن تلتفت، بنظرة واحدة إلى الرجل الذي وعدته بالزواج.

انتظرت ابنتا دي رومو أكثر من ثلاثة أسابيع نتائج تحركات مونكادا. والخروج الوحيد الذي قامت به كان إلى الكنيسة لتتوسلا إيولاليا، قديسة المدينة، أن ترأف بحالهما وتنجدهما. «ما أسن حاجتنا لبرناردو!» علق إيزابيل أكثر من مرة في تلك الأيام، لأنها كانت مقتنعة بأنه لا بد كان سيتمكن من معرفة الظروف التي كان فيها والدها، بل وسيوصل إليه بعض الرسائل. ما لم يكن من الممكن

برفقة قهرمانة صارمة. ورغم أن ريحاً خريفية بدأت تهب فقد ارتدت تحت الدثار الأسود لباساً صيفياً، مكوّناً من فستان هفهاف بلون الذرة، وسترة قصيرة مطرّزة بالخرندل وقبّعة بلون الفستان ذاته، شدّت إليها شريطة من الحرير الأخضر، وتوجت بريش نعام أبيض. كانت تبدو عن بعد طائراً غريباً وعن قرب أجمل من أي وقت مضى. انتظرت نوريا في المدخل بينما قاد خادم خوليانا إلى القاعة، حيث كان ينتظرها عاشقها.

رأها رافائيل تدخل طافية مثل حورية ماء في هواء المساء الساكن، وفكر أنه ينتظر تلك اللحظة منذ أربع سنوات، وكانت رغبته في جعلها تدفع ثمن إهانات الماضي على وشك أن تسيطر عليه، لكنّه افترض أنّ عليه ألا يشدّ الحبل، ولا بدّ أنّ تلك الحمامة الرقيقة كانت في آخر حدود مقاومتها. آخر ما كان يتصوّره هو أن تمكك تلك الحمامة الرقيقة مهارة مساومة تركي في سوق. لا أحد عرف بالضبط كيف تحادثنا، لأنّ خوليانا لم توضح بعد ذلك غير النقاط الأساسية للاتفاق الذي توصّلا إليه: هو يحصل على إطلاق حرية سراح توماس بـ رومو مقابل أن تتزوّج هي منه. ما من إيماءة ولا كلمة زائدة جرحت مشاعر خوليانا. بعد نصف ساعة خرجت من القاعة في غاية الهدوء، يرافقها مونكادا الذي يسندها برقة من ذراعها. أومأت إيماءة حازمة لنوريا واتجهت إلى عربتها، حيث كان جوردي مُنهكاً يغطّ في نومه على مقعد الحوذي. ومضت دون أن تلتفت بنظرة واحدة إلى الرجل الذي وعدته بالزواج.

انتظرت ابنتا بـ رومو أكثر من ثلاثة أسابيع نتائج تحرّكات مونكادا. والخروج الوحيد الذي قامت به كان إلى الكنيسة لتقوسلا إيولاليا، قديسة المدينة، أن ترأف بحالهما وتنجدهما. «ما أمن حاجتنا لبرناردو!» علقت إيزابيل أكثر من مرّة في تلك الأيام، لأنها كانت مقتنعة بأنّه لا بدّ كان سيتمكّن من معرفة الظروف التي كان فيها والدها، بل وسيوصل إليه بعض الرسائل. ما لم يكن من الممكن

الحصول عليه من أعلى كان برناردو يحصل عليه عادة من خلال ارتباطاته.

- نعم، جيد لو أنه كان معنا، لكنني سعيد لأنه ذهب. فهو أخيراً مع برق الليل، التي دائماً أراد أن يكون معها - أكد لها دييغو.

- هل تلقيت أخباراً منه؟ رسالة؟

- لا، حتى الآن لا، هذا يتأخر.

- إذن كيف عرفت؟

هزّ دييغو كتفيه. لم يكن باستطاعته أن يشرح لها ماهية هذا الذي يسميه البيض بالبريد الهندي. وكان هذا يقوم بينه وبين برناردو دون تعثر، فهما كانا يتواصلان منذ نعومة أظفارهما دون كلمات ولا يوجد ما يمنع من أن يفعل ذلك الآن. لم يكن يفصل بينهما غير البحر، وما يزالان يتواصلان باستمرار، كما كانا يفعلان دائماً.

اشترت نوريا قطعة خيش بنية وبدأت تخط سترات حجاج. كي تُعزّز تأثير القديسة إيولاليا في البلاط السماوي، كما لانت أيضاً بسانتياغو كومبوستيلا. نذرت له إن هم أطلقوا سراح رب عملها أن تذهب والصغيرتان إلى ضريحه سيراً على الأقدام. لم يكن لديها أدنى فكرة عن عدد القراسخ التي عليهن أن تمشيها، لكنها افترضت أنه إذا كان هناك ناس يقومون بذلك من فرنسا فهذا يعني أنها ليست كثيرة.

كانت حال العائلة في غاية السوء. فقد غادر رئيس الخدم، ما إن سمع بتوقيف رب عمله، دون أن يقدم توضيحات، والخدم القليلون الموجودون في البيت كانوا منقلبي الوجوه، ويردون بوقاحة على أي أمر، لأنهم فقدوا الأمل بقبض رواتبهم المتخلفة، وهم إذا كانوا لم يرحلوا فلأنه ليس عندهم مكان يذهبون إليه. ورفض المحاسبون والقائمون على أملاك السيد توماس استقبال ابنتيه حين ذهبتا لتطلبيا مالاً لنفقاتهما اليومية. ولم يكن باستطاعة

دبيغو أن يساعدهما، لأنه كان قد أعطى كل ما ملكه تقريباً إلى  
العجز، وكان ينتظر إرسالية من والده، لكنها لم تصل. في هذه  
الأثناء لجأ إلى اتصالات أكثر دنيوية من اتصالات نوريا كي يتحقق  
من الظروف التي كان فيها السجين. لم يعد باستطاعة منظمة العدالة  
أن تساعده، فأعضاؤها قد تفرقوا. كانت المرة الأولى التي توقف  
فيها الجمعية السرية نشاطاتها خلال قرنين، لأنهم حتى في أسوأ  
لحظات تاريخهم استمروا في عملهم. بعض أعضائها هرب من البلد  
وأخرون تخفوا وسيئوا الحظ وقعوا في براثن محاكم التفتيش، التي  
ما عادت تحرق الموقوفين وتفضل أن تصفيهم بحذر.

استطاع رافائيل مونكادا أن يكلم خوليانا في نهاية تشرين  
الأول. جاء بعلائم مهزوم. اكتشف خلال تلك الأسابيع الثلاثة أن  
سلطته محدودة أكثر من المفترض، هذا ما وضحه. وفي الحقيقة  
قليل ما استطاع فعله في مواجهة روتين الدولة. قام برحلة سريعة  
إلى مدريد كي يقدم التماساً شخصياً للملك، لكن هذا أحاله إلى أمين  
سره، وهو أحد أقوى رجال البلاط فحذره من أن يزعجه بأمر  
تافه. لم يحصل بكلماته المعسولة على شيء من أمين السر، ولم  
يجرؤ على رشوته، لأنه لو أخطأ لكلفه ذلك غالياً جداً. أعلموه أن  
توماس دي رومو وحفنة من الخونة سيعدمون رمياً بالرصاص.  
وأضاف أمين السر قائلاً له ألا يحرق أوراق تفوزه بالدفاع عن سر  
عجوز، لأنه يمكن أن يندم على ذلك. لم يكن من الممكن أن يكون  
التهديد أكثر وضوحاً. وعند عودته إلى برشلونة لم يملك من الوقت  
إلا ما كفاه كي يغتسل ويحضر ليحكى كل هذا للفتاتين، اللتين  
استقبلتاها شاحبتين، لكنهما متماسكتين. ولتطمينهما أكد لهما أنه لا  
يفكر أن يعتبر نفسه مهزوماً، سيستمر يحاول بكل وسائله تخفيف  
العقوبة.

- في جميع الأحوال لن تبقى سيادتكما وحيدتين في هذا العالم.  
يمكنكما دائماً أن تعتمدا على تقديري وحمائتي - أضاف مغموماً.



- سنرى - ردت خوليانا، دون أية دمعة.

حين علم ديبغو بالأخبار المأساوية قرّر أنّه إذا كانت القديسة إيولاليا، غير قادرة على أن تفعل شيئاً لأجلهم، فعليه أن يلجأ إلى سميتها.

- هذه المرأة ذات نفوذ جبّار. تعرف أسرار نصف العالم. إنهم يخافونها. ثمّ إنّ المال يفعل في هذه المدينة أكثر من أيّ شيءٍ آخر. سنذهب نحن الثلاثة للتكلّم معها قال ديبغو.

- إيولاليا ديكاليس لا تعرف أبي، وهي حسب ما يقولون تمقتُ أختي - حدّرتّه إيزابيل، لكنّه لم يكن يستطيع أن يتخلّى عن المحاولة.

بدا التناقض بين هذا القصر الصغير المُكتظّ بالزخارف، كأفخر قصور العصر الذهبي المكسيكي، وبين وقار برشلونة بشكل عام وبيت ديكاليس بشكل خاصّ صادمًا. عبّر ديبغو وخوليانا وإيزابيل قاعة هائلة مرسومة الجدران بالفرسكو، أو مغطاة بالسجاد الفنلندي ولوحات الأسلاف النبيلة ولوحات المعارك الملحمية. وكان هناك خدم يرتدون بدلاتهم في كلّ باب، وخادِمات مثقلات بالمطرزات الهولندية، يعتنين بكلاب التشهواهوا المريعة، ويفرزن بصرهنّ في الأرض عند مرور أيّ شخص من طبقة اجتماعية أعلى. استقبلت إيولاليا زوّارها في عرش القاعة الرئيسيّة ذي المظلة، مزينة كما لعرس وإن كانت دائماً بلباس الحداد الصارم. بدت لبؤة بحر هائلة ملفوفة بطبقات من الشحم برأسها الصغير وعينيها الجميلتين برموشهما الطويلة، والبرّاقتين مثل حبّتي زيتون. إذا كان ما تريده السيدة العجوز هو إرهابهما فقد حققت ذلك تماماً. اختنق الشبان خجلاً في جوف ذلك القصر القطني، فهم لم يجدوا أنفسهم قط في مثل تلك الحالة، فقد ولدوا ليعطوا لا ليطلبوا.

لم يسبق أن رأت إيولاليا خوليانا إلا من بعيد، وكانت تشعر ببعض الفضول لتفحصها عن قرب. لم يكن باستطاعتها أن تُنكر أنّ

الفتاة كانت لطيفة، لكن مظهرها الخارجي لا يُبرّر الحماسة التي كان  
حفيدها مستعداً لارتكابها. تذكرت سنوات شبابه الأسطوري. تحت  
شحومها التي تمنعها الآن من السير، ما تزال ذكرى المرأة التي  
كانت في الماضي، شبق، خيالية، كاملة الطاقة. لسبب ما أحبها  
يدرو فأخس، بوليه لا ينضب وحسده عليها كثير من الرجال. خوليانا  
بالمقابل لها موقف غزاة جريحة. ما الذي كان يراه رافائيل في تلك  
الآنسة النحيلة والشاحبة، التي لا شك ستتصرف كراهبة في الفراش؟  
وخلصت إلى أن الرجال بلهاء جداً. ابنة رومو الأخرى، ما اسمها؟  
بدت لها أهم، لأنها لم تكن تبدو منكمشة خجولة، لكن مظهرها ليس  
فيه الكثير مما يُشتهي، خاصة إذا ما قورنت بخوليانا. وفكرت: سيء  
حظ هذه الفتاة لشهرة جمال أختها. في وضع طبيعي كانت ستقدم  
نبيذ شيرش ومقبلات لزوارها، لا أحد سيستطيع اتهامها بأنها  
شحيحة في الطعام، فمزلها كان مشهوراً بمطبخه الطيب؛ لكنها لم  
تبع أن تجعلهم يشعرون بالراحة، إذ عليها أن تبقى على امتيازها  
للمساومة التي لا شك كانت تنتظرها.

أخذ ديفو الكلمة كي يعرض وضع والد الفتاتين، دون أن  
يحذف أن رافائيل مونكادا كان قد سافر إلى مدريد برغبة التدخل  
لأجله. أصغت إيولاليا بصمت، مراقبة كل واحد منهم بعينها  
النافذتين ومستخلصة استنتاجاتها الخاصة. تكهنت بالاتفاق الذي  
لا بد أن خوليانا أتمته مع حفيدها، ولولا ذلك ما كان أزعج نفسه  
بالمجازفة بسمعته ليدافع عن ليبرالي متهم بالخيانة. هذا التحرك  
الأحمق يمكن أن يكلفه حظوته عند الملك. ومن ناحية سعدت لأن  
رافائيل لم يحقق مبتغاه، لكنها سرعان ما رأت الدموع في عيني  
الفتاتين ورأت قلبها يخونها مرة أخرى. كثيراً ما كان يحدث أن  
عقلها الجيد في التجارة ومشاعرها العامة تتعثر بمشاعرها  
الحقيقية. وكان لذلك ثمنه، لكنها تنفق المال بسعادة، لأن احتدام  
عواطفها المباغت كان آخر ما تبقى من طعم شبابها الضائع. أخيراً  
أخبرتهم السيدة المتسلطة التي تأثرت رغماً عنها أن لديهم فكرة

مبالغ بها عن نفوذها. لم يكن في يدها إنقاذ توماس ب رومو.  
وقالت إنها لاتستطيع عمل شيء لم يستطع حفيدها عمله، باستثناء  
أن ترشو السجّانين كي يُعاملوه باعتبارات خاصّة حتى تحين لحظة  
إعدامه. وعليهم أن يدركوا أن لا مُستقبل لخوليانا وإيزابيل في  
إسبانيا، فهما ابنتا خائن وحين يموت أبوهما ستصبحان ابنتي  
مُجرم وستنقلب كنيتهما عاراً عليهما. فالتأج سيُصادر أملاكهما  
وستصبحان في الشارع بلا وسيلة للعيش في هذا البلد أو في أي بلد  
أوروبي. ماذا سيصير بحالهما؟ سيكون عليهما أن تُطرزا ملاحف  
للعراس أو تعملتا معلّمتين لأولاد الآخرين. صحيح أن باستطاعة  
خوليانا أن تصطاد زوجاً أرعن، بما في ذلك رافائيل مونكادا نفسه،  
لكنها كانت واثقة من أن حفيدها حين تحين ساعة اتخاذ قرار بهذا  
المستوى من الخطورة، فهو ليس أخرق أبداً، سيضع في الميزان  
مستقبله ووضع الاجتماعى. وخوليانا ليست من مستوى رافائيل،  
كما قالت، ثمّ أنّه لا يوجد إزعاج أسوأ من امرأة جميلة أكثر من  
اللازم. ما من رجل يناسبه ذلك، فهي تجلب كل أنواع المشاكل.  
وأضافت إنّ الحسنات اللواتي لا يملكن ثروة مصيرهنّ المسرح  
أو الإعاشة على حساب محسن، كما هو معروف. وهي تتمنى من كل  
قلبها أن تفلت خوليانا من هذا المصير. ومع استمرار السيدة  
المتسلطة في عرض الحالة راحت خوليانا تفقد سيطرتها على  
نفسها، هي التي حاولت أن تحافظ عليها طوال تلك المقابلة المريعة،  
فبطل نهر من الدموع خديها وذقنها. اعتبر ديفغو أنّهم سمعوا ما  
يكفى وأسف لأنّ إيولاليا لم تكن رجلاً، لأنّه كان سيقتلها هناك  
بالذات. أخذ خوليانا وإيزابيل من ذراعيهما ودفعهما نحو الخارج  
دون توديع. ولم يصلوا إلى الباب حتى أوقفهم صوت إيولاليا.

- كما قلت، لا أستطيع أن أفعل شيئاً لتوماس ب رومو لكنني  
أستطيع أن أفعل شيئاً لأجلكما.

عرضت عليهما أن تشتري أملاك العائلة، بدءاً من دار برشلونة

المهلهلة، بسعر جيد وعداً ونقداً، وبذلك يكون بين يدي الفتاتين  
الرأسمال الضروري كي تبدأ حياةً أخرى بعيداً، حيث لا أحد  
يعرفهما. تستطيع أن ترسل محاميهما في اليوم التالي ليراجع  
سنداتهم ويحرر الوثائق الضرورية. وستحصل من قائد برشلونة  
العسكري على السماح لهما بزيارة أبيهما لآخر مرة وأعطائه أوراق  
البيع لنوقعها، الإجراء الذي يجب اتخاذه قبل أن تتدخل السلطات  
لمصادرة الأملاك.

- ما تريدينه هو أن تتخلصي من أختي كيلا تتزوج من رافائيل  
مونكادا! - اتهمتها إيزابيل وهي ترتجف حنقاً.

تلقت إيولاليا الإهانة مثل صفعية. لم تكن معتادة على أن يرفعوا  
صوتهم في وجهها، فمنذ أن توفي زوجها لم يفعل أحد هذا. بقيت  
لحظات لا تستطيع التنفس، لكن السنين علمتها السيطرة على  
طبيعتها الانفجارية وتقدير الحقيقة حين تكون أمام أنفها. عدت  
بصمت للثلاثين قبل أن ترد.

- لستما في وضع يسمح لكما برفض عرضي. العقد بسيط  
وواضح: ما إن تستلما المال حتى ترحلا - ردت.

- حفيدك ابتز أختي ليتزوج منها وأنت تبتزينا الآن كيلا تفعل  
ذلك!

- أرجوك، كفى يا إيزابيل - همست خوليانا، وهي تجفف  
دموعها - لقد اتخذت قراراً. أقبل العرض وأشكر كرمك يا صاحبة  
السعادة. متى نستطيع أن نرى أبانا؟

- سريعاً، أيتها الصغيرتان. سأخبركما حين أحصل على  
المقابلة - قالت إيولاليا راضية.

- غداً في الساعة الحادية عشرة صباحاً نستقبل موكلك. وداعاً  
أيتها السيدة.

أوفت إيولاليا بوعداها بحرفيته. ففي الساعة الحادية عشرة

تماماً من اليوم التالي مثل ثلاثة قانونيين في مسكن توماس بـ رومو  
وراحوا يبحثون في أوراقه، يفرغون محتوى مكتبه، يراجعون  
حساباته غير المنظمة ويعدوا جرداً تقريبياً لممتلكاته. استنتجوا أنه  
لم يكن يملك فقط أقل مما يظهر، بل إنه كان مخنوقاً بالديون. وبذلك  
فإن دخل الصغيرتين لم يكن مناسباً للإبقاء عليهما في المستوى  
الذي كانتا تعرفانه. لكن المحامي كان يحمل تعليمات صارمة من  
سيدة المتسلطة. فإيولاليا حين قدمت عرضها لم تكن تنظر إلى قيمة  
ما فكرت بشرائه، بل فقط إلى ما كانت تحتاجه الشابتان كي تعيشا.  
هذا ما قدمته. ولم يبد لهما كثيراً ولا قليلاً، لأنهما لم تكونا تملكان  
فكرة عن كلفة خبزة واحدة. لم تكونا قادرتين على تصور المبلغ  
الذي كانت السيدة المتسلطة مستعدة لدفعه لهما. أيضاً ديفغو لم يكن  
لديه خبرة في الأمور المالية ولا ما يُساعد به خوليانا وإيزابيل في  
تلك اللحظات. قبلت الأختان المبلغ المُتفق عليه دون أن تعلما أنه  
يساوي ضعف القيمة الحقيقية لأملك أبيهما. وما إن حرر  
المحامون السندات حتى أمنت لهما إيولاليا مقابلته في السجن.

كانت القلعة مخمّساً مربعاً من الحجارة والخشب والملاط،  
صمّمها في العام 1715 مهندس هولندي. كانت قلب السطوة العسكرية  
للملوك البوربونيين في قطلونيا. أسوار عريضة، متوّجة ببرج في كل  
زاوية من زواياها الخمس، تنغلق على مساحتها الواسعة. منها كان  
يسيطر على المدينة كلّها. من أجل بناء الحصن المنيع دمّرت جيوش  
فيليب الخامس أحياء بكاملها، مستشفيات وأديرة وألف منزل  
وقطعوا الغابات المجاورة. كان البناء الثقيل وأسطورته الكثيرة  
تُثقل على برشلونة مثل غيمة سوداء. كانت الحصن الموازي  
للباستيل في فرنسا: رمز القمع. عاشت بين جدرانها جيوش احتلال  
مختلفة ومات في زناناتها آلاف وآلاف السجناء، وكانوا يُعلقون

إلى أبراجها المشنوقين ليكونوا عبرة للسكان. وحسب القول الشعبي  
المأثور، الخروج من الجحيم أسهل من الخروج من القلعة.

قاد جوردي ديفغو وخوليانا وإيزابيل إلى باب المدخل الضخم  
حيث قدّموا ورقة إذن الدخول، الذي حصلت عليه إيولاليا بكاليس.  
اضطرّ الحوذي للانتظار في الخارج ودخل الشبان سيراً على  
أقدامهم يرافقهم أربعة جنود مسلحين بالبنادق والحراب المركبة.  
كان الطريق مشؤوماً. في الخارج كان يسود نهار بارد لكنه بهي،  
سماؤه صافية وهوائه نقي. كانت مياه البحر مرآة فضية وضوء  
الشمس يرسم انعكاسات احتفالية على جدران المدينة البيضاء. بينما  
توقّف الزمن داخل القلعة منذ قرن، والجوّ صار غروباً شتوياً أبدياً.  
كان المشوار، الذي قاموا به بصمت، من بوابة المدخل حتى البناء  
المركزي طويلاً. دخلوا المكان المشؤوم عبر باب جانبي سميك من  
خشب السنديان المدعم بعوارض حديدية وسيقوا عبر ممرات طويلة  
راحت تعيد صدى خطواتهم. كانت تصفر فيه تيارات هوائية وتطفو  
تلك الرائحة الخاصة بالتكنات العسكرية. كانت الرطوبة تدلف من  
السقف، راسمة على الجدران خرائط ضاربة للخضرة. عبروا عدة  
عتبات وفي كلّ مرّة كان ينطلق خلفهم باب ثقيل. مع كلّ صفقة باب  
كانوا يشعرون أنهم يتفصلون عن عالم الأحرار والواقع المعروف  
كي يفامروا في أحشاء بهيمة عملاقة. كانت الفتاتان ترتجفان  
وديفغو لا يستطيع إلا أن يتساءل عما إذا كانوا سيخرجون أحياء من  
ذلك المكان المشؤوم. وصلوا إلى دهليز اضطرّوا أن ينتظروا فيه  
واقفين برهة طويلة يراقبهم الجنود. أخيراً استقبلهم ضابط في قاعة  
صغيرة، فيها طاولة خشنة وعدد من الكراسي تشكّل أثاثها الوحيد.  
ألقي العسكري نظرة سريعة على إذن الدخول كي يتأكد من الخاتم  
والتوقيع، لكنه لا شك لم يكن يعرف القراءة. أعاده دون تعليق. كان  
رجلاً يقارب الأربعين من عمره، وجهه مشدود وشعره برونزي  
وعيناه بلون سماوي غريب، يكاد يكون بنفسجياً. خاطبهم

بالقطلانية كي ينتههم إلى أنهم يملكون خمس عشرة دقيقة للتحدث مع السجين عن بعد ثلاث خطوات منه، لم يكن باستطاعتهم الاقتراب منه. شرح له ديبغو أن على السيد رومو أن يوقع بعض الأوراق ويحتاج إلى وقت لقراءتها.

- من فضلك، أيها السيد الضابط. هذه هي المرة الأخيرة التي سنرى فيها والدنا. أرجوك دعنا نضمه - توصلت خوليانا بإجهاشٍ اخترق صدرها، ساقطة على ركبتها أمام الرجل.

تراجع صاحب اللباس الموحد بمزيج من الانزعاج والهول، بينما ديبغو وإيزابيل يُحاولان أن يُجبرا خوليانا للنهوض على قدميها، لكنها كانت مغروزة في الأرض.

- بالله عليك أن تنهضي، يا آنسة! - هتف العسكري بنبرة حازمة، لكنه سرعان ما لان وشد خوليانا رافعاً إيها إلى الأعلى بنعومة - لستُ عديم إحساس، يا صغيرة. أنا ربّ أسرة أيضاً، عندي عدة أولاد وأدرك كم هي مؤلمة هذه الحالة. حسناً، أمامكم نصف ساعة كي تبقوا على انفراي معه وليطّلع على هذه المستندات.

أمر أحد الجنود أن يذهب ليأتي بالسجين. خلال الدقائق التالية ملكت خوليانا وقتاً كي تتحكّم بعواطفها وتستعدّ للقاء. بعد قليل دخل توماس رومو يرافقه جنديان. جاء طويل اللحية، وسخا، هزياً، لكنه مفكوك القيود. لم يستطع أن يطلق أو يغتسل خلال هذه الأسابيع؛ كانت له رائحة متسوّل وعينا مخبول زائغتان. أضعف نظام غذاء الزنزانة البائس الرجل المنعم وجعل تقاسيمه حادة وأنفه المعقوف يبدو هائلاً في وجهه الممتقع، ووجنتاه اللتان كانتا في السابق متورّدتين صارتا متهدّلتين مثل قربتين تغطيهما اللحية الخفيفة والرمادية. تأخرت ابنتاه دقيقة في التعرف عليه والارتقاء باكيتين بين ذراعيه. انسحب الضابط مع الجنديين. فألم هذه الأسرة من الطراوة والحميمية بحيث ودّ ديبغو لو يصبح غير مرئي. التصق بالجدار ونظرته عالقة بالأرض متشنجاً من المشهد.

- هيا، هيا يا صغيرتاي، لا تبكيا، رجاء. وقتنا قصير وهناك الكثير مما علينا فعله - قال توماس د رومو وهو يُجفّف دموعه بظهر يده - قالوا لي إنّ عليّ أن أوقّع بعض الأوراق...

شرح له ديفغو دون موارد عرض إيولاليا وأعطاه مستندات البيع، راجياً منه أن يوقعها لإنقاذ ممتلكات ابنتيه القليلة.

- هذا ما يؤكّد ما أعرفه. لن أخرج حياً من هنا - زفر السجين.

أبدى له ديفغو أنه حتى ولو وصله عفو الملك فعلى الأسرة في جميع الأحوال أن تذهب إلى الخارج، وهم لا يستطيعون ذلك ما لم يكن المال موجوداً عدّاً ونقداً في الكيس. أخذ توماس د رومو الريشة والمحبرة اللتين أحضرهما ديفغو معه ووقع على نقل كل ممتلكاته من الأراضي إلى اسم إيولاليا د كاليس. وطلب على الفور من ديفغو أن يتكفل بابنتيه ويأخذهما بعيداً عن هذا المكان، حيث لا أحد يعلم أنّ والدهما قد أعدم كمجرّم.

- خلال السنوات التي عرفتُك فيها، يا ديفغو تعلمت أن أثق بك مثل الابن الذي لم أنجبه. إذا بقيت ابنتاي في حمايتك أستطيع أن أموت مطمئناً. خذهما إلى بيتك في كاليفورنيا، وتوسّل إلى صديقي ألكساندرو د لايفغا أن يعتني بهما كما لو كانتا ابنتيه - توسّل.

- عليك ألا تقنط، يا أبي، رجاء. فقد أكد لنا رافائيل مونكادا أنه سيستخدم كل نفوذه كي يحصل على تحريرك - أنت خوليانا.

- لقد حُدّد موعد الإعدام خلال يومين، يا خوليانا. لن يفعل مونكادا شيئاً لمساعدتي، لأنّه هو الذي وشى بي.

- أبي! هل أنت متأكد؟ - صاحت الصبيّة.

- ليس لدي أدلّة، لكنني سمعته من الذين ألقوا القبض عليّ - وضع توماس.

- لكنّ رافائيل ذهب ليطلب لك العفو من الملك!



- لا أصدق هذا، يا صغيرتي. يمكن أن يكون قد ذهب إلى  
مدريد، لكن لأسبابٍ أخرى.

- إذن الذنب ذنبي!

- لستِ مسؤولة عن سوء الغير، يا بُنيتي. لستِ مسؤولة عن  
موتي. شدي حيلك. لا أريد أن أرى مزيداً من الدموع.

كان دي رومو يعتقد أن مونكادا لم يشِ به لأسباب سياسية ولا  
انتقاماً من صدود خوليانا، بقدر ما لحسابات عنده. فبعد موته  
ستبقى ابنتاه بلا حماية وستضطران لأن تلوذا بحماية أول من  
يقدمها لهما. وسيكون هناك ينتظر أن تسقط خوليانا مثل ثرغلة بين  
يديه، وأضاف: لذلك فدور ديبغو في غاية الأهمية في هذه اللحظة.  
كاد الشاب يقول له إن خوليانا لن تقع أبداً بين يدي مونكادا وأنه  
يعبدها وسيركع طالباً يدها زوجةً له، لكنه بلع كلماته. فخوليانا لم  
تمنحه قط مبرراً ليفترض أنها تتجاوب مع حبه. لم تكن تلك اللحظة  
المناسبة لذكر ذلك. ثم إنه كان يشعر كما لو أنه عالة، لا يستطيع أن  
يقدم للصغيرتين أدنى حدود الأمان. شجاعته، سيفه، حبه لا تفيد  
شيئاً في هذه الحال. انتبه إلى أنه من دون دعم ثروة والده، لن  
يستطيع فعل شيء لأجلهما.

- تستطيع أن تكون مطمئناً، يا سيد توماس. سأقدم حياتي  
لأجل ابنتيك. سأسهر دائماً على راحتهما - قال ببساطة.

بعد يومين، وعند الفجر حين كان الضباب يغطي المدينة مثل  
غطاء حميم وغامض، أعدموا في أحد فناءات القلعة أحد عشر  
سجيناً سياسياً متهماً بالتعاون مع الفرنسيين. قبلها بتصرف ساعة  
قدم لهم راهب مسحة الغفران، كي يذهبوا إلى العالم الآخر نظيفين  
من الذنوب، كأنهم مولودون جدد، كما وضح. توماس دي رومو، الذي  
هدر خلال خمسين عاماً ضد الإكليروس وعقيدة الكنيسة، تلقى السر

المقدس مثل بقية المحكومين بل وتناول القربان أيضاً. وعلق  
مازحاً: «ربما، أيها الأب، لا أخسر شيئاً...»، كان قد مرض منذ  
سمع الجنود يصلون إلى بيته الريفى، لكنه كان الآن هادئاً. تلاشى  
كربه في اللحظة التي استطاع أن يودع فيها ابنتيه. نام الليلتين  
التاليتين دون أحلام وقضى النهارين منتعشاً. استسلم للموت القريب  
بسرور لم يملكه في حياته. بدأت تعجبه فكرة أن تنتهي أيامه بطلقة  
بدل أن يموت بالتدريج غارقاً في سيرورة الهرم التي لا مفر منها.  
ربما فكر بابنتيه، المتروكتين لمصيرهما، متمنياً أن يفى ديغور  
لايفاً بكلمته. شعر بهما أبعد عنه من أي وقت مضى. خلال أسابيع  
الأسر تخلص من ذكريات ومشاعر فكسب حرية جديدة: لم يعد هناك  
ما يخسره. عندما كان يفكر بابنتيه لم يكن يستطيع تصور وجهيهما  
أو تمييز صوتيهما، كانتا صغيرتين بلا أم تلعبان بدماهما في  
قاعات منزله المعتمة. قبل يومين، حين زارتاه في السجن ذهل أمام  
تلك المرأتين اللتين حلتا مكان تلكما الطفلتين بجزمتي ومئزري  
وشرائط ذكرياته. يا للهول، كيف يمر الزمن! هكذا تمت عندما  
رأهما. ودعهما دون غم، مندهشاً من لامبالاته نفسه. ستتبر  
خوليانا وإيزابيل حياتيهما من دونه، ما عاد يستطيع حمايتهما. منذ  
تلك اللحظة صار باستطاعته أن يستطعم ساعاته الأخيرة ويراقب  
بفضول طقس إعدامه.

في فجر موته، تلقى توماس دي رومو آخر هدية من إيولاليا  
كأليس، سلّة وافرة الوجبة، وزجاجة من أفضل نبيذ وطبقاً من الأذ  
قطع شوكولا تنويعتها. سمحوا له بأن يطلق ذقنه ويفتسل، تحت  
مراقبة حارس، وسلموه الثياب النظيفة البديلة التي أرسلتها له  
ابنتاه. سار بهياً رابط الجأش إلى مكان الإعدام. وقف أمام العمود  
الملطخ بالدم حيث ربطوه، فلم يسمح لهم بأن يعصبوا عينيه. كان  
على رأس الفصيلة الضابط الذي يشبه أقواس قزح السماوية نفسه  
الذي استقبل خوليانا وإيزابيل في القلعة. كان من نصيبه أن يطلق  
عليه طلقة في صدغه حين تبين له أن النيران مرقت نصف جسده

ومع ذلك بقي حياً. آخر ما رآه المحكوم قبل أن تنفجر طلقة الرحمة في دماغه كان نور الفجر الذهبي في الضباب.

العسكري، الذي لم يكن يذهل بسهولة، لأنه عانى الحرب واعتاد وحشية الثكنة والزنازين، لم يستطع أن ينسى وجه العذراء خوليانا الراكعة أمامه والغارقة في الدموع. خرق قاعدة نفسه القائمة على الفصل بين القيام بالواجب والعواطف، وذهب لينقل لهما الخبر بنفسه. لم يرغب أن تعرف ابنتا سجينه الخبر بطرق أخرى.

- لم يتعذب، أيتها الأنستان - كذب عليهما.

علم رافائيل مونكادا في الوقت نفسه بموت توماس دي رومو وبخدعة إيولاليا لإخراج خوليانا من إسبانيا. المسألة الأولى كانت ضمن خطته، لكن الثانية تسيبت عنده بانفجار من الغضب. ومع ذلك حرص على ألا يصطدم معها، لأنه لم يتراجع عن فكرة الحصول على خوليانا دون أن يخسر الإرث. وكان يأسف لأن حالته تتمتع بصحة جيدة، فهي سليمة عائلة معمرة ولم يكن هناك من أمل في أن تموت قريباً، تاركة إياه ثرياً وحرّاً كي يقرر مصيره بنفسه. كان عليه أن يجعل السيدة المتسلطة تقبل خوليانا بالحسنى، إنه الحل الوحيد. لا يخطر له إطلاقاً أن يفرض عليها زواجه، فهي لن تغفر له أبداً، لكنه اكتشف خطة، قائمة على أن إيولاليا حين كانت زوجة الحاكم في كاليفورنيا، حوّلت محاربة هندية خطيرة إلى غادة مسيحية وإسبانية. لم يخطر له أن هذه الشخصية كانت أم دييفو دي لابغا، لكنه سمع القصة مرّات عديدة من فم إيولاليا نفسها، التي كانت تعاني من رذيلة محاولة مراقبة حياة الآخرين، بل وتتباهى بذلك. فكّر أن يتوسّل إليها أن تقبل ابنتي دي رومو في بلاطها بصفة الحماية، نظراً إلى أنهما فقدتا والدهما وليس لهما عائلة. كان إنقاذهما من العار والتمكن من جعلهما مقبولتين من جديد في المجتمع يُشكل تحدياً مهماً بالنسبة إلى إيولاليا، تماماً كما كان

الأمر بالنسبة إلى تلك الهندية في كاليفورنيا، قبل نيف وعشرين سنة. حين تفتح العجوز قلبها لخوليانا وإيزابيل، كما كانت تفعل في نهاية المطاف مع كل الناس، سيعود ويطرح عليها موضوع الزواج. ومع ذلك إذا لم تُعطِ تلك الخطة المفتعلة نتيجة يبقى الخيار الآخر المقترح من إيولاليا نفسها قائماً، فكلمات خالته ولدت عنده انطباعاً لا يُمحى: يمكن أن تكون خوليانا رومو عشيقته. سينتهي الأمر بالفتاة وقد أصبحت بلا أب يسهر عليها، إلى رعاية حام ما. وما من أحد أفضل منه لهذا الدور. لم تكن فكرة سيئة. وهذا ما سيسمح له أن يكون لديه زوجة ذات مكانة، ربّما تكون ابنه دوق مدينة سالم ذاتها، دون أن يتنازل عن خوليانا. فُكر: كل شيء يمكن أن يتم بتفعل. وظهر في منزل توماس رومو وهذه الفكرة في عقله.

المنزل الذي بدا له دائماً أنه ينحدر باتجاه الفاقة بدا الآن خراباً. خلال أشهر، أي منذ تبدل الوضع السياسي في إسبانيا وتوماس رومو يغرق في همومه وديونه، والبناء اكتسب جو هزيمة وتوسل صاحبه ذاته. كانت الأعشاب قد سطت على الحديقة والنخيل القزم والسراخس يبست في أصصها، وكان هناك روث حصان وقمامة ودجاج وكلاب في الفناء النبيل، وداخل المنزل يسود الغبار والعتمة، لم تُفتح الستائر ولم تُشعل المدخنة منذ شهور. بدت نفحة الخريف الباردة محاصرة في القاعات الموحشة. ما من رئيس خدم خرج لاستقباله فظهرت بدلاً عنه نوريا، باكفهرارها وجفافها الدائمين وقادته إلى المكتبة.

حاولت القهرمانة أن تحل محل رئيس الخدم وعملت الممكن كي تبقى ذلك الشراع الموشك على الغرق طافياً، لكن لا سلطة لها على بقية الخدم. كما أنه لم تكن تفيض عنهم السيولة النقدية، لأنهم خبئوا آخر «مرابطي» للمستقبل، المهر الوحيد الذي سيكون لخوليانا وإيزابيل. كان ديفغو قد حمل سندات دفع إيولاليا رومو كاليس إلى مصرفي هي نفسها نصحته به، وهو رجل ذو نزاهة

مثيرة للجدل، سلمه ما يعادلهما حجارة كريمة ودوبلات ذهبية  
ناصحا إياه أن يخيط على الكنز في القميص الداخلي. ووضع لهم أن  
العبريين أنقذوا ممتلكاتهم بتلك الطريقة خلال قرون من الملاحقة،  
لأنه يمكن نقلها بسهولة ولها القيمة نفسها في كل مكان. لم يكن  
بإستطاعة خوليانا وإيزابيل أن تُصدقا أن هذه الحفنة من البلور  
الصغير الملون تساوي كل ما ملكته عائلتهما.

بينما كان رافائيل مونكادا ينتظر في المكتبة بين الكتب  
المجلدة بالجلد والتي شكّلت عالم توماس دي رومو الخاص، انطلقت  
نوريا لتنادي خوليانا. كانت الشابة في غرفتها، وقد أضناها البكاء  
والصلاة على روح والدها.

- لست مُجبرة على أن تُكلمي عديم الضمير هذا، يا صغيرتي -  
قالت القهرماننة - إذا أردتِ أستطيع أن أقول له أن يذهب إلى  
الجحيم.

- أعطني الفستان الكرزي وساعديني على تسريح شعري،  
يانوريا. لا أريده أن يراني في حداد ولا مهزومة - قرّرت الشابة.  
وبعد لحظات ظهرت في المكتبة مبهرة كما في أفضل أيامها.  
لم يستطع رافائيل أن يرى على ضوء الشموع المتذبذبة عينيها  
المحمرتين من البكاء ولا شحوب الحداد. نهض على قدميه بقفزة  
واحدة وقلبه يقرع بعنف، متبيهاً مرة أخرى التأثير غير المعقول  
الذي لتلك الشابة على حواسه. كان يتوقع أن يراها منهاراً من  
العذاب والمعاناة، لكن ها هي ذا هناك أمامه، على عهدتها من  
الجمال والشموخ والإثارة. وحين تمكّن من إخراج صوته دون  
نخلة أظهر كم تحزنه المأساة المريعة التي طالت العائلة، وكرّر أنه  
لم يترك حجراً لم يرفعه طلباً لمساعدة السيد توماس، لكن كل شيء  
كان عبثاً. كان يعرف، قال مُضيفاً، أن خالته إيولاليا نصحتها بأن  
تخرج مع أختها من إسبانيا، لكنه لا يعتبر ذلك ضرورياً. فقد كان  
واثقاً أن القبضة الحديدية التي يخنق بها فرناندو السابع معارضيه

سرعان ما ستلين. البلد كان مقلساً. والشعب عانى سنواتٍ كثيرةً من العنف وهو الآن يُطالب بالخبز والعمل والسلام. واقترح ألا تستخدم خوليانا وإيزابيل من الآن فصاعداً غير كنية الأم، لأن كنية الأب أصبحت ملطخة بشكل لا رجعة فيه، وأن تتوارى عن الأنظار فترة زمنية معقولة ريثما تخرس الشائعات حول توماس رومو. ربما تستطيعان بعدها الظهور في المجتمع. في هذه الأثناء ستكونان في حمايته.

- ما الذي تقترحه بالضبط، يا سيّد؟ - قالت خوليانا في وضعية دفاعية.

كرّر مونكادا عليها أنّه ما من شيء يجعله أسعد من أن يتخذها زوجة وأنّ عرضه السابق ما زال قائماً، لكن ونظراً للظروف لا بدّ من مراعاة المظاهر لعدّة أشهر. كما أنّ عليهما أن يتفادا معارضة إيولاليا ريكاليس، لكن هذا ليس مشكلة عصيّة على الحل. حين تسنح الفرصة لحالته كي تعرفها بشكل أفضل لا شك ستغيّر رأيها. كان يفترض أنّ خوليانا الآن، بعد أحداثٍ بمثل تلك الخطورة، لا بدّ أنّها فكرت بمستقبلها. ورغم أنّه لا يستحقّها - ما من رجل يستحقّها تماماً - فهو يضع حياته وثروته عند قدميها. فهي بجانبه لن ينقصها شيء أبداً. وإن كان يجب تأجيل الزواج إلا أنّه يستطيع أن يقدم لها ولأختها الرغد والأمان. وعرضه لم يكن مبتذلاً. فهو يرجوها أن تأخذ ذلك بخس النية.

- أنا لا أطلب جواباً فورياً. أدرك تماماً أنّك في حداد، وربما ليست هذه هي اللحظة المناسبة للحديث عن الحب...

- لن نتكلم أبداً عن الحب، يا سيّد مونكادا، لكننا نستطيع أن نتكلم عن صفقات - قاطعته خوليانا - فبسبب وشاية منك فقدت أبي. شعر رافائيل مونكادا بأنّ الدم يصفعه في رأسه فلم يعد يستطيع التنفس.

لا يمكنك أن تتهميني بمثل هذه السفالة! أبوك حفر قبره  
بيده، دون مساعدة من أحد. أغفر لك هذه الإهانة فقط لأنك منفعة  
ويخنتك الأم.

كيف تفكر أن تعوضنا أنا وأختي موت أبينا - أصرت هي  
بفضب ساطع.

كانت نيرتها من الاحتقار بحيث فقد مونكادا تماماً السيطرة  
على زمامه، وقرّر دون لف ولا دوران أن الأمر لم يعد يستحق  
التظاهر بفروسية عبثية غير مجدية. يبدو أنها من تلك النساء  
اللواتي يجب أن أفضل أمام السلطة الذكورية. أمسكها من ذراعيها  
وهزها بعنف وبيّن لها أنها لم تكن في وضع يسمح لها بالمساومة،  
بل بالامتنان. ألا تنتبه إلى أنها يمكن أن تنتهي إلى الشارع أو  
السجن مع أختها، تماماً كما حدث لأبيها الخائن، فالشرطة كانت  
جاهزة ولم يمنع اعتقالهما غير تدخله في الوقت المناسب. لكن هذا  
ما يمكن أن يحدث في أية لحظة، ووحده من يستطيع إنقاذهما من  
العوز والزنزانة. حاولت خوليانا التخلص منه وخلال المشادة تمزق  
كم فستانها، كاشفاً عن كتفها وانقلبت دبابيس الشعر التي تمسك  
بكعكة شعرها، وسقط شعرها الأسود على يدي مونكادا. الرجل الذي  
لم يعد قادراً عن السيطرة على نفسه، قبض على شعر الشابة وشد  
رأسها إلى الخلف وقبّلها تماماً على فمها.

ديغو كان يتجسس على المشهد من الباب المشقوق، وهو يكرّر  
بصمت مثل صلاة، نصيحة المعلم إسكالانت في أوّل دروس  
المبارزة: إياك أن تُقاتل وأنت غاضب. ومع ذلك فحين انكبّ مونكادا  
فوق خوليانا ليقبّلها بالقوة، لم يتمالك نفسه فاندفع إلى المكتبة  
وسيفه في يده، مزمجرأ نعمة.

أفلت مونكادا الشابة، دافعاً إياها باتجاه الجدار وأخرج سيفه.

وتقابل الرجلان منحنيي الركب والسيقان ممشوقان في زاوية قائمة على الجسم، والذراع الأخرى مرفوعة فوق مستوى الكتف للمحافظة على التوازن. وما إن اتخذ ديبغو هذه الوضعية حتى انقشع الغضب وحلّت محله سكينه مُطلقة. تنفّس عميقاً، أفرغ صدره من الهواء وابتسم راضياً. أخيراً صار متحكماً بحميّته، كما كان قد ألح عليه معلّمه إسكالانت. إياك أن تفقد نفسك. سكينه في النفس، وصفاء في الفكر وثبات في الذراع. هذا الشعور البارد الذي كان يسري في ظهره مثل ريح شتوية يجب أن يسبق وطيس المعركة. في هذه الحال كان العقل لا يفكر والجسد يستجيب انعكاسياً. كانت غاية التدريب الصارم في العدالة أن توجّه الغريزة والمهارة حركاته. تقاطع السيفان مرتين أو أكثر، متلامسين، وعلى الفور وجّه مونكادا طعنة عميقة أوقفها مُجمدة. منذ المناورات الأولى استطاع ديبغو أن يقدر نوع الخصم الذي أمامه. كان مونكادا لاعب سيف ممتاز، لكنّه كان أخفّ وأكثر ممارسة منه، فليس عبثاً أنّه جعل من المبارزة شغله الشاغل الرئيسي. وبدل أن يردّ الطعنة بسرعة، تظاهر بالارتباك، متراجعاً حتى صار ظهره على الجدار في وضعية الدفاع. كان يوقف الضربات بجهد مفتعل كالقائظ، لكنّ الحقيقة أنّ الآخر لم يكن عنده مكان يستطيع أن يدخل سيفه فيه.

بعدها، حين ملك ديبغو وقتاً لتقييم ما حدث انتبه إلى أنّه ودون أن يخطّط للأمر، كان يمثّل شخصيتين مختلفتين، حسب الظروف والملابس التي يرتديها. هكذا كان يقلّص دفاعات العدو. كان يعلم أنّ رافائيل مونكادا يحتقره، هو نفسه أخذ ذلك على عاتقه وذلك بالتظاهر في حضوره بغنج الغندور. كان يفعل ذلك للسبب ذاته الذي فعله مع الشافاليير وابنته أغنيس: حذراً.

عندما تبارز بالمسدّس مع مونكادا استطاع هذا أن يقدر شجاعته، لكنّه حاول بكبرياء جريح أن ينسأه. التقيا بعدها عدّة مرّات وفي كلّ مرّة كان ديبغو يُعزّز عنده الفكرة السيئة التي يملكها



عنه، لأنه كان يتكهن بأنه عدو بلا حياة. قرّر أن يواجهه بالدهاء  
أكثر مما بالصلف. في مزرعة والده كانت الثعالب ترقص عادة  
لتجلب الخراف، التي تقترب بفضول لتراقبها وعند أول غفلة  
تلتهمها. راح بتكتيك التظاهر بالبهلول يُضلل ويُشوش مونكادا. حتى  
تلك اللحظة لم يكن يعي وعياً كاملاً شخصيته المزدوجة، ديفغو  
لابغا، الأنيق، المتدلّل، الموسوس من ناحية، والثعلب، النبيه،  
الجريء واللعب من ناحية أخرى. كان يفترض أن طبيعته الحقيقية  
موجودة في نقطة ما بين الإثنتين، لكنّه لا يعرف ماهيتها، ما إذا لم  
تكن أياً من الإثنتين أو الإثنتين معاً. تساءل كيف تراه، مثلاً خوليانا  
وايزابيل، وخلص إليّ أنّه لا يملك أدنى فكرة عن ذلك، ربّما أفرط في  
الحالة المسرحية فولد عندهما انطباعاً بأنّه مُهرج. ومع ذلك لم يكن  
هناك وقت للتفكير بهذه المسائل، لأنّ حياته تعقدت ويحتاج إلى عمل  
فوري. تبنّى فكرة أنّه شخصان وقرّر أن يجعل من ذلك ميزة له.

كان ديفغو يصل بين أثاث المكتبة متظاهراً بالهرب من  
مجمعات مونكادا ومثيراً له بتعليقات ساخرة، بينما تنهمر الضربات  
ويلمع السيفان. تمكّن من إغاضته. فقد مونكادا برودة دمه، التي كان  
يتباهى بها وبدأ يلهث. راح العرق يتصبّب من جبينه ويغميه. قدّر  
ديفغو أنّه أصبح طوع يمينه. مثل الثيران في حلبة المصارعة عليه  
أن يتعبه أولاً.

- حذار، يا صاحب السعادة، فقد تجرح أحداً بسيفك! - صاح  
ديفغو.

في هذه الأثناء كانت خوليانا قد هدأت قليلاً وبدأت تصيح  
بأعلى صوتها أن يُلقيا سلاحيهما، حباً بالله واحتراماً لذكرى  
والدها. طعن ديفغو طعنيتين أخريين أو أكثر وترك على الفور  
سلاحه ورفع يديه فوق رأسه، طالباً الرحمة. كانت مُجازفة، لكنّه  
قدّر أن مونكادا سيكون حذراً من قتل رجلٍ أعزل على مرأى من  
خوليانا، لكنّ عدوه انقضّ عليه بصرخة انتصار واندفعاً بكل جسده.

تفادي ديفغو شفرة السلاح التي لامست وركه وادرك النافذة  
بقفرتين ليلوذ خلف ستارة المخمل السميقة، المتدلّية حتى الأرض.  
اخترق سيف مونكادا القماش، مُطلقاً سحابة من الغبار وعلق السيف  
واضطرّ الرجل أن يجهد في تخليصه. منح هذا ديفغو ثوان كي يقذف  
بالستارة في وجهه ويقفز فوق طاولة المَعْنَة. أخذ مُجلداً ضخماً  
ورماه به فأصابه على صدره فكاد مونكادا أن يفقد رجله، لكنّه  
سرعان ما انتصب وهجم من جديد. تفادي ديفغو ضربتين ورماه  
بعدي آخر من الكتب، ثم رمى بنفسه على الأرض وانسل تحت  
الطاولة.

- الرحمة، الرحمة! لا أريد أن أموت مثل فرّوج! - أن بنبرة بادية  
السخرية متقوقعاً تحت الطاولة وكتاب آخر في يديه، مثل ترس كي  
يتفادي طعنات خصمه العمياء.

بجانب الكرسي كان العكاز ذو المقبض العاجي الذي يتكى عليه  
توماس دي رومو عندما كان يُصاب بداء الثنقطة، فاستخدمه ديفغو كي  
يمسك برسغ مونكادا، فنله بقوة فسقط هذا جالساً على الأرض، لكنّه  
كان في حالة بدنية جيّدة، فنهض على قدميه في ثانية، هاجماً من  
جديد. كانت إيزابيل ونوريا قد هرعتا على صرخات خوليانا. كفى  
إيزابيل نظرة سريعة لتنتبه إلى الوضع، واعتقاداً منها بأن ديفغو  
على وشك أن يذهب لينتهي في المقبرة أخذت سيفه، الذي كان قد  
طار إلى الطرف الآخر من الغرفة وواجهت مونكادا دون تردّد. كانت  
المرة الأولى التي تختبر فيها مهارتها التي أحرزتها خلال سنوات  
تدريبها الأربع على المبارزة أمام المراة.

- هيا - تحدّته، غاضبة.

غريزيّاً وجّه إليها رافائيل مونكادا طعنة، واثقاً من أنه سينزع  
سلاحها بضربة واحدة، لكنّه وجد نفسه أمام مقاومة حازمة. عندها  
انتفض، منتبهاً، على الرغم من الغضب الذي استوحشّه، إلى الجنون  
الذي يعنيه أن يقاتل طفلة، خاصّة إذا كانت أخت الفتاة التي كان

يُحاول استمالتها. رمى سلاحه، الذي سقط دون صوت على السجادة.

- هل تُفكرين بقتلي بدم بارد، يا إيزابيل؟ - سألها ساخراً.

- خذ سيفك، أيها الجبان!

وكجواب قاطع تكتف مبتسماً بازديراء.

- إيزابيل! ماذا تفعلين؟ - تدخلت خوليانا مذعورةً.

تجاهلتها أختها. وضعت رأس السيف تحت ذقن رافائيل مونكادا، لكنها لم تعرف ماذا تفعل بعدها. مهزلة الحالة انكشفت أمامها بكل حجمها.

- غرزه في حلقوم هذا الفارس، كما يستحق دون شك، سيقلب بعض المشاكل القانونية، يا إيزابيل. لا يمكن أن يمضي الإنسان في هذه الحياة وهو يقتل الناس. لكن لا بد أن نفعل به شيئاً... - تدخل ديبغو، مُخرجاً منديله من جيبه وناقضاً إياه في الهواء قبل أن يُجفّف به جبينه بحركة تأثر.

كانت هذه الثواني كافية كي يمسك رافائيل ذراع إيزابيل ويفتله ويجبرها على إفلات السيف. دفعها بقوة فذهبت الفتاة بعيداً لترطم برأسها على الطاولة. سقطت على الأرض زائغة قليلاً، بينما أخذ مونكادا سلاحها ليواجه ديبغو، الذي تراجع بكل سرعة وتفادي عدّة طعنات من عدوّه، وبحث عن طريقة يُجرّده بها من سلاحه ليلتحم معه جسداً بجسد. انتعشت إيزابيل بسرعة وأمسكت بسيف مونكادا ورمته به بصرخة استنفار إلى ديبغو، الذي تكمن من التقاطه في الهواء. شعر وقد صار مسلحاً بأنه آمن واستعاد جوّ السخرية الذي طالما أفقد خصمه صوابه قبل دقائق. وبحركة سريعة جرحه جرحاً خفيفاً في ذراعه الأيسر، لا يكاد يكون خدشاً، لكن تماماً في المكان الذي أصابه فيه بطلقة المبارزة. أطلق مونكادا صرخة زهول وألم.

- الآن نحن متساويان - قال ديبغو ونزع سلاحه بطعنة مقلوبة.

ومع ذلك كان تحت رحمته. يسند بيده اليمنى الذراع المجروحة من فوق مزق السترة التي تلطخت بخيط من الدم. امتقع لونه حنقاً أكثر مما خوفاً. وضع ديفغو السيف في صدره كما لو أنه سيخترقه، لكنه ابتسم بلطف.

- للمرة الثانية يسعدني أن أغفر لك حياتك، يا سيّد مونكادا. الأولى كانت أثناء مبارزتنا الخالدة. أمل ألا تصبح هذه عادة عندك. قال خافضاً سيفه.

لم يحتاجا إلى أن يتجادلا كثيراً. فديفغو كما ابتنا دي رومو كانوا يعرفون أنّ تهديد مونكادا كان صحيحاً، وأن أعوان الملك يمكن أن يظهروا في المنزل بين لحظة وأخرى. كانوا قد استعدوا لهذا الحدث منذ أن اشترت إيولاليا أملاك العائلة وأعدّم توماس دي رومو، لكنهم اعتقدوا أنّ بمقدورهم أن يذهبوا من الباب العريض، بدل أن يخرجوا هاربين كالأشرار. استغرقوا نصف ساعة تماماً كي يذهبوا بما عليهم إضافة إلى الذهب والحجارة الكريمة التي وكما نصحهم المصرفي خاطوا عليها في المآزر وربطوها حول خصورهم، تحت الثياب. خطر لنوريا أن تحبس مونكادا في غرفة المكتبة الخفية. أخرجت كتاباً من مكانه وشدت الرافعة فدارت الرفوف ببطء حول نفسها، كاشفة عن مدخل غرفة مجاورة، كانت خوليانا وإيزابيل تجهلان وجودها تماماً.

- كان لدى أبيكما بعض الأسرار، لكن ما من سرّ منها لا أعرفه. قالت نوريا على سبيل التوضيح.

كان الأمر يتعلّق بحجرة صغيرة بلا نوافذ ولا منفذ إلى الخارج غير تلك المخرج المموّه بالرفوف. عندما أشعلوا مصباحاً اكتشفوا في داخلها صناديق كونيّاك، وعلب سيجار صاحب البيت المفضل، ورفوفاً بمزيد من الكتب وبعض اللوحات الغريبة المعلقة على

الجدران. عندما اقتربوا منها تبينوا أنها سلسلة من ستة رسومات  
بالخبر الأسود تمثل أفزع مشاهد الحرب، تقطيع أجساد، عمليات  
انقصاب، وحتى أكل لحوم بشر، لم يبيح توماس دي رومو أن تراها  
ابتداءً.

- يا له من شيء يقشعر له البدن! - صاحت خوليانا.

- إنها من صنع المعلم غويا! هذه قيمتها عالية، نستطيع أن

نبيعها - قالت إيزابيل.

- ليست لنا. كل ما يحتويه هذا المنزل الآن للسيدة إيولاليا

ديكليس - نكرتها أختها.

كانت الكتب في عدة لغات وجميعها على لائحة الكنيسة أو  
القائمة السوداء. أخذ ديبغو مجلداً وكان بالمصادفة التاريخ  
المصور لمحاكم التفتيش، مع صور توضيحية واقعية حول طرقهم  
في التعذيب. أغلقه فجأة، قبل أن تراه إيزابيل، التي أطلقت بأنفها من  
فوق كتفه. كما كان هناك قسم مخصص للإيروسية، لكن ليس لديه  
وقت ليتفحصه. كانت الحجرة المصممة المكان المثالي لترك رافائيل  
مونكادا مسجوناً.

- هل جننتم؟ سأموت هنا خمصاً أو خنقاً من نقص الهواء! -

صاح هذا حين أدرك نواياهم الشريرة.

- سعادته على حق، يا نوريا. ففارس بمقام مثل مقامه  
لا يستطيع أن يعيش على الكحول والتبغ وحدهما. هات له من المطبخ  
خنزيراً مقدداً كيلا يجوع، ومنشفة لذراعه - قال ديبغو، دافعاً  
بفريمه إلى الحجرة.

- وكيف سأخرج من هنا؟ - أن الأسير مذعوراً.

- بالتأكيد هناك آلية سرية في الحجرة لفتح الباب من الداخل.  
سيكون عندك فائض من الوقت كي تكتشفها. بمهارتك وحظك  
ستخرج طليقاً برفقة جفن - ابتسم ديبغو.

- سنترك لك مصباحاً، يا مونكادا، لكنني لا أنصحك بإشعاله،  
فهو سيستهلك كل الهواء. هيا يا ديبغو، كم تُقدّر الوقت الذي يستطيع  
أن يعيشه شخص هنا؟ - أضافت إيزابيل، متحمسة للمشروع.

- عدّة أيام. ما يكفي كي يمعن النظر بعمق في المثل الحكيم  
القائل بأن الغاية لا تبرّر الوسيلة - ردّ ديبغو.

تركوا رافائيل مونكادا مزوداً بالماء والخبز ولحم الخنزير  
المُقَدّد، بعد أن نظّفت نوريا الجرح في ذراعه وضمّده له. وقالت  
إيزابيل: للأسف أنّه لن يُصْفَى دمه بسبب هذا الجرح الطفيف.  
نصحوه ألا يضيّع الهواء والجهد بالصراخ، لأنّ أحداً لن يسمعه،  
فالخدم الباقون لن يقتربوا من هذه الناحية. كلمات السجين الأخيرة  
قبل أن يدور الرفوف ويُغلق مدخل الحجرة، مفرقين إيّاه في الصمت  
والظلمة كانت أنّهم سيعرفون من هو رافائيل مونكادا، وأنّهم  
سيندمون لأنّهم لم يقتلوه، وأنّه سيخرج من هذا الجحر وسيعثّر على  
خوليانا عاجلاً أو آجلاً، حتى ولو لاحقها إلى الجحيم ذاته.

- ليس من الضروري الذهاب بعيداً إلى هذا الحدّ، سنذهب إلى  
كاليفورنيا - ودّعه ديبغو.

يوسفني أن أقول لكم إنني لا أستطيع الاستمرار في الكتابة، لأنّ  
ريش الإوز انتهى عندي وهو الذي أستخدمه دائماً، لكنني طلبتُ  
المزيد منه وسرعان ما سأستطيع إنهاء هذه القصة. لا أحب ريش  
الطيور العادية، لأنّه يلطّخ الورق ويُقلّل من أناقة النص. سمعت أنّ  
هناك بعض المخترعين الذين يحلمون بإبداع جهاز آلي للكتابة،  
لكنني واثقة من أنّ اختراعاً خيالياً من هذا النوع لن يزدهر أبداً.  
هناك عمليات لا يمكن إنجازها بالآلات الكاتبة، لأنّها تحتاج حناناً  
والكتابة واحدة منها.

أخشى أن تكون هذه الرواية قد طالت، على الرغم من الكثير

الذي حذفته منها. في حياة زورو، كما في كل حياة، هناك لحظات متألقة وأخرى مكفهرة، لكن بين الطرفين مناطق كثيرة محايدة. لا بد أنكم لاحظتم، مثلاً، أن ما حدث لبطلنا ويستحق الذكر في العام 1813 قليل. فقد تفرغ لأمواره دون عناء ولا عز ولم يتقدم كثيراً في موضوع استحوازه على خوليانا. كان لا بد أن يعود رافائيل مونكادا من أوديسا شوكولاه كي تستعيد هذه القصة بعض الرشاقة. وكما قلت سابقاً، فإن الأوغاد، الكريهين في الحياة الواقعية لا غنى عنهم بالنتيجة في العمل الروائي، وهذه الصفحات هي كذلك. أردت في البداية أن أكتب تاريخاً أو سيرة، لكنني لا أتمكن من رواية أسطورة زورو دون الوقوع في جنس الرواية المقل من شأنه. بين كل مغامرة وأخرى من مغامراته هناك مراحل لا قيمة لها، حذفتها كيلا أقتل قرائي المحتملين بالضجر. والسبب نفسه، فقد زينت الفصول الجديدة بالذكر واستخدمت بسخاء نعوتاً وأضفت تشويقات لمآثره، على الرغم من أنني لم أبالغ كثيراً بفضائله الجديدة بالمديح. هذا ما يُسمى مجازاً أدبياً، وحسب ما أفهم، هو أكثر شرعية من الكذب المحض.

على أي حال، يا أصدقائي، ما زال في محبرتي ما يكفي. في الصفحات التالية، التي أقدر أنها لن تكون أقل من مئة، سأروي رحلة زورو مع الصغيرتين روميو ونوريا عبر نصف العالم والأخطار التي تعرّضوا إليها في إتمام قدرهم. أستطيع أن أستبق دون خوف من تدمير النهاية، إنهم اجتازوه سالمين وبعضهم وصل حتى أعالي كاليفورنيا، حيث لن يكون للأسف كل شيء عسلاً وزبدة. في الحقيقة الآن بدأت ملحمة زورو الحقيقية، التي منحته شكلاً في العالم كله. بمعنى أنني أرجوكم قليلاً من الصبر.

القسم الرابع

إسبانيا نهاية عام 1814

بداية عام 1815



حصلت على ريش إوز كي أتابع مع شباب زورو. تأخرت شهراً  
في الوصول من المكسيك، وخلال ذلك أضعت إيقاع الكتابة. لنرى ما  
إننا كنّا سأسعيده. تركنا ديبغو د لايفغا هارباً من رافائيل مونكادا  
مع الصغيرتين د رومو ونوريا في إسبانيا التي شجها القمع  
السياسي والفاقة والعنف. وجدت شخصياتنا نفسها على مفترق  
طرق صعب. لكن زورو الغندور لم يجافه النوم بسبب المخاطر  
الخارجية، بل بسبب ارتياح قلبه المنهك. فالعشق حالة عادة ما  
تنشئ على عقل الرجال، لكنه ليس خطيراً، إذ أنه بشكل عام ما أن  
يلقى تجاوباً حتى يستعيد تعقله ويبدأ يشمّ الهواء بحثاً عن فرائس  
جديدة. كراوية لهذه القصّة، سيكون أمامي بعض المشاكل مع النهاية  
الكلاسيكية: «تزوجا وكانا سعيدين». على كل حال من الأفضل لنا أن  
نعود ونمسك بزمام الكتابة، قبل أن أصاب بالاكْتئاب.

بعد أن أغلقوا الباب المموّه برفوف المكتبة، بقي رافائيل  
مونكادا معزولاً في الحجرة السريّة. صرخات النجدة لم تصل إلى  
الخارج، لأنّ الجدران السميكة والكتب والستائر والسجاجيد امتصّت  
الصوت.

- سنخرج من هنا ما إن يحل الظلام - قال ديبغو د لايفغا  
لخوليانا وإيزابيل ونوريا - سنحمل معنا الحد الأدنى مما لا غنى لنا  
عنه للسفر، تماماً كما اتفقنا.

- هل أنت واثق من أنه توجد آلية لفتح باب الحجرة من الداخل؟  
- سألت خوليانا.

- لا.

- هذه المزحة تجاوزت حدّها، يا ديبغو. فنحن لا نستطيع أن نتحمّل موت رافائيل مونكادا، وأقل من ذلك موته موتاً بطيئاً وفضيئاً في قبر مُطبّق.

- لكن انظري ما ألحقه بنا! - صاحت إيزابيل.

- لن ندفع له بالعملة نفسها، لأننا أشخاص أفضل منه - ردت أختها جازمةً.

- لا تنشغلي، يا خوليانا، فعاشقك لن يموت اختناقاً هذه المرّة - ضحك ديبغو.

- ولماذا لا؟ - قاطعته إيزابيل، خائبةً.

لكزها ديبغو وشرع يشرح لهنّ أنّه سيُعطي، قبل أن يذهبوا، رسالة لجوردي كي يذهب ويسلمها إلى إيولاليا د كاليب شخصياً خلال يومين. وفيها يضع مفاتيح المنزل والإرشادات للعثور على الحجرة وفتحها. في حال أنّ رافائيل لم يتمكّن من فتح الباب فستنقذه خالته. فالمنزل الكبير مثله مثل بقية أملاك عائلة د رومو يعود لهذه السيّدة، التي ستأخذ على عاتقها نجدة حفيدها المفضّل، قبل أن يشرب هذا الكونياك كلّهُ، وسيعطونه بعض المرابطيات على أمل أن تكافئه إيولاليا بالمزيد منها عند استلامها الرسالة.

خرجوا ليلاً في عربةٍ من عربات العائلة، يقودها ديبغو. ودعت خوليانا وإيزابيل ونوريا بنظرة البيت الكبير الذي قضين فيه حياتهن. خلفهنّ بقيت ذكريات مرحلة سعيدة وآمنة، خلفهنّ بقيت الأشياء التي كانت تشهد على مرور توماس د رومو في هذا العالم. لم تستطع ابتناه أن توارياه التراب بشكل لائق، فجثمانه ذهب ليستقرّ في حفرة جماعية بجانب جثث سجناء آخرين أُعدموا في القلعة.

الشيء الوحيد الذي احتفظنا به هو صورة وجهية مصغرة، رسمها له  
رسام قطلاني، يظهر فيها شاباً، نحيلاً، لا يمكن معرفته. كانت  
النساء الثلاث يشعرن بأنهن يعبرن في تلك اللحظة عتبة نهائية  
ويبدأن مرحلة أخرى من حياتهن. كنّ يمضين صامتات، خائفات  
وحزينات. بدأت نورياً تُصلي صلاة السبحة بصوت مسموع،  
فرافقهن الترتيل العذب للصلوات برهةً طويلة، حتى نمن. كان ديفغو  
في مقعد الحوذيّ يحثّ الجياد ويُفكر ببرناردو، كما كان يفعل يومياً  
تقريباً. كان يشفق إليه إلى حدّ أنّه فوجئ أحياناً وهو يتكلم مع  
نفسه، كما كان يفعل دائماً معه. فحضور أخيه الصامت، وثباته  
الصخري في حماية ظهره والدفاع عنه من كلّ خطر، هو تماماً ما  
كان يحتاجه. تساءل ما إذا كان فعلاً قادراً على حماية ابنتي  
رومو، أم أنّه على العكس يقودهنّ إلى الضياع. خطته لاجتياز  
إسبانيا يمكن أن تكون إحدى جنوناته، هذا الشكّ كان يُعذّبه. كان  
خائفاً مثل المسافرين معه. لم يكن الخوف العذب الذي يسبق خطر  
مركة، هذه القبضة المغلقة التي تسدّ بؤابة معدته، هذا البرد  
الجليدي في نقرته، بل المسؤولية الثقيلة جداً التي لم يكن مستعداً  
لها. فإذا ما حدث شيء لأولئك النساء، وعليّ الأخصّ لخوليانا... لا،  
بفضل ألا يفكر بهذا الاحتمال. صرخ منادياً برناردو وجدته البومة  
البيضاء لمساندته فضاع صوته في الليل، ابتلعته الرياح وحوافر  
الخيول. كان يعرف أنّ رافائيل مونكادا سيبحث عنهم في مدريد  
ومدن أخرى مهمّة، وسيجعلهم يراقبون الحدود مع فرنسا،  
ويفتشون كلّ سفينة تخرج من برشلونة وأيّ ميناء آخر على  
المتوسط، لكنّه ظنّ أنّه لن يذهب ليبحث عنهم على الشاطئ الآخر.  
كان يفكر أن يحتال عليه، ويبحر من ميناء لا كورونيا على الأطلسي،  
لأنه ما من أحد سليم العقل يمكن أن يذهب من برشلونة إلى هناك  
ليستقل سفينة. سيكون من الصعب جداً أن يجازف قبطان سفينة  
ويحمي هاربين من العدالة، كما بيّنت له خوليانا، لكن لم يخطر له  
حلّ آخر. سيرى فيما بعد كيف يحلّ مشكلة عبور الأطلسي، فقبل ذلك

عليه أن يتجاوز العوائق علي اليابسة. قرّر أن يتقدّم أكثر ما يستطيع خلال الساعات التالية ويتخلّص على الفور من العربية، لأنّه يمكن أن يكون هناك من رآهم يخرجون من برشلونة.

بعد منتصف الليل ظهر الإنهاك على الجوادين واعتبر ديبغو أنّهم ابتعدوا ما يكفي عن المدينة كي يستريحوا برهة. خرج عن الطريق مستغلاً ضوء القمر وقاد العربية نحو الغاية، حيث فكّها عن الجوادين وتركهما يرعيان. كان الليل صافياً وبارداً. نام الأربعة في العربية، متدثّرين بالبطانيات إلى أن أيقظهنّ ديبغو بعد ساعتين والظلام ما يزال مُخيماً كي يتقاسموا وجبة من الخبز والسجق. وعلى الفور ورّعت عليهم نوريا الثياب التي عليهم أن يستخدموها في بقية الرحلة: ثياب الحجّاج التي خاطتها بنفسها نذراً لسانتياغو كومبوستيلا إذا ما أنقذ حياة توماس دي رومو: كانت أدثرة تصل إلى منتصف الساق، قبعات عريضة الحواف، عكازات أو عصي من الخشب معقوفة النهاية تُعلّق إليها قرعة خاصّة لجمع الماء. وللوقاية من البرد كانوا يأتزرون بوزراتٍ وجوارب وقفازات صوفية سميكة. كما أنّ نوريا حملت معها زجاجتين من مشروب كحوليّ قويّ مفيد جداً لنسيان الآلام. لم تتصوّر القهرمانه قط أنّ هذه الثياب الطويلة الخشنة ستفيد في هرب من تبقى من العائلة ولا أن تنتهي بأن تقي بنذرهما للقديس، دون أن يفِي هذا بما عليه من النذر. وبدلها ذلك سخرية غير جديرة بشخصيّة بمثل جدية الرسول سانتياغو، لكنّها افترضت أنّ هناك مقصداً خفياً سينكشف لها في اللحظة المناسبة. في البداية بدت لها فكرة ديبغو داهية، لكنّها ما إن قلبت الخريطة حتى أدركت ماذا يعني عبور إسبانيا على الأقدام من أعرض جوانبها. لم تكن نزهة، كانت ملحمة. فأمامهم على الأقل شهران من المسير تحت رحمة الطبيعة، يتغذّون على ما يتمكنون من الحصول عليه من الإحسان وينامون تحت النجوم. ثمّ إنهم كانوا في تشرين الثاني، حيث تُمطر في كلّ لحظة وسرعان ما ستصبح الطرقات مغطاة بالجليد. وما من أحد منهم كان معتاداً على السير

مسافات طويلة، خاصة في صنادل الفلاحين. سمحت نوريا لنفسها بأن تشتم سانتياغو بين أسنانها، وتقول بالمناسبة لدييغو ما كانت تفكر به تجاه مسيرة الحج المجنونة تلك.

ما إن ارتدوا ملابس الحج وتناولوا فطورهم، حتى قرّر دييغو ترك العربية. أخذ كل واحد منهم أشياءه ولفّها في بطانية وربط الصرة إلى ظهره، وحملوا ما تبقى على ظهر الجوادين. كانت إيزابيل تحمل مسدّس والدها مخفياً بين ثيابها ودييغو يحمل قناع الثعلب في الصرة، الذي لم يستطع التخلص منه وتحت السترة خنجران بثكائيان حادان بطول شبر. وكان يُعلّق السوط إلى خصره كما هي الحال دائماً. اضطرّ لترك سيفه الذي أهداه له أبوه في كاليفورنيا والذي لم يتفصل عنه حتى ذلك الوقت، لأنّه كان من المحال عليه إخفاؤه. فالحجاج لم يكونوا يتسلّحون. الأشرار الأسوأ كانوا يكثرّون في الطرق لكنهم لم يكونوا يكثرثون عامّةً بالحجاج الذاهبين إلى كومبوستيلا، ذلك أنّهم كانوا يُمارسون نذور العيش الفقير خلال الطريق. ما من أحد كان يتصوّر أن يكون أولئك المشاؤون المتواضعون يملكون ثروة صغيرة من الأحجار الكريمة المخيطة في ثيابهم. لم يكونوا يختلفون في شيءٍ عن التوابين العاديين، الذين يأتون ليركعوا أمام سانتياغو الشهير، الذي تُعزى له معجزة أنّه أنقذ إسبانيا من الغزاة المسلمين. وقد بقي العرب يفوزون بالنصر قروناً في المعارك بفضل ذراع محمد الذي لا يقهر، والذي كان يرشدهم، حتى عثر راع بشكل مناسب على عظام سانتياغو مهجورة في حقل جليقي. كيف وصلت عظامه من الأرض المقدسة إلى هناك؟ هذا ما كان يشكل جزءاً من المعجزة. وقد تمكّن هذا الأثر من توحيد الممالك المسيحية الصغيرة في المنطقة، وكانت من الفعالية في قيادة بواصل إسبانيا بحيث أنّ هؤلاء طردوا المسلمين واستعادوا أرضاً للمسيحية. وتحولت سانتياغو كومبوستيلا إلى أهم مكان للحج في أوروبا. على الأقل تلك كانت حكاية نوريا، لكنّها أكثر زخرفة. كانت القهرماننة تعتقد أنّ رأس

من العربية، لأنّ...  
الجوادين واعتبر...  
تريحوا برهة. خرب...  
والغابة، حيث تك...  
أفياً وبارداً. نام...  
ظهنّ دييغو بعد...  
جبة من الخبز...  
ي عليهم أن يست...  
بنفسها نذراً...  
ميو: كانت أدثرة...  
عكازات أو عصي...  
ة خاصة لجمع...  
رات وجوارب...  
زجاجتين من...  
تتصوّر القهرمان...  
من تبقى من...  
أن يفي هذا بما...  
خصيّة بمثل جنب...  
أخفياً سينكتف...  
دييغو داهية، لكن...  
إسبانيا على...  
فأمامهم...  
حمة. فأمّا...  
ذنون على ما...  
النجوم. ثمّ إنهم...  
ة وسرعان...  
كان معط...

الرسول ما زال على حاله ويذرف في كل يوم جمعة آلام لموعاً  
خضراء. البقايا المزعومة كانت في تابوت من فضة تحت مذبح  
الكاتدرائية، لكن وبهدف حمايتها من نزعات القرصان فرانسيس  
دراك، خبأها أسقف بشكل جيد بحيث أنهم لم يتمكنوا من العثور  
عليها خلال زمن طويل. ولهذا السبب وبسبب الحرب وانعدام الإيمان  
فقد انخفض عدد الحجّاج، الذي كان يصل في الماضي إلى مئات  
الآلاف. الذين كانوا يأتون إلى المقام من فرنسا يسلكون الطريق  
الشمالي، عابرين بلاد الباسك، وهو الطريق الذي اختاره أصدقاؤنا.  
وبقيت الكنائس والأديرة والمستشفيات بل وحتى أفقر الفلاحين  
يقدمون لقرون المأوى والطعام للمسافرين. ذلك التقليد المضياف  
كان موافقاً للمجموعة الصغيرة التي يقودها ديبغو، لأنه سمح لهم  
بالسفر متحررين من حمل الزاد. على الرغم من أنّ الحجّاج كانوا  
نادرين في ذلك الفصل - كانوا يفضّلون السفر في الربيع والصيف -  
كان الأصدقاء يأملون ألا يلفتوا الانتباه، لأنّ الغليان الديني راح  
يزداد منذ انسحاب الفرنسيين من البلد، وتذر الكثير من الإسبان أن  
يزوروا القديس إذا كسبوا الحرب.

كانت الشمس تُشرق حين عادوا إلى الطريق وراحوا يسيرون.  
ساروا في ذلك اليوم الأوّل أكثر من خمسة فراسخ، إلى أن أعلنت  
خوليانا ونوريا عن هزيمتهما لأنّ أقدامهما أدميت وتضوّرتا  
جوعاً. توقّفوا في حوالي الساعة الرابعة في كوخ ريفي، صاحبتة  
امرأة مفجوعة، فقدت زوجها في الحرب. ولم يمّت كما أخبرتهم  
على أيدي الفرنسيين، بل ذبحه إسبان، اتهموه بأنّه يخبّي الطعام بدل  
أن يُسلمه إلى رجال حرب العصابات. كانت تعرف من هم القتلة، فقد  
رأت وجوههم جيّداً، فلاحون مثلها استغلّوا الأيام السيّئة لارتكاب  
أعمال العنف. لم يكونوا رجال حرب عصابات بل مجرمين، اغتصبوا  
ابنتها المسكينة، المجنونة منذ ولادتها، التي لم تكن تؤذي أحداً،  
وسطوا على الحيوانات. نجت منهم المعزاة، التي كانت ترعى في  
التلال. أحد هؤلاء التهم الزهري أنفه والآخر كان في وجهه ندب

طويل. وأضافت إنها تتذكرهم جيداً، ولا يمر يوم إلا وتلعنهم  
وتطلب الانتقام منهم. كانت رفقتها الوحيدة ابنتها، التي كانت تُبقي  
عليها مقيدة إلى كرسي، كي لا تخدش نفسها. كانت الأم وابنتها  
تعيشان مع سرب من الكلاب في المسكن الذي كان مكعباً أفطس من  
حجارة وطين، نتنأ بلا نوافذ. لم يكن عند الفلاحة الكثير مما تُعطيه  
وتعبت من كثرة ما استقبلت شحاذين، لكنها لم تبغ أن تتركهم في  
الغراء. وقالت وُلد الطفلُ الربّ في المعلف لأنهم رفضوا أن يحسنوا  
استضافة القديس يوسف والعذراء مريم. وكانت تعتقد أن رفض  
استقبال الحجّاج ثمنه قروناً من العذاب في المطهر. جلس  
المسافرون على الأرض الترابية تحيط بهم الكلاب المقملة، كي  
يستعيدوا أنفاسهم من التعب، بينما راحت تطبخ بعض البطاطا على  
الجمر وتُخرج بصلتين من حديقتها البائسة.

- هذا هو كلّ ما عندي. لم نأكل أنا وابنتي شيئاً آخر منذ  
شهور. لكن قد أستطيع غداً حلب المعزاة - قالت.  
- جازاك الله خيراً، يا سيّدة - تتمم ديبغو.

كان الضوء الوحيد في المسكن يأتي من فجوة الباب، الذي  
تُغلقه ليلاً بجلد حصان قاسٍ ومن الموقد الصغير الذي شوت فيه  
البطاطا. وبينما هم يلتهمون الطعام الزاهد راحت الفلاحة تراقبهم  
من طرف عينيها الصغيرتين والرمصاوين. رأت أيادي بيضاء  
وناعمة، وجوهاً نبيلة، قامات رشيقة، تذكرت أنهم يمضون ومعهم  
جوادان وخلصت إلى استنتاجاتها. لم تبغ تقصي التفاصيل، فكرت  
أنه كلما قلت معرفتها قلّ تعرضها للمشاكل. لم يكن وقت الإكثار من  
الأسئلة. وحين انتهى ضيوفها من تناول الطعام قدّمت لهم بعض  
جلود الخراف سيّئة الدباغة وقادتهم إلى منطقة مسقوفة تخبئ فيها  
الحطب والعرانيس اليابسة. هناك أقاموا. رأت نورياً أنها أكثر  
راحة بكثير من البيت البائس برائحة كلابه وجنّير مجنونته. اقتسموا  
المكان والجلود واستعدوا لليلة طويلة. كانوا يستريحون بأفضل

ما باستطاعتهم حين ظهرت الفلاحة جالبة لهم مبولاً فيها شحم  
سَلَمَتها لهم ونصحتهم باستخدامه للرضوض. بقيت تنتظر إلى  
المجموعة المثخنة بالجراح بمزيجٍ من الريبة والفضول.

- ليس فيكم من الحجاج شيء. واضح أنكم أهل نعم. لا أدري  
مم تهربون، لكن لكم مني نصيحة مجانية. هناك أوغاد كثيرون في  
هذه الطرق. عليكم ألا تثقوا بأحد. الأفضل ألا يروا الفتاتين. لتغطيا  
وجهيهما على الأقل - أضافت قبل أن تدور نصف دورة وتذهب.

لم يعرف ديبغو كيف يُخَفِّف من قلق النساء، وخاصة من كانت  
تهمه أكثر: خوليانا. كان توماس دي رومو قد أوكل إليه أمر ابنتيه  
ويجب معرفة الظروف التي كانت فيها البائستان. هما المعتادتان  
على أسرة الريش والملاحف المطرزة، ترتاحان الآن على كومة من  
الذرة اليابسة وتقشطان الحشرات بكلتي يديهما. كانت خوليانا  
مُدِهشة، لم تتذمّر مرّة واحدة خلال هذا اليوم الشاق، بل إنَّها أكلت  
بصلة العشاء النيئة دون تعليق. وللعدل يجب أن نعترف أن نوريا لم  
تكشف عن وجهه مكفهر أيضاً، أمّا إيزابيل فيبدو أنّها كانت مسرورة  
بالمغامرة. وقد زاد حنان ديبغو تجاههنّ حين رآهنّ بمثل ذلك  
الاحترام والشجاعة. وشعر بحنوٍ لا حدود له تجاه هذين الجسدين  
المعذّبين وبرغبة هائلة للتخفيف من تعبهما، لتدثيرهما من البرد،  
وإنقاذهما من أيّ خطر. لم تكن إيزابيل تشغله كثيراً، التي كانت تمك  
مقاومة مهرة، ولا نوريا، التي كانت تتدبّر أمرها بجرعاتٍ من  
الكحول، بل خوليانا. صندل الفلاحة ملأ قدميها بالفقاقيع، على  
الرغم من الجوربين الصوفيين، وقد ألهب احتكاك الرداء جلدها.  
لكن بماذا كانت تُفكّر خوليانا في هذه الأثناء؟ لا أدري، لكنني  
أتصوّر أنّها بدت لديبغو على ضوء المساء المحضّر جميلة. لم يكن  
قد حلق نقنه منذ يومين، وكان ظلُّ نقنه الداكن يضيء عليه خشونة  
ورجولة. لم يعد الصبّي المرتبك، المتوتر، والهزيل، أو محض  
ابتسامه وأذنين، ظهر في بيتها قبل أربع سنوات. كان رجلاً وهو



سيكمل العشرين خلال أشهر قليلة، عاشها تماماً، نما خلال ذلك جسمه وأصبح رابط الجأش. لم يكن سيئ المظهر أبداً، وكان يحبها بإخلاص جري مؤثراً. لا بد أن قلب خوليانا كان من حجر حتى أنها لا تلين. وقد استغل ديفغو الشحم الشافي ذريعة كي يدغدغ قدمي حبيبته برهة طويلة ويثلهي بالمناسبة عن أفكاره المشؤومة. وسرعان ما تغلبت طبيعته المتفائلة عليه فسمحت له كي يتوسّع بالتدليك باتجاه بطتي الساقين. «لا تكن خليعاً، يا ديفغو»، انتهرتة إيزابيل، محطمة سعادته في لمحة بصر.

غفت الأختان بينما هو يُقَلِّبُ همومه المتنوعة. وخلص إلى أن الشيء الوحيد السعيد في تلك الرحلة هي خوليانا، وما عداه كان تعباً وضيقاً. كان رافائيل مونكادا وطالبو ودّ آخرون قد أصبحوا خارج اللعبة، فهو أخيراً يملك فرصة كاملة لاكتساب ودّ الجميلة، أسابيع وأسابيع من العيش اللصيق. ها هي على بُعد أقل من ذراع منه، منهكة، متسخة، موجوعة وهشة. يستطيع أن يمدّ يده ويلمس خدها المتورّد من النوم، لكنّه لا يجروء. ينام كل ليلة إلى جانبها، مثل زوجين عفيفين، ويشاطرهما كل لحظة من لحظات النهار. وخوليانا لا تعتبر أن هناك حماية أخرى لها في هذا العالم غيره، وهذه الحالة كانت صنيعاً لصالحه تماماً. لن يستغل أبداً هذه الميزة - طبعاً كان فارساً - لكنّه لا يستطيع إلا أن يلاحظ أن تبدلاً حدث عندها في يوم واحد. صارت خوليانا تنظر إليه بعينين أخريين. كانت قد نامت متفوقة، ترتعد برداً تحت جلود الخراف في زاوية من الكوخ، لكنها بعد قليل شعرت بالدفء وأخرجت رأسها تبحث عن وضعية مريحة فوق كومة الذرة. عبر شقوق الخشب كان يدخل بهاء القمر الأزرق وينير وجهها التام، المتروك للنوم. ودّ ديفغو لو أن هذا الحج لا ينتهي أبداً. واتخذ مكانه قريباً منها إلى حدّ أنه كان يستطيع أن يشعر بحرارة أنفاسها، وعبق خصلات شعرها السوداء. كانت الفلاحة الطيبة على حق، يجب إخفاء جمالها، من أجل إبعاد الحظ السيء عنها. فلو أن عصابة هاجمتهم لما استطاع أن يدافع عنها

جيداً، ذلك أنه لا يملك حتى سيفاً. كان لديه فائض من الأسباب كي يشعر بالقلق، ومع ذلك ما من شيء خبيث أطلق العنان لخيالاته، وبالتالي تلهى بتخيّل الحسنة تتعرّض إلى مخاطر رهيبية وتنجو مرّةً وأخرى على يد زوررو القاهرة. وتمتم قائلاً إذا لم أكسب ودها الآن فهذا يعني أنني أحقق لا علاج لي.

استيقظت خوليانا وإيزابيل مع صياح الديكة، تهزّهما نوريا التي حصلت لهما على طاس حليب معزاة حُلب للتو. لم تنعم هي أو ديفغو بالراحة ذاتها التي نعمت بها الصغيرتان في نومهما. صلّت نوريا ساعاتٍ، مذعورة من المستقبل، وديفغو ارتاح نصف راحة، مشغولاً بقربه من خوليانا، عين واحدة مفتوحة عليها ويدٍ على الخنجر للدفاع عنها، إلى أن وضع فجر الشتاء الخجول حداً لليلة الأبدية. واستعد المسافرون للشروع بمسيرة يوم آخر، لكن سيقان خوليانا ونوريا لا تكاد تستطيع الاستجابة. واضطرتا بعد خطوات قليلة أن تستندا كي لا تخرا أرضاً. بالمقابل أظهرت إيزابيل حالة جسدية جيدة بالقيام بعدة حركات، متباهيةً بالساعات الطوال التي كانت تقضيها بالمبارزة أمام المرأة. نصحهما ديفغو أن تبدأ بالمشير كي تحميا عضلاتهما ويختفي التشنّج، لكن لم يحدث هذا، فالألم لم يفعل غير أنه أساء الوضع فاضطرت خوليانا ونوريا إلى ركوب الحصانين، بينما حمل ديفغو وإيزابيل الرزم. وكان لا بد أن يمرّ أسبوع كامل قبل أن يستطيعوا تنفيذ شعار الستة فراسخ يومياً الذي وضعوه في البداية. وقبل أن يذهبوا شكروا الفلاحة على حسن ضيافتها وتركوا لها بعض المرابطيات، التي مكثت تنظر إليها مذهولة، كما لو أنها لم ترّ نقوداً قط.

كان الدرب في بعض المراحل ممرّ بغال، وفي أخرى أثر نجيل يتلوى في الطبيعة. تحوّل غير متوقّع طراً على الحجاج الأربعة المزيّفين. أجبرهم السلام والصمت على الإصغاء، والنظر إلى

الأشجار والجبال بعيون أخرى، فتح قلوبهم على التجربة الفريدة  
بالدوس على آثار آلاف الرحالة الذين قطعوا هذا الطريق طوال تسعة  
قرون. علمهم بعض الرهبان على الاهتداء بالنجوم، كما كان يفعل  
رحالة القرون الوسطى، وبالحجارة والصوى المعلّمة بخاتم  
سانتياغو، المحارة الإختينية، التي خلفها مشاؤون سابقون.  
وجدوا في بعض المناطق جملاً منقوشة على قطع من الخشب، أو  
مكتوبة على ورق برديّ حائل اللون، رسائل أمل وتمنيات بالحظّ  
السعيد. وصارت تلك الرحلة إلى قبر الرسول سبراً للروح نفسها.  
كانوا يمضون صامتين، موجوعين ومتعبين، لكنهم مسرورون.  
وسرعان تخلّصوا من الخوف الذي شعروا به في البداية ونسوا أنّهم  
هاربون. سمعوا الذئب ليلاً، وتوقّعوا أن يروا قطعاً طرق في كلّ  
منقطف في الطريق، لكنهم تقدّموا واثقين، مطمئنين كما لو أنّ قوّة  
عليا تحميهم. بدأت نوريا تتصالح مع سانتياغو، الذي شتمته حين  
أعدموا توماس ورومو. عبروا غابات وسهوباً شاسعة وجبالاً  
موحشة في مشهد دائم التبدّل والجمال. لم ينقصهم قط حسن  
ضيافة. باتوا أحياناً في بيوت فلاّحين وأخرى في أديرة وصوامع.  
كما لم ينقصهم الخبز والحساء، التي تقاسمها معهم أناس  
مجهولون. باتوا ليلة في كنيسة واستيقظوا على تراتيل غريغورية،  
يلقّهم ضباب أزرق كثيف، كما لو أنّه من عالم آخر. واستراحوا في  
مناسبة أخرى في خربة كنيسة صغيرة، تعشّش فيها آلاف الحمام  
البيضاء، التي أرسلها، حسب نوريا، الروح القدس. عملوا بنصيحة  
الفلاحة التي أوتهم في الليلة الأولى، فصارت الفتاتان تغطيان  
وجهيهما عند الاقتراب من الأماكن المأهولة. في البلدات الفقيرة  
والنزل كانت الأختان تبقيان في الخلف وتتقدّم نوريا ودييغو لطلب  
المساعدة، متظاهرين بأنّهما أمّ وابنها. وكانا يشيران إلى خوليانا  
وايزابيل دائماً كما لو أنّهما ذكرين، ويوضّحان أنّهما لا يكشفان عن  
وجهيهما لأنّ البرص شوّههما، وبذلك لا تُثيران انتباه اللصوص

من الأسباج ك...  
طلق العنان لخيالاته  
سخطر رهيبه وتنجير  
تلاً إذا لم أكسب و...  
الديكة، تهزّهما نوريا  
ب للتو. لم تنعم هي  
تان في نومها. من  
يغو ارتاح نصف رات  
فتوحة عليها ويغ  
لشتاء الخجول حائل  
رة يوم آخر، لكن سب  
ه. واضطرتا بعد خط  
ابل أظهرت إيزابيل  
ية بالساعات الطوال  
نصحهما بيغو أن  
تتشنج، لكن لم يحدث  
طرت خوليانا ونوريا  
ابيل الرزم. وكان ل  
شعار الستة فراغ  
ا شكروا الفلاحة على  
ت، التي مكثت تنظر  
أخرى  
بغال، وفي الخناج  
طراً على  
فناء

والفلاحين والفارين من الجندية الذين كانوا يتيهون في تلك الأرباب  
المهملة منذ بداية الحرب.

كان ديبغو يُقدّر المسافة والزمن اللذين يفصلانهم عن ميناء  
لاكورونيا ويُضيف إلى عملياته الحسابية هذه نجاحاته في العلاقة  
مع خوليانا، التي لم تكن مبهرة، لكن على الأقل كانت الشابة تشعر  
أنها آمنة برفقته وتعامله بخفة أقل وغنج أكبر، تتكى على ذراعه،  
تسمح له بأن يدغدغ قدميها، يُحضّر لها الحليب، بل ويضع ملاعق  
الحساء في فمها حين تكون متعبة بشكل مفرط. وفي الليالي كان  
ديبغو ينتظر أن تنام بقيّة المجموعة كي يرتاح أقرب ما يمكن  
للحشمة أن تسمح به منها. يحلم بها فيستيقظ على المجد، وذراعه  
على خصرها. وكانت هي تتظاهر أنها لا تنتبه إلى هذه الحميمة  
المتنامية وتتصرف نهاراً كما لو أنّهما لم يتلامسا قط، بينما هو  
يتساءل هو هل تفعل ذلك برداً، أم خوفاً أم للأسباب العاطفية  
الجارفة نفسها التي كانت تحركه. كان ينتظر تلك اللحظات بلهفة  
مجنونة ويستغلّها إلى حيث يستطيع. كانت إيزابيل مطلعة على كل  
تلك التحركات الليلية، ولم يكن عندها مانع من المزاح معها بهذا  
الخصوص. شكّلت الطريقة التي كانت تعرف بها هذه الصغيرة ذلك  
لغزاً، لأنها كانت أول من ينام وآخر من يستيقظ.

كانوا قد ساروا في ذلك اليوم عدّة ساعات، وأضيف إلى التعب  
التأخر الذي تسبّب به رض أصاب ساق أحد الجوادين وجعله يعرج.  
كانت الشمس قد غابت وما زال أمامهم مسافة طويلة قليلاً للوصول  
إلى دير فكروا بالمبيت فيه. رأوا دخاناً يخرج من بيت قريب ففكروا  
أنه يستحق منهم أن يقتربوا منه. تقدّم ديبغو، واثقاً من أنه سيلقى  
أهلاً، لأنه بدا مكاناً راقياً، على الأقل بالمقارنة بأماكن أخرى. تبّ  
الصغيرتين قبل أن يقرع الباب إلى أن تغطيا وجهيهما، على الرغم  
من العتمة. لفتا وجهيهما بخرقتين مزودتين بفتحات للعيون  
أسودتا من الغبار وأضفتا عليهما مظهر البرص. فتح لهما رجل با

على خلفية الضوء ربيعاً مثل إنسان الغاب. لم يستطيعوا أن يميزوا تقاسيمه، لكنه لم يبد، بالحكم من موقفه ونبرته الصلابة، سعيداً بدييتهم. فقد رفض منذ البداية استقبالهم بحجة أنه ليس مجبراً على نجدة الحجاج، فهذا واجب الرهبان والكهنة، فهم لهذا السبب أغنياء. وأضاف إنه إذا كانوا يسافرون ومعهم حصانان، فليس هناك ما يدل على فقرهم ويستطيعون أن يدفعوا نفقاتهم. ساومه ببيعو فقبل الفلاح أخيراً أن يقدم لهم بعض الطعام ويسمح لهم بالنوم تحت سقف مقابل بعض النقود التي عليهم أن يدفعوها مقدماً. فادهم إلى إسطلب فيه بقرة وحصانا فلاحه سمينان. أشار إلى كومة من التبن، كي يرتاحوا عليها، وأعلن أنه سيعود إليهم ببعض الطعام. بشيء يأكلونه. بعد نصف ساعة وحين فقدوا الأمل بإدخال شيء إلى مغدهم عاد وظهر الرجل برفقة آخر. كان الإسطلب مظلماً مثل كهف، لكنهما جاءا معهما بفانوس. تركا على الأرض بعض القصعات الصغيرة التي تحتوي على حساء ريفي كرية وقطعة خبز أسود وست بيضات. عندئذ استطاع ديبغو والفتاتان أن تتبينتا على ضوء الفانوس أن أحدهما كانت تشوه وجهه ندبة طويلة تخترق عينه وخذة، وأن الآخر بلا أنف. كانا قصيرين، قويين، بلا رقبة، لهما أذرع مثل الجذوع، ومظهر مريع جعل ديبغو يمد يده إلى خنجره وإيزابيل إلى مسدسها. لم يتحرك الرجلان المشؤومان من هناك، بينما كان ضيوفهما يقرقعون بملاعقهم في الحساء ويقطعون الخبز. كانا يراقبان بفضول خبيث خوليانا وإيزابيل، اللتين كانتا تحاولان أن تأكلا من تحت الغطاء دون أن تكشفوا عن وجهيهما.

- ما بهما هاتان؟ - سأل أحدهما مشيراً إلى الصغيرتين.

- حمى صفراء - قالت نوريا، التي سمعت ديبغو يذكر هذا الوباء، لكنها لم تكن تعرف ماهيته.

- إنها حمى استوائية كالأحماض ترعى الجلد، وتفسخ اللسان والعينين. كان يجب أن تكونا قد ماتتا، لكن الرسول أنقذهما. لذلك

يهمون في تلك الأرباب

يفصلانهم عن ميناء  
نجاحاته في العلاقة  
قل كانت الشابة تشعر  
كبير، تتكى على نراع  
طبيب، بل ويضع ملاعق  
فرط. وفي الليالي كان  
يرتاح أقرب ما يمكن  
تقط على المجد، وبراء  
تنتبه إلى هذه الحسية  
يتلامسا قط، بينما  
أم للأسباب العاطفية  
تتظر تلك اللحظات بلينة  
إيزابيل مطلعة على كل  
مع من المزاج معها بها  
ف بها هذه الصغيرة لك  
يستيقظ.

اعات، وأضيف إلى النسي  
الجوادين وجعله يعرف  
سافة طويلة قليلاً للوصف  
خرج من بيت قريب ففرزوا  
ديبغو، وانقأ من أنه يبي  
مقارنة بأماكن أخرى  
فطيا وجهيهما، على  
فتحت للبي  
فتح لهما

نحن ذاهبون لنحجّ إلى مقامه ونشكره - أضاف ديفغو، مختصراً  
كلامه في الحال.

- وهل تُعدي؟ - أراد المضيف أن يعرف.

- عن بعد لا يُعدي، فقط يُعدي باللمس. يجب عدم لمسهما.  
وضّح ديفغو.

لم يبد الرجلان مقتنعين تماماً، لأنهما رأيا أيدي الصغيرتين  
السليمة وجسديهما الفتين، التي لم تستطع العباءتين إخفاءها. ثم  
إنهما شكّا بأن هؤلاء الحجاج يحملون مالاً أكثر من المعتاد في هذه  
الحالات، وألقيا نظرة على الجوادين. فعلى الرغم من أن واحداً  
منهما كان يعرج قليلاً إلا أنّهما من سلالة جيّدة، ولا بدّ أن لهم بعض  
القيمة. أخيراً انسحبا بالفانوس، وتركاهم يغوصون في العتمة.

- علينا أن نذهب من هنا، فهذان الشخصان مريعان - همست  
إيزابيل.

- لا نستطيع أن نساfer ليلاً، علينا أن نرتاح، أنا سأقوم  
بالحراسة - أجاب ديفغو بالنبرة ذاتها.

- سأنام ساعتين وسأحل بعدها محلّك في الحراسة - اقترحت  
إيزابيل.

كان قد بقي لديهم البيضات النيئة، فتحت نورياً فتحة في أربعة  
منها لترشّفها وخبّأت الاثنتين المتبقّيتين.

- من المؤسف أنّي أخاف البقر وإلاّ لكان باستطاعتنا  
الحصول على بعض الحليب - تنهّدت القهرمانه - ثم طلبت من ديفغو  
أن يخرج لحظة، كي تستطيع الصغيرتان أن تنظّفا نفسيهما بخزفة  
مبلّلة.

أخيراً سوّين البطانيات على التبن ونمن. مضت قرابة الثلاث أو  
أربع ساعات بينما ديفغو يسقط رأسه على صدره جالساً والخضبان  
- ماذا

في تناول يده، ميتاً من التعب، جاهداً كي يبقي على عينيه مفتحتين. فجأة هزّه نباح كلب فانتبه إلى أنه نام. كم؟ لم تكن لديه فكرة، لكنّ النوم كان متعة ممنوعة في تلك الظروف. ولكي ينتعش خرج من الإسطبل مستنشقا هواء الليل القارس ملء رئتيه. في المنزل كان الدخان ما يزال يخرج من المدخنة والضوء يلمع في النافذة الوحيدة الموجودة في الجدار الحجري الصلد. وهذا ما جعله يفكر أنه لم ينم طويلاً، كما خاف. قرّر أن يبتعد قليلاً كي يقضي حاجته.

رأى عندما عاد أطيفاً تتحرّك، فقدّر أنّهما الفلاحان، يتوجّهان بحذرٍ شديد إلى الإسطبل. كانا يحملان في أيديهما شيئين مريعين. ربّما كانا بندقيتين وربّما هراوتين. أدرك أنّ خنجره القصيرين ليسا فعالين في مواجهة هذين الوحشين المسلّحين. فكّ سوطه عن خصره وشعر في نقرته بالبرد الذي يحضّره دائماً للمعركة. كان يعرف أنّ إيزابيل جهّزت مسدّسها، لكنّه تركها نائمة. ثمّ إنّ الفتاة لم تطلق ناراً من مسدّس قط. أخذ بالحسبان أنّ عامل المفاجأة لصالحه، لكنّه لا يستطيع العمل في تلك الظلمة. تبع الرجلين حتى الإسطبل، متوسّلاً الله ألا تشي به الكلاب. ساد الصمت المطبق لحظاً، بينما الشريران يتأكّدان من أنّ ضيوفهما التعمساء غارقين في النوم. ما إن اطمأنّا حتى أشعلا قنديلاً ورأيا الهيئات مرتاحة على التبن. لم ينتبها إلى أنّ واحداً منهم غائب، لأنّهما ظنّا معطف سيفو جسماً مغطّى. صهل في هذه الأثناء أحد الجوادين فاستوت إيزابيل مذعورة. تأخّرت ثوان في التذكر أين كانت وفي رؤية الرجلين، والانتباه إلى الحالة ومحاولة الإمساك بمسدّسها، الذي تركته جاهزاً تحت طرحتها. لم تتمكّن من إتمام الحركة لأنّ زمجرتين من الشخصين اللذين كانا يهزّان هراوتين جمدها في مكانها. وهنا استيقظت خوليانا ونوريا.

- ماذا تريدان - صرخت خوليانا؟

صاف سيفو، مخترعاً  
ف.  
يجب عدم لمسها.  
رأيا أيدي الصفييرتين  
مع العباءتين إخفاءها ثم  
أكثر من المعتاد في هذه  
على الرغم من أنّ واحداً  
جيدة، ولا بدّ أن لهم بعض  
م يفوضون في الفتاة.  
شخصان مريعان - مسدّس  
ينا أنّ نرتاح، أنا سافو  
حكّ في الحراسة - اقترب  
فتحت نوريا فتحة في أرباع  
نين.  
ليقر وإلاّ لكان باستطاعتها  
لقهرمانة - ثم طلبت من سيفو  
تان أنّ تنظّفا نفسيهما برفق  
نمن. مضت قربة للناد  
جالساً والخم

- نريدكما أنتما أيتهما القحبتان والنقود التي تحملانها! - رد  
واحد من الرجلين مقترباً شاهراً العصا إلى الأعلى.

عندئذ وعلى ضوء اللهب المرتعش رأى عديما الضمير وجهي  
ضحيتيهما. تراجعاً بصيحة رعب مُطلق فوجدنا نفسيهما أمام ديفغو،  
الذي كان قد رفع ذراعه في الهواء. انهال عليهما السوط محدثاً  
أزيزاً جافاً فوق أقربهما إليه منتزِعاً منه العصا وصرخة ألم قبل أن  
يخرجا من دعرهما. انقضّ الآخر على ديفغو، الذي تفادى ضربة  
الهرأوة، وناوله رفسة على بطنه طواه اثنين. لكن الآخر كان قد  
استفاق من ضربة السوط وقفز فوق الشاب بخفة غير متوقّعة من  
رجل ثقيل مثله، ساقطاً فوقه مثل كيس من حجارة. لم يكن السوط  
مجدياً في الالتحام الجسدي والفلاح يمسك ديفغو من رسغ اليد التي  
يمسك بها الخنجر. سحقه على الأرض باحثاً عن حنجرته بيد، بينما  
يهرّ بيده الأخرى اليد التي تمسك بالخنجر. كان له مخلب جبار وقوة  
خارقة. أصاب نفسه التنُّ ولعابه المقرف وجه الشاب، بينما هو  
يدافع عن نفسه قانطاً، لا يفهم كيف تمكّن هذا البهيمة في لحظة من  
فعل ما لم يستطع خبير المصارعة خوليو ثسر فعله معه في امتحان  
تقييم العدالة. وبطرف عينه استطاع أن ينتبه إلى أنّ الشخص الآخر  
تمكّن من النهوض ومدّ يده إلى العصا. كان هناك مزيد من النور،  
لأنّ القنديل تدحرج على الأرض وراح التبّ يشتعل. وهنا دوت طلقة  
وسقط الرجل المنتصب هادراً مثل أسد. وهذا ما ألهى لثانية الآخر  
الذي كان فوق ديفغو ما يكفي من الزمن كي يزيحه من فوقه برفسة  
من ركبته على مؤخرته.

كان ارتداد الطلقة قد أسقط إيزابيل فوقعت جالسة على الأرض.  
أطلقت النار دون تسديد تقريباً وهي تمسك السلاح بكلتي يديها  
ففتت بمصادفة عجيبة ركبة مهاجمها. لم يكن باستطاعتها تصديق  
ذلك. ففكرة أنّ حركة خفيفة من إصبعها على الزناد أعطت تلك



النتائج لا تكاد تدخل في رأسها. أخرجها من ذهولها أمر حازم من  
دييغو، الذي كان يثبُّت الوغد الآخر بسوطه.

- هيا! الإسطبل يحترق! يجب إخراج الحيوانات!

شرعت النساء الثلاث بالعمل لإنقاذ البقرة والحصانين اللذين  
كانا يصهلان من الرعب، بينما دייغو يجرّ إلى الخارج، اللصين  
اللذين كان واحد منهما ما يزال يجار من الأكم وقد سُحِقت ساقه.  
غارقاً في دمه.

اشتعل الإسطبل مثل صلاء هائل مضيئاً الليل. على هذا الوهج  
رأى دייغو وجهي خوليانا وإيزابيل اللذين أربعا مهاجميهما ذلك  
الرعب، وهو أيضاً أطلق صيحة رعب. فالجلد الضارب للصفرة  
والمشقق مثل جلد تمساح كان يلمع متقيحاً في بعض أجزائه وكان  
جافاً في أجزاء أخرى مثل قشرة، يشدُّ تقاسميهما. كانت العيون  
مشوهة والشفاه مخفية، وقد صارت الفتاتان مسخين.

- ماذا جرى؟ - صرخ دייغو.

- حمى صفراء - ضحكت إيزابيل.

تلك كانت فكرة نوريا. انتاب القهرمانه شك بأن مضيبيهما  
الشريرين يمكن أن يهاجماه ليلاً. كانت تعرف شر هذا النوع من  
الناس من الوصف الذي قدّمته عنهم الفلاحة التي قتلوا زوجها.  
تذكرت وصفاً تجميل قديمة لصفاء الجلد، أساسها صفار البيض،  
تلفتها الإسبانيات من النساء المسلمات، واستخدمت البيضتين  
للنين فاضتا عن العشاء لطلاء وجهي الصغيرتين. وعندما جفتا  
نحزلتا إلى قناعين متشققين مقرفي اللون.

- إنه يزال بالماء ويفيد البشرة جداً - وضحت نوريا متبجّحة.

ضمدوا جرح الفلاح ذي الندبة، الذي راح يصرخ ويصرخ مثل  
نغيب، ليوقفوا على الأقل النزف، رغم أنه لم يكن هناك أمل بأن  
تجور ساقه التي مزقتها الرصاصة. وتركوا الآخر مربوطاً بشكل

التي تحملانها - رز  
الأعلى.

عديما الضمير وجهي  
نفسيهما أمام سيفي،  
عليهما السوط محطاً  
سا وصرخة ألم قبل أن  
و، الذي تفادى ضربة  
ن. لكن الآخر كان قد  
بخفة غير متوقعة من  
حجارة. لم يكن السوط  
دييغو من رسغ اليد التي  
أ عن حنجرته بيد، بينما  
كان له مخلب جبار ونزوة  
وجه الشاب، بينما مر  
هذا البهيمية في لحظة من  
سُرّ فعله معه في امتحان  
به إلى أن الشخص الآخر  
ان هناك مزيد من التور،  
س يشتعل. وهنا دوت طفا  
هذا ما ألهي لثانية الآخر  
كي يزيحه من فوقه برنسا  
وقعت جالسة على الأرض  
تمسك السلاح بكلي يدي  
لم يكن باستطاعتها تصفير  
عها على الزناد أعطت

جيد إلى كرسي دون أن يكتموه، كي يستطيع طلب المساعدة. فالبيت  
لم يكن يبعد كثيراً عن الطريق وهناك أكثر من عابر يمكن أن يسمعه.  
- العين بالعين، والسن بالسن. لكل شيء ثمنه في هذه الحياة  
أو في الجحيم - تلك كانت كلمات وداع نوريا لهما.

حملوا معهم فخذ خنزير مقدد، كان معلقاً إلى عارضة في  
البيت، والجوادين السمينين، البطيئين والثقيلين. لم يكونا مطيئين  
جيدتين، لكنهما دائماً أفضل من السير على الأقدام، ثم أنهم لم يبغوا  
أن يتركوا وسائل نقل بين أيدي اللصين كيلا يستطيعا اللحاق بهم.

الحادث الذي جرى لهم مع الرجل المجذوم الأنف ورفيقه  
السيء، ذي الوجه المطعون بالسكين أفاد المسافرين كي يكونوا  
أكثر حذراً. قرروا منذ تلك اللحظة ألا يبيتوا إلا في الأماكن  
المخصصة للحجيج منذ غابر الزمان. بعد عدة أسابيع من السير في  
طرق الشمال انخفض وزن الأربعة وانديغت جلودهم وأرواحهم.  
فالنور حمص جلودهم والهواء الجاف والصقيع شققها. صار وجه  
نوريا خريطة من التجاعيد الناعمة وهبطت عليها السنون فجأة. تلك  
المرأة التي كانت في السابق صلبة، وظاهرياً بلا عمر، صارت  
تجرجر الآن قدميها وتحني ظهرها قليلاً، لكن بعيداً عن أن يجعلها  
هذا قبيحة، فقد جمّلها. لانت تقاسيمها المكفهرة وبدأت تتألق عندها  
فكاهة جدة غريبة الأطوار وماكرة لم تُظهرها من قبل. ثم أنها بدت  
أفضل في دثار الحاجة مما في اللباس الموحد الأسود وغطاء  
الرأس اللذين استخدمتهما طوال حياتها. منحنيات خوليانا اختفت  
وبدت أصغر وأفتى بعينيها الهائلتين ووجنتيها المشققتين  
والحمرابين. كانت تحرص على وضع اللانولين على جلدها كي  
تحمي نفسها من الشمس، لكنها لم تستطع تفادي تأثير تقلبات  
الطقس. إيزابيل، القويّة والنحيلة، كانت أقل من عانى من الرحلة. فقد  
برزت تقاسيمها واكتسبت خطواً واسعاً وواثقاً أضفى عليها مظهر



بعدها خضرة، تلال من قطيفة خضراء، غابات شاسعة من كل أطراف  
اللون الأخضر، أنهار وشلالات من ماء بلوري زمردني الخضرة.  
كانت آثار الطريق تختفي لمسافات طويلة في رطوبة الأرض، لتعود  
وتظهر على شكل دربٍ نحيل بين الأشجار، أو ألواحٍ حجرية متآكلةٍ  
لطريق روماني قديم. أقنعت نوريا ديبغو بأن الأمر يستحق إنفاق  
بعض النقود على الكحول، الشيء الوحيد الذي يدفعهم في الليالي  
وينسيهم عوزَ مسيرة اليوم. كانوا يُضطرون أحياناً لقضاء يوم في  
مضافة، لأنها تمطر أكثر من اللازم وهم بحاجة لاستعادة قواهم  
فيستغلون ذلك لسماع قصص مسافرين آخرين ورجال دين، وقد  
رأوا خطّائين كثيرين مرّوا على طريق سانتياغو.

وذات يوم، من أواسط شهر كانون الأوّل، وكانوا ما يزالون  
بعيدين عن أقرب ضيعة ولم يروا بيتاً منذ فترة طويلة، لمحوا بين  
الأشجار أنواراً مرتعشة كأنها صلاوات مترددة. قرّروا الاقتراب  
بحذرٍ، فربّما كانوا بعض الهاربين من الجنديّة، وهم أخطر من أي  
نمر. اعتادوا أن يتيهوا في مجموعاتٍ، بالي الثياب، مسلحين حتى  
أسنانهم ومستعدين لكل شيء. وفي أفضل الحالات كانوا محاربين  
قدماء، أولئك العاطلون عن العمل الذين يُشتأجرون كمرتزقة يُقاتلون  
بأجر، ويقومون بتصفية الحسابات، والانتقام وأعمالٍ أخرى غير  
مشرفة لكنها أفضل من قطع الطرق. ليس لهم حياة غير سيوفهم،  
وفكرة العمل اليدوي لا تخطر ببالهم. ففي إسبانيا لا يعمل غير  
الفلاحين، الذين بعرق ظهورهم ينهضون بثقل الإمبراطورية الهائل،  
بدءاً من الملك وحتى آخر خادم، وصائد دعاوى وراهب وصبي  
سفينة ومقامر غشّاش، وبغي ومتسوّل.

ترك ديبغو النساء تحت بعض الأشجار الصغيرة، يحميهن  
مسدّس إيزابيل، التي تعلّمت أخيراً استخدامهما، ريثما يتأكد هو من  
ذلك الوميض. بعد قليل من السير وجد نفسه على مقربة منها

واستطاع أن يتأكد كما تصوّر أنها عدّة صلاوات. ومع ذلك لم يُصدّق  
أنهم شرذمة من قطاع الطرق أو الفارين من الجندية، لأنّه سمع لحن  
قيثارة ضعيف. تلقى رفسة من قلبه على صدره حين عرف تلك  
الموسيقى، غناء صدودٍ مؤثّرٍ ومحرزٍ كثيراً ما رقصت أماليا على  
لحنه، بطارية تنورتها الواسعة وخشخشة صنجاتها، بينما بقيّة  
القبيلة توقع لها بالدفوف والأكف. لم يكن غناءً خاصّاً بها، فكلّ  
العجر يعزفون أغان متشابهة. اقترب على خطو جواده فميّز في  
منطقة مكشوفة من الغابة عدّة خيام وصلوات. وتمتم «حماني الله!»  
وكأن يصرخ ارتياحاً لأنّ أصدقاءه هم الذين كانوا هناك. لم يساوره  
أنى شك. إنّها عائلة أماليا وبلايو. اقترب عدد من رجال القبيلة  
لينطقوا من يكون ذلك الدخيل، فأوا على ضوء الليل الرمادي  
رأباً مهلهل الثياب وملتحياً يتقدّم باتجاههم على ظهر جواد فلاحه  
ثقل. لم يعرفوه حتى قفز إلى الأرض وجرى نحوهم، لأنّ آخر  
ما كانوا يتوقعونه هو أن يعودوا ويروا ديفغو د لايفغا، خاصّة في  
زني حاج.

- أي شياطين حدثت لك، يا رجل؟ - هتف بلايو، رابتاً ربتة ودّ  
على ظهره، ولم يعرف ديفغو ما الذي جرى على وجهه أهو دمع أم  
نطرات مطر جديدة.

رافقه الفجري للبحث عن نوريا والصغيرتين. وما إن جلسوا  
حول النار حتى حكى المسافرون خطوبهم الجديدة بخطوطٍ عريضة،  
بدءاً من إعدام توماس د رومو إلى ما جرى لهم مع رافائيل مونكادا،  
حانفين تفاصيل تقلبات الحظ، التي لم تكن تضيف شيئاً للقصة.

- كما ترون، نحن هاربون ولسنا حجّاجاً. علينا أن نصل إلى  
لاكروونيا، لنرى ما إذا كان باستطاعتنا أن نبحر من هناك إلى  
أمريكا، لكن ما زال أمامنا نصف الطريق والشتاء يتعقب أثرنا. هل  
نستطيع أن نتابع السفر معكم؟ - سألهم ديفغو.

لم يحدث أن تلقى أهل قبيلة روما طلباً من هذا النوع من غريب.  
تقليدياً كانوا يشكّون بالغرباء، خاصّة حين يُبدي هؤلاء نوايا  
حسنة، لأنّ الاحتمال الأكبر أنّهم يحملون أفعى في كمّهم، لكنهم  
ملكوا فرصة للتعرف بعمق على ديبغو وصاروا يُقدّرونه. تنخّوا  
جانباً كي يتشاوروا في الأمر. تركوا مجموعة الغرباء يجفّفون  
ملابسهم قرب النار وانسحبوا إلى إحدى الخيام، المصنوعة من قطع  
من عدّة أنواع من الأقمشة المهلهلة والمليئة بالثقوب، لكنّها على  
الرغم من مظهرها البائس كانت تقي من نزوات الطقس. دام انعقاد  
مجلس القبيلة المسمّى عندهم كريسّ قسماً كبيراً من الليل، وقد  
ترأسه رودولفو، الروم بارو، الأكبر سنّاً، والبطيريك، والمستشار  
والقاضي، الذي يعرف قوانين قبيلة روما. لم تُكتب هذه القوانين  
ولم تُرمّز، وكانت تنتقل من جيل إلى جيل من خلال الروم بارو،  
الذين كانوا يفسّرونها حسب ظروف كلّ عصر ومكان. وحدهم  
الرجال كانوا يستطيعون المشاركة في اتخاذ القرارات، لكنّ القوانين  
تراخت في سنوات البؤس تلك، ولم تجبر النساء على التزام الصمت،  
خاصّة أماليا، التي ذكّرتهم أنّهم في برشلونة نجوا برقابهم بفضل  
ديبغو، ثمّ إنّهم أعطاهم كيساً فيه نقود سمح لهم بالهرب والبقاء  
والنجاة. في جميع الأحوال، هناك بعض أعضاء العشيرة صوّتوا  
ضدّه لأنهم اعتبروا أن منع تحريم التعايش مع الغرباء أقوى من أي  
شكل من أشكال الامتنان. وقالوا إنّ كلّ شراكة غير تجارية مع  
الغرباء تجلب المصائب أو سوء الحظّ. استطاعوا أخيراً أن يتوصلوا  
إلى اتفاق وحسّم رودولفو المسألة بفرمان غير قابل للطعن. قال  
إنّهم شاهدوا في حياتهم خياناتٍ وشروراً كثيرة، وعليهم أن يثمنوا  
عالياً من يمدّ لهم يده، كيلا يستطيع أحد أن يقول إنّ قبيلة روما  
ناكرة للجميل. انطلق بلايو لإبلاغ القرار إلى ديبغو. وجده نائماً على  
التراب مشدوداً إلى النساء، والجميع منكمشون من البرد، لأنّ النار  
كانت قد انطفأت. بدوا مثل مجموعة جراء مثيرة للشفقة.

- وافق المجلس على أن تُسافروا معنا حتى البحر، ما نتم  
تستطيعون أن تعيشوا كأهل قبيلة روما ولا تخترقون أيًا من قوانيننا  
- هذا ما أبلغهم إياه.

كان الفجر أفقر من أي وقت مضى. لم تكن معهم عرباتهم  
الكبيرة المتأكلة والمفككة التي أحرقتها الجنود الفرنسيون في العام  
السابق واستبدلت خيامهم بأخرى أكثر تهلاً، لكنهم استطاعوا أن  
يحصلوا على خيول ولديهم كورٌ وقبور وزوج من العربات لنقل  
ممتلكاتهم. عانوا العوز، لكنهم على حالهم لم ينقصوا طفلاً واحداً.  
الوحيد الذي بدا وضعه سيئاً هو رودولفو، العملاق الذي كان يرفع  
ني السابق حصاناً بين ذراعيه، فقد علته أعراض السل. كانت أماليا  
كما هي، لكن بترينا صارت مراهقة رائعة، ولم تعد تدخل في  
مرطبان زيتون مهمًا طويلاً. كانت ملتزمة بالزواج بابن عمومة بعيد  
من قبيلة أخرى، لم تره قط. العرس سيتم في الصيف، بعد أن تدفع  
عائلة الخطيب المهر، وهو المال الذي يعطى لتعويض القبيلة عن  
خسارتها لبترينا.

نزلت خوليانا وإيزابيل ونوريا في خيمة النساء. فأصبحت  
القهرمان في البداية بالذعر، إذ كانت تعتقد أن الفجر يُخططون  
لاختطاف الصغيرتين بـ رومو وبيعهما كمحظيَّتين للمسلمين في  
شمال أفريقيا. وكان لا بد من أن تمرَّ عدة أسابيع حتى ترفع نظرها  
عنهما وأسبرعاً آخر كي ترفعه عن أماليا، المكلفة بتعليمهن العادات  
الفجرية تفادياً للوقوع في أي خطأ مُخل بالآداب. أعطتهن تنورات  
واسعة قمصاناً مفككة الدرزات، وشالات مكشكشة من ثياب النساء  
العوام، وكلها قديمة ومتسخة، فاقعة الألوان، لكنها كانت في جميع  
الأحوال مريحة وواقية أكثر من زي الحجاج. كان أهل قبيلة روما  
يعتقدون أن النساء غير طاهرات من الخصر وحتى القدمين، ولذلك  
نإظهار الساقين يعتبر إهانة في غاية الخطورة. كان عليهن أن

النوع من غريب.  
يدي هؤلاء نوايا  
في كمهم، لكنهم  
يقدرونه. تنخوا  
الغريباء يجفون  
المصنوعة من قطع  
الثقوب، لكنها على  
الطقس. دام انعقاد  
بيراً من الليل، وقد  
طيريك، والمستشار  
تكتب هذه القوانين  
خلال الروم بارو،  
سر ومكان. وحدهم  
قرارات، لكن القوانين  
على التزام الصمت،  
نجوا برقابهم بفضل  
لهم بالهرب والبقاء  
ضياء العشيبة صوتوا  
الغريباء أقوى من أي  
مراكة غير تجارية مع  
عوا أخيراً أن يتوصلوا  
غير قابل للطن. قال  
شيرة، وعليهم أن يثمنوا  
ن يقول إن قبيلة روما  
ديغفو. وجده نائماً على  
نون من البرد، لأن النار  
شيرة للشفقة.

يغتسلن في أسفل النهر بعيداً عن الرجال، خاصة في أيام الحيض. كنَّ يُعتبرن أدنى منزلة من الرجال، الذين يُدينُّ لهم بالخضوع. مزاعم إيزابيل الحانقة لم تجدها نفعاً، كان عليها أن تسير مثلهن خلف الرجال وليس أمامهم أبداً، وهي لا تستطيع لمسهم، لأن هذا سيصيبهم بالعدوى. وضحت لهنَّ أماليا أنَّهم محاطون دائماً بالأرواح، التي عليهم أن يهدئوها بالسحر. وكان الموت أمراً مناقضاً للطبيعة ويُغضب ضحاياها ولذلك يجب الانتقام للموتى. كان رودولفو يبدو مريضاً وهذا ما أقلق العشيرة، خاصة وأنهم سمعوا للتو صوت البوم، نذير الموت. أرسلوا رسائل إلى الأقارب البعيدين كي يأتوا لوداعه بالاحترام المتوجَّب قبل رحيله إلى عالم الأرواح. ذلك أنَّه إذا ما رحل رودولفو حانقاً أو عكز المزاج يمكن أن يعود وقد صار مولو. قاموا تحسباً لذلك بالتحضير للحفل الجنائزي، على الرغم من أنَّه هو نفسه كان يسخر منهم، مُقتنعاً بأنَّه سيعيش عدة سنوات أخرى. علَّمتهنَّ أماليا قراءة الكفِّ وورق الشاي وكرات الزجاج، لكن ما من واحدة من الغريبات أثبتت أنَّها تملك المؤهلات الحقيقية للعرافة. بالمقابل تعلَّمن استعمال بعض الأعشاب الطبية والطبخ على طريقة أهل قبيلة روما. وأضافت نوريا إلى وصفات القبيلة الأساسية - مقلوبة الخضار، والأرنب، والوعل، والخنزير الجبلي والدلبل - ما تعرفه من المطبخ القطلاني وجاءت النتائج باهرة. كان أهل قبيلة روما يكرهون التعامل الوحشي مع الحيوانات، فهم فقط يستطيعون ذبحها للحاجة. كان هناك بعض الكلاب في المخيم، لكن ما من قط واحد، لأنَّها مشهورة بالنجاسة.

كان على ديبغو في هذه الأثناء أن يقبل بمراقبة خوليانا من بعيد، لأنَّه كان من قلة التربية الشديدة الاقتراب من النساء دون هدف محدد. الوقت الذي لم يعد يُكرسه لتأمل خوليانا استغله لتعلم امتطاء الحصان كرجل حقيقي من قبيلة روما. ترعرع خاباً في سهوب أعالي كاليفورنيا الشاسعة، وكان فخوراً بأنَّه خيال جيد، إلى أن استطاع أن يرى بهلوانيات بلابو ورجال العشيرة الآخرين، فقد كان



بالمقارنة معهم مبتدئاً. لا أحد في العالم كان يعرف عن الخيول مثل أولئك الناس. فهم لا يربونها ويدربونها ويدأونها إذا كانت مريضة وحسب بل يستطيعون التواصل معها بالكلمات، كما كان يفعل برناردو. ما من فجري كان يستخدم السوط، لأن ضرب الحيوانات كان يُعتبر أكبر جبن. بعد أسبوع صار باستطاعة ديبغو أن ينزلق إلى الأرض في أوج الجري، يدور دورة في الهواء ويسقط جالساً بالعكس على ظهر حصانه؛ وصار قادراً على القفز من مطية إلى أخرى والخبب واقفاً على جوادين لا يسنده غير الزمامين. كان يحاول أن يقوم بهذه البهلوانيات أمام النساء، أو بالأحرى حيث كانت تستطيع خوليانا أن تراه، وبهذا راح يُعوّض عن الانفصال عنها. كان يرتدي ملابس بلايو، سروالاً حتى الركبتين وجزمة عالية وقميصاً واسع الكمين وصدرة جلدية ويربط منديلاً - من المؤسف أنه يظهر أذنيه - على رأسه، وبندقيّة على كتفه. وكان يبدو بسوالفه وجلده الذهبي وعينيّه العسليتين، من الرجولة بحيث أنّ خوليانا نفسها أُعجبت به من بعيد.

كانت القبيلة تخيم أياماً عدّة بالقرب من إحدى البلدات، حيث يقدم الرجال خدماتهم في ترويض الخيل أو في تطويع المعادن، بينما النساء يقرأن الحظّ ويبعن مغلياتهن وأعشابهن الطبية. وحين ينقد الزبائن يتابعون رحلتهم إلى البلدة التالية. في الليل يتناولون الطعام حول النار. يحكون بعدها الحكايات، وكان هناك دائماً موسيقى ورقص. كان بلايو في لحظات الراحة، يُشعل الكير ويعمل في صناعة سيف وعد به ديبغو، وهو سلاح خاص جداً، أفضل من أي حسام طليطي، كما قال، وهو مصنوع من خليط من المعادن يعود سرّه إلى ما قبل ألف وخمسمئة سنة من التاريخ ومصدره الهند.

- قديماً كانت أسلحة الأبطال تُبرّد مخترقة بشفرتها المحمّرة الخارجة للتو من الكير جسد سجين أو عبد - علق بلايو.

- يكفيني أن أبرّد سيفي في النهر - ردّ ديبغو - أنّه أروع هدية

فقد في أيام الجوع  
يدين لهم بالخضوع مزاعم  
عليها أن تسير مثلهم ظن  
تستطيع لمسهم، لأنّ هذا  
باليا أنّهم محاطون بالمشا  
السحر. وكان الموت أمراً  
ك يجب الانتقام للموتى كان  
عشيرة، خاصة وأنهم سموا  
رسائل إلى الأقارب الطبيعيين  
بل رحيله إلى عالم الأرواح  
عكز المزاج يمكن أن يبر  
حضير للحفل الجنائزي، طر  
هم، مُقتنعاً بأنه سيعيش عت  
الكف وورق الشاي وكوك  
ت أثبتت أنّها تملك المولاد  
تعمال بعض الأعشاب الطبي  
وأضافت نورياً إلى رطل  
والأرنب، والوعل، والخيز  
طبخ القطلاني وجاءت لتأ  
كرهون التعامل الوحشي ب  
حها للحاجة. كان هناك بفر  
واحد، لأنّها مشهورة بالنظ  
اء أن يقبل بمراقبة خوليانا  
ة الاقتراب من النساء دون لب  
أمل خوليانا استغله لتطم  
روما. تدعّرع خائياً في  
فخوراً بأنّه خيال جيد،  
العشيرة الأخرى، التي

تلقيتها. سأسميه العادل «خوستينا»، لأنه سيكون دائماً في خدمة القضايا العادلة.

عاش ديبغو وصديقاته وسافروا برفقة قبيلة روما حتى شهر شباط. صادفوا في لقائين قصيرين الحراس، الذين لا يفوتون فرصة يفرضون فيها سلطتهم ويزعجون الفجر، لكنهم لم ينتبهوا إلى أنه كان يوجد بين أهل القبيلة غرباء. استنتج ديبغو أن أحداً لا يبحث عنهم بعيداً عن برشلونة وأن فكرته بالهرب باتجاه الأطلسي لم تكن غير معقولة كما بدت في البداية. قضوا القسم الأعظم من الشتاء محميين من الطقس وأخطار الطريق في حضان القبيلة الدافئ، الذي استقبلهم كما لم يستقبل أيّ غريب قط. لم يضطرّ ديبغو للدفاع عن النساء من الرجال، لأن فكرة الزواج من أجنبية لم تكن تخطر ببالهم. كما أنهم لم يبدوا مذهولين بجمال خوليانا، بينما لفت انتباههم أن إيزابيل تمارس المبارزة وتجهد في تعلم ركوب الخيل مثل الرجال. قطع أصدقاءنا خلال تلك الأسابيع ما تبقى من بلاد الباسك وكانتبريا وجليقيا إلى أن وجدوا أخيراً أنفسهم على أبواب لاكورونيا. وباندفاع عاطفي طلبت نوريا أن يسمحوا لها بالذهاب إلى كومبوسيتلا لترى الكاتدرائية وتركع أمام ضريح سانتياغو. فهي ما إن عرفت مزاج الرسول الأعوج حتى قرّرت أن تصبح صديقة له. فرافقها القبيلة كلها.

كانت المدينة بشوارعها الضيقة وممراتها وبيوتها القديمة وحوانيت صناعاتها اليدوية ونزلها وخاناتها وحاناتها وساحاتها وكنائسها الصغيرة طبقاتٍ مركزة حول القبر، أحد محاور المسيحية الروحية. كان يوماً صافياً، والسماء رائقة والبرد زمهريراً. ظهرت الكاتدرائية أمامهم بكلّ بهائها الألفي، مبهرة، جليلاً بأقواسها وأبراجها المسنّبة.

كسر أهل قبيلة روما السكون معلنين بصوت عال عن

فردوا عنهم، وطرقهم في قرعة المستقبل، ومراهم الشفاء من  
الأمراض، وبعث الموتى. ركع ديفغو وصديقاته، كما يفعل كل الذين  
كانوا يصلون إلى كومبوستيلا، أمام البوابة الرئيسية، ووضعوا  
ليبيهم على القاعدة الحجرية. لقد أتموا حجهم، وأدركوا نهاية  
طريق طويل. شكروا الرسول لأنه حماهم وطلبوا منه ألا يهجرهم  
وأن يساعدهم على عبور المحيط بسلام. ولم يكادوا ينتهون من  
صياغة كلامهم حتى انتبه ديفغو إلى أن رجلاً راكعاً على ركبتيه  
يصلي، على بعد خطوات قليلة، بحماس مبالغ فيه. كان بروفيله  
جانبيًا، لا تكاد تُضيئه انعكاسات الزجاج الملون، لكنه عرفه على  
الفر، على الرغم من أنه لم يره منذ خمس سنوات. إنه غاليليو  
تمبستا. انتظر حتى انتهى الملاح من لطم صدره ورسم الصليب عليه  
ليقترب منه. التفت تمبستا مستغرباً أن عجرياً بسالفين كبيرين  
وشارب يدنو منه.

- هذا أنا، يا سيد تمبستا، ديفغو د لايفغا...

- ما هذه الفاقة، يا ديفغو! - صاح الطبّاح ورفع بعضلاته  
الصفرية شبراً عن الأرض في عناقٍ فائق الحرارة.

- هس! قليل من الاحترام أنتما في الكاتدرائية - جمدهما راهب.

خرجا إلى الهواء الطلق، يربت الواحد منهما على كتف الآخر،  
لايصدقان مصادفة اللقاء، على الرغم من أن تلك المصادفات مُبررة.  
فغاليليو تمبستا كان ما يزال يعمل طبّاحاً في لامادر د ديوس،  
والسفينة راسية في لاكورونيا تحمّل أسلحة لتنقلها إلى المكسيك.  
استغل تمبستا تلك الأيام من الإجازة على اليابسة لزيارة القديس،  
لرجائه أن يشفيه من مرض لا يباح به. اعترف له هامساً أنه أُصيب  
بعسوى مرض مُخجل في الكاريبي، عقاباً من الله على آثامه،  
وخاصة على ضربة الفأس التي أنزلها بزوجته قبل سنوات. كانت  
وحدها تستطيع أن تشفيه، هذا صحيح، لكنها كانت تستحقها. المعجزة

يكون دائماً في خدمة  
قبة قبيلة روما حتى شهر  
غراس، الذين لا يفترقون  
الفجر، لكنهم لم يتنبهوا  
استنتج ديفغو أن أحدًا لا  
بالهرب باتجاه الأطلسي  
قضوا القسم الأعظم من  
ق في حضن القبيلة الداني  
ط. لم يُضطر ديفغو للدفاع  
ج من أجنبية لم تكن نظير  
جمال خوليانا، بينما لن  
تجهد في تعلم ركوب الخيل  
الأسابيع ما تبقى من بلاد  
وا أخيراً أنفسهم على أبواب  
ريا أن يسمحوا لها بالذهاب  
أمام ضريح سانتياغو. ثم  
قررت أن تصبح صبيحة  
وممراتها وبيوتها النسي  
خاناتها وحناناتها وساحلها  
القبر، أحد محاور المسيحية  
رائقة والبرد زمهرير. ظهرت  
مبهرة، جليئة بأفواج  
معلمين بصوت عالٍ

- لا أدري ما إذا كان لرسول يكرس نفسها لهذا النوع من المعجزات، يا سيّد تَمْبُستَا، لكن يخطر لي أنّ أماليا تستطيع مساعدتك.

- ومن هي أماليا؟

- عرّافة. ولدت موهوبة بقراءة مستقبل الغير وشفاء أمراضهم، وعلاجها فعّال جداً.

- مبارك سانتياغو، الذي وضعها في طريقي! أرايت كيف تُصنع المعجزات، أيها الشاب دِ لايفَا؟

- على ذكر سانتياغو، ماذا عن القبطان سانتياغو دِ ليون؟ -  
سأل ديبغو.

- ما زال على رأس لامادر دِ ديوس وأطواره أغرب من أي وقت مضى، لكنّه سيُسعد جداً حين يعلم بخبرك.

- ربّما لا، لأنني الآن فارّ من العدالة...

- دافع أكبر، إذن. ما فائدة الأصدقاء إذا لم يمدّوا أيديهم لأصدقائهم حين يخونهم الحظّ؟ - قاطعه الطّبّاخ.

أخذه ديبغو إلى زاوية من الساحة، كانت تبيع فيها عدد من الفجريات تنبؤاتهن وقدمه إلى أماليا، التي استمعت إلى اعترافه وقبلت أن تعالج مرضه بسعر مرتفع كفاية. وبعد يومين دبر غاليليو تَمْبُستَا لقاءً بين ديبغو وسانتياغو دِ ليون في حانة في لاکورونيا. وما إن اقتنع القبطان بأنّ ذلك الفجري هو الصبي الذي نقله في سفينته عام 1810 حتى استعدّ لسماع قصّته كاملة. قدّم له ديبغو ملخّص سنواته في برشلونة وحكى له عن خوليانا وإيزابيل دِ رومو.

- هناك أمر بإلقاء القبض على هاتين الطفلتين المسكينتين. إذا ما ألقى القبض عليهما ستنتهيان إلى السجن أو تنفيان إلى المستعمرات.

- وأني عمل فاحش يمكن أن تكون قد ارتكبت هاتان  
المظورتان؟

- ولا واحد. إنهما ضحيتا وغد حاقد. وقد طلب مني والد  
الفتاتين، السيد توماس دي رومو، أن أخذهما إلى كاليفورنيا  
وأضعهما في حماية والدي، السيد أليخاندرو دي لايفغا. هل تستطيع  
أن تساعدنا في الوصول إلى أمريكا، أيها القبطان.

- أنا أعمل لصالح حكومة إسبانيا، أيها الشاب دي لايفغا.  
لاستطيع أن أنقل فارين.

- أعرف أنك فعلت هذا في مرّاتٍ سابقة، أيها القبطان...

- إلام تلمح، يا سيد؟

وكجواب قاطع فتح ديبغو قميصه وأراه رصيدة العدالة، التي  
كان يحملها دائماً في عنقه. راقب سانتياغو دي ليون الجوهرة لثوانٍ  
رأه ديبغو يبتسم لأول مرة. تبدّل وجهه، وجّه الطائر العنيد، تماماً  
وغذبت نبرته عند تعرّفه على رفيق، على الرغم من أن الجمعية كانت  
غير مفهولة آنياً، فقد كان كلّ منهما موثقاً بشدّة إلى قسم حماية  
الملاحقين. شرح له دي ليون أن سفينته ستبحر خلال بضعة أيام. لم  
يكن الشتاء أفضل فصلٍ لعبور المحيط، لكنّ الصيف كان أسوأ عندما  
تبدأ الأعاصير تخرج من قمقمها. كان عليه أن ينقل بسرعة حمولة  
الأسلحة لردع التمرد في المكسيك، ثلاثمئة مدفع مفكّك، ألف بندقيّة  
ومليون طلقة من الرصاص والبارود. كان دي ليون يأسف لأن مهنته  
رحاجاته الاقتصادية تجبرانه على ذلك، لأنّه كان يعتبر قتال  
الشعوب، كلّ الشعوب، من أجل استقلالها شرعيّاً. إسبانيا التي كانت  
عازمة على استعادة مستعمراتها سبق أن أرسلت عشرة آلاف رجل  
إلى أمريكا. كانت الجيوش الملكية قد استعادت فنزويلا وتشيلي في  
معركة وحشية، سال فيها الكثير من الدماء وارتكبت فظائع كثيرة.  
كذلك أحمَدُ الثورة المكسيكية. «لو لم يكن من أجل طاقمي الوفي

هذا النوع من  
أن آماليا تستطيع

الغير وشفاء أمراضهم

ريفي! رأيت كيف تُصنع

سانتياغو دي ليون.

وأطواره أغرب من أي  
عبرك.

نساء إذا لم يمدوا أيديهم  
الطباخ.

كانت تبسّخ فيها عدد من  
متي استمعت إلى اغترابك

وبعد يومين نبر غليلي  
في حانة في لاهورونيا

هو الصبي الذي نلقه في  
تنته كاملة. فتم له بيغو

خوليانا وإيزابيل دي رومو  
الطفلتين المسكيتين  
السجن أو تقنين

الذي مضى عليه زمن طويل معي، وأنا أحتاج إلى هذا العمل، لتركت  
البحر وتفرغت كلياً لخرايطي»، وضح القبطان. اتفقا على أن يصعد  
دييغو والنساء بحماية العتمة وأن يبقوا مختبئين في السفينة حتى  
يُصبحوا في عرض البحر. يجب ألا يعرف أحد، باستثناء القبطان  
وغاليليو تمبستا، هوية المسافرين. شكره دييغو متأثراً، لكن  
القبطان ردّ عليه بأنه فقط يقوم بواجبه. فأَيّ عضو مكانه في  
الجمعية كان سيفعل الشيء ذاته.

مضى الأسبوع في الاستعداد للسفر، كان عليهم أن يفكروا  
الوزرات لإخراج الدوبلات الذهبية، لأنهم رغبوا بأن يتركوا شيئاً  
منها إلى أهل قبيلة روما، الذين أحسنوا ضيافتهم. ويحتاجون هم  
لشراء ملابس مناسبة وأشياء أخرى ضرورية للرحلة. أعادوا بعدها  
الخطاطة على الأحجار الكريمة في طيات الملابس الداخلية، تماماً  
كما أشار عليهم المصرفي، فلم يكن هناك من طريقة أفضل لنقل  
المال في تلك الأزمنة الصعبة. اختارت الفتاتان ملابس عملية  
وبسيطة، مناسبة للحياة التي تنتظرهما، كلّها سوداء، لأنه صار  
باستطاعتها أن تلتزما الحداد على أبيهما. لم يكن هناك الكثير مما  
يمكن اختياره في الدكاكين المحيطة، لكنهما حصلتا على بعض  
القطع واللوازم من سفينة إنكليزية كانت راسية في الميناء. من  
ناحيّتها استذوقت نورياً الخرق الملونة خلال وجودها مع الفجر،  
إلا أنه كان عليها أن تستخدم الأسود لعامٍ على الأقل، جداداً على  
نكري سيدها.

ودّع دييغو وصديقاته قبيلة روما بكثير من الحزن، لكن دون  
تعابير عاطفية، إذ كان أولئك الناس الذين قسّاهم اعتياد المعاناة  
سيسيتون استقبالها. سلّم بلايو دييغو السيف الذي صنعه له، وكان  
سلاحاً كاملاً، قوياً، مرناً وخفيفاً، ومن التوازن بحيث يمكن قذفه في  
الهواء وتقليبه والتقاطه من مقبضه دون أيّ جهد. حاولت أماليا في  
آخر لحظة أن تُعيد تاج اللؤلؤ إلى خوليانا، لكن هذه رفضت أخذه،

بأربعة أنها تتركه لها للذكرى. إلا أن الفجرية ردت بإيماءة تكاد تكون مزدوية: «لست بحاجة له كي أتذكركم»، لكنها خبأته.

صعدوا إلى السفينة ذات ليلة من ليالي بداية آذار، بعد ساعات من صعود حراس الميناء إلى متن السفينة لتفتيش الحمولة والترخيص للقبطان برفع المرساة. قاد غالييو تمبستا وسانتياغو دي ليون مخمبيهم إلى الحجرات التي عيّنوها لهم. كانت السفينة قد كُثت قبل سنتين وصارت مواصفاتها أفضل مما في رحلة ديبغو الأولى، صار فيها مكان لأربعة مسافرين في حُجيرات صغيرة فردية على كل جانب من جوانب قاعة الضباط في الكوثل. في كل واحدة منها سرير خشبي معلق بكابلات، طاولة وكرسيّ وخزانة ثياب صغيرة. لم تكن تلك المقصورات مريحة، لكنها توفر الحميمية، وهي أعظم رفاهية على متن سفينة. حبست النساء الثلاثة أنفسهن في حُجيراتهن لأربع وعشرين ساعة من الإبحار، لم يذقن فيها لقمة، رامتق لونهن من الدوار، وكنّ واثقاتٍ من أنّهن لن يتغلبن على هول النمايل في الماء لأسابيع. وما إن خلفوا وراءهم شاطئ إسبانيا حتى أذن القبطان للركاب بالخروج، لكنّه أمر النساء أن يبقين على مسافة متحفظة من البحارة تجنباً للمشاكل. لم يُقدّم توضيحاتٍ للبحارة وهم لم يجروّوا على طلبها، لكنهم تمتموا من وراء ظهره أنها لم تكن فكرة جيّدة حمل نساء على متنها.

في اليوم التالي انبعثت الصغيرتان دي رومو ونوريا على رائحة القهوة، خفيفتين بلا دوار، وقد صمت آذانهن أقدام البحارة الحافية وهم يتبادلون المناوبات. كنّ قد اعتدن على الناقوس، الذي يُقرع كل نصف ساعة. اغتسلن بماء البحر وأزلن الملح بخرقة مبلّلة بماء عذب، ارتدين بعدها ملابسهنّ وخرجن من حُجيراتهنّ مترنحات. في قاعة الضباط كان هناك طاولة مستطيلة، حولها ثماني كراسٍ، وضع عليها غالييو تمبستا طعام الإفطار، القهوة المحلاة بالدبس

ومُعززة بدفقة روم أعادت الروح إلى أجسادهنّ. الشوفان المنكه  
بالقرفة وكبش القرنفل قُدّم مع عسلٍ أمريكيّ غريب، كتقدمة لطيفة  
من القبطان. رأين من الباب المشقوق سانتياغو دِ ليون وضابطين  
شابين على طاولة العمل، يُراجعان لائحة المناوبة وتقرير المون  
والحطب والماء، التي يجب أن تُوزّع بحكمة حتى ميناء التمون  
القادم. على الجدار بوصلة تُشير إلى اتجاه السفينة وميزان زئبقي.  
على الطاولة، وفي صندوق جميل من خشب المغنّة، مِقت يداريه  
سانتياغو دِ ليون مثل تحفة، مثل أثر قديس. ألقى سلاماً مقتضباً:  
صباح الخير»، دون أن يُبدي دهشة من معنويات ضيوفه الضعيفة.  
سألت إيزابيل عن ديفغو، فأشار القبطان إشارة غامضة إلى السطح.

- إذا لم يكن الشاب دِ لايفغا قد تغيّر خلال هذه السنوات فلا بدّ  
أنّه فوق الصارية الكبرى، أو جالس على رأس الكوئل. لا أعتقد أنّه  
يمل، لكنني أعتقد أنّ هذه الرحلة ستكون بالنسبة إليكنّ طويلة جداً.

ومع ذلك لم تكن كذلك، فسرعان ما وجدت كلّ واحدة منهنّ  
مايشغلها. فخوليانا تفرّغت للتطريز وقراءة كتب القبطان واحداً بعد  
الأخر. في البداية بدت لها مُملة، لكنّها سرعان ما أدخلت إليها أبطالاً  
وبطالات فاكتسبت الحروب والثورات والرسائل الفلسفية طابعاً  
رومانسياً خاصاً. كانت حرّة في اختراع الحبّ الملتهب والمصدود،  
وباستطاعتها أن تُقرّر النهاية. كانت تُفضّل النهايات المأساوية،  
فمعها تبكي أكثر. إيزابيل تولّت مساعدة القبطان في رسم الخرائط  
الخيالية الرائعة، بعد أن أقرّ بمهارتها في الرسم. بعدها طلبت إنناً  
لرسم وجوه الملاحين. انتهى الأمر بالقبطان بالسماح لها بذلك  
وهكذا كسبت احترام البحّارة. درست أسرار الملاحية، بدءاً من  
السدسية وحتى طريقة تحديد ماهية التيارات المائية السفلية من  
خلال تبدل لون الماء أو سلوك الأسماك. تسلّت بالأعمال على السطح  
وكانت كثيرة: سدّ تشققات الخشب بألياف السنديان والقطران، ضخ  
الماء، الذي كان يتجمع في قاع السفينة، وإصلاح الأشرعة،  
وجمع الحبال المقطوعة، وتشحيم الصواري بشحوم المطبخ الزنخة،



والرسم، وكشط وغسل المفارش. كان البحارة يعملون طوال الوقت،  
لفظ كان الروتين يخف أيام الأحاد فيستغلون الوقت للصيد، ونحت  
تمثيل الخشب وقص الشعر ورفو الثياب والوشم وتقلية بعضهم  
بعضاً من القمل. كانت تفوح منهم رائحة ضواري، لأنهم نادراً ما  
يبتلون ثيابهم ولأنهم يعتبرون الاستحمام خطراً على الصحة. لم  
يكونوا يفهمون لماذا يفعل القبطان ذلك أسبوعياً ولا هوس  
المسافرين الأربعة في الاغتسال يومياً. لم يكن يسود على متن  
لا ماري ديوس نظام السفن العسكرية الصارم. وكان سانتياغو دي  
ليون يفرض احترامه دون اللجوء إلى العقوبات الوحشية. فيسمح  
بممارسة ألعاب الورق والنرد، الممنوعة في سفن أخرى، ما داموا لا  
يراهنون على المال، ويضعف حصّة الأفراد من الروم أيام الأحاد  
ولا يتأخر قط عن دفع أجره الرجال، وكان يُنظّم المناوبات حين  
يرسون في ميناء كي يستطيع الجميع أن ينزلوا ويروّحوا عن  
أنفسهم. ورغم وجود سوط من تسع أنيال في كيس أحمر معلق في  
مكان ظاهر، فهو لم يُستخدَم قط. وأقصى ما يُعاقب به المخالفين  
أنه يحرمهم من الروم عدّة أيام.

فرضت نوريا حضورها في المطبخ، لأنّ أطباق غاليليو حسب  
رأيها لا تحتوي على الكثير مما يُثير الشهية. وقد احتفل الجميع،  
بدءاً من القبطان وحتى آخر حمّال، بجديد طبخها، المحضّر من  
الموادّ المحدودة التي هي نفسها دائماً. وسرعان ما اعتادت  
القهرمانّة على الروائح المثيرة للفتيان، خاصّة روائح السمك واللحم  
المنطج، والطبخ بمياه عكرة، والسمك الذي كان غاليليو تمبّستا  
يضعه على أكياس البسكويت كي يحارب التسوّس. وحين تمتلئ  
بالديدان يستبدلها بأخرى، وهكذا يُحافظ على البسكويت نظيفاً إلى  
هذا الحدّ أو ذاك. تعلّمت حلب الماعز التي كانوا يحملونها معهم. لم  
تكن الحيوانات الوحيدة، فقد كان هناك دجاج وبط وإوز في أقفاص  
وخزيرة مع صغارها في حظيرة، إضافة إلى حيوانات سعيدة  
البحارة - قرده وبيغاوات - والقطط التي لا غنى عنها، والتي لولاها

شوفان المنكبة  
كتقدمة لطيفة  
ون وضابطين  
وتقرير المؤن  
ميناء التمون  
وميزان زنبقي  
ة، ميقت يداريه  
سلاماً مقتضياً  
ضيوفه الضعيفة  
مضة إلى السطح  
ه السنوات فلا بد  
وثل. لا أعتقد أنه  
إليكن طويلة جداً  
كل واحدة منهن  
القبطان واحداً بعد  
أدخلت إليها أبطالاً  
لل فلسفية طابعا  
الملتهب والمصدور،  
لنهايات الماساوية،  
ان في رسم الخرائط  
سم. بعدها طلبت إننا  
ن بالسماح لها بذلك  
ن الملاحة، بدءاً من  
ت المائية السفلية عن  
ت بالأعمال على السطح  
سنديان والقطران، فتح  
ة، وإصلاح الأشعة  
يوم المطبخ الزاكنة

لسادت الجرذان ومادت. اكتشفت نوريا طريقة لمضاعفة كميات الحليب والبيض، فصار هناك تحلية كل يوم. كان غاليليو تمبستا سيئ المزاج وقد أثار غزو نوريا لمطبخه حفيظته، لكنها وجدت أبسط طريقة لحل المشكلة. ففي المرة الأولى التي رفع فيها تمبستا صوته عليها ضربته ضربة جافة بالمغرفة على جبينه وتابعت تقلب يخنثها دون أن تتبدل. بعد ست ساعات عرض عليها البندقي الزواج. اعترف لها أن علاج أماليا بدا يُعطي نتائجها الجيدة وأنه وفر تسعمئة دولار أمريكي، المبلغ الكافي كي يفتتحا مطعماً في كوبا ويعيشا مثل ملكين. قال إنه منذ أحد عشر عاماً وهو ينتظر المرأة المناسبة، ولا يهتم أنها أكبر منه قليلاً. فلم تتكرم نوريا بالرد عليه.

عدد من البحارة الذين كانوا على متن السفينة في رحلة ديفو الأولى لم يعرفوه حتى خسروهم حفنات من الحمص في لعبة الورق. وكان لوقت البحارة قوانيته الخاصة، والسنون تمر دون أن تترك علائقها على صفحة السماء والبحر، ولذلك فاجأهم أن الصبي الذي لم تكن لحيته حتى البارحة قد نبتت ويخيفهم بقصص الموتى - الأحياء، صار اليوم رجلاً. أين ذهب تلك السنون الخمس؟ كان يُريحهم أنه على الرغم من أنه تغير وكبر، فهو ما يزال يستمتع برفقتهم. فقد كان ديفو يقضي قسماً جيداً من يومه يعمل معهم في تسيير أمور السفينة، خاصة الأشرعة، التي ما برحت تفتنه. في المساء فقط يختفي قليلاً في حُجيرته ليغتسل ويرتدي ثياب الفارس ويمثل أمام خوليانا. انتبه البحارة منذ اليوم الأول إلى أنه عاشق للشابة، ورغم أنهم يُمازحونه أحياناً، إلا أنهم يراقبون ذلك الوله بمزيج من الحنين لما لن يحصلوا عليه أبداً، والفضول لمعرفة الخاتمة. وكانت خوليانا تبدو لهم لا واقعية مثل حوريات البحر الأسطورية. ذلك الجلد الناصع، وتلكما العينان وتلك الملاحاة الأثيرية لم يكن من الممكن أن تكون من هذا العالم.

اتجهت لا مارد ر يوس، مدفوعة بالتيارات المحيطية وأوامر الريح، طائفة حول أفريقيا، مرّت مقابل جزر الكناري دون أن

تتوقف، ووصلت إلى الرأس الأخضر للتزود بالمياه والأغذية  
الملاحة، قبل أن تشرع بعبور الأطلسي، الذي يمكن أن يدوم أكثر  
من ثلاثة أسابيع، حسب الريح. وهكذا حدث أن علموا بفرار نابليون  
بوناترت من منفاه في جزيرة إلبا ودخوله منتصراً إلى فرنسا، حيث  
انضمت القوات، التي خرجت لتقطع عليه الطريق إلى باريس، إلى  
صفه. استعاد السلطة دون أن يُطلق طلقة واحدة، بينما لجأ بلاط  
الملك لويس الثامن عشر إلى غانت، واستعد للعودة بالبدا باحتلال  
أوروبا. استقبل المسافرون في الرأس الأخضر من قبل السلطات  
بالنساء الأفريقيات، السامقات والمعتزات بأنفسهن، اللواتي حضرن  
إلى الاحتفال بتurf منقطع النظر. بدت إيزابيل بالمقارنة معهن كلباً  
مشعراً، وحتى خوليانا نفسها بدت تافهة. تبدل هذا الانطباع الأول  
تماماً حين عزفت خوليانا، مدفوعة من دييغو، على الجناك. كان  
هناك أوركسترا كاملة، لكن لم تكد خوليانا تضغط على الأوتار حتى  
ساد القاعة الكبيرة الصمت. زوج من المقطوعات الموسيقية الراقصة  
كانت كافية لتسحر جميع الحضور. واضطراً دييغو في بقية السهرة  
أن يقف في الصف مع بقية الرجال كي يرقص معها.

بعد قليل نشرت لا مابر دي ديوس أشرعتها، مخرقة وراءها  
الجزيرة وظهر البحارة يحملون صندوقاً ملفوفاً بالخيش وضعوه  
في قاعة الضباط، هدية من القبطان سانتياغو دي ليون إلى خوليانا.  
قال لها وهو ينزع عنه القماش بحركة أنيقة: «كي تطوعي الريح  
والأمواج». كان جنكاً إيطالياً منحوتاً على شكل إوزة. ومنذ تلك  
اللحظة صاروا ينقلون الجناك كل مساء إلى السطح فتبكي الرجال  
بالحانها الحزينة. كانت أذننها مرهفة وتستطيع أن تعزف أية أغنية  
يبدنونها. وسرعان ما ظهرت القيثارات وارتجلوا طبولاً لمرافقتها.  
القبطان الذي كان يُخبئ كماناً في حجرته كي يُسلي نفسه سراً في  
الليالي الطويلة التي لا يتمكن فيها الأفزيون من تخفيف ألم ساقه  
المريضة، انضم إلى المجموعة فامتلات السفينة بالموسيقى.

كانوا وسط واحد من تلك التيارات، حين حملت نسمة نتنا مثيراً

مضاغفة كسيات  
غالييليو تمبستا  
لكنها وجدت  
رفع فيها تمبستا  
بينه وتابعت تقليد  
بها البندقى الزواج  
الجيدة وأنه وفر  
حا مطعماً في كوبا  
وهو ينتظر المرأة  
م نوريا بالرد عليه  
سفينة في رحلة دييغو  
مقص في لعبة الورق  
من تمر دون أن تترك  
جأهم أن الصبي الذي  
فهم بقصص الموتى -  
السنون الخمس؟ كان  
فهو مايزال يستمتع  
من يومه يعمل معهم في  
متي ما برحت تفتنه. في  
مل ويرتدي ثياب الفارس  
يوم الأول إلى أنه عاشق  
لا أنهم يراقبون تلك الولا  
به أبدأ، والفضول لمعرفة  
واقعية مثل حوريات البحر  
عيران وتلك الملاحة الأثيرة  
الم.  
التيارات المحيطية وأر  
الكناري

للغثيان، من المُحال تجاهله. بعد دقائق لمحووا في البعيد طيف  
سفينة شراعية. لجأ القبطان إلى المنظار كي يتأكد مما أصبح  
يعرفه: إنها سفينة عبيد. كانت تسود بين تجار العبيد نزعتان:  
حمولات مكثّزة وأحمال خفيفة. في الأولى يُكدّسون سجناءهم  
كالخطب، باختلاط هائل، بعضهم فوق بعض، مقيدّين بالسلاسل،  
غارقين في غائطهم وقيئهم. السليمون مخلوطون بالمرضى  
والمحتضّرين والجثث. نصفهم كان يموت في عرض البحر، بينما  
يُسمّنون الناجين في الميناء الذي يصلون إليه فيعوضون ببيعهم  
خسائرهم: وخدمهم الأقوى يصلون إلى وجهتهم ويحصلون بهم على  
أسعار جيّدة. أما تجار الزنوج الأخف، فكانوا يحملون عدداً أقل من  
العبيد وفي شروط أفضل، كيلا يخسروا كثيرين منهم في العبور.

- لا بد أن تكون هذه السفينة من ذوات الحمولة المكثّزة، لذلك  
تُشم رائحتها عن بعد عدّة فراسخ - قال القبطان.

- علينا أن نساعد هؤلاء الناس المساكين، أيها القبطان! -  
صاح ديفغو مذعوراً.

- أخشى ألا يكون باستطاعة العدالة فعل شيء في هذه الحالة،  
يا صديقي.

- نحن مسلّحون، ولدينا أربعون بخّاراً، نستطيع مهاجمة هذه  
السفينة وتحريرهم.

- التجارة غير شرعية، وهذه الحمولة مهربيّة. وإذا ما اقتربنا  
رموا بالعبيد المقيدّين إلى البحر، كي يغرقوا علي الفور. وحتى لو  
حرّرناهم فليس لديهم مكان يذهبون إليه. فقد أسيروا في بلادهم  
ذاتها من قبل تجار أفارقة. الزنوج يبيعون الزنوج. ألم تكن تعرف؟

خلال هذه الأسابيع من الإبحار كسب ديفغو جولات في صيد  
خوليانا، كان قد خسرها خلال وجودهم مع الفجر، حيث عليهما أن  
يبقيا منفصلين، لا يتمتّعان أبداً بالخلوة. كذلك كان الأمر في

السفينة، لكن الأمر لم يكن يخلو من غياب شمسٍ ومستجداتٍ أخرى  
يطلان فيها لرؤية البحر، كما كان يفعل العشاق منذ الأزمنة الغابرة.  
عندها كان ديبغو يتجرأ على وضع يده على كتف أو خصر  
الحسنة، بكثيرٍ من الرقة، كيلا يُجفلها. كان يقرأ بصوت عالٍ قصائد  
حبٍّ لمؤلفين آخرين، لأن قصائده من الرداءة بحيث أنه هو نفسه  
كان يخجل منها. وكان من الحكمة بحيث أنه اشترى كتابين في  
لاورونيا، قبل الإبحار، عادا عليه بفائدة كبيرة. فالصور المجازية  
الطوة كانت تليّن خوليانا، وتُحضرها للحظة التي يأخذ فيها يدها  
ويبقى عليها بين يديه. وللأسف ليس أكثر من ذلك. لم تكن القبلات  
لتخطر بالبال، إطلاقاً، ليس لانعدام المبادرة عند بطلنا، بل لأن  
إيزابيل ونوريا والقبطان وأربعين بحّاراً لا يرفعون نظرهم عنهما.  
ثم إنها لم تكن تسهل اللقاءات خلف باب موصل، من ناحية لأنه لم  
يكن في السفينة أبواب كثيرة، ومن ناحية أخرى لأنها لم تكن واثقة  
من مشاعرها، رغم أنها تعايشت مع ديبغو أشهراً ولم يكن يلوح في  
الأفق طالب ودٌ آخر. شرحت ذلك لأختها في الأحاديث الحميمة التي  
تدور بينهما عادة في الليل. وكانت إيزابيل تحتفظ برأيها لنفسها،  
نلك لأن أي شيء تقوله يمكن أن يميل بميزان الحبِّ لصالح ديبغو.  
وهذا ما لم يكن يناسبها. كانت إيزابيل تحبُّ الشابَّ على طريقته منذ  
الحادية عشرة من عمرها، لكن ليست هذه هي المسألة، فذلك لم  
يخطر بباله قط. فديبغو ما يزال يعتبر إيزابيل صغيرة تافهة تحبو  
وشعرها يكفي لرأسين، رغم أن مظهرها تحسّن قليلاً مع مرور  
السنين، فقد صارت في الخامسة عشرة من عمرها ولا تبدو سيئة  
كما كانت في الحادية عشرة.

رأوا في عدّة مناسبات سفناً أخرى من بعيد، وكان القبطان من  
الحكمة بحيث أنه تفادها، لأن الأعداء كثر في عرض البحر، بدءاً من  
القراصنة وحتى الزوارق الأمريكية السريعة، المستعدة للسيطرة على  
حمولة الأسلحة. كان الأمريكيون بحاجة إلى كلِّ بندقية يمكن أن  
يستعينوا بها في حربهم ضدّ إنكلترا. لم يولِّ سانتياغو انتباهاً للعلم

في البعيد طيف  
يتأكد مما أصبح  
ر العبيد نزعان  
كدسون سجناءهم  
مقيدين بالسلاسل  
لوطون بالمرضى  
عرض البحر، بينما  
فيعوضون ببيعهم  
ويحصلون بهم على  
يحملون عدداً أقل من  
من منهم في العبر  
حمولة المكتظة، لذلك  
ان.

كين، أيها القبطان.

شيء في هذه الحالة

أ، نستطيع مهاجمة

مهزبة. وإذا ما اقتربنا  
فوا على الفور. وحتى لو

فقد أوبروا في بلادهم  
ن الزوج. ألم تكن تعرف

ديبغو جولات في  
الفجر، حيث كان

المرفوع على الصارية، فهم يبذلونه عادةً لخداع الغافلين، لكنه كان يتحقق من هويتها من خلال علامات أخرى. كان يتفاخر بأنه يعرف كل السفن التي تسلك ذلك الطريق.

هزّت عدّة عواصف شتوية لا مآدرٍ لـ ديوس خلال هذه الأسابيع، لكنها لم تصل قط بغتةً، لأن باستطاعة القبطان التقاطها في الهواء قبل أن يُعلن عنها ميزان الضغط الجوي، فيُعطي أوامره للمُ الأشرعة وحزم ما هو ضروريّ وحبس الحيوانات. فيجهر البحارة ذلك خلال دقائق قليلة، وحين تبدأ الرياح تهبُّ ويهتاج البحرُ يكون كلُّ شيء جاهزاً على ظهرها. كان عند النساء تعليمات بأن يفلتن على أنفسهنَّ حُجيراتهنَّ كيلا يتبللن ولكي يتفادين الحوادث. كانت الأمواج تمرُّ من فوق الأسطح جارفة كل ما تجده في طريقها، وبدا من السهل أن تنزلق قدم أحدهم وينتهي إلى قاع الأطلسي. وبعد الوابل تصبح السفينة نظيفةً وجديدة تفوح منها رائحة الخشب، وتنقشع السماء ويروق البحر، ويصبح الأفق فضةً خالصة. كانت تصعد إلى سطح السفينة أسماك متنوّعة ينتهي أكثر من واحدة منها إلى الطهي في مقلاة غاليليو تمبُّستا. وكان القبطان يتخذ إجراءاته لتصحيح مسار السفينة بينما البحارة يصلحون الأضرار القليلة ويعودون إلى أعمالهم الروتينية اليومية. كانت مياه المطر المجمّعة في أقمشة الكتان تُسكب في براميل تسمح لهم بترف الاستحمام بالصابون، الأمر الذي كان مستحيلاً بماء البحر.

وصلوا أخيراً إلى مياه الكاريبي. رأوا سلاحف كبيرة، وأسماك السيف، وقناديل بحر شفافة ذات مجسات طويلة وأخطبوطات عملاقة. بدا الجو صحياً، ومع ذلك بدا القبطان عصيباً. كان يشعر بتغير الضغط من ساقه. العواصف الصغيرة السابقة لم تُهيء ديبغو وصديقاته لعاصفة حقيقية. كانوا يستعدون للتوجه إلى بورتوريكو ومن هناك إلى جامايكا، حين أبلغهم القبطان أنّ تحدياً أعظم سيهبط عليهم. كانت السماء صافية والبحر هادئاً، لكنّ هذا تبدّل في أقل من

نصف ساعة. وابل من المطر كشف نور الشمس، وصار الهواء دبقاً  
وبدأ المطر يهطل مدراراً. سرعان ما عبرت السماء البروق الأولى  
وارتفعت أمواج هائلة متوجة بالزبد. كان الخشب يحترق وتبدو  
الصواري على وشك أن تُقتلع من جذورها، ولم يكد الرجال يملكون  
وقتها للم الأشرعة. راح القبطان ومديرو الدفة يُحاولون السيطرة  
على السفينة بعدة أيدي. كان بينهم زنجي مفتول العضلات من سانتو  
دومينغو، مدبوغاً بعشرين سنة من الإبحار، راح يصارع الدفة دون  
أن ينقطع عن مضغ التبغ، غير آبه بدلاء الماء التي أخذت تعميه.  
رَكَات السفينة تترنح وتتمايل فوق أمواج منقطعة النظير هائلة  
وتهبب بعدها بقليل إلى قاع جحيم سائل. وبانعطافة شديدة من  
السفينة انفتحت الحظيرة وطارت معزاة في الهواء مثل صاروخ  
وضاعت في السماء. كان البحارة يتشبثون بما يستطيعون كي  
يسيطروا على السفينة، فأبى انزلاق يعني الموت الأكيد. راحت النساء  
الثلاث يرتعدن في حُجيراتهن خوفاً ومرضاً وغثياناً. حتى ديفو،  
الذي كان يفتخر أن له معدة حديدية تقياً؛ لكنه لم يكن الوحيد، فعدد  
من البحارة فعلوا ذلك. فكَرَّ أن الغطرسة البشرية وحدها هي التي  
تتجرأ على تحدي عناصر الطبيعة؛ فالسفينة لا مادي ديوس كانت  
جوزة يمكن أن تنكسر في أي لحظة.

أمر القبطان بتأمين الحمولة، لأن ضياعها يعني الإفلاس  
الاقتصادي. تحملوا العاصفة يومين كاملين، وحين بدا أخيراً أنها  
ستهدأ، ضربت صاعقة الصارية الكبرى. شعروا بالصدمة في  
السفينة مثل ضربة سوط، الصارية الطويلة والثقيلة المشطورة من  
منتصفها ترنحت عدة دقائق بدت أبدية بالنسبة إلى البحارة، إلى أن  
انفلقت أخيراً وسقطت مع شراعها وشبكة حبالها إلى البحر ساحبة  
معهما بخارين، لم يتمكنوا من النجاة بنفسيهما. مالت السفينة مع  
الشدَّة وبقيت مائلة على جانبها موشكة على الغرق. ركض القبطان  
مطياً أوامره، وعلى الفور هرع عدة رجال بفؤوسهم ليقطعوا  
الكابلات التي كانت تربط الصارية بالسفينة، المهمة الصعبة جداً لأن

طالين، لكنه كان  
آخر بأنه يعرف

رسم خلال هذه  
طان التقاطها في  
يعطي أوامره للم  
ت. فيجهاز البحارة  
أج البحر يكون كل  
ات بأن يفلتن على  
الحوادث. كانت  
ه في طريقها، وبدأ  
ع الأطلسي. وبعد  
نها رائحة الخشب  
فضة خالصة. كانت  
أكثر من واحدة منها  
بطن يتخذ إجراء  
عون الأضرار القليلة  
مياه المطر المجففة  
لهم بترب الاستحمام  
بحر.

ملاحف كبيرة، وأسماك  
ت طويلة وأخطبوطات  
طان عصيباً. كان بشر  
السابقة لم تُهَيء ديفو  
للتوجه إلى بورتو ريكو  
أن تحنياً أعظم سيب  
هذا تبذل في

الأرضية مائلة وزلقة والرياح تسوطهم والمطر يعميهم والأمواج  
تكنس السطح. تمكّنوا بعد برهة طويلة من فصل الصارية التي راحت  
تبتعد طافية، بينما راحت السفينة تستقيم مترنحة. لم يكن هناك من  
أمل في نجدة الرجلين الساقطين، اللذين ابتلعهما المحيط الأسود.

أخيراً هدأت الرياح والأمواج قليلاً، لكنّ الصواعق والأمطار  
استمرت بقيّة الليل. عند الفجر، حين عاد النور، استطاعوا أن  
يجردوا الأضرار. كان هناك بالإضافة إلى البحارين الغارقين  
آخرون رُضُوا وجُرحوا. غالييو تمبّستا انكسرت ذراعه عند انزلاقه  
في إحدى المرّات، لكن وبما أنّ العظم لم يخرج من الجلد فإنّ  
القبطان لم يجد ضرورة لبتريها. أعطاه حصّة مضاعفة من الروم  
وأعاد العظام بمساعدة نوريا إلى مكانها وثبتت الذراع. تفرّغ  
البحارة لنزح الماء المتراكم في قعر السفينة وإعادة توزيع  
الحمولة، بينما راح القبطان يجوب السفينة من رأسها إلى عقبها كي  
يقيم الوضع. بدت السفينة مؤذاة إلى حدّ أنّه من المحال إصلاحها  
في عرض البحر. وبما أنّ العاصفة انحرفت بهم عن مسارهم بعيداً  
عن بورتو ريكو باتجاه الشمال، فقد قرّر القبطان أنّهم يستطيعون  
بالصاريتين والأشرعة المتبقية أن يصلوا إلى كوبا.

انقضت الأيام التالية في الإبحار ببطء دون الصارية الكبرى  
والماء يتسرّب إليها من عدّة شقوق. لقد مرّ هؤلاء البحارة الشجعان  
في ظروفٍ مماثلة دون أن يصابوا باليأس، لكنّه حين دبّ الصوت  
بأنّ النساء هنّ اللواتي جلبن الكارثة، بدؤوا يهتممون. ألقى  
سانتياغو عليهم خطاباً واستطاع منع قيام تمرد، لكنّه لم يخفّف من  
عدم الرضا. ما من أحد فكّر بعدها بحفلات موسيقى الجنك،  
وامتنعوا عن تناول طعام نوريا وصاروا يشيخون بنظرهم عن  
المسافرات حين يظهرن على السطح لتنشق الهواء. كانت السفينة  
تتقدّم في المياه الخطرة بشقّ النفس ليلاً باتجاه كوبا. وسرعان  
مارأوا أسماك القرش والدلافين الزرقاء والسلاحف الكبيرة، وكذلك



النوارس، والبجع والأسماك الطائرة في الهواء، التي كانت تسقط مثل  
الصخور على السطح، جاهزة كي يطبخها تمبستا. النسمة الدافئة  
ورائحة الثمار الناضجة البعيدة بشرتهما بقرب اليابسة.

خرج ديفغو عند الفجر ليستنشق الهواء، كانت السماء قد بدأت  
تتكشف عن تدرجات اللون البرتقالي وضباب خفيف كوشاح يُحدّد  
حواف الأشياء. وأضواء الفوانيس المشتعلة تظهر مغبشة في  
الضباب. كانوا يُبحرون بين جزيرتين صغيرتين مغطّاتين باللاذن؛  
والسفينة تتمايل بسلاسة فوق الأمواج، والحصمُ يسود، إضافة إلى  
صير الخشب الأبدّي. مطّ ديفغو ذراعيه، تنفّس عميقاً كي يصحو  
وأوماً مُحياً بيده قائد الدفة، الذي كان في طريقه إلى موقعه؛ راح  
بعدها يجري، كما كان يفعل كلُّ صباح ليُجرّر عضلاته المتشنّجة.  
كان سريره قصيراً عليه، وينام منكمشاً، وعدّة دورات من الجري  
على السطح تفيدّه في صفاء ذهنه وتنشيط جسده. عندما وصل إلى  
الكوئل أطلّ ليمر بيده على رأس تمثال القيدوم، الطقس القصير الذي  
يقوم به يومياً بدقّة خرافية. عندها رأى كتلة في الضباب. بدا له أنّها  
يمكن أن تكون سفينة شراعية، على الرغم من أنّه لم يكن متأكّداً. في  
جميع الأحوال وبما أنّها كانت قريبة، فقد فضّل أن يُعلم القبطان.  
بعد لحظات قليلة خرج سانتياغو ليون من حجرته وهو يزرر  
بنظونه ويحمل المنظار في يده. كَفَتْهُ نظرة كي يدبّ صوت  
الاستنفار ويقرع الجرس مُستدعياً البحارة، لكنّ الوقت تأخّر  
فالقراصنة راحوا يتسلّقون جوانب لا مار دي ديوس.

رأى ديفغو الكلابات الحديدية التي يستخدمونها للهجوم، لكن  
ليس هناك وقت لقطع الكابلات، انطلق إلى حجرة القيدوم، محذراً  
بصوت عالٍ خوليانا وإيزابيل ونوريا ألا يخرجن مهما كان السبب،  
أخذ السيف الذي صنعه له بلّايو واستعدّ للدفاع عنهن. وصل  
المهاجمون الأوائل إلى السطح وخناجرهم بين أسنانهم. خرج

والأمواج  
صارية التي راحت  
لم يكن هناك من  
المحيط الأسود.

صواعق والأمطار  
استطاعوا أن  
بحارين الفارقين  
ذراعه عند انزلاق  
ج من الجلد فإن  
ضاعفة من الروم  
ببت الذراع. تفرغ  
ة وإعادة توزيع  
سها إلى عقبها كي  
المحال إصلاحها  
عن مسارهم بعيداً  
أن أنهم يستطيعون  
وبا.

ن الصارية الكبرى  
البحارة الشجعان  
حين دبّ الصوت  
وا بهمهمون. ألفي  
لكنّه لم يُخفف من  
ت موسيقى الجناح  
يحبون بنظرهم من  
هواء. كانت السفينة  
جاء كويبا. وسرعان  
حرف الكبيرة، وكلّك

بحارة لا مادي ديوس من كل مكان، مثل الجرذان مسلحين بما  
وقعوا عليه، بينما القبطان يُعطي أوامر غير مُجدية، لأنه في لحظة  
واحدة نشبت معركة جهنمية ولم يسمعه أحد. وكان ديفغو والقبطان  
يقاتلان جنبا إلى جنب ستة مهاجمين، الكائنات المريعة معلمين  
بندوب مريعة، طويلي الشعر، يحملون خناجر حتى في أحذيتهم  
ومسدسان أو ثلاثة وسيوف قصيرة على خصورهم. راحوا  
يزمجرون مثل النمر، لكنهم يُقاتلون بضجيج وشجاعة أكثر مما  
يفن. ما من أحد منهم كان باستطاعته مواجهة ديفغو وحيداً، لكنهم  
جمعاً حاصروه. تمكن الشاب من كسر الطوق وجرح واحد منهم،  
قفز بعدها وتعلق بشراع المؤخرة، تسلق مداوس الصارية وأمسك  
كابلاً سمح له بالتأرجح وقطع السطح، كل ذلك دون أن يسهو بنظره  
عن حُجيرات النساء. كانت الأبواب خفيفة ويمكن فتحها برفسة  
واحدة. فقط كان يأمل ألا تطل أي منهنّ بأنفها على الخارج. وبينما  
كان يتأرجح بالحبل اندفع وسقط تماماً أمام رجل كان ينتظره  
وسيفه في يده. وبخلاف البقية الذين كانوا بلا ضمير، ويرتدون  
الأسمال كان هو يرتدي ملابس أمير، كلها سوداء وممزراً حريزياً  
أصفر حول خصره، ويضع قبة وكمين مطرزين، وينتعل جزمة  
طويلة ناعمة ذات أبازيم ذهبية ويضع سلسلة من المعدن ذاته في  
عنقه وخواتم في أصابعه، كان حسن القد، طويل وبراق الشعر،  
حليق الذقن، ساخر البسمة، التي كانت تتراقص على شفثيه  
الرقيقتين، وناصع بياض الأسنان. استطاع ديفغو أن يُقيمه بنظرة  
سريعة، فلم يتوقف ليتحقق من هويته. قدر من زيّه الفاخر وموقفه  
أنه لا بد أن يكون زعيم القراصنة. سلم العنصر الأنيق بالفرنسية  
ووجه طعنته الأولى إلى ديفغو الذي استطاع تفاديها مقدار شعرة.  
وتقاطع السيفان وخلال ثلاث أو أربع دقائق أدرك الاثنان أنّهما  
فصلاً في قالب واحد، الواحد منهما للآخر. كلاهما كان مبارزاً  
رائعاً. ورغم الظروف أحس كل منهما بالمتعة السرية بأنه يقاتل  
خصماً على مستوى عالٍ، وقرراً دون أن يتفقا أنّ الخصم يستحق

قتالاً نظيفاً، ولو كان حتى الموت. بدت المبارزة وكأنها عرضٌ فني، لا بد أنه سيملاً المعلم مانول إسكالانتِ فخراً.

على متن لا مادي ديوس كان كل واحدٍ يُقاتل دفاعاً عن نفسه. الفتي سانتياغو دي ليون نظرةً حوله وقيّم الوضع خلال ثانية. كان للقراصنة أكثر عدداً بمرتين أو ثلاث مراتٍ، مسلحين جيداً. يعرفون كيف يقاتلون وأخذوهم على حين غرة. بينما رجاله بخارة تجاريين وبيعين وبعضهم خطّ الشيب مفرقه ويحلم بالانسحاب من البحر وتكوين أسرة، إذ لم يكن من العدل أن يموتوا دفاعاً عن حمولة غريبة. وبجهد وحشي تمكن من الانفصال عن مهاجميه وأدرك بقفتين الناقوس ليقرعه للاستسلام. أطاع البخارة وألقوا أسلحتهم وسط صيحات نصر المهاجمين. وحدهما ديفغو وخصمه الأنيق نجاهلا قرع الناقوس واستمرّا في عراكهما بضع دقائق، إلى أن تمكن الأول من نزع سلاح الثاني بضربة معاكسة. انتصار ديفغو دام قليلاً، لأنه سرعان ما وجد نفسه في طوق من السيوف تجرح جلده.

- اتركوه، لكن لا ترفعوا نظركم عنه! أريده حياً - أمر خصم سانتياغو دي ليون وحيّاه على الفور بقشتالية تامة - جان لافيت، رهن أوامرك، أيها القبطان.

- هذا ما كنتُ أخشاه، يا سيّد. لم يكن من الممكن أن تكون غير لص البحر لافيت - ردّ دي ليون، وهو يُجفّف عرق جبينه.

- لص بحرٍ لا، أيها القبطان. لديّ رخصة قرصانٍ من قرطاجنة كولومبيا.

- لا فارق بالنسبة للحالة. ماذا نستطيع أن ننتظر منك؟

- تستطيع أن تنتظر معاملة عادلة. لا نقتل ما لم يكن بدّ من ذلك، لأنه يناسبنا جميعاً التوصل إلى تسوية تجارية. أقترح أن نتفاهم كفرسان. اسمك، من فضلك؟

- سانتياغو دي ليون، بخار تجاري.

- لا تهمني غير حمولتك، أيها القبطان سانتياغو دي ليون. وهي إذا كانت معلوماتي صحيحة أسلحة وذخيرة.

- وماذا سيصير إليه أمر بخارتي.

- يستطيعون أن يأخذوا زوارقهم وإذا ما كانت الريح موافية سيصلون إلى الباهامس أو كوبا خلال يومين. كل شيء يتعلق بالحظ. هل من شيء على متن السفينة يمكن أن يهمني غير السلاح؟  
- كتب وخرائط؟... - رد سانتياغو دي ليون.

تلك كانت اللحظة التي اختارتها إيزابيل لتخرج من حُجيرتها. فقد بقيت محبوسة، مطيعة أوامر ديبغو إلى أن توقفت جلبة المعركة وصوت الطلقات، وعندها لم تتحمل فضولها فخرجت لتعرف كيف انتهت المعركة.

- يا الله! يا لها من سيّدة جميلة... - صاح لاقيت عندما رآها. قامت إيزابيل بحركة من بوغت وأنزلت سلاحها. تلك كانت المرّة الأولى التي يستخدم فيها شخص هذا النعت لوصفها. اقترب لاقيت خطوة منها، حياها مُنحنيًا، مدّ يده فسلمته هي المسدّس دون أن تنبس ببنت شفة.

- هذا يُعقد الأمور قليلاً... كم مسافراً معكم - سأل لاقيت القبطان.

- آنستان وقهرمانتهما، يُسافران مع السيّد ديبغو دي لايفغا.  
- شيء مهم جداً.

أغلق القبطانان الحجرة على نفسيهما ليناقشا الاستسلام، بينما اثنان من القراصنة يوقفان ديبغو على الحدّ مسدّدين عليه مسدسيهما، والبقية يستولون على السفينة. أمروا المهزومين بأن يتمدّدوا على بطونهم على الأرض وأيديهم على نقراتهم، وطافوا السفينة بحثاً عن الغنيمة، وخفّفوا عن الجرحى بالروم ثم رموا

بالقتلى إلى البحر. لم يأخذوا أسرى، فذلك عامل إعاقة كبير. نقلوا جرحاهم بكثير من العناية إلى زوارق هجومهم ومن هناك إلى سفينة القرصنة. في هذه الأثناء كان ديفغو يُخطط لطريقة للتخلص وإنقاذ الصغيرتين في رومو. في حال وصوله إليهما، لا يتصور كيف سيهربون، فمجرد فكرة أن يضع أحد هؤلاء الرجال يرائته على هاتين الفتاتين كان يخرج من عقله. عليه أن يفكر ببرودة، فالخروج من تلك الحالة يحتاج حنكة وحظاً، ومعرفته بالمبارزة لا تفيد كثيراً في هذا الأمر.

اشترى سانتياغو دي ليون ومن بقي حياً من بخارته حرّيتهم بربع راتبهم السنوي، الشيء المعتاد في تلك الحالات. وعرضوا على البحارة خيار أن ينضمّوا إلى عصابة لافيت فقيل بعضهم. كان القرصان يعرف أنّ دين القبطان سيُدفع كما يملي الشرف، فمن لا يفعل يحتقره حتى أفضل أصدقائه. كان الأمر يتعلق بتحويل أسهم نظيف وبسيط. كان على سانتياغو دي ليون أن يسلم مسافريه الأربعة إلى جان لافيت، الذي كان يفكر أن يقبض فديتهم. أفهمه أنّ الفتاتين يتيمتين وليس لديهما ثروة، ومع ذلك أصرّ القرصان على أخذهما، لأنّه كان هناك طلب كبير على النساء البيض في بيوت المرح في نيواورليانز. توسّله سانتياغو دي ليون أن يحترم هاتين الفتاتين الفضيلتين، اللتين عانتا كثيراً ولا تستحقان هذا المصير الرهيب، لكنّ مثل هذه الاعتبارات كانت تتعارض مع التجارة، وهو ما لم يكن باستطاعة لافيت أن يسمح به، ثمّ وضح أن البغاء عمل لطيف بالنسبة للكثير من النساء. خرج القبطان من الاجتماع منكسراً. لم يكن يهتم أن يخسر الأسلحة، على العكس، فأحد الأسباب التي لأجلها سرّع الاستسلام هو رغبته في التخلص من تلك الحمولة العباء، لكنّ فكرة أن تنتهي ابنتا دي رومو، اللتان ودّهما ودّاً حقيقياً، إلى ماخور كانت ترعبه. كان عليه أن يُعلم ركباه بالمصير الذي ينتظرهم، موضحاً أن الوحيد الذي يوجد أمل بأن يخرج سليماً هو ديفغو دي لايفغا، لأنّ والده سيقوم بالتأكيد بما هو ضروري لإنقاذه.

- والدي سيدفع أيضاً فدية خوليانا وإيزابيل ونوريا، شرط أن لا يضع أحد إصبعه عليهن. سنرسل إليه على الفور رسالة إلى كاليفورنيا - أكد ديبغو للافيت، لكنه لم يكذب يقول ذلك حتى شعر بغم في صدره، كأن قلبه يُحدثه بفأل سيء.

- البريد يتأخر عادة، ولذلك سيبقيين في ضيافتي لبضعة أسابيع وربما أشهر، حتى نستلم الفدية. خلالها ستُحترم الفتاتان. ومن أجل صالح الجميع، أمل ألا يجعلنا أبوك نتوسل الجواب - ردّ القرصان، دون أن يرفع عينيه عن خوليانا.

النساء اللواتي لم يكذبن يرتدين ثيابهنّ أغمي عليهنّ حين رأين على السطح تلك العصا من عديمي الضمير المريعين، ودمّ الجرحى. خوليانا لم ترتعد من الخوف فقط، كما يمكن أن نفترض، بل من صدمة نظرة جان لافيت.

أرسي القراصنة سفينتهم ذات الشراعين ووضعوا عوارض بين كلا الجسرين وشكّلوا جسراً بشرياً لنقل الحمولة الخفيفة، بما في ذلك الحيوانات وبراميل البيرة والخنزير المقدّد من سفينة إلى أخرى. لم يكونوا على سرعة من أمرهم فلا ماديّ ديوس تعود ملكيتها الآن للافيت. كانوا يعملون بسرعة، لأنّ سفينة لا ماديّ ديوس كانت تفرق بشكل واضح. حضر القبطان دي ليون المناورة بلا تأثر، لكن قلبه كان يخفق، لأنه كان يحبّ سفينته كما لو أنّها خطيبته. على الصارية المعادية كان يُرفرف إلى جانب علم كولومبيا علم آخر أحمر، اسمه جولبي روج، الذي كان يعني ترك المهزومين أحراراً مقابل ثمن معين. هذا ما طمأنه قليلاً. كان يعرف أنّ القرصان سيسمح له، بعد كل حساب، بإنقاذ طاقم بحارته. البيرق الأسود الذي يحمل أحياناً جمجمةً وعظمين متصالبين، يعني القرار بالقتال حتى آخر رجل وذبح الخصوم. حين انتهوا من الحمولة وقى لافيت بكلمته وأذن لسانتياغو دي ليون أن يضع ماء عذباً وموئناً في الزوارق ويأخذ أدوات إبحاره، التي لا يستطيع أن يحدّد موقعه من دونها

وحمل من تبقى من بحارته. في هذه اللحظة ظهر غاليليو تمبستا،  
الذي تدبّر أمره وبقي مختبئاً خلال المعركة، بحجة ذراعه المكسورة  
وجلس بين الأوائل في واحد من الزوارق. ودع القبطان ديفغو  
والنساء بربتة قوية من يديه ووعده بأن يعودوا ويلتقوا. تمنى لهم  
حظاً سعيداً ونزل إلى أحد الزوارق دون أن يلقي نظرة إلى الخلف.  
لم يكن يريد أن يرى لا مادري ديوس، التي كانت مسكنه الوحيد  
لغوره في أيدي القراصنة.

سفينة القراصنة، المحملة حتى أعلاها، كانت صعبة التحرك.  
لم يحدث أن وجد لافيت نفسه في عرض البحر لأكثر من يومين، لذلك  
يستطيع أن يكسب مئة وخمسين بحاراً في مكان لا يتسع عادة لأكثر  
من ثلاثين شخصاً. كان مركز عملياته الرئيسي في غراند إيزل،  
الجزيرة الكبرى، بالقرب من نيواورليانز، وهي جزيرة صغيرة في  
منطقة مستنقعات باراتاريا. هناك كان ينتظر أن يخبره جواسيسه  
بإقتراب صيد مُحتمل كي ينطلق للهجوم. كان يستغل الضباب أو  
عتمة الليل، حين تُخفف السفن من سرعتها، أو تتوقف، كي يُهاجمها  
بحذر وسرعة. كانت المباغتة مميّزته الكبرى، يستخدم مدافعه  
لتخويف السفينة المعادية أكثر منه لإغراقها، وهكذا كان يتمكن من  
السيطرة عليها وضمها إلى أسطولها، المكوّن من ثلاث عشرة سفينة  
بشرايين، ومرزاب ومركب وزورق.

كان جان وأخوه بيير أكثر قراصنة تلك السنوات ثروياً في  
البحر، لكنهما يستطيعان أن يمرّا على اليابسة كرجلي تجارة. كان  
حاكم نيواورليانز، المحققن من التهريب وتجارة العبيد والنشاطات  
الأخرى غير الشرعية للأخوين لافيت، قد وضع ثمناً لرأسيهما  
خمسئة دولار، فردّ عليه جان مقدماً ألفاً وخمسئة مقابل رأسه.  
تلك كانت ذروة عداوات كثيرة، تمكّن خلالها جان من الفرار، لكن  
بيير بقي سجيناً عدّة أشهر. هوجمت غراند إيزل وصودرت كل

بضائعها. ومع ذلك تبدل الوضع حين أصبح الأخوان لافيت حليفين للقوات الأمريكية. وصل الجنرال جاكسون إلى نيو أورليانز على رأس فرقة من الرجال المدقعين ومرضى الملاريا، بمهمة الدفاع عن أراضي لويزيانا الشاسعة ضد الإنكليز. لم يكن يستطيع أن يسمح لنفسه بترف رفض المساعدة التي عرضها عليه القراصنة. قطاع الطرق أولئك، الخليط من الزنوج والخلاسيين والبيض، أثبتوا أنهم أساسيون في المعركة. واجه جاكسون عدوه يوم 8 كانون الثاني من عام 1815، أي قبل ثلاثة أشهر من وصول أصدقائنا بالقوة إلى تلك المنطقة. كانت الحرب بين إنكلترا ومستعمرتها القديمة قد انتهت قبل أسبوعين، لكن ما من أحد من الطرفين كان يعرف. بحفنة من الرجال من مختلف المشارب، لا يشتركون حتى في اللغة، هزم جاكسون جيشاً منظماً وحسن التسلح، مكوناً من عشرين ألف إنكليزي. وبينما كان الرجال يقتل بعضهم بعضاً في تشالميت، على بعد كيلومترات قليلة من نيو أورليانز، كان هناك نساء وأطفال يصلون في دير لاس أورسوليناس. في نهاية المعركة، وحين شرعوا يحصون الجثث، وجدوا أن إنكلترا فقدت ألفي رجل. بينما لم يخلف جاكسون في ميدان المعركة غير ثلاثة عشر قتيلاً. كان الخلاسيون - صحيح أنهم سود لكنهم أحرار - والقراصنة أشجعهم. بعدها بأيام احتفل بالنصر بأقواس الزهر وبالصبايا مرتديات البياض، ممثلات عن كل ولاية من الاتحاد، اللواتي توجن الجنرال جاكسون بالغار. وكان بين الحشود الأخوان لافيت وقراصنته، الذين لأنهم منفيون صاروا أبطالاً.

خلال الأربعين ساعة التي استغرقتها سفينة لافيت في الوصول إلى غراند إيزل أبقوا على ديفو د لايفو مربوطاً على السطح، وعلى النساء الثلاث محبوسات في حُجيرة صغيرة بجانب حجرة القبطان. بيبير لافيت، الذي لم يُشارك في الهجوم على لا مار د ديوس، لأنه بقي مسؤولاً عن سفينة القراصنة، كان رجلاً مختلفاً جداً عن أخيه، كان فظاً جداً، قوي الجسم، وشرساً، فاتح لون الشعر، نصف وجهه



مشلول بفعل جلطة دماغية، يُحب الطعام والشراب بإفراط ولا يستطيع أن يقاوم امرأة شابة، لكنه امتنع عن إزعاج خوليانا وأختها لأن أخاه ذكره بأن التجارة أهم من اللذة. فهاتان الفتاتان يمكن أن تعودا عليهما بمبلغ محترم من المال.

كان جان يحافظ على أصله سرّاً، إذ لا أحد كان يعرف من أين جاء، لكنه يعترف بسنوات عمره الخمس والثلاثين. كان لطيف المعاملة وحسن الآداب، يتكلم عدّة لغات، بينها الفرنسية والإسبانية والإنكليزية، يُحب الموسيقى ويتبرّع بمبالغ كبيرة للأوبرا في نيواورليانز. ورغم نجاحه بين النساء إلا أنه لا يُضايقهن مثل أخيه، فهو يُفضّل أن يُغازلهنّ بصبر، كان أنيقاً، مرحاً وراقصاً كبيراً دراوي نكات، يبتدعها بسرعة بديهية. وكانت مناصرته للثورة الفرنسية أسطورية، كان قباطنته يعرفون أن «من يهاجم سفينة أمريكية يموت». الرجال الثلاثة آلاف الذين كانوا تحت أمرته ينادونه بوش، أو الزعيم، كان يُحرّك الملايين في التجارة مستخدماً المواعين والزوارق الشجرية في ممرات دلتا الميسيسيبي المتشابكة. لا أحد يعرف تلك المنطقة مثله ومثل رجاله، ولم تكن السلطات تستطيع أن تتحكّم بهم أو تصطادهم. كان يبيع نتاج أعماله القرصنية على بعد فراسخ قليلة من نيواورليانز، في مكان قديم مقدّس عند الهنود، يدعى المعبد. كان أصحاب المزارع والزنوج المولّدون الأغنياء وغير الأغنياء جداً بل وأقرباء الحاكم، يشترون على هواهم، دون أن يدفعوا الضرائب، بأسعار معقولة وفي جوّ معرض سعيد. هناك تتمّ المزايدة على العبيد، الذين يحصلون عليهم بسعر رخيص في كوبا، ويبيعونهم بأسعار مرتفعة في الولايات الأمريكية، التي تُمنع فيها تجارة الزنوج، لكن ليس تجارة الرق. كان لاقيث يُعلن عن مبيعاته في ملصقات عند كل زاوية من زوايا المدينة: تعالوا جميعاً إلى بازارٍ ومزارٍ عبيدٍ جان لاقيث في المعبد! ملابس، مجوهرات، أثاث وموادّ أخرى من بحار الأرض السبعة!

دعا جان رهائنه من النساء الثلاثة للمشاركة في وجبة على  
سطح السفينة، لكنهن رفضن الخروج من خجيراتهن. أرسل إليهن  
صينية من الجبن والمقَدَّدات وزجاجة نبيذ إسباني جيد، حصل عليها  
من لا مادري ديوس، مع تحياته وتقديره. لم يكن باستطاعة خوليانا  
أن تبعده عن فكرها، وباتت تموتُ فضولاً للتعرف عليه، لكنها  
اعتبرت أن الحكمة تقتضي أن تبقى حبيسة.

أمضى ديفغو الساعات الأربعين هذه في العراء، مربوطاً مثل  
سجقة، بلا طعام. نزعوا منه قلادة العدالة والنقود القليلة التي كان  
يحملها في جيبه، وأعطوه من حين لآخر قليلاً من الماء ورفسات إذا  
ما تحرك أكثر من اللازم. اقترب منه جان لأقبت في مناسبتين ليؤكد  
له أنه سيرتاح أكثر عندما يصل إلى جزيرته ويعتذر منه على قلة  
أدب رجاله. لم يكونوا معتادين على التعامل مع ناس مهذبين، قال  
له، واضطر ديفغو لابتلاع السخرية، مدمماً في داخله بأنه عاجلاً أو  
آجلاً سيكسر شوكة عديم الضمير هذا. المهم هو أن يبقى حياً،  
فبدونه ستهلك صغيرتا دي رومو. كان قد سمع عن حفلات مجون  
الكحول والجنس والدم التي يقيمها القراصنة في أوكارهم، حين  
يعودون منتصرين من أعمالهم الشريرة، وكيف كانت النساء  
الأسيرات التعيسات يعانين أسوأ الإهانات، وسمع عن الأجساد  
المفتصبة والمقطعة التي كانوا يطمرونها في الرمل خلال تلك  
الحفلات الباخوسية. كان يُحاول ألا يفكر بهذا، بل بطريقة الهرب،  
لكن تلك الصور كانت تعذبه. كذلك لم يكن ينفك عنه ذلك الحدس الذي  
ساوره من قبل. لا بد أن يلتقي أباه، كان واثقاً من ذلك. فقد مضى  
عليه أسابيع لم يستطع فيها التواصل مع برناردو، وقرّر أن يستغل  
هذه الساعات الكريهة لمحاولة ذلك. ركز على استحضر مناداة  
أخيه، لكن التواصل عن بُعد لم يكن يعمل بالإرادة، فالرسائل كانت  
تروح وتغدو دون تصميم ثابت منهما أو تحكّم. بدا له ذلك الصمت  
الطويل، النادر بينه وبين برناردو نذير شؤم كبير. كان يتساءل ماذا  
يحدث في أعالي كاليفورنيا، ماذا عن برناردو وأبويه.

كانت تسوء غراند إيزل في باراتاريا، حيث يملك الأخوان لافيت  
إمبراطوريتهما الشاسعة والرطبة والمستوية في بقية المنطقة هالة  
من الغموض والانحطاط. كانت تلك الطبيعة المتقلبة والحارة، التي  
تنقل من الهدوء المثالي إلى الأعاصير المدمرة، تُوجِّج العواطف  
الكبرى. كل شيء يفسد بسرعة، بدءاً من النباتات وحتى الروح  
البشرية. وكانت تهب في لحظات الطقس الحسن، كالتي كانت من  
نصيب ديفغو وصديقاته عند وصولهم، نسمة حارة تجرُّ معها رائحة  
زهر برتقال حلوة، لكن ما إن تتوقف النسمة حتى يهبط حرٌّ ثقيل  
كالرصاص. أنزل القراصنة أسراهم وقادوهم إلى منزل جان لافيت،  
القائم فوق لسان بحريٍ محاطٍ بغابات النخيل والسنديان الملتوي،  
بأوراقها التي حرقها الملح البحري. لم تكن بلدة القراصنة المحمية  
من الرياح بشبكة من الأشجار الحراجية، تُرى تقريباً من بين  
الأوراق. وكانت أزهار الدفلى تضيف لمساتٍ لونها على المشهد.  
كان منزل لافيت مؤلفاً من طابقين، من الطراز الإسباني بمشربيات  
على النوافذ وشرفة واسعة تُطلُّ على البحر، مبنية من القرميد  
ومسقوفة بمزيج من الجصِّ وأصداف الأستريد المسحوقة. كان  
نظيفاً ومرتباً بل وفاخراً وأبعد ما يكون عن الكهف الذي تصوّره  
الأسرى. الغرف واسعة ورطبة، ومنظرُ الشرفات بدا مدهشاً. كانت  
الأرضية المصنوعة من الخشب الأشقر تلمع، الجدران طليت للتو  
وعلى كل طاولة مزهريات، فيها أزهار، وقصعات فيها فواكه،  
وأباريق نبيذ. قاد زوجٌ من القنان الزنجيات النساء إلى الغرف التي  
خصّوهنَّ بها. وسهّلوا لدييفغو جفنة من الماء كي يفتسل، وقدموا له  
القهوة وقادوه إلى الشرفة، حيث كان جان لافيت يرتاح في سرير  
أحمر معلق، يعزف على آلة وترية، ونظره ضائع في الأفق، يرافقه  
ببغاوان زاهيا الألوان. فكّر ديفغو أن التناقض بين السمعة السيئة  
لذلك الرجل وبين مظهره المهدّب لم يكن من الممكن أن يكون أكثر  
مفاجأة.

- تستطيع أن تختار بين أن تكون أسيري أو ضيفي، يا سيد د

فسي وجبة على  
من أرسل إليهم  
جيد، حصل عليها  
استطاعة خوليانا  
رّف عليه، لكنها  
عراء، مربوطاً مثل  
د القليلة التي كان  
الماء ورفسات إذا  
في مناسبتين ليؤكد  
يعتذر منه على أن  
ناس مهذّبين، نال  
داخله بأنه عاجلاً  
هو أن يبقى حياً  
ع عن حفلات مجون  
في أوكارهم، حين  
وكيف كانت النساء  
وسمع عن الأجساد  
في الرمل خلال تلك  
ذا، بل بطريقة الحرب  
عنه ذلك الحطس الذي  
تقاً من ذلك. فقد مضى  
اردو، وقدّر أن يستقل  
على استحضار مناداته  
الإرادة، بدال له تلك الصفت  
حتم. كان يتساءل عن  
كبير

لا بفا. كاسير لك الحق في محاولة الهرب وأنا لي الحق في منعك بأية وسيلة. كضيف لي ستعامل معاملة حسنة إلى أن نتلقى الفدية من أبيك، لكنك مجبر بحكم قانون حسن الضيافة على احترام بيتي وتعليماتي. هل تفاهمنا؟

- علي قبل أن أجيبك، يا سيّد، أن أعرف مشاريعك بالنسبة للأختين دي رومي، اللتين هما في عهدي - ردّ ديفغو.

- كانتا ولم تعودا، يا سيّد. هما الآن في عهدي. مصيرهما يتعلق بردّ أبيك.

- إذا قبلت أن أكون ضيفك، فكيف لك أن تتأكد من أنني لن أحاول الهرب في كل حال؟

- لأنك لن تفعل من دون الصغيرتين دي رومي ولأنك ستعطيني كلمة شرفك - ردّ القرصان.

- أعطيتها لك، أيها القبطان لافيت - قال ديفغو، مُذِعِناً.

- حسن جداً. من فضلك رافقني لنتناول العشاء مع صديقتك خلال ساعة. أعتقد أنّ طبّاحي لن يخيبكم.

كانت خوليانا وإيزابيل ونوريا يمررن في هذه الأثناء في لحظات تشوّش. أحضر عدد من الرجال بعض الطشوت إلى غرفهنّ وملؤوها بالماء، ظهرت بعدها ثلاث عباتٍ شابّاتٍ مزوّدات بالصابون والفراشي، تحت أمره امرأة طويلة وجميلة، منحوتة الملامح، طويلة العنق، مزينة بعمامة كبيرة على رأسها، تمنحها شبراً آخر طويلاً. قدّمت نفسها بالفرنسية مدام أوديليا، ووضّحت أنّها هي التي تأمر في بيت جان لافيت. أشارت إلى السجينات أن يخلعن ملابسهنّ، لأنهنّ سيُحمّمن. ما من واحدة من الثلاث تعرّت في حياتها، كنّ يغتسلن بحياء تحت عباءة قطنية خفيفة. حركات نوريا القوية أثارت ضحك العبات ووضّحت صاحبة العمامة أنّه لا أحد يموت من الاستحمام. بدا الأمر معقولاً لإيزابيل فخلعت ما كانت

ترتديه. قلدتها خوليانا. مغطية عورتها بيديها، فأثار هذا قهقهات  
أخرى عند الأفريقيات، اللواتي كنَّ يُقارنُ بين بشرتهنَّ خشبية اللون  
وبشرة الفتاة، البيضاء مثل خرف غرفة الطعام. اضطربن لأن  
يمسكن نوريا فيما بينهنَّ كي ينزعن ملابسها، فراحت صرخاتها  
تهزُّ الجدران. أدخلنهنَّ في الطشوت وفركنهنَّ بالصابون من القدمين  
وحتى الرأس. وجدن بعد لحظة الخوف الأولى أنَّ التجربة لم تكن  
مرعبة كما بدت في البداية، وسرعان ما شرعت خوليانا وإيزابيل  
تتمتعان بها. حملت العبدات ملابسهنَّ دون أن يُقدِّمن توضيحات  
وأحضرن لهنَّ بالمقابل فساتين بروكار فاخرة، غير مناسبة كثيراً  
للطقس الحار. كانت في وضع جيد على الرغم من أنها، كما بدا  
واضحاً، مستعملة؛ واحد منها كان عليه بقع دم في طارته. أي  
مصير لاقت صاحبه السابقة؟ هل كانت أسيرة أخرى؟ من الأفضل  
ألا يتخيلن مصيرها ولا المصير الذي كان ينتظرهنَّ. استنتجت  
إيزابيل أنَّ السرعة في تعريتهنَّ إنّما جاءت عملاً بتعليمات لافيت،  
الذي يرغب بمعرفة أنهنَّ لا يُخفين شيئاً تحت تنوراتهنَّ. وكنَّ قد  
تهيأن لهذه الحادثة.

استغل دييغو الحرّية المشروطة التي منحها له القرصان كي  
يجوب المنطقة حولهم، ريثما يحين وقت العشاء. كان شعبُ  
القراصنة مكوناً من أرواح تائهة من كل بقعة من بقاع الأرض.  
فبعضهم يُقيم مع زوجته وأولاده في أكواخ بائسة مصنوعة من  
سعف النخيل، بينما العزّاب يهيمون دون سقف ثابت يؤويهم. كان  
هناك محلات تُقدِّم أطباقاً فرنسية مولّدة وخلصية، وبارات  
ومواخير، بالإضافة إلى ورشات ودكاكين المهن اليدوية. كان  
يجمع هؤلاء الرجال من مختلف الأعراق واللغات والمعتقدات  
والعادات، شعوراً ضاراً بالحرّية، لكنهم يقبلون قانون باراتاريا، لأنّه  
يبدولهم مناسباً ولأنَّ النظام ديمقراطي. كل شيء يُقرَّر بالتصويت،  
بل ولهم الحق في اختيار واستبدال قباطنتهم. كانت القواعد

واضحة: من يزعج امرأة غيره ينتهي مهجوراً في جزيرة صغيرة  
مقفرة مع دورق من الماء العذب ومسدس مُعبأ؛ وكان ثمنُ السرقةِ  
الجلد؛ والقتل بالمشنقة. لم يكن يوجد خضوع أعمى للرئيس، إلا في  
عرض البحر خلال عملية حربية، لكن يجب إطاعة القوانين أو دفع  
الثمن. في أزمنة أخرى كانوا مجرمين ومُغامرين أو فارين من سفن  
حربية، وكانوا هامشيين دائماً، والآن هم فخورون بأنهم ينتمون  
إلى مجتمع. وحدهم المؤهلون كانوا يُبحرون، أما البقية فيعملون  
في الكير، يطبخون، يربون الماشية، ويُصلحون السفن والزوارق  
ويبنون البيوت ويصيدون السمك. رأى ديفغو نساءً وأطفالاً، وكذلك  
رجالاً مرضى أو بأعضاءٍ مبتورة، وعلم أن سادة الحرب، اليتامى  
والأرامل يلقون الرعاية. فإذا ما فقد بحارٌ ساقاً أو ذراعاً في عرض  
البحر، يُعوّض بالذهب. وكانت الغنائم تُوزع بالعدل بين الرجال  
ويُعطى قليل منها للأرامل. أما بقية النساء فليس لهن دور يُذكر. فقد  
كن عاهراتٍ وعبداً وأسيرات في الهجمات على السفن وكان هناك  
أيضاً بعض النساء الشجاعات والحرات، لسن كثيرات، ووصلن إلى  
هناك بمحض قرارهن.

على الشاطئ صادف ديفغو نحو عشرين سكراناً متفرغين  
للمشاجرة الطوعية والجري خلف النساء على ضوء النيران. عرف  
عدداً من بحارة السفينة التي دمرت لا ماردٍ ديوس وقرّر أنها  
فرصته لاستعادة قلادة العدالة، التي انتزعها منه واحداً منهم.

- يا سادة! اسمعوني! - صاح.

تمكّن من شدّ انتباه أقلهم تسمماً وتشكّلت دائرة حوله، بينما  
النساء يستغلن تلهي الرجال ليأخذن ملابسهن ويبتعدن مسرعات.  
رأى ديفغو نفسه محاطاً بوجوه ورّمها الكحول وعيونٍ محتقنة بالدم  
وأفواهٍ درداء تشتمه وبرائثٍ راحت تلجأ إلى السكاكين. لم يمنحهم  
الوقت كي ينتظموا.

- أريد أن أتسلى قليلاً. هل من أحدٍ منكم يجروني على مصارعتي؟  
- سأل.

ردت عليه جوقه متحمسة بالإيجاب وانغلقت الدائرة من حوله،  
بصيح استطاع أن يشم رائحة عرق الرجال ونفسهم المشبع الكحول  
والتبغ والثوم.

- واحداً فواحداً، رجاءً. سأبدأ بالشجاع الذي معه قلادتي،  
بعدها أصفح كل واحد منكم صفقة بالدور. ما رأيكم؟

ارتقى عدد من القراصنة فوق ظهورهم على الشاطئ، وهم  
يرفسون بأرجلهم في الهواء من الضحك. بينما راح البقية يتشاورون  
في الأمر حتى فتح واحد منهم قميصه البالي وأراه أخيراً القلادة،  
وهو على استعداد تام لمصارعة ذلك الصبي، الذي له يدا امرأة، وما  
تزال رائحة حليب أمه تفوح منه، كما قال. أراد ديفو أن يتأكد من  
أنها جوهرته بالفعل. نزعها الرجل من عنقه وهزها قريباً من أنفه.

- لا ترفع بصرك عن قلادتي، يا صديقي، لأنني سأنتزعها منك  
عند أول غفلة - تحداه ديفو.

وعلى الفور سحب القرصان خنجراً معقوفاً من خصره ونقض  
عنه تشوش الكحول، بينما البقية يبتعدون كي يفسحوا لهما المجال.  
ترنح فوق ديفو، الذي كان ينتظره، ثابت القدمين في الرمل. لم يكن  
عبثاً أنه تعلم سر مصارعة جمعية العدالة. استقبل خصمه بثلاث  
حركات متزامنة: حرف يده المسلحة، تنحى جانباً وقرفص،  
مستخدماً اندفاع الآخر لصالحه. فقد الآخر توازنه، فرفعه ديفو  
من كتفه ورماه في الهواء دائراً به دورة كاملة. ولم يكد يرسو على  
ظهره حتى وضع قدمه على معصمه وانتزع منه الخنجر. بعدها  
التفت إلى المتفرجين بانحناءة احترام قصيرة.

- أين قلادتي؟ - سأل ناظراً إلى القراصنة واحداً فواحداً.

اقترب من أكبرهم حجماً، كان على مسافة عدة خطوات منه  
واتهمه بأنه أخفاها. امتشق الرجل خنجره، لكن ديفو أوقفه بحركة  
منه وأشار عليه أن يخلع قبعته، لأنها هناك. أطاع الوغد مرتبكاً  
وعندها أدخل ديفو يده فيها وأخرج منها القلادة بشكل نظيف.

ع أعمى للرئيس، إلا أن  
إطاعة القوانين أو ليس  
ميرين أو فارين من سن  
فخورون بأنهم ينتمون  
زن، أما البقية فيعلمون  
ملحون السفن والزوارق  
ع نساء وأطفالاً، وكل  
ن سادة الحرب، ليس  
ساقاً أو ذراعاً في عرض  
زرع بالعدل بين الرجل  
فليس لهم دور يذكر. قد  
ت على السفن وكان هناك  
لسن كثيرات، ووصلت إلى  
عشرين سكراناً متفرجين  
على ضوء النيران، عرف  
مادري ديبوس وفرز أنها  
عها منه واحداً منهم.  
وتشككت دائرة حوله، بينما  
لابسهن وبيبتن سرعان  
لكحول وعيون مطقبة بل  
أ إلى السكاكين لم يبن  
منكم يجرؤ على مصالحة

شئت المفاجأة البقية، الذين لم يعرفوا ما إذا كانوا سيضحكون أم سيهاجمونه، إلى أن تبثوا الفكرة الأقرب إلى طبيعتهم: أن يلقنوا هذا الصبي الوقح درساً.

- الجميع ضد واحد؟ ألا يبدو لكم ذلك جبناً - تحذاهم ديفغو وهو يدور والخنجر في يده، جاهزاً للقفز.

- هذا الفارس على حق، سيكون هذا جبن لا يليق بكم - قال صوت.

كان هذا جان لافيت، وكان لطيفاً ومبتسماً، بموقف من خرج ليستنشق الهواء في نزهة، لكنه وضع يده على مسدسه. أخذ ديفغو من ذراعه ومضى به بهدوء، دون أن يجرواً أحد على أيقافه.

- لا بد أن هذه القلادة ذات قيمة كبيرة، إذا كنت تقامر بحياتك من أجلها - علق لافيت.

- أهدتها لي جدتي وهي على فراش الموت - سخر ديفغو - بهذه أستطيع أن أشتري حرّيتي وحرية صديقاتي، أيها القبطان. - أخشى ألا تساوي كل هذا.

- قد لا تصل فديتنا أبداً. فكاليفورنيا بعيدة جداً، ويمكن أن تحدث فاجعة في الطريق. إذا سمحت لي سأذهب للمقامرة في نيواورليانز. سأقامر بالقلادة وأكسب ما يكفي كي ندفع فديتنا.

- وماذا لو خسرت؟

- عندئذٍ سيكون علي أن انتظر مال أبي، لكنني لا أخسر أبداً في لعب الورق.

- أنت شاب أصيل، أظن أن بيننا أشياء مشتركة - ضحك القرصان.

في تلك الليلة أعادوا إلى ديفغو العادل، السيف الجميل الذي صنعه له بلأيو والصندوق مع ملابسه، الذي أنقذه من الفرق جشع



قرصان، لم يستطع فتحه وحمله معه معتقداً أنه يحتوي على شيء  
ذو قيمة. تناول الرهائن الثلاثة العشاء في غرفة طعام لافيت، الذي  
ارتدى ثياباً أنيقة، سوداء، وحلق ذقنه وجعد شعره للتو. فكر ديبغو  
بأن ملابس زورو بائسة مقارنةً بها، وعليه أن ينسخ بعض الأفكار  
عن القرصان، مثل المنزلة على الخصر وكمي القميص العريضين.  
كان العشاء معرضاً من الأطباق ذات التأثير الأفريقي والكاريببي  
والكاخوني، كما كانوا يُسمّون المهاجرين القادمين من كندا: غومبو  
السرطان، وفاصولياء حمراء مع الرز، والأستريد المقلي، وديك  
الحبش المشوي مع الجوز والزبيب، والسّمك بالتوابل وأفضل أنواع  
النبذ المسروق من المراكب الفرنسية، التي لم يكد المضيف يذوقها.  
كانت هناك مروحة قماشية للتهوية وإبعاد الذباب مُعلّقة فوق  
الطاولة، يُحرّكها صبي زنجي بشده للحيل، وفي شرفة كان هناك  
ثلاثة موسيقيين يعزفون مزيجاً ساحراً من الإيقاع الكاريبي وأغاني  
العبيد. وكانت أوديليا تدير بنظرها عبيدات الخدمة صامتة مثل ظل.

استطاعت خوليانا أن ترى لافيت لأول مرة عن قرب. عرفت  
حين انحنى القرصان لتقبيل يدها أن رحلة الأشهر الأخيرة الطويلة،  
التي قادتها إلى هناك، قد انتهت أخيراً. اكتشفت لماذا لم تتزوج أياً  
من طالبي ودها، فقد رفضت رافائيل مونكادا حتى جنّته، ولم تردّ  
على عروض ديبغو طيلة خمس سنوات. لقد حُضرت حياتها كاملةً  
لذلك الذي كان يُعرّف في رواياتها الرومانسية باسم «ضربة سهم  
كيوبيد». بأي شكل يمكن أن تُعرّف ذلك الحب المبالغت؟ كان سهماً  
في الصدر، ألماً حاداً، جرحاً. (اعذروني، أعزائي القراء، على هذه  
العبارة المُلطّفة، لأنّ الكليشيهات تنطوي على حقائق كبيرة). غاصت  
نظرة لافيت الغامضة عميقاً في ماء عينيها الأخضر، وأمسكت يده  
الرجل ذات الأصابع الطويلة بيدها. ترنّحت خوليانا كما لو أنّها  
ستسقط، ولا جديد في هذا، فهي كثيراً ما تفقد توازنها في  
انفعالاتها. ظنّت إيزابيل ونوريا أنّها كانت ردة فعل أمام الخوف من  
القرصان، لأنّ الأعراض تتشابه، لكنّ ديبغو أدرك على الفور أنّ شيئاً

يُصحبكم أم  
تُهم: أن يلقنوا هذا  
نأ - تحذاهم ديبغو  
لا يليق بكم - قال  
بموقف من خرج  
مسلسله. أخذ ديبغو  
حد على أيقافه.  
إذا كنت تُقامر بحياتك  
موت - سخر ديبغو.  
يقاتي، أيها القبطان  
بعيدة جداً، ويمكن أن  
سأذهب للمقبرة في  
كفي كي ندفع لبيتنا.  
لكنني لا أخسر أبداً  
أشياء مشتركة - فط  
السيف الجليل  
أنقله من القرن

حتمياً قد بدل مصيره. كان رافائيل مونكادا وجميع عشاق خوليانا بالمقارنة مع لافيت تافهين. مدام أوديليا لاحظت بدورها تأثير القرصان على الفتاة وأن ديفغو أحسَّ بخطورة ما حدث.

قادهم لافيت إلى المائدة، التي جلس على رأسها ليتحدث بلطف. كانت خوليانا تنظر إليه مشدوهة، لكنه كان يتجاهلها عن عمد، إلى حدِّ أن إيزابيل تساءلت عمّا إذا كان لدى القرصان ما يخونه. ربّما يكون قد فقد رجولته في معركة، فهذه الأشياء تحدث عادةً، تكفي طلقاً تائهةً، أو ضربةً صائبةً حتى يتحوّل الجزء الأهم عند الرجل إلى مجرد حبة تين جافة. لم يكن هناك من تفسير آخر لمعاملته لأختها بتلك اللامبالاة.

- نشكركم على حسن ضيافتكم، يا سيّد لافيت، وإن كانت مفروضة بالقوّة، ومع ذلك لا يبدو لي أنّ مجتمع القراصنة هذا هو المكان اللائق بالآنستين دي رومو - قال ديفغو، مقدّراً أنّ عليه أن يخرج خوليانا من هناك على وجه السرعة.

- ما الحلّ الآخر الذي يستطيع السيّد دي لابغا أن يقّدمه؟

- سمعتُ عن دير لاس أورسوليناس في نيو أورليانز. تستطيع الآنستين أن تنتظرا هناك حتى تصلنا أخبارُ والدي.

- أفضل الموت على أن أكون مع تلك الراهبات! لا أحد يستطيع أن يحركني من هنا! - قاطعته خوليانا بحزم لم يره عندها قط.

جميعُ العيون التفتت إليها. كانت محمّرة، مزدانة، تتصبّب عرقاً تحت ملابس البروكار الثقيلة. وكانت تعابيرُ وجهها لا تترك مجالاً للشك: بدت مستعدّةً لأن تقتل من يُحاول فصلها عن قرصانها. فتح ديفغو فمّه، لكنه لم يعرف ماذا يقول، فخرس مهزوماً. تلقى جان لافيت اندفاع خوليانا على أنّه رسالةٌ رغبيةٌ وخوف، يكاد يكون دغدغةً. كان قد حاول أن يتجنّب الشائبة، قائلاً لنفسه ما يقوله دائماً لأخيه بيير: التجارة قبل المتعة، لكنها تبدو مفتونةً مثله. أربكته تلك

الجانبية الماحقة، لأنه كان يتبجح بأنه يملك عقلاً بارداً. لم يكن رجلاً متهوراً وكان معتاداً على مرافقة النساء الجميلات. إنه يُفَضَّل المولّدات الخلاسيّات، الشهيرات بملاحتهنّ وجمالهنّ، المدرّبات على إشباع أكثر النزوات سرّية عند الرجل. وكانت النساء البيض يبدن له متعجرفات ومُعقّدات، وكثيراً ما يمرضن، لا يعرفن الرقص ولا ينفعن كثيراً حين تحين ساعة ممارسة الحب، لأنهنّ لا يحببن أن تُخرّب تسريحاتهنّ. ومع ذلك فهذه الشابة الإسبانية التي لها عينا قطة تبدو مختلفة. وتستطيع أن تُنافس بجمالها أشهر خلاسيّات نيو أورليانز ويبدو أنّ براءتها النظيفة لا تشوّش قلبها المضطرم. موهة زفرته، محاولاً ألا يستسلم لمكائد الخيال.

مضت بقيّة السهرة كما لو أنّ الجميع يجلسون على مسامير. والحوار يتجرجر بشقّ النفس. كان ديبغو يراقب خوليانا وخوليانا تراقب لافيتّ وبقية الندماء ينظرون إلى أطباقيهم بانتباه كبير. كان الجرّ خانقاً داخل البيت، وبعد انتهاء العشاء دعاهم القرصان لتناول المرطبات في المشرفة. من السقف كانت تتدلّى مروحة يُحرّكها عبد بهدوء. أخذ لافيتّ القيثارة وبدأ يُغني بصوت مرخّم وعذب إلى أن أعلن ديبغو أنّه تعب ويُفَضِّل الانسحاب. صعفته خوليانا بنظرة فاتلة، فلم يجرؤ على الرفض.

لا أحد نام في ذلك البيت. فالليل بالأحانِ ضفادعه وصوت طبله البعيد، تجرّجَر ببطء ثقيل. اعترفت خوليانا، دون أن تستطيع أن تتحمّل أكثر، بسرّها إلى إيزابيل ونوريا باللغة القطلانية كيلا تظنهما العبدّة التي تخدمهنّ.

- الآن أعرف ما هو الحب. أريد أن أتزوّج من جان لافيتّ -  
قالت.

- يا مريم العذراء، خلّصينا من هذه الكارثة - تمتت نوريا وهي ترسم إشارة الصليب.

- أنتِ أسيرته ولستِ خطيبته. كيف تُفكرين بحلّ هذه المعضلة؟  
- أرادت إيزابيل أن تعرف، تأكلها غيرة كبيرة، لأنها كانت أيضاً  
مسحورة بالقرصان.

- أنا مستعدة لكل شيء، لا أستطيع أن أعيش من دونه - ردت  
أختها بعينيّ مجنونة.

- لن يعجب هذا ديفغو.

- ديفغو هو أقل من يهتمني! فأبي لا بدّ أنّه يتململ في قبره، لكنه  
لا يهتمني! - صاحت خوليانا.

حضر ديفغو تحوّل حبيبته عاجزاً. ظهرت خوليانا في اليوم  
الثاني من أسرها في باراتاريا تفوح منها رائحة الصابون وقد  
أرسلت شعرها على ظهرها وارتدت فستاناً خفيفاً، حصلت عليه من  
العبدات. هكذا حضرت عند الظهيرة التالية إلى المائدة، حيث أعدت  
مدام أوديليا غداءً وافراً. كان جان لافيت بانتظارها وتبين دون شك  
من بريق عينيه أنّه كان يُفضّل هذه الطريقة غير الرسمية على  
الموضة الأوروبية، غير المحتملة في ذلك الطقس. ومن جديد حيّاهها  
بطبع قبلة على يدها، كانت أقوى من قبلة اليوم السابق. أحضرت  
العبدات عصير فاكهة مع الثلج، الذي جيء به في صناديق بين  
النشارة عبر النهر من جبال بعيدة، هذا الترف وحدهم الأثرياء كانوا  
ينعمون به. تناولت خوليانا، التي كانت في العادة عديمة الشهية،  
كأسين من الشراب المثلج وأكلت بشراهة من كل ما كان على المائدة،  
وصارت منفعلة وثرثارة. كان هذا يُثقل على روح ديفغو وإيزابيل،  
بينما هي والقرصان يتسامران بما يشبه الهمس. استطاعا أن  
يلتقيا شيئاً من الحديث، وانتبها إلى أنّ خوليانا تسبر الوضع،  
مُجربة أسلحة الإغواء، التي لم تحتج لاستخدامها قط. راحت تشرح له  
في تلك اللحظة، بين ضحكاتٍ ورفرفة أجفان، أنّ بعض الراحة

لا يضرها هي وأختها. تحتاج مبدئياً قيثاراً وبيانو ونوطات موسيقية، وكتباً، يُفضل أن تكون روايات وشعراً، وثياباً خفيفة. لقد فقدت كل ما كان عندها، «وبسبب من؟» سألت مقطبة. ثم أنها كانت ترغب بأن تكون لها الحريرة كي تنزّه في المحيط وأن تنعم ببعض الخصوصية، فقد كانت تزعجها مراقبة العبدات المستمرة. «بالمناسبة، يا سيد لأفيت، عليّ أن أقول لك إنني أمقت العبودية، إنها عمل غير إنساني». فردّ عليها أنهما إذا ما تنزهتا وحيدتين في الجزيرة ستلقيان ناساً دهمائين لا يحسنون معاملة غادتين برقتها ورقة أختها. وأضاف أن عمل العبدات ليس مراقبتهما، بل العناية بهما وإبعاد الذباب والفئران والأفاعي، التي تدخل إلى الغرف عنهما.

- أعطني مكنسة وأنا نفسي سأتكفل بهذه المشكلة - ردت هي بابتسامة أخاذة، لم يعرفها ديفو.

- أما فيما يتعلق ببقية ما طلبت، يا آنسة، فربما نجده في بازاري. بعد القيلولة، حين يبرد الجو قليلاً، سنذهب جميعاً إلى المعبد.

- ليس معنا نقود، لكنني أفترض أنك من ستدفع، ما دمت قد جئت بنا بالقوة إلى هنا - ردت هي بغنج.

- سيشرّفني هذا، يا آنسة.

- تستطيع أن تُناديني خوليانا.

كانت أوديليا تتابع هذا الغزل المتبادل من زاوية في القاعة بالانتباه ذاته الذي يتابعه به ديفو وإيزابيل. لا يمكن لوجودها، نكرت جان، أن يستمر في هذا الطريق الخطير، إن عليه واجبات لا يمكنه التنصل منها. استجمع قوته من حيث استطاع وقرّر أن يكون واضحاً مع خوليانا. نادى بحركة جميلة المرأة المتعممة وهمس شيئاً في أذنها. فاختلفت لدقائق وعادت بلفافة بين ذراعيها.

- مدام أوديليا هي حماتي، وهذا هو ابني بيير - وضَّح جان لافيت شاحباً.

أطلق ديفغو صيحة فرح وخوليانا صيحة رعب. وإيزابيل انتصبت على قدميها وأوديليا أرتها اللقافة. وعلى العكس من النساء العاديات، اللواتي يَلْنُ أمام مشهد طفل، لم تكن إيزابيل تحب الأطفال وتفضّل الكلاب، لكنّه كان لا بدّ لها أن تقبل أن هذا التافه ظريف. كان أنفه أشماً وله عينا والده.

- لم أكن أعرف أنك متزوِّج، يا سيدي اللصّ البحري... - علقت إيزابيل.

- بل قرصان - صحَّح لها لافيت.

- إذن قرصان. هل نستطيع أن نتعرّف على زوجتك؟

- أخشى ألا يكون لك ذلك. أنا نفسي لم أتمكّن من زيارتها منذ عدّة أسابيع، إنّها ضعيفة ولا تستطيع أن ترى أحداً.

- ما اسمها؟

- كاترين بيّارز.

- اعدروني، أشعر بأنني متعبة جداً... تمتت خوليانا، منهكة.

سحب ديفغو الكرسي من خلفها ورافقها تعلوه علامات حزن، على الرغم من أنّه كان سعيداً بانقلاب الأحداث. يا له من حظ رائع! لم يبق أمام خوليانا إلا أن تُعيد النظر في عواطفها. لم تعد المسألة أن لافيت عجوز في الخامسة والثلاثين من عمره، وزير نساء ومجرم ومهرّب وتاجر رقيق، كلّ هذا الذي يمكن لطفلة مثل خوليانا أن تُبرّره بسهولة، بل إنّ عنده امرأة وطفلاً! شكراً لك، يا إلهي! لم يكن باستطاعته أن يطلب أكثر.

بقيت نوريا في المساء تضع خرقاً باردة على جبين خوليانا المحموم. رافق ديفغو وإيزابيل لافيت إلى المعبد. ذهبوا في زورقي،

يجذفه أربعة مجذفين، دخل في متاهة من المستنقعات كريهة  
الرائحة، التي يرتاح على ضفافها عشرات التماسيح، وتتلوى  
الأفاعي في مياهها. وراح شعُر إيزابيل ينطلق بفعل الرطوبة في كل  
الاتجاهات مُحَوِّمًا وكثيفاً مثل حشية فراش. بدت الممرات المائية  
جميعها متشابهة، كان المنظر أفتس، لم يكن هناك جُبيل واحد  
يمكن أن يُستخدم نقطة علام في تلك الأدغال من نباتات الرعي  
الطويلة. كانت جذور الأشجار في الماء ونوازل الطحالب تتدلى من  
الأغصان. كان القراصنة يعرفون كل منعطف وكل شجرة وكل  
صخرة في أرض الكابوس تلك ويتقدمون دون تردد. عندما وصلوا  
إلى المكان حيث المعبد رأوا العوامات المسطحة التي ينقل فيها  
القراصنة بضاعتهم، إضافة إلى مراكب وزوارق الزبائن، رغم أن  
غالبيتهم كانوا يأتون عبر اليابسة على الجياد، وفي عربات فاخرة.  
وكانت صفوة المجتمع قد تواعدت هناك، بدءاً من الأرستقراطيين  
وحتى البغايا الزنجيات. وكان العبيد قد نصبوا مظلات كي يرتاح  
أسيادهم تحتها ويقدمون الطعام والشراب، بينما السيدات يجلسن في  
البازار وهن يتفحصن المنتجات. وكان القراصنة يعلنون عن  
بضاعتهم بأعلى أصواتهم، أقمشة صينية، أباريق فضية بيروية،  
أثاث فيني، مجوهرات من كل حدب وصوب، أطعمة لذيذة، أدوات  
زينة، ما من شيء كان ينقص في ذلك السوق، حيث كانت المساومة  
جزءاً من التسلية. كان بيبير لافيت هناك، يحمل ثرياً دامعة في يده،  
يعلن أن كل شيء بسعر التصفية. كانت الأسعار في الحضيض،  
اشترى يا سادة ويا سيدات، لأنه لن يكون هناك فرصة أخرى مثل  
هذه. وبوصول جان ومرافقيه حدث همس فضولي. اقتربت عدة  
نساء من القرصان الجذاب، غير معروفات تحت مظلاتهن، بينهن  
زوجة الحاكم. أمعن الفرسان النظر في إيزابيل، ضاحكين من  
شعرها الجامح، الذي يُشبه طحالب الأشجار. في مجتمع البيض كان  
هناك رجلان مقابل كل امرأة وأي وجه جديد مُرَحَّب به، بما في ذلك  
الوجوه غير المألوفة كوجه إيزابيل. قام جان بالتعريف، دون أن

على زوجتك؟  
تمكن من زيارتها  
ي أحداً.  
تمنت خوليانا، سبتة  
ها تلوها علامات حزن  
اث. ياله من حظاً  
أطفها. لم تعد المساومة  
معه، وزير نساء ومعه  
ن لطفلة مثل خوليانا  
شكراً لك، يا إلهي المجد

يذكر أبدأ الطريقة التي حصل بها على أولئك «الأصدقاء» الجدد،  
وبحث على الفور عن الأشياء التي ذكرتها خوليانا، على الرغم من  
أنه كان يعلم أنه ما من شيء سيُنسبها الضربة التي وجهها إليها،  
حين حكى لها قصة كاترين بطريقة فجّة. لم يكن هناك من طريقة  
أخرى، كان عليه أن يقطع تلك الجاذبية المتبادلة من جذورها، قبل  
أن تُدمرها معاً.

في باراتاريا كانت خوليانا ترقدُ على السرير، غائصةً في وحل  
الإهانة والحبّ المجنون. كان لافيت قد أشعل عندها ناراً شيطانية،  
والآن عليها أن تصارع بكلّ إرادتها كيلا تنتزعه من كاترين بيّارز.  
الحلّ الوحيد الذي خطر لها هو أن تدخل دير لاس أورسوليناس  
كمستجدةٍ وتنتهي أيامها بالعناية بمرضى الجدري في نيوأورليانز،  
فهي على الأقل ستتنسّم الهواء ذاته الذي يتنسّمه هذا الرجل. لم يعد  
باستطاعتها أن تواجه أحداً. كانت مشوّشة، مستحية، قلقة، كما لو  
أنّ مليون نملةٍ تزحف تحت جلدها، كانت تجلس، تمشي، تستلقي  
على السرير، تتقلبُ تحت الملاحف، تُفكّرُ بالطفل، بالصغير بيير  
فتبكي أكثر. وكانت نوريا تواسيها قائلة: «ما من مرضٍ يدوم مئة  
عام، يا صغيرتي، هذا الجنون يجب أن يمرّ، ما من شخص عاقل  
يعشق قرصاناً». وصلت في هذه الأثناء مدام أوديليا لتسأل كيف  
أصبحت الآنسة. وجاءت معها في صينية بكأس شيرش وبسكويت.  
قرّرت خوليانا أنها قرصتها الوحيدة لتتحقّق من التفاصيل،  
فبادرتها بالحديث بالعةً كبرياءها ودموعها.

- هل تستطيعين يا مدام أن تقولي لي، ما إذا كانت كاترين

عبدة؟

- ابنتي حرّة، مثلي. أمي ملكة من ملكات السنغال، وأنا لو كنتُ

هناك سأصبح ملكة. أبي وأبو بناتي، كانا أبيضين، ملاكي حقول  
السكر في سانتو دومينغو. واضطررنا لأن نهرب أثناء تمرّد العبيد -  
رذت مدام أوديليا فخورة.



- أعرف أنّ البيض لا يستطيعون الزواج من الزوج - ألحت خوليانا.

- البيض يتزوجون بيضاً، لكنّ نساءهم الحقيقيات نحن. لسنا بحاجة لمباركة من راهب، يكفينا الحب. جان وكاترين متحابان.

راحت خوليانا تبكي من جديد. فرصتها نوريا كي تتماسك، لكنّ هذا لم يُفد الشابة إلا في زيادة ضيقها. طلبت من مدام أوديليا أن تسمح لها برؤية كاترين، معتقدة أنّها بهذا تستطيع أن تبرر وتقاوم نطحة الحب.

- هذا غير ممكن. اشربي الشيرش، يا آنسة، ستتحسّنين - دارت بعدها نصف دورة وانسحبت.

خوليانا الضامئة جرعت محتوى الكأس بأربع رشقات وسقطت بعدها بدقائق مستسلمة ونامت ستاً وثلاثين ساعة دون حراك. الشيرش المخدّر لم يشفها من ولهها، لكنّه كما افترضت مدام أوديليا شجّعها على مواجهة مستقبلها. استيقظت على ألم في عظامها، لكنّها بدت صافية الذهن، عازمة على التخلّي عن لافيت.

كان القرصان قد قرّر بدوره أن يُخرِج خوليانا من قلبه ويبحث عن مكان يضعها فيه بعيداً عن بيته، حيث لا يُعذّبها قربها. صارت الشابة تتفاداه، فلم تعد تظهر في ساعات الطعام، لكنّه راح يتكهن بها عبر الجدران: كان يظنّ أنّه يرى طيفها في ممرّ، يسمع صوتها في الشرفة، يشمّ عطرها، لكنّها كانت مجرد شبح، طائرأ، ضوَع بحر تحمله النسمة. كانت حواسّه مثل حواس حيوان الصيد مستنفرة دائماً تبحث عنها. كان دير لاس أورسوليناس، كما اقترح ديبغو، نكرة سيئة، فهو كأنّه يحكم عليها بالسجن. كان يعرف عدّة أروبيات في نيوأورليانز يمكن أن يستصفن الشابة، لكن هناك خطر أن يعرفن أنّها أسيرة. فلو وصل هذا إلى مسمع السلطات

الأمريكية، سيجد نفسه في مشاكل جدية. يستطيع أن يرشو القاضي، لكنه لا يستطيع ذلك مع الحاكم، أي تعثر من جهته يمكن أن يعود ليضع لرأسه ثمناً. ففكر في احتمال أن ينسى الفدية ويرسل رهائنه إلى كاليفورنيا على الفور، فيخرج بذلك من الورطة التي هو فيها، لكنه يحتاج من أجل ذلك إلى موافقة أخيه بيير والقباطنة الآخرين وبقية القراصنة؛ كان هذا هو عيب الديمقراطية. كان يفكر بخوليانا، مقارناً بينها وبين كاترين العذبة والوديدة، تلك المرأة التي كانت زوجته منذ الرابعة عشرة من عمرها وهي الآن أمّ ولده. كانت كاترين تستحق حبه غير المشروط، وهو يشاق إليها. وحده انفصالهما الطويل الذي عانى منه يمكن أن يفسر عشقه لخوليانا، فلو نام معانقاً زوجته لما حدث له هذا أبداً. منذ ولادة الطفل وكاترين تتاكل بسرعة. وضعتها مدام أوديليا كعلاج أخير تحت إشراف بعض الطبيبات الشعبيات الأفريقيات في نيواورليانز. لم يعترض لافيت، لأن الأطباء اعتبروها بحكم الميتة. بعد أسبوع من الولادة كانت كاترين ما تزال تعاني من الحمى ومدام أوديليا تُصرّ على أن ابنتها تُعاني من ضربة عين، سببه منافسة غيورة وأن العلاج الوحيد هو السحر. حملاً فيما بينهما كاترين، التي لم يكن بمقدورها الانتصاب على قدميها لاستشارة ماري لافو، أعلى كاهنة فودو. دخلوا أكثر الغابات كثافة، بعيداً عن مزارع سكر البيض بين جزيرات صغيرة ومستنقعات، حيث الطبول تُبعد الأرواح. على ضوء النيران والمشاعل كان الكهنة يرقصون بأجسادهم المدهونة بدم الديكة وأقنعة الحيوانات والشياطين. كانت الطبول الجبارة تهتز وتهز الغابة وتحمي دم العبيد. وكانت طاقة عجيبة تصل الكائنات البشرية بالآلهة والطبيعة فينصهر المشاركون في كائن واحد فلا يفلت أحد من السحر. راحت ماري لافو ترقص وسط الدائرة فوق صندوق يحتوي على أفعى مقدسة، شامخة، جميلة، يعلوها العرق، تكاد تكون عارية وحاملاً في الشهر التاسع، على وشك أن تلد. وكانت أعضاء جسدها تهتز، حين تدخل في الغيبوبة، بلا قيود

وتتلوى فيندلق بطنها من جانب إلى آخر وتطلق سلسلة من الكلمات  
من لغات لا أحد يتذكرها. كان الغناء يعلو وينخفض مثل أمواج  
كبيرة، بينما الماعون المحتوي على دم القرايين يمر من يد إلى يد  
كي يشرب منه الجميع. يتسارع قرع الطبول فيسقط الرجال والنساء،  
المختلجون على الأرض، ويتحولون إلى حيوانات، يأكلون العشب،  
يعضون، يخدشون، فيغيب بعضهم عن الوعي وينطلق آخرون  
أزواجاً إلى الغابة. شرحت لها مدام أوديليا أن الديانة الفودوية  
وصلت إلى العالم الجديد في قلوب عبيد داهومي ويوروبا، وتوجد  
ثلاث مناطق متصلة: منطقة الأحياء، منطقة الموتى ومنطقة الذين لم  
يولدوا بعد. وكانوا في احتفالاتهم يُشرفون الأسلاف، يستحضرون  
الآلهة ويصيحون طالبين الحرية. وكانت الكاهنات من أمثال ماري  
لافو، يعملن سحراً ويدخلن إبراً في الدمى لتحريض الأمراض  
ويستخدمن غرييس - غرييس ومسحوقاتٍ سحريةً لمعالجة أمراض  
مختلفة، لكن لا شيء من هذا أفاد كاترين.

لم يستطع ديبغو، على الرغم من وضعه كأسير عند لاقيت ومن  
أنه خصم له في الحب، إلا أن يعجب به. فهو كقرصان كان بلا حياة  
ولا رحمة، لكنه حين يقف موقف الفارس فلا أحد يستطيع أن يتفوق  
عليه في حسن آدابه وثقافته وسحره. كانت هذه الشخصية  
المزدوجة تفتن ديبغو. وحده مانول إسكالانت يستطيع أن يقارن  
به. كان ديبغو يشعر بأنه مكرم حين يدعو أسره للمبارزة معه.  
خلال هذا الأسبوع رأى الشاب كيف كانت تعمل الديمقراطية. الجميع  
يُمارسها في غراند إيزل، طبعاً باستثناء النساء. بدت له أفكار لاقيت  
الخاصة جديرة بالاعتبار. كان الرجل يؤكد أن الأقوياء يخترعون  
القوانين للحفاظ على امتيازاتهم والتحكم بالفقراء والمُتبرمين،  
ونظراً لذلك سيكون من البلاءة من ناحيته أن يُطيعها. مثلاً الضرائب  
كان يدفعها بعد كل حساب الفقراء، بينما الأثرياء يتدبرون أمرهم

لا يرشوا القناص  
لأنه يمكن أن يور  
لدياً ويرسل رهاق  
رطة التي هو فيها  
والقباطنة الأخرين  
كان يفكر بخولييانا  
ك المرأة التي كانت  
لأن أم ولد، كانت  
يشتاق إليها. وحده  
سُر عشقه لخولييانا  
دا. منذ ولادة الطفل  
يا كعلاج أخير نعت  
في نيو أورليانز لم  
الميتة. بعد أسبوع من  
ي ومام أوديليا نص  
ه منافسة غيرة وأ  
كاترين، التي لم يك  
ماري لافو، أعلى كانت  
مزارع سكر البيض  
بعد الأرواح. طي  
جسادهم المدهون  
ت الطبول الجبارة  
فة عجيبة تصل الكائنات  
كون في كائن واحد  
تدقص وسط الدائرة  
جميلة، يطولها  
على وشك

كي يتفادوها. وهو يؤكد أنه لا أحد، وخاصة الحكومة، يستطيع أن ينتزع منه جزءاً مما هو له. جعله ديبغو يرى بعض التناقضات. فلافيت كان يعاقب بالجلد على السرقة بين رجاله، لكن إمبراطوريته الاقتصادية كانت تقوم على القرصنة، وهي أعلى أشكال السرقة. ورد القرصان أنه لا ينتزع شيئاً من الفقراء، فقط من الأثرياء. ولم يكن تجريد السفن الإمبراطورية من المسروق بالدم والسوط في المستعمرات إثماً، بل فضيلة. لقد استولى على الأسلحة التي كان يقلها القبطان سانتياغو دي ليون إلى القوات الملكية في المكسيك، كي يبيعها بسعر معقول جداً للمتمردين في البلد ذاته. وكانت هذه العملية تبدو له عادلة عدالة لا لبس فيها.

أخذ لافيت ديبغو إلى نيو أورليانز، المدينة المبنية على قياس القرصان، الفخورة بطبيعتها المنحطة والمغامرة والمستمتعة بالحياة، المتبدلة والعاصفة. كانت تعاني من الحروب مع الإنكليز والهنود الحمر ومن الأعاصير والفيضانات والحرائق والأوبئة، لكن لا شيء باستطاعته أن يذل ذلك الكبرياء النبيل. كانت واحداً من الموانئ الأمريكية الرئيسية، حيث يخرج التبغ، والصبغ والسكر ويدخل كل أنواع البضائع. كان السكان الكونيون يعيشون غير آبهين بالحر ولا بالبعوض ولا بالمستنقعات وأقل منها بالقوانين. كانت تلك الشوارع تحتوي على كل شيء، على الموسيقى والكحول والمواخير وكهوف القمار، هناك كانت الحياة تبدأ مع غياب الشمس. كان ديبغو يجلس في ساحة السلاح ليراقب الحشود: زنوج يحملون سلالاً من البرتقال والموز، نساء يقرأن الحظ ويقدمن أوثاناً فودوية، لاعبو دمي وراقصون وموسيقيون. كانت بائعات الحلوى، بعماماتهن ومازرنهن الزرقاء، يحملن صينيّات حلوى الزنجبير والعسل والجوز. ومن البسطات الجوّالة يمكن شراء البيرة والمحار الطازج وأطباق القريدس. لم يخل الأمر قط من سكارى يثيرون الفضائح، جنباً إلى جنب مع الفرسان الأنيقين، وأصحاب المزارع، والتجار والموظفين. الراهبات والقساوسة يختلطون مع

العاهرات والجنود واللصوص والعبيد؛ والخلاسيات الهنديات  
الشهيرات يتبخرن في مشاوير بطيئة، يتلقين التحرشات من  
الفرسان والنظرات المعادية من منافساتهن. لم يكن يحملن  
المجوهرات ولا القبعات، الممنوعة بمرسوم إرضاء للنساء  
البيض، اللواتي لم يكن باستطاعتهن منافستهن. لم يكن بحاجة  
إليها، فهن مشهورات بأنهن أجمل نساء العالم، ببشرتهن الذهبية  
المحمصة وتقاسيم وجوههن الناعمة، وعيونهن السائلة الواسعة،  
وشعرهن المتماوج. ترافقهن دائماً أمهاتهن أو مرافقاتهن اللواتي  
لا يرفعن أنظارهن عنهن. وكانت كاترين بيارز واحدة من تلك  
الخلاسيات الجليات. تعرّف لاقيث عليها في إحدى حفلات الرقص  
التي كانت تقيمها الأمهات لتقديم بناتهن للرجال الأثرياء، وهي  
إحدى الطرق الكثيرة لخرق القوانين اللامعقولة كما أوضح  
القرصان لدييغو. كان هناك نقص في النساء البيض وفائض في  
الملونات، لم تكن هناك ضرورة لمعرفة الرياضيات لرؤية حل  
المأزق، ومع ذلك فالزيجات المختلطة كانت ممنوعة. بهذا الشكل تتم  
المحافظة على النظام الاجتماعي، وتضمن سلطة البيض، ويحافظ  
على خضوع الملونين، لكن هذا لم يكن يمنع من امتلاك البيض  
خليات من أصل أوروبي. وجدت الخلاسيات الهنديات حلاً مناسباً  
للجميع. كن يدربن بناتهن على الأعمال المنزلية وفنون الإغواء، التي  
لا تخطر ببال أي من النساء البيض، ليعملن منهن قهرمانات  
ومحظيات في البيت. كن يلبسنهن ملابس فاخرة، لكنهن يعلمنهن  
خياطة ثيابهن بأنفسهن. كن أنيقات وعاملات. في حفلات الرقص  
التي لم يكن يحضرها غير الرجال البيض كانت الأمهات يضعن  
بناتهن مع أحد يضيف عليهن مستوى جيداً. وكانت إعالة واحدة من  
تلك الفتيات الحسنات تعتبر علامة امتياز بالنسبة للفرانس. ولم  
يكن التبذل والزهد في النساء فضيلة، إلا بين الطهرانيين، لكنه لم  
يكن يوجد في نيواورليانز من هؤلاء إلا القليل. كانت الخلاسيات  
الهنديات يعشن في بيوت ليست شديدة الترف، لكنها مريحة وذات

منه، يستطيع أن  
مض التناقضات  
لكن إمبراطورية  
أشكال السرقة  
من الأثرياء. ولم  
الدم والسوط في  
الأسلحة التي كان  
ية في المكسيك، كي  
وكانت هذه العملية  
ة المبنية على قياس  
مغامرة والمستغنا  
الحروب مع الإنكليز  
لحرائق والأوبئة، لكن  
بيل. كانت أحاديث  
بغ، والصباغ والسكر  
كونيون يعيشون غير  
وأقل منها بالقوانين  
على الموسيقى والكر  
الحياة تبدأ مع غيل  
ح ليراقب الضيوف زينة  
ماء يقرآن الحظ ويتفطن  
موسيقيون. كانت بالغة  
يحملن ضئيليات حرة  
الجوالة يمكن شراء البيرة  
يخل الأمد تظمن كراه  
فرسان الأثرياء، وأسطح  
القساوسة يظنون

طراز معين، كَنَّ يُعَلَّنَ عبيداً ويربين أبناءهنَّ في أفضل المدارس ويرتدين ثياباً كالملكات في خصوصياتهنَّ، على الرغم من أنَّهنَّ كُنَّ في العن محترسات. تَمَّت هذه التسويات بحسب بعض القواعد الضمنية، كواجبة وأدب معاشرة.

- بكلمات قليلة، تقدَّم الأمهات بناتهنَّ إلى الرجال - لخص دييغو مستكراً.

- أليس الأمر كذلك دائماً؟ الزواج تسوية تقوم المرأة من خلالها بتقديم خدمات للرجل الذي يعيها. البيضاء هنا تملك حرّية اختيار أقل من الخلاسيات من أصل أوروبي - ردّ لافيت.

- لكنّ الخلاسية من أصل أوروبي لا تتمتع بالحماية عندما يُقرّر عشيقها الزواج أو استبدالها بخليفة أخرى.

- يتركها الرجل ويترك لها بيتاً ومعاشاً، إضافة إلى أنه يدفع لها نفقات الأولاد. وتكوّن أحياناً أسرةً أخرى مع خلاسيّ آخر. كثيرون من هؤلاء الخلاسيين أبناء خلاسيات هنديات أخريات، مهنيون تربّوا في فرنسا.

- وأنت، يا قبطان لافيت، هل لديك أسرتان؟ - سأل دييغو مفكراً بخوليانا وكاترين.

- الحياة معقدة، كلّ شيء ممكن - قال القرصان.

دعا لافيت دييغو إلى أفضل المطاعم، إلى المسرح والأوبرا وقدمه إلى أصدقائه كـ «صديق من كاليفورنيا». معظمهم كانوا ملونين، مهنيين يدويين، تجّاراً، فنّانين، وحرفيين. كان يعرف أمريكيين، بقوا منعزلين عن بقية السكان الخلاسيين والفرنسيين بخطّ وهمي يقسم المدينة.

كان يُفضّل ألا يعبر هذا الخطّ، لأنّه على الطرف الآخر كان يوجد جوّ أخلاقي لا يناسبه. حمل دييغو إلى كهوف قمار عديدة،

تماماً كما طلب هذا منه. بدا له مريباً أن يكون الشاب واثقاً إلى ذلك الحد من ربحه وحذره من الغش، لأن ثمن هذه الغلطة ضربة خنجر بين الأضلاع.

لم يؤل ديفو نصائح لافيت أدناً صاغية، لأن الحدس السيء الذي انتابه قبل أيام لم يفعل شيئاً آخر غير أنه اشتد. كان بحاجة للمال. لم يكن يستطيع سماع برناردو بوضوح كما هو الحال دائماً، لكنه كان يشعر بأنه يناديه. عليه أن يعود إلى كاليفورنيا، ليس من أجل إنقاذ خوليانا من الوقوع في يد لافيت فقط بل لأنه كان واثقاً أيضاً من أن شيئاً ما يحدث هناك ويتطلب حضوره. راح يُقَامِرُ بالقلادة كراسمال أولي في أماكن مختلفة، كيلا يُثير الشبهات بربحه غير المعهود. كان سهلاً جداً بالنسبة إليه، هو المدرب على حيل الإيهام، أن يُبدّل ورقة بأخرى أو يُخفيها. ثم إنه كان يتمتع بذاكرة وفطنة ممتازة بالنسبة إلى الأرقام؛ فيتكهن بعد دقائق قليلة بلعبة خصومه. وهكذا لم يخسر القلادة وراح يملأ جيبه بالنقود، وكان بهذا الإيقاع سيجمع خلال وقت قصير الآلاف الثمانية من الدولارات الأمريكية للفدية. كان يعرف حجمه، فيبدأ خاسراً، كي يُطمئن اللاعبين الآخرين، بعدها يُحدّد ساعة معينة لإنهاء اللعب ويبدأ بالربح فوراً. لم يتجاوز الحدّ قط. فما إن يبدأ الرجال الآخرون يتملطون حتى ينتقل إلى مكان آخر. ومع ذلك حالفه الحظّ ذات يوم إلى حدّ أنه أراد ألا ينسحب واستمرّ بالمراهنة. كان خصومه قد أفرطوا في الشرب ولا يكادون يستطيعون التركيز على الورق، لكنهم ملكوا من الوعي ما أسعفهم كي ينتبهوا إلى أنّ ديفو يحتال. وقامت على الفور مشاجرة انتهت بهم إلى الشارع، بعد أن أخرجوه دفعاً بنية سحقه المبرّرة. ولم يكذ ديفو يجعلهم يسمعونه رغم الجلبة حتى تحداهم باقتراح أصيل.

- لحظة، أيّها السادة! أنا مستعدّ لإعادة النقود التي ربحتها بشرف، إلى من يستطيع أن يُخطّم ذلك الباب برأسه - أعلن وهو يشير

إلى باب مبنى القساوسة ذي الخشب السميك والتباشيم المعدنية، وهو بناء استعماري الطراز كان ينتصب بجانب الكاتدرائية.

لفت هذا انتباه السكاري على الفور. كانوا يناقشون أمور المنافسة حين ظهر رقيب، راح يراقب المشهد بدل أن يفرض النظام. طلبوا منه أن يكون حكماً فقبل بأريحية. خرج موسيقيون من محلات عدة وراحوا يعزفون أغاني فرحة، وامتلات الساحة خلال دقائق قليلة بالفضوليين. كانت قد بدأت تعتم فأمر الرقيب بإشعال الفوانيس. انضم إلى اللاعبين رجال آخرون وأرادوا أن يشاركوا في تلك الرياضة الجديدة، فقد بدت لهم فكرة كسر الباب بالجمجمة مسلية جداً. قرّر ديفغو أن يدفع كل واحد من المتطفلين خمسة دولارات كي يدخل في اللعبة. جمع الرقيب خمساً وأربعين دولاراً في إغماضة عين وفرض النظام في الصف. ارتجل الموسيقيون إيقاع طبول واندفع العنصر الأول ركضاً إلى بناء القساوسة وقد ربط رأسه بعمامة. تركته النطحة متخشباً على الأرض. واستقبلت المأثرة بموجة من التصفيق والصفير والقهقهات. اقترب زوج من الخلاسيات الجميلات طالبات إسعاف الصريع بكأس من شراب اللوز، بينما كان الثاني يستغل فرصته في تحطيم رأسه، دون أن يحقق نتائج أفضل من الأول. ندم بعض المشاركين في الساعة الأخيرة، لكنهم لم يعيدوا لهم دولاراتهم الخمسة. وفي النهاية لم يتمكن أحد منهم من تحطيم الباب وخرج ديفغو بالنقود التي ربحها على طاولة القمار إضافة إلى خمسة وثلاثين دولاراً مما جمع. وتلقى الرقيب عشرة دولارات مقابل الإزعاج الذي لقيه وخرج الجميع سعداء.

أحضروا العبيد ليلاً إلى مزرعة لافيت. أنزلوهم بحذر علي الشاطئ وحبسوهم في عنبر خشبي. كانوا خمسة رجال شباباً واثنين أكبر سناً، وصبيّتين صغيرتين وامرأة وطفلاً ابن ست سنين



تقريباً، متشبهاً بساقيها وآخر ابن أشهر قليلة بين ذراعيها. كانت  
إيزابيل قد خرجت لتتربط في الشرفة ولمحت الأطياف التي كانت  
تتحرك في الليل، مضاءة ببعض المشاعل. اقتربت، دون أن تستطيع  
مقاومة فضولها، ورأت عن قرب ذلك الصف من الكائنات البشرية  
المحزنة في أسماها. كانت الصبيتان الصغيرتان تبكيان، بينما الأم  
تسير صامتة، ثابتة النظرة، مثل مخبول. جميعهم كانوا يُجررون  
أقدامهم، منهكين جائعين. كانوا يمضون يُراقبهم عدد من القراصنة  
المسلحين بقيادة بيير لافيت. الذي ترك بضاعته في العنبر ومضى  
على الفور ليحيط أخاه جان علماً بالأمر، بينما هرعت إيزابيل  
لتحكي ما رأت لدييفو وخوليانا ونوريا. كان دييفو قد رأى  
الإعلانات في المدينة ويعرف أنه سيقوم خلال يومين مزاداً على عبيد  
في المعبد.

كان الأصدقاء قد ملكوا الوقت في باراتاريا كي يستعلموا عن  
العبودية. لم يكن ممكناً إحضار العبيد من أفريقيا، لكنهم كانوا  
يبيعون و«يربّون» في أمريكا. كان اندفاع دييفو الأول هو أن  
يُحاول إطلاق سراحهم، لكنّ صديقاته بين له أنه حتى ولو استطاع  
الدخول إلى العنبر وكسر القيود وإقناع أولئك الناس بالهرب، لن  
يكون أمامهم مكان يذهبون إليه. سيصطادونهم بالكلاب. أملهم  
الوحيد هو الوصول إلى كندا، لكنهم لن يستطيعوا ذلك وحدهم أبداً.  
قرّر دييفو أن يتحقق على الأقل من الظروف التي كانت تحيط  
بالأسرى. ودّع صديقاته دون أن يقول لهنّ ما كان يفكر القيام به.  
ارتدى قناع زورو وخرج من البيت مستغلاً الظلمة. كان الأخوان  
لافيت في الشرفة، بيير يحمل في يده كأس كحول وجان يدخن، لم  
يكن يستطيع الاقتراب ليسمعهما دون أن يُخاطر بانكشاف أمره،  
وهكذا تابع طريقه إلى العنبر. كان ضوء مشعل يضيء قرصاناً  
واحداً يقوم بالحراسة يحمل على كتفه بندقيّة. اقترب بأمل أن يمسك  
به بغتة، لكنّ المباغت كان هو، لأنّ رجلاً آخر ظهر خلفه.

- ليلة سعيدة، يا بوس - حيّاه.

بشيم المسنة  
الب الكاتدرائية  
كانوا يناقشون أسرى  
بدل أن يفرض النظام  
ج موسيقيون من محلات  
الساحة خلال نقالت  
فامر الرقيب بإشعال  
ن وأرادوا أن يُشاركوا  
رّة كسر الباب بالجمعة  
من المتطفلين خصت  
مساءً وأربعين دولاراً  
رجل الموسيقيون إيقاع  
بناء القساوسة وقد ربا  
الأرض. واستقبلت المائز  
نجات. اقترب زوج  
صريع بكأس من شراب  
ي تحطيم رأسه، دون أن  
المشاركين في الساحة  
الخمسة. وفي النهاية  
دييفو بالنقود التي ربحها  
وثلاثين دولاراً مساعداً  
الإزعاج الذي لقيه ربح

أنزلوهم بظنهم  
خمسة رجال  
طفلاً ابن  
لافيت  
كانوا

دار دييغو نصف دورة وواجهه، جاهزاً للقتال، لكن الآخر كان  
مسترخياً ولطيفاً. عندها انتبه إلى أنه خلط بينه وبين جان لافيت،  
الذي كان دائماً يرتدي السواد. اقترب القرصان الآخر أيضاً.

- أطعمناهم وهم يرتاحون الآن، يا بوس. غداً سنحققهم  
ونعطيهم ثياباً. وضعهم جيد، باستثناء الرضيع الذي يعاني من  
الحمى. لا أظنه سيعيش طويلاً.

- افتحوا الباب، أريد أن أراهم - قال دييغو بالفرنسية، مُقلداً  
نبرة القرصان.

أبقى وجهه في الظل بينما يفتحون له مفلاق الباب، وهذا حذرٌ  
عبيثي، لأن الحارسين لم يشكاً به أبداً. أمرهما أن ينتظراه في  
الخارج ودخل. في العنبر كان هناك فانوس مُعلق في زاوية يعطي  
ضوءاً خفيفاً، لكنه كافٍ لتمييز كل واحد من تلك الوجوه التي كانت  
تنظر مذعورةً بصمت. جميعهم باستثناء الطفل والرضيع كانوا  
مقيدين بحلقاتٍ في رقابهم وبسلاسل مثبتة إلى أعمدة. اقترب دييغو  
بحركات مُطمئنة، لكنهم عندما رأوا القناع اعتقدوا أنهم أمام  
شيطان فانكمشوا بقدر ما سمحت لهم سلاسلهم بذلك. كان من غير  
المجدي أن يُحاول التواصل معهم فهم لم يفهموا عليه. أدرك أنهم  
وصلوا للتو من أفريقيا، كان الأمر يتعلق بـ «بضاعة طرية»، كما  
يقول الزنوج، ولم يملكوا وقتاً لتعلم لغة خاطفيهم. من المحتمل أنهم  
حملوهم إلى كوبا، حيث اشتراهم الأخوان لافيت لبييعاهم من جديد  
في نيوا أورليانز، تحمّلوا السفر في البحر في ظروف رهيبه وتحمّلوا  
سوء المعاملة على اليابسة. تراهم من القرية ذاتها، من العائلة ذاتها؟  
في المزاد سوف يفصلون بينهم ولن يروا بعدها بعضهم بعضاً. لقد  
حطم العذاب أرواحهم. كانت نظرتهم مجنونة. تركهم دييغو وهو  
يشعر بضغط لا يُحتمل على قلبه. مرّة قبل ذلك شعر في كاليفورنيا  
بذلك اللوح الحجري نفسه يسحق صدره، حين حضر مع برناردو  
كيف كان الجنود يُهاجمون قرية هندية. تذكر إحساسه بالعجز  
وقتذاك، المماثل تماماً لهذا الذي يخنقه في تلك اللحظة.

عاد إلى بيت لافيت، بدّل ثيابه واجتمع بالصفيرتين في روميو ونوريا ليبلغهنّ بما رآه. كان يائساً.

- كم يكلف هؤلاء العبيد، يا ديبغو؟ - سألت خوليانا.

- لا أعرف بالضبط، لكنني رأيت لائحة المزاد في نيو أورليانز وبمنظرة سريعة أقدر أنّ باستطاعة الأخوين لافيت أن يحصلوا على ألف دولار ثمن كلّ شاب، وثمانمئة عن الاثنتين الآخرين وستمئة عن كل واحدة من الفتاتين، وألف دولار تقريباً ثمن الأم وطفليها. لا يمكن بيع الطفلين منفصلين، فهما أصغر من سبع سنين.

- كم المبلغ الكلي.

- لنقل ثمانية آلاف دولار.

- أكثر قليلاً مما يطلبونه فدية لنا.

- لا أرى علاقة - قال ديبغو.

- عندنا نقود، قرّرنا أنا وإيزابيل ونوريا أن نستخدمها في شراء هؤلاء العبيد - قالت خوليانا.

- معكم نقود؟ - سأل ديبغو مفاجئاً.

- الحجارة الكريمة، ألا تذكرها؟

- ظننت أن القراصنة انتزعوها منكنّ.

شرحت له خوليانا وإيزابيل الطريقة التي أنقذن بها ثروتهنّ المتواضعة. فبينما كنّ يبحرن في سفينة القراصنة، خطر لنوريا فكرة لامعة لإخفاء الحجارة الكريمة، لأنّه لو شكّ خاطفوهنّ بوجودها لفقدوها للأبد. ابتلعنها واحدة فواحدة مع جرعة نبيذ. وعاجلاً أكثر ممّا آجلاً خرجت الحجارة الكريمة غير ممسوسة من الطرف الآخر من الأنبوب الهضمي، فقط كان عليهنّ أن ينتبهن إلى محتوى المباول لاستعادتها. لم يكن حلاً لطيفاً، لكنّه نجح والآن الحجارة الكريمة المغسولة جيّداً مخيطة مرّة أخرى في المآزر.

- بهذا تستطيعن دفع فديتكنّ! - صاح ديبغو.

- صحيح، لكننا نُفضّل أن نُحرّر العبيد، لأنّه حتى ولو لم تصل نقود أبيك، نعرف أنّك ستكسبه بحيلك - ردّت إيزابيل.

كان جان لافيت جالساً في الشرفة مع فنجان قهوته وصرح بيجنيت، وهو زلابة فرنسية لذيذة، يُسجّل أرقاماً في دفتر حساباته حين مثلت خوليانا ومعها منديل مربوط من زواياها الأربعة ووضعته على الطاولة. رفع القرصان نظره فقفز قلبه مرّة أخرى أمام تلك الشابة، التي رافقته في أحلام كل ليلة من لياليه. فكّ الصرّة ولم يتمكن من كتم شهقته.

- كم تعتقد قيمة هذه؟ - سألت محمّرة الخدين وبدأت تقترح عليه التجارة التي كانت في ذهنها.

كانت المفاجأة الأولى بالنسبة إلى القرصان هي اكتشافه أنّ الأختين استطاعتا إخفاء الحجارة الكريمة، والثانية أنّهما تُخصّصانها لشراء العبيد بدل حرّيتهن ذاتها. ماذا سيقول بيير والقباطنة الآخرون عن هذا؟ الشيء الوحيد الذي كان يرغب به هو أن يمحوا الانطباع السيء الذي خلفته القرصنة عند خوليانا يضاف له الآن هؤلاء العبيد. وشعر لأول مرّة بالخجل من أعماله المهينة. لم يكن يُحاول كسب حبّ تلك الشابة، لأنّه هو نفسه لم يكن حرّاً كي يُقدّم لها حبه، لكنّه يحتاج على الأقل لاحترامها. لم تكن النقود تهّمه مثقال ذرّة في هذه الحالة، فهو يستطيع تعويضها، ثمّ أنّه يملك أكثر مما يكفي لسدّ أفواه شركائه.

- هذا يساوي كثيراً، يا خوليانا. فهو يكفي لأكثر من شراء العبيد ودفع فديتك وفدية أصدقائك والسفر إلى كاليفورنيا. وكذلك لمهرك ومهر أختك - قال.

لم تتصوّر خوليانا أنّ تلك الحُصيّات الملونة تُفيد لكلّ ذلك. قسّمت الحجارة الكريمة إلى كتلتين، واحدة كبيرة وأخرى صغيرة،

لقت الأولى بالمنديل وضعت في صدرها وتركت الباقي على الطاولة. وقامت بحركة من ستسحب، لكنه نهض، مضطرباً وأوقفها من ذراعها.

- ماذا ستفعلين بالعبيد.

- سأنزع أغلالهن قبل أي شيء، بعدها سأرى كيف سأساعدهم.

- حسناً، أنتِ حرّة، يا خوليانا. سأهتم بأن تتمكني من الذهاب قريباً. واعدريني على الإزعاجات التي تسببت لك بها، كان بودي لو تعارفنا في ظروف أخرى. من فضلك، اقبلي هذه هدية مني - قال القرصان مسلماً إيّاها الحجارة الكريمة التي تركتها على الطاولة.

احتاجت خوليانا لكل قواها لمواجهة ذلك الرجل والآن انتزعت منها هذه اللفتة كل أسلحتها. لم تكن متأكّدة من معناها، لكنّ حدسها نبهها إلى أنّ الشعور الذي بدّلها لاقى استجابة تامّة عند لاقيت: الهدية إعلان حبّ. رآها القرصان متردّدة فأخذها بين ذراعيه وقبلها بفم ملآن على فمها. كانت أوّل قبلة حبّ عند خوليانا وربّما الأطول والأشدّ التي ستلقاها في حياتها. في جميع الأحوال كانت الأكثر حضوراً في ذاكرتها، كما يحدث دائماً مع القبلة الأولى. لقد مرّها حتى العظم قرب القرصان منها، ذراعاه وهما يلفانها، نفسه، بفؤه، رائحة رجولته، لسانه داخل فمها. كانت قد استعدت لهذه اللحظة بمئات الروايات الغرامية والسنوات التي تخيلت فيها العاشق المقدر لها. كانت تشتتهي لاقيت بشغف دسنته للتو لكن بيقين قديم ومطلق. لن تحبّ بعده أحداً، هذا الحبّ الحرام سيكون حبّها الوحيد في هذا العالم. تشبّثت به، ممسكةً بقميصه بيديها الاثنتين، ردت له القبلة بالشدة ذاتها، بينما هي تتمزّق من الداخل، لأنها كانت تعلم أنّ هذه الدغدغة كانت وداعاً. حين تمكّنا من الانفصال أخيراً، وضعت

أبييل. ولولم تحل

فنجان قهوة وصحن  
لأما في دفتر حسابات  
أياه الأربعة ووضعت  
مرّة أخرى أمام تلك  
لياليه. فك الصرة ولم

الخدين وبدأت تفرح

صان هي اكتشافه أن  
يمنة، والثانية أنها  
نهارها. ماذا سيقول بيير  
الذي كان يرغب به  
منة عند خوليانا بضان  
ل من أعماله المهينة لم  
سه لم يكن حزاً كي يقيم  
م تكن النقود تهبها مثل  
ثم أنّه يملك أكثر ما

يكفي لأكثر من شراب  
إلى كاليفورنيا. وكلّ

الملونة تفيدهم لكل  
كبيرة وأخرى صغيرة

رأسها على صدر القرصان دائخةً، محاولةً استعادة أنفاسها وإيقاع قلبها، بينما هو يُكرّر اسمها، خوليانا، خوليانا في همس طويل.  
- علي أن أذهب - قالت مودعةً.

- أحبك من كل روعي، يا خوليانا، لكنني أيضاً أحب كاترين.  
لن أهجرها أبداً. هل تستطيعين تفهم هذا؟

- نعم يا جان. مأساتي أنني عشقتك وأنا أعلم أننا لن نستطيع أن نكون معاً أبداً. لكنني أحبك أكثر لإخلاصك لكاترين. إن شاء الله تستعيد عافيتها قريباً وتكونان سعيدين...

أراد لافيت أن يقبلها من جديد، لكنها انسحبت راکضةً. ما من أحد منهما وهما في الارتباك الذي كانا فيه استطاع أن يرى مدام أوديليا التي حضرت المشهد عن مسافة قصيرة.

لم تكن خوليانا تشك بأن حياتها انتهت. ولم يكن استمرارها في هذا العالم مفصولة عن جان يستحق المعاناة. كانت تفضل الموت، مثل بطلات الأدب التراجيديات، على ذلك، لكنها لا تعرف كيف تلتقط مرض السل أو مرضاً آخر ناعماً، وقد رأت أن موتها بالتيفوس غير لائق. استبعدت أن تقتل نفسها، مهما كانت معاناتها عميقة، لا تستطيع أن تدين نفسها بالجحيم، وحتى لافيت نفسه لا يستحق هذه التضحية. ثم إنها لو انتحرت لتعذبت إيزابيل ونوريا. وكان الترهّب يلوح خياراً وحيداً، لكن فكرة ارتداء زي الراهبة في حرّ نيو أورليانز لم يكن يغريها كثيراً. أخذت تتصوّر ما كان سيقوله المرحوم والذها، الذي كان دائماً ملحداً بفضل الله، لو علم بنواياها. كان توماس ورومو يفضل أن يراها متزوجةً من قرصان على أن تصبح راهبة. سيكون من الأفضل لها أن تخرج من هناك ما إن تؤمن وسيلة النقل وتنتهي أيامها بالاعتناء بالهنود تحت إشراف الأب مندوثا، الذي كان رجلاً طيباً بحسب ما روى ديفغو. سوف تُخزن الذكرى الدافئة لتلك

القبلة وصورة جان لافيت، وجهه المشتعل عاطفة، عينيه  
الذبرجديتين، شعره المسرح إلى الخلف، عنقه وصدرة المطل من  
فصوص حريره الأسود، سلسلته الذهبية، يديه القويتين وهما  
تضمانها. لم تكن تمك راحة البكاء. كانت جافة، فقد استهلكت  
احتياطيها الكامل من الدموع في الأيام السابقة، وهي تعتقد أنها لن  
تبكي بعد الآن في حياتها.

كانت تفكر في هذا وهي تنظر إلى الشاطئ عبر النافذة تعاني  
بصمت من قلبها الممزق، حين شعرت بوجود أحد خلفها. تلك كانت  
مدام أوديليا، وهي أكثر إدهاشاً من أي وقت مضى، كلها قماش  
نظني أبيض وعمامة من اللون ذاته وأطواق من العنبر وسوارات في  
ذراعيها وقرطان ذهبيان في أذنيها. ملكة سنغالية، مثل أمها.

- عشقت جان - قالت بنبرة حيادية، وهي تخاطبها - أنت لأول  
مرة.

- لا تنشغلي، يا مدام، لن أدخل أبداً بين ابنتك وصهرك. سأذهب  
من هنا وهو سينساني - ردت خوليانا.

- لماذا اشتريت العبيد؟

- كي أحررهم، هل تستطيعين مساعدتهم؟ سمعت أن  
الكواكوريين يحمون العبيد ويأخذونهم إلى كندا، لكنني لا أعرف  
كيف أتصل بهم.

- في نيو أورليانز زوج كثيرون أحرار. يستطيعون أن يجدوا  
عملاً ويعيشوا هناك، أنا سأخذ أمر تشغيلهم على عاتقي - قالت  
الملكة.

بقيت صامته برهةً طويلة، تُراقب خوليانا بعينيها، اللتين مثل  
حبتني بندقي، تلعب بحبات عنبر طوقها، تدرسها، وتحسب. أخيراً بدا  
أن نظرتها القاسية قد رقت قليلاً.

- هل تريدان أن تربي كاترين - سألت ملء فمها.

- نعم يا مدام. وبودّي أن أرى الطفل أيضاً، كي أحمل معي صورة الاثنين، هكذا سيسهل عليّ أن أتصوّر من كاليفورنيا سعادة جان.

قادت مدام أوديليا خوليانا إلى جناح آخر من البيت، بنظافة وترتيب وزينة بقية البيت، حيث أحدثوا روضةً لحفيدها. بدت غرفة أمير أوروبّي صغير، باستثناء أوثنان فودو، كانت تحميّه من العين. كان بيير ينام في مهد برونزي بإطار من القماش المخرّم، ترافقه مرضعته، وهي امرأة شابة ضخمة الثديين وفاترة العينين وطفل صغير السن، مكلف بتحريك المروحة. أزاحت الجدّة الناموسية وانحنت خوليانا كي ترى ابن الرجل الذي كانت تعبه. بدا لها رائعاً. لم ترَ أطفالاً كثيرين تقارنهم به، لكنّه كان باستطاعتها أن تُقسِم أنّه أجمل طفل في العالم. كان مستلقياً على ظهره وفوقه قماط، مفتوح الذراعين والساقين مستسلماً لحلمه. أذنت لها مدام أوديليا بإيماءة أن تُخرجه من مهده. استطاعت حين أصبح بين ذراعيها أن تشمّ رأسه شبه الأصلع، أن ترى ابتسامته بلا أسنان، وأن تلمس أصابعه التي تشبه الديدان الصغيرة، وبدا لها أنّ الحجر الكريم الأسود الذي على صدره يتفكّك، ينفرد ويختفي. بدأت تُقبّله في كلّ مكان، في قدميه الحافيتين، في بطنه بسرّته النائنة، في رقبته الرطبة من العرق، وعندها بلّل نهر من الدموع الحارّة وجهها وسقط على الطفل. لم تبك غيراً لن تملكها أبداً، بل رقّة لا يمكن كتمانها. وضعت الجدّة بيير في المهد وأشارت إليها دون أية كلمة أن تتبعها.

عبرتا حديقة البرتقال والدفلى، ابتعدتا عن المنزل ووصلتا إلى الشاطئ حيث كان ينتظرهم مجدّف ومعه زورق ليحملهما إلى نيواورليانز. جابتا شوارع وسط المدينة بسرعة واجتازتا المقبرة. كانت الفيضانات تمنع دفن الموتى تحت الأرض، فصارت المقبرة مدينة صغيرة من الأضرحة، التي كان بعضها مزينةً بتمائيل من المرمر وبعضها الآخر محاطاً بسياج من الحديد المشغول والقبب



وأبراج النواقيس. رأنا غير بعيد كثيراً عنها شارعاً من المنازل  
العلوية والضيقة، كلها متساوية بباب في الوسط ونافذة على كل  
جانب، كانوا يسمونها «بيوت الطلقة» لأنَّ طلقة مصوِّبة على الباب  
الرئيسي تخترق البيت كله وتخرج من الباب الخلفي دون أن تصيب  
أي جدار. دخلت مدام أوديليا دون أن تطرق. في الداخل كان هناك  
فوضى غير معهودة لأطفالٍ متفاوتي الأعمار، تعنتني بهم امرأتان  
ترتديان متزريين من البفتة. كان البيت مزدحماً بالأوثان، ومرطبات  
المغليات والأعشاب المعلقة رزماً إلى السقف، وتمائيل الخشب  
المعشقة بالمسامير والأقنعة وما لانهاية له من الأشياء الخاصة  
ببيانة الفودو. كانت هناك رائحة حلوة ودبقة كالدبس. حيث مدام  
أوديليا المرأتين وتوجَّهت إلى إحدى الغرف الصغيرة. وجدت  
خوليانا نفسها أمام خلاسيَّة داكنة، طويلة العظام، صفراء العينين  
مثل فهدٍ وجلد بزاقٍ من العرق، وشعر مجموع في قرابة خمسين  
صغيرة مزينة بالشرائط والخرز الملون، تُرضع طفلاً حديث الولادة.  
تلك كانت ماري لافو الشهيرة، العرافة التي ترقص أيام الأحاد مع  
العبدات في ساحة الكونغو وتسقط في احتفالات الغابة المقدسة  
مغشياً عليها وتجسّد الآلهة.

- جئتُك بها كي تقولي لي ما إذا كانت هي - قالت مدام أوديليا.

نهضت ماري لافو على قدميها واقتربت من خوليانا، والطفل  
عالق بشديها. كانت قد قرَّرت أن تلد طفلاً كلَّ عام ما سمح لها شبابها  
بتلك، وهامى تملك خمسة. وضعت ثلاث أصابع على جبينها ونظرت  
إلى عينيها طويلاً. شعرت خوليانا بطاقة مريعة وضربة سوط تهزها  
من قدميها إلى رأسها. مضت دقيقة كاملة.

- إنها هي - قالت ماري لافو.

- لكنَّها بيضاء - اعترضت مدام أوديليا.

وأبراج النواقيس. رأنا غير بعيد كثيراً عنها شارعاً من المنازل  
العالية والضيقة، كلها متساوية بباب في الوسط ونافذة على كل  
جانب، كانوا يسمونها «بيوت الطلقة» لأنَّ طلقة مصوِّبة على الباب  
الرئيسي تخترق البيت كله وتخرج من الباب الخلفي دون أن تصيب  
أي جدار. دخلت مدام أوديليا دون أن تطرق. في الداخل كان هناك  
نوضى غير معهودة لأطفالٍ متفاوتي الأعمار، تعنتني بهم امرأتان  
ترتديان مئزرين من البفتة. كان البيت مزدحماً بالأوثان، ومرطبات  
المغليات والأعشاب المعلقة رزماً إلى السقف، وتمائيل الخشب  
المعشقة بالمسامير والأقنعة وما لانهاية له من الأشياء الخاصة  
بديانة الفودو. كانت هناك رائحة حلوة ودبقة كالدبس. حيَّت مدام  
أوديليا المرأتين وتوجَّهت إلى إحدى الغرف الصغيرة. وجدت  
خوليانا نفسها أمام خلاسيَّة داكنة، طويلة العظام، صفراء العينين  
مثل فهدٍ وجلد برّاق من العرق، وشعر مجموع في قرابة خمسين  
ضفيرة مزينة بالشرائط والخرز الملون، تُرضع طفلاً حديث الولادة.  
تلك كانت ماري لافو الشهيرة، العرّافة التي ترقص أيام الأحاد مع  
العبدات في ساحة الكونغو وتسقط في احتفالات الغابة المقدسة  
مغشياً عليها وتجسّد الآلهة.

- جئتُك بها كي تقولي لي ما إذا كانت هي - قالت مدام أوديليا.

نهضت ماري لافو على قدميها واقتربت من خوليانا، والطفل  
عالق بشديها. كانت قد قرَّرت أن تلد طفلاً كلَّ عام ما سمح لها شبابها  
بنك، وهاهي تملك خمسة. وضعت ثلاث أصابع على جبينها ونظرت  
إلى عينيها طويلاً. شعرت خوليانا بطاقة مريضة وضربةٍ سوطٍ تهزها  
من قدميها إلى رأسها. مضت دقيقة كاملة.

- إنها هي - قالت ماري لافو.

- لكنّها بيضاء - اعترضت مدام أوديليا.

- أقول لك إنها هي - كزرت الكاهنة وبذلك اعتبرت المقابلة  
منتهية.

أخذت ملكة السنغال خوليانا ومضت عائدة بها إلى الرصيف،  
وعادتا وعبرتا المقبرة وساحة السلاح واجتمعتا بالمجذف، الذي  
انتظرهما صابراً، مدخناً تبغه. قادهما الرجلُ عبر طريق آخر  
باتجاه منطقة المستنقعات. وسرعان ما وجدوا أنفسهم في متاهة  
المستنقع بممراته وأغماره وبحيراته وجزره الصغيرة. ساهمت  
وحشة المنظر المطلقة، وأبخرة الوحل الخانق، وخفقات أذيال  
التماسيح المفاجئة، وزعيق الطيور، كل ذلك ساهم في خلق جوٍّ من  
الغموض والخطر. انتبهت خوليانا إلى أنها لم تعلم احداً من  
جماعتها. ولا بد أن أختها ونوريا تبحثان عنها الآن. خطر لها أن  
هذه المرأة يمكن أن تكون لديها نوايا شريرة، فهي بعد كل حساب  
أم كاترين، لكنّها سرعان ما استبعدت هذه الفكرة. بدا لها العبور  
طويلاً جداً والحرّ يدبّ فيها النعاس، شعرت بالعطش، وكان المساء  
قد حلّ والجو امتلأ بالبعوض. لم تجرؤ على السؤال عن وجهتهم.  
بعد برهة طويلة من الرحلة حين بدأت تعتم رسوا على ضفة. بقي  
المجذف بجانب زورقه وأشعلت مدام أوديليا فانوساً، أخذت  
خوليانا من يدها وقادتها بين العشب الطويل حيث ما من أثر يدلّ  
على الاتجاه. وكان كل ما قالتها لها هو «احذري من أن تطئي أفعى».  
سارتا مسافة طويلة وأخيراً عثرت الملكة على ما كانت تبحث عنه.  
كانت منطقة عارية من المراعي ذات أشجارٍ سامقة معلّمة بالصلبان  
تتدلّى منها الطحالب. لم تكن صلباناً مسيحيةً، بل صلبان الفودو،  
التي ترمز إلى تداخل العالمين، عالم الأحياء وعالم الأموات. وكان  
عدد من الأقنعة ووجوه الآلهة الأفريقية المنحوتة على الخشب يُراقب  
المكان. بدا المنظر على ضوء الفانوس والقمر مرعباً.

- هناك ابنتي - قالت مدام أوديليا، مشيرةً إلى الأرض.

كانت كاترين بيارز قد توفيت بحمى النفاس قبل خمسة

أسابيع. لم تستطع إمكانيات الطب الحديث ولا الصلوات المسيحية  
ولا السحر وأعشاب السحر الأفريقية إنقاذها. لفت أمها ونساء  
أخريات الجثمان، الذي استنفده الالتهاب والنزف ونقلوه إلى ذلك  
المكان حيث ووريت التراب في المستنقع مؤقتاً ريثما تشير الشابة  
المرحومة إلى الشخص المخصص لنقلها. لم يكن باستطاعة كاترين  
السماح بأن يقع ابنها في يد أيّة امرأة يختارها جان لافيت، حسبما  
رضحت ملكة السنغال. وكان واجبها أن تُساعدتها في هذه المهمة،  
ولذلك أخفت موتها. كانت كاترين في منطقة وسط، تروح وتغدو بين  
عالمين. تُرى ألم تسمع خوليانا خطواتها في منزل لافيت؟ ألم ترها  
واقفةً عند سريرها في الليالي. ورائحة البرتقال التي كانت تعمّ  
الجزيرة هي عطر كاترين، التي كانت تسهر في حالتها الجديدة على  
الصغير بيير وتبحث عن خالة مناسبة له. أدهش مدام أوديليا أن  
كاترين ذهبت إلى الجانب الآخر من العالم كي تعثر على خوليانا وما  
كانت تحبّ فكرة أنّها اختارت امرأة بيضاء، لكن من هي حتى  
تعرض؟ فمن عالم الأرواح كانت كاترين تستطيع أن تُقرّر من هي  
الأنسب بشكلٍ أفضل من أيّ شخصٍ آخر. هكذا أكدت لها ماري لافو  
حين استشارتها. وعدتها الكاهنة قائلة: «حين تظهر المرأة  
المناسبة، سيكون بمقدوري التعرف عليها». المرّة الأولى التي  
انتاب مدام أوديليا شعور بأنّها يمكن أن تكون خوليانا كانت حين  
رأت أنّها تحبّ جان لافيت، لكنّها بدت مستعدة للتخلي عنه احتراماً  
لكاترين، والمرّة الثانية حين أشفقت الشابة على مصير العبيد. قالت  
إنّها كانت راضية الآن، لأنّ ابنتها المسكينة سترتاح مطمئنة في  
سمائها ويمكن أن تُدفن في المقبرة، حيث لن يستطيع مدّ الماء أن  
يجرف جسدها إلى البحر.

اضطرت أن تُكرّر عدداً من التفاصيل لأنّ القصة لم تكن تدخل  
في رأس خوليانا. لم يكن باستطاعتها أن تُصدّق أنّ هذه المرأة  
أخفت الحقيقة عن جان خمسة أسابيع. كيف ستوضح له الأمر الآن؟  
قالت مدام أوديليا أنّه ليس من الضروري أن يعلم صهرها بكلّ

عائدة بها إلى الرصيد.  
جتمعتنا بالمجنون، الذي  
الرجل عبر طريق آخر  
جدوا أنفسهم في مناف  
غزره الصغيرة، سامت  
لخانق، وخفقات أنيال  
ساهم في خلق جو من  
أنّها لم تعلم لحدّ من  
عنها الآن. خطر لها أن  
برة، فهي بعد كل حساب  
الفكرة. بدا لها العير  
بالعطش، وكان المساء  
السؤال عن وجهه  
م رسوا على ضفة بني  
أوديليا فانوساً، أخذت  
يل حيث ما من أنرييل  
ري من أن تطي ألقى  
على ما كانت تبحث عن  
سامقة معلّبة بالصبيان  
حية، بل صلبان الفود  
ماء وعالم الأموات. وكان  
حوتة على الخشب يربط  
القمر مربعاً.  
شيرة إلى الأرض  
النفاس قبل خفا

المسألة. فالتاريخ الدقيق غير مهم، ستقول له إن كاترين ماتت  
البارحة.

- لكنّ جان سيطلب رؤية الجثمان! - علّقت خوليانا.

- هذا غير ممكن. وحدنا النساء نستطيع أن نرى الجثامين.  
مهمتنا أن نأتي بالأطفال إلى هذا العالم ونودّع الموتى. على جان  
أن يقبل. بعد جنازة كاترين، سيكون لك - ردت الملكة.

- سيكون لي؟... - تلعثت خوليانا مرتبكة.

- الشيء الوحيد المهم في هذه الحالة هو حفيدي بيير. لاقيت  
كان مجرد وسيلة استخدمتها كاترين كي توكل إليك ابنها. وأنا وهي  
سنسهرُ على أن تقومي بواجبك. ولهذا يجب عليك أن تبقي بجانب أب  
الطفل وتبقي عليه راضياً ومطمئناً.

- جان ليس من نوع الرجال الذين يمكن أن يكونوا راضين  
ومطمئنين، إنه قرصان ومغامر...

- سأعطيك، كما أعطيت لكاترين حين بلغت الثانية عشرة،  
مغليات سحرية وأسراراً لإرضائه في السرير.

- لستُ من هذا النوع من النساء... - انزعجت خوليانا محمّرةً.

- لا تهتمّي، ستصيرين، ولكن لن تصبحي أبداً بمهارة كاترين،  
لأنك عجوز قليلاً كي تتعلّمي، وفي رأسك أفكار بلهاء كثيرة، لكنّ  
جان لن يلاحظ الفرق. الرجال أغبياء تعميهم الرغبة، ولا يعرفون  
عن اللذة إلا القليل جداً.

- لا أستطيع أن أستخدم حيل الغواني أو المغليات السحرية،

يامدام!

- هل تحبّين جان أم لا، يا صغيرة.

- بلى - اعترفت خوليانا.

- إذاً عليك أن تجتهدي. دعي الأمر بين يدي. ستجعلينه سعيداً

ومن الممكن أن تكوني أنت كذلك، لكنني أنبئك إلى أن عليك أن  
تعتبري بيير ابناً لك أو أنك ستواجهيني. هل فهمت جيداً.

لا أدري كيف أنقل لكم، أعزائي القراء، حقيقة ردة فعل ديبغو  
لابغا، بكل عظمتها عندما علم بما جرى. كانت السفينة التالية إلى  
كوبا ستنتقل من نيو أورليانز بعد يومين، اشترى التذاكر وأصبح كل  
شيء جاهزاً للخروج بسرعة الطير من منطقة صيد جان لافيت الذي  
يجرّ معه خوليانا جرّاً. فهو بعد كل حساب سينقذ حبيبته. عادت  
روحه إلى جسده حين انقلب ظهر المجنّ وظهر أن خصمه أرملة.  
رمى نفسه على قدمي خوليانا كي يردعها عن الحماسة التي كانت  
سترتكبها. حسناً، هذا مجرد كلام. فهو كان واقفاً يسير بخطوات  
واسعة، يوميء، يشدُّ شعره، يصرخ، بينما هي تنظر إليه مشدوهة  
وابتسامة بلهاء على وجهها، وجه الحورية. فلينقذ امرأة عاشقة إذا  
كان يستطيع! كان ديبغو يعتقد أن الشابة ستستعيد في كاليفورنيا  
عقلها، بعيدة عن القرصان، وسيستعيد هو ما كان قد خسره. لا بد  
أن خوليانا ستكون حمارة تماماً إن استمرت في حب شخص يتاجر  
بالعبيد. كان واثقاً من أنها ستعرف في النهاية كيف تُقدّر رجلاً مثله،  
بجمال وشجاعة لافيت، لكنه أفتى منه بكثير، نزيهاً، مستقيم القلب،  
سليم النوايا، يستطيع أن يمنحها حياة مريحة دون أن يقتل أبرياء  
ليسرقهم. هو يكاد يكون تاماً ويعبدها. والله! ماذا كانت خوليانا  
تريد أكثر من ذلك؟ لا شيء يبدو لها كافياً! كانت كيساً مثقوباً.  
صحيح أن أسابيع قليلة في حرّ باراتاريا كانت كافية كي تمحو  
بجزة ريشة نجاحاتٍ كان قد حققها خلال خمس سنوات من  
مغازلتها. لو كان شخصاً آخر أكثر تنبهاً لعلم أن قلب تلك الشابة  
متقلب، لكن ديبغو ليس هذا الآخر. كان خيلاؤه يمنعه من أن يرى  
بوضوح، كما هي عادة حال العاشقين من أمثاله.

كانت إيزابيل تراقب المشهد مشدوهة. ففي الثمانية والأربعين

ساعة الأخيرة حدثت أشياء بدت من الكثرة بحيث أنه لم يعد باستطاعتها تذكرها بالترتيب. لنقل أن الأمر كان إلى هذا الحد أو ذاك على الشكل التالي: بعد أن فكّوا أغلال العبيد وأطعموهم وأعطوهم ثياباً وأفهموهم بصعوبة كبيرة أنهم أصبحوا أحراراً، حضروا مشهداً يمزق القلب، موت الرضيع، الذي وصل مُحْتَضِراً. احتاجوا إلى قوّة ثلاثة رجال كي ينتزعوا الجسم المتخشّب من أمّه ولم يكن هناك من طريقة لتهدئتها، كان عويلها ما يزال يُسمع، يُرافقها عواء كلاب الجزيرة. العبيد المساكين لم يكونوا يفهمون الفارق بين أن يكونوا أحراراً أو لا يكونوا، إذا كانوا في جميع الأحوال سيستمرّون في ذلك المكان الكريه. رغبتهم الوحيدة هي العودة إلى أفريقيا. كيف كانوا سيعيشون في تلك الأرض المعادية والوحشية. كان الزنجي الذي قام بالترجمة يُحاول أن يهدّئهم واعداء إياهم أنهم لن يُعدموا طريقة لكسب العيش، فهم دائماً في الجزيرة بحاجة إلى مزيد من القراصنة، والفتاتان ستعثران بقليل من الحظّ على زوجين، والأم المسكينة ستستطيع أن تعمل عند أسرة ما، سيعلمونها الطهي، ولن يكون عليها أن تنفصل عن الطفل الآخر. عبث. كانت المجموعة تُكرّر مثل ابتهاج أن يُعيدوها إلى أفريقيا.

عادت خوليانا من نزهتها الطويلة مع مدام أوديليا وقد تبدّلت إلى سعادة هائلة، تحكي حكاية قادرة على أن توقف شعر أكثرهم رجاحة عقل. وجعلت ديفغو وإيزابيل ونوريا يقسمون ألا يُكرّروا كلمة واحدة، ثمّ أفلتت جديدها بأنّ كاترين بيّارز لم تكن تُفكّر أنّها مريضة، بل إنّها نوع من الميته المنبعثة كي تفرض إرادتها. ثمّ إنّها اختارتها هي بالذات كي تكون خالة الصغير بيير. ستتزوج من جان لافيت، المسألة فقط أنّه لم يكن يعرف بعد بذلك، ستقوله له بعد جنازة كاترين. وتُفكّر أن تطلب منه كهدية لزواجهما أن يتخلّى نهائياً عن الاتجار بالعبيد، فهذا هو الشيء الوحيد الذي لا يمكنها أن تتسامح معه، فالخسائس الأخرى لم تكن تهتمّها كثيراً. واعترفت لهم، بقليل من الخجل، أنّ مدام أوديليا ستُعَلِّمها ممارسة الحبّ كما يُحبّ

الفرصان. عند هذا المستوى من الكلام فقد ديفغو السيطرة على نفسه. خوليانا كانت معتوهة، دون شك. هناك ذبابة تنقل هذا المرض، لا شك أنها لسعتها. هل تظن أنه سيتركها بين يدي ذلك المجرم؟ ترى ألم يتعهد لتوماس بـ رومو، عليه الرحمة، أن ينقلها سالمة غانمة إلى كاليفورنيا؟ سيفي بعهدة حتى ولو اضطر لأن يضربها على رأسها.

عاني جان لافيت في تلك الساعات انفعالات مختلفة كثيرة جداً. فقد تركته القبلة في ذهول. فالتخلي عن خوليانا كان أصعب ما واجهه في حياته، إنه يتطلب كل شجاعته، التي لم تكن قليلة كي يتجاوز الكرب والخيبة. اجتمع بأخيه والقباطنة الآخرين كي يسلمهم حضنتهم من بيع العبيد وفدية الرهائن، التي كانوا يوزعونها بدورهم بعدل بين بقية الرجال. خرج المال من جيبه الخاص، كان هذا كل التوضيح الذي قدمه. بين له القباطنة، مستغربين، أنه لا معنى إطلاقاً لذلك من وجهة النظر التجارية، فلأبي شيطان كان يأتي بالعبيد والرهائن، مع كل ما يتبع ذلك من نفقات وإزعاجات معروفة، إذا كان يفكر بإطلاقهم مجاناً. انتظر بيير لافيت حتى ذهبوا كي يبدي رأيه لجان. كان يفكر أن هذا فقد القدرة على إدارة التجارة، فقد ترهل دماغه، ومن المحتمل أن تكون لحظة استبداله قد حانت.

- اتفقنا، يا بيير، سنخضع هذا للتصويت بين الرجال، كما هي العادة. هل ترغب بالحلول مكاني؟ - تحداه جان.

وما زاد الطين بللاً بعد هذا أن حماته وصلت بعد ساعات قليلة لتعلن له أن كاترين توفيت. لا. لم يكن يستطيع أن يراها. الجنازة ستم بعد يومين في نيوأورليانز، بحضور مجتمع الخلاسيين. سيكون هناك قداس مسيحي قصير لتهدئة القساوسة يليه حفل أفريقي، ومأدبة وموسيقى ورقص، كما هو الواجب. كانت المرأة حزينة، لكنها رصينة وملكت من القوة ما يكفي كي تواسيه حين راح يكي مثل صبي صغير. كان يعبد كاترين، إنها رفيقته وحبّه الوحيد،



أجهش لافيت. قدّمت له مدام أوديليا جرعة روم وربتات على كتفه. لم تكن تشعر بشفقة مفرطة تجاه الأرملة، لأنها تعلم أنّه سرعان ما سينسى كاترين بين ذراعي أخرى. لم يكن جان ليستطيع حياءً أن يخرج راکضاً ليطلب من خوليانا أن تتزوج منه، فقد كان عليه أن يصبر فترة معقولة، لكنّ الفكرة كانت قد اتخذت شكلها في ذهنه وقلبه على الرغم من أنّه ما زال لا يستطيع أن يصوغها بكلمات. فقدان زوجته كان مريعاً، وإن كان يقدم له حرّية غير منتظرة. كانت كاترين، حتى وهي في قبرها، تُرضي أخفى خفايا رغباته. بات مستعداً لتصحيح طريقه من أجل خوليانا. فالسنون تمضي سريعة، وقد ملّ العيش مُستباح الدم، ومسدّس على خصره وهو معرّض لأن يضعوا سعراً لرأسه في أية لحظة. كان قد جمع في تلك السنوات ثروة ويستطيع هو وخوليانا والصغير بيير أن يذهبوا إلى تكساس، إلى حيث ينتهي الاستقرار بالأوغاد، ويتفرّغ هناك لنشاطات أخرى أقلّ خطورة، وإن كانت دائماً غير مشروعة. طبعاً لن يمارس تجارة العبيد أبداً، لأنها كما يبدو تجرح حساسية خوليانا. لم يسمح لافيت قط لامرأة أن تتدخل في أعماله، وهي لن تكون الأولى، لكنّه أيضاً لا يستطيع أن يدمّر زواجه بالشجار حول هذه المسألة. نعم، سيذهبون إلى تكساس، لقد حسم الأمر. فهذا المكان يقدم إمكانيات كثيرة لرجل مرن الأخلاق ومغامر الروح. كان على استعدادٍ لأن يتخلّى عن القرصنة، وإن كان هذا لا يعني أن يتحوّل إلى مواطن محترم، إذ يجب عدم المبالغة.

القسم الخامس

كاليفورنيا العليا 1815

ركب ديفغو وإيزابيل ونوريا مرزاباً في ميناء نيو أورليانز  
ربيع 1815، مخلفين خوليانا وراءهم. يؤسفني أن يكون الأمر كذلك،  
لأن أي قارئ طيب القلب سينتظر نهايةً رومانسية لصالح البطل.  
ويؤسفني أن قرار خوليانا مخيبٌ للأمل، لكنه لم يكن ممكناً بطريقة  
أخرى، لأن معظم النساء لو كنَّ مكانها لفعلن الشيء ذاته. إعادة  
الضال إلى طريق الصواب مشروع لا يُقاوم وخوليانا فعلت ذلك  
بغيرة دينية. سألتها إيزابيل لماذا لم تُحاول ذلك قط مع رافائيل  
مونكادا فأوضحت لها أن الأمر لم يكن يستحقَّ الجهد، لأنَّ مونكادا  
لم يكن رجلَ نزواتٍ رائعة مثل لافيت، بل رجلَ خسائس، وأضافت  
الحسنة: «وهذه، كما يعلم الجميع، ليس لها علاج». وفي تلك  
المرحلة كان ما يزال ينقص زوروكثير كي يستحقَّ أن تجهد امرأةً  
نفسها لإصلاحه.

لقد وصلنا، أيها القراء الأعزاء، إلى القسم الخامس والأخير  
من هذا الكتاب، ولم يبقَ غير القليل كي نودع بعضنا بعضاً، ذلك لأنَّ  
القصة تنتهي مع عودة البطل إلى نقطة انطلاقه، وقد غيرته مغامراته  
والعوائق التي تخطاها. هذا هو المعتاد في القصص الملحمية، بدءاً  
من الأوديسا وحتى حكايات الجن. ولن أكون أنا من ستحاول  
التجديد.

الحركة الرهيبة التي قام بها ديفغو عندما علم بقرار خوليانا

بالبقاء مع لافيت في نيو أورليانز لم تجديه نفعاً، لأنها تخلّصت منه  
مثل بعوضة، وأضافت مَنْ هو ديفغو كي يأمرها، وهما لا تجمع  
بينهما حتى رابطة الدم. ثم إنَّ عندها من العمر ما يكفي كي تعرف ما  
يُناسبها. وكوسيلة أخيرة تحدّى ديفغو القرصانَ بالمبارزة حتى  
الموت «دفاعاً عن شرف الأنسة دِ رومو»، كما قال، لكنَّ هذا أعلّمهُ  
وقتها بأنّهما قد تزوّجا في الكنيسة الخلاسية في حفل سرّي صارم  
صباحَ ذلك اليوم بالتحديد، دون أيّ شاهد آخر غير أخيه بيير  
والسيّدة أوديليا. ولا شكَّ أنّهم فعلوا ذلك بهذا الشكل تقادياً لمشاهد  
سيقوم بها من لا يفهمون عجلة الحب. لم يكن هناك ما يفعله  
فالارتباط كان شرعيّاً. وهكذا فقد ديفغو حبيبته للأبد وأقسمَ وقد  
صار أسيرَ أعظم ضيقٍ أنّه سيبقى عازباً بقيّة أيام حياته. لم يُصدِّقه  
أحد. إيزابيل بيّنت له أن لافيت لن يدوم كثيراً في هذا العالم، نظراً  
لطريقته الخطرة في الحياة، وأنّه ما إن تترمّل خوليانا حتى يستطيع  
أن يلاحقها حتى يتعب، لكنَّ هذه الذريعة لم تكن كافية لمواساة  
ديفغو.

ودّعت إيزابيل ونوريا خوليانا بكثير من البكاء، رغم وعود  
لافيت بأنّهما سيذهبان لزيارتهما في كاليفورنيا. تردّدت نوريا،  
التي كانت تعتبر الصغيرتين دِ رومو بمثابة ابنتيهما، بين أن تبقى مع  
خوليانا لتحميها من الفودو والقراصنة والمنفصّات الأخرى، التي لا  
شكَّ أنّ القدر يدبّرهما لها، وبين أن تتابع إلى كاليفورنيا مع إيزابيل،  
التي على الرغم من أنّها أصغر بعدة سنوات، إلّا أنّ حاجتها إليها  
كانت أقل. حلّت خوليانا المعضلة طالبة منها الذهاب، لأنّ سمعة  
إيزابيل ستسوء للأبد إذا ما سافرت وحدها مع ديفغو دِ لابغا. قدّم  
لافيت إلى القهرمانه سلسلة ذهبية وقطعة من أنعم أنواع الحرير  
هديةً وداع. اختارتها نوريا سوداء اللون، جداداً.

ابتعد المرزابُ عن الميناءِ وسط وابلٍ حارٍّ من المطر، كما كان  
يحدث في كثير من الأحيان يومياً في ذلك الفصل وبقيت خوليانا

مبللة بالدمع والمطر، تحمل بين ذراعيها الصغير بيير، يحرسها  
قرصانها الفاتن وملكة السنغال، المتولية توجيها وحراستها. كانت  
خوليانا ترتدي ثياباً بسيطة، حسب ذوق زوجها وتشع من السعادة  
ما جعل ديفغو ينفجر باكياً. لم تبد له بجمال لحظة فقدانه لها. كانت  
خوليانا ولاقيت يُشكّلان زوجين رائعين، هو في سواد تام، يحمل  
بيفاء على كتفه، وهي بالموسلين الأبيض، وكلاهما محميّان حتى  
الوسط بمظلتين يحملهما فتیان أفريقيّان، كانا عبيدین وصارا الآن  
خزّين. أغلقت نوريا حجيرتها على نفسها كيلا يروها تبكي بصوت  
عالٍ. وبقي ديفغو وإيزابيل يلوّحان محزونين مودّعين حتى ما عادا  
يريانهم. كان ديفغو يبتلع دموعه للأسباب التي نعرفها وإيزابيل  
لأنها تنفصل عن أختها. إضافة إلى أنها، وهذا ما يجب قوله، بنت  
أوهاماً فيما يتعلّق بلاقيت، الرجل الأوّل الذي ناداها جميلة. هكذا  
هي الحياة، مهزلة خالصة. فلنعد ونمسك بالقصة.

حملت السفينة شخصياتنا إلى كوبا. كانت هافانا، المدينة  
التاريخية، ببيوتها ذات الطراز الاستعماري وكورنيشها الطويل،  
المستحمة في بحر بلّوري ونور كاربيّي مُحال، تُقدّم متعاً منحطة، لم  
يُحسن أيّ منهم استغلالها. نوريا لأنها كانت تشعر بأنها عجوز،  
وإيزابيل لأنهما لم يسمحا لها بذلك. فالشابة المراقبة من الإثنين لم  
تستطع أن تزور الكازينوهات، ولا أن تُشارك في استعراضات  
موسيقى الشارع البهيجة. فقراء وأثرياء، بيض وزنوج كانوا يأكلون  
في الحانات والمطاعم الشعبية، يشربون الروم بلا حدود ويرقصون  
حتى الفجر. لو أتاحوا لها الفرصة لتخلّت إيزابيل عن الفضيلة  
الإسبانية، التي لم تفدها في شيء حتى تلك اللحظة، كي تندفع في  
الشبقِ الكاربيّي، الذي كان يبدو أهمّ بكثير، لكنّها بقيت أسيرة  
الرغبة. علموا من صاحب الفندق أخباراً عن سانتياغو دي ليون. فقد  
تمكّن القبطان من الوصول مع ناجين آخرين من هجوم القراصنة

بسلاام إلى كوبيا. ولم يكد يستعيد أنفاسه من الرعب والخوف حتى  
أبحر إلى إنكلترا. كان يُفكر بأن يقبض تأميناً وينسحب إلى منزل  
صغير في الريف، حيث سيستمر في رسم الخرائط الخيالية لجامعي  
الأشياء الغريبة.

بقي الأصدقاء الثلاثة عدّة أيام في كوبيا، استغلها ديفغو كي  
يوصي ليصنعوا له طقمين من ثياب زورو، منسوخين عن أطقم جان  
لافيت. اضطرّ عندما رأى نفسه أمام مرآة الخياط لأن يعترف أنّ  
خصمه كان يتمتّع بأناقة لا تقبل الجدل. نظر إلى نفسه من الأمام  
والجانبيين، وضع يداً على وركه وأخرى على مقبض سيفه، رفع  
شعره وابتسم راضياً. كانت أسنانه تامّة وكان يُحب أن يستعرضها.  
فكر أنّه يظهر رائعاً. وأسفّ للمرّة الأولى لازدواجية شخصيته. كان  
يود أن يسير دائماً بتلك الملابس. وتنهّد قائلاً: «في جميع الأحوال لا  
يمكنك أن تملك كل شيء في الحياة». لم يكن ينقصه غير القناع كي  
يفلطح أذنيه، والشارب المستعار كي يخدع أعداءه وسيكون زورو  
جاهزاً كي يتواجد حيث يُطلب سيفه. «بالمناسبة، يا جميل، أنت  
تحتاج إلى سيفٍ ثانٍ» قال مخاطباً الخيال في المرآة. لن ينفصل أبداً  
عن عزيزه العادل، لكنّ سيفاً واحداً لا يكفي. أرسل ثيابه الجديدة  
الفاخرة إلى الفندق وراح يخوب حوانيت الأسلحة في الميناء بحثاً  
عن سيفٍ شبيهٍ بالذي أهدها إليه بلأيو. وجد ما كان يرغب فيه  
تماماً، واشترى أيضاً خنجرين موريسكيين، نحيلين ومرنين،  
لكنّهما قويّين جداً. المال الذي حصل عليه بالحرام من كهوف القمار  
في نيو أورليانز ملصّ من بين يديه بسرعة، وبعد أيّام قليلة حين  
استطاعوا أن يركبوا في طريقهم إلى بورتوبلو، كانوا بفقر اليوم  
الذي اختطفهم فيه جان لافيت.

بالنسبة إلى ديفغو الذي اجتاز قنال بنما سابقاً بالاتجاه  
المعاكس، لم يبذل له هذا الجزء من الرحلة مهماً كما كان بالنسبة إلى  
إيزابيل ونوريا، اللتين لم تريا قط ضفادع بأظلافٍ وأقل من ذلك

سكاناً أصليين عراة. غرزت نوريا، المذعورة، عينيها في نهر  
تشارس، مقتنعة بأن أسوأ مخاوفها من وحشية الأمريكيين قد  
تأكدت. بالمقابل استغلت إيزابيل انتشار العري ذاك لإشباع فضول  
قديم عندها. فهي منذ سنوات كانت تتساءل عن الفرق بين الرجل  
والمرأة، وأصيبت بخيبة أمل، لأن ذلك الفرق كان يسعه بكل راحة  
جزدائها، كما علقت قائلة لقهرمانتها. في جميع الأحوال تمكّنوا من  
الإفلات من الإصابة بالمalaria ومن لسع الأفاعي بفضل صلوات  
نوريا، ووصلوا دون عوائق إلى ميناء بنما. هناك حصلوا على  
سفينة حملتهم إلى كاليفورنيا العليا.

رست السفينة في ميناء سان بيدرو الصغير، بالقرب من لوس  
أنجلوس، ونُقل الركاب في زورق إلى الشاطئ. لم يكن سهلاً إنزال  
نوريا على سلم الحبال. فأخذها بحار طيب الإرادة، مفتول العضلات  
من خصرها دون استئذان ووضعها على كتفه ونزل بها كما لو أنها  
كيس سكر. عندما اقتربوا من اليابسة رأوا صورة هندي تلوّح لهم  
مشيرة بيدها. بعد دقائق راح ديفغو وإيزابيل يصيحان فرحاً حين  
عرفا برناردو.

- كيف عرفت أننا سنصل اليوم؟ - سألت نوريا مُستغربةً.

- أنا أخبرته - ردّ ديفغو، دون أن يوضّح كيف فعل ذلك.

كان برناردو قد ربض هناك منذ أسبوع، حين انتابه إحساس  
بأن أخاه على وشك الوصول. ثم يشكّ بصدق الرسالة التخاطبية  
وأقام يرصد البحر بصبر لا حدود له، واثقاً من أن سفينة ستظهر  
أجلاً أو عاجلاً في الأفق. لم يكن يعلم أن ديفغو جاء مُرافقاً، لكنّه  
قدّر أنه سيأتي معه بأمّتعة كثيرة، لذلك احتاط وجاء معه بعدد من  
الخيول. لقد تغيّر إلى حدّ أن نوريا لاقت صعوبة في التعرّف في ذلك  
الهندي على الخادم المحتشم الذي تعرّفت عليه في برشلونة. لم يكن

برناردو يرتدي غير بنطلون مشدود إلى خصره بحزام من جلد البقر.  
لقد حمّصته الشمس كثيراً وصار شعره طويلاً، أسود داكناً  
ومجدولاً. كان يحمل خنجراً على خصره وبندقية معلقة على ظهره.

- كيف هما أبواي؟ وبرق الليل وابنك؟ - كان هذا شاغل ديبغو.

الأول.

وبالإشارة قال له برناردو أنّ هناك أخباراً سيئة، وعليهم أن  
يذهبوا مباشرة إلى بعثة سان غابرييل التبشيرية، حيث سيوضح لهم  
القسّ مندوثا الحالة؛ فهو نفسه كان يعيش بين الهنود منذ عدّة  
أشهر وليس مطلعاً تماماً على التفاصيل. حزموا قسماً من الأمتعة  
على أحد الأحصنة، طمروا البقية في الرمل وعلموا المكان  
بالحجارة، لإخراجها فيما بعد. ثم ركبوا بقية المطايا وتسربوا  
إلى البعثة التبشيرية. لاحظ ديبغو أنّ برناردو يقودهم عبر أحد  
المنعطفات، متفادياً الطريق الملكي وأملاك لابغا. بعد مسيرة عدّة  
فراسخ شاهدوا أملاك البعثة. أفلتت من ديبغو صيحة مفاجأة حين  
تبين له أنّ الحقول، التي زرعها القسّ مندوثا بكثير من الهمة،  
غزتها الأعشاب وأنّ السقوف فقدت نصف قرميدها وأكواخ  
المعتنقين الجدد بدت مهجورة. كان يسود جوّ من البؤس على ما  
كان سابقاً أملاكاً مزدهرة. خرجت بعض الهنديّات على صوت  
الحوافر وخلفهنّ صفارهنّ وبعدها بقليل ظهر القسّ مندوثا في  
الفناء. كان المبشّر قد استنزف في تلك السنوات الخمس، فبدأ  
عجوزاً ضعيفاً، لا يغطّي رأسه غير بعض الشعر القليل، الذي لم  
يتمكّن من تغطية ضربة السكين في أذنه الضائعة. كان يعلم أنّ  
برناردو ينتظر أخاه ولم يكن يشكّ بحدسه، لذلك لم يكن وصول  
ديبغو مفاجئاً له. فتح له ذراعيه فقفز الشاب عن الجواد وهرع  
ليسلم عليه. ديبغو الذي يزيد طوله نصف رأس عن الكاهن انتابه  
إحساس بأنّه يكاد لا يعانق غير كومة من العظام، فانكمش قلبه  
ضيقاً حين تبين وطأة الزمن.



- هذه إيزابيل، ابنة السيد توماس دي روميو، جعله الله على يساره وهذه السيدة هي نوريا، قهرمانتها - قدّمتها ديفغو.

- أهلاً بكما في البعثة، يا ابنتي. أعتقد أنّ الرحلة كانت ثقيلة جداً، لذلك تستطيعان أن تفتسلا وترتاحا، ريثما نطلع أنا وديفغو على صورة الواقع. سأخبركما حين نكون جاهزين للعشاء - قال القس مندوثا.

كانت الأخبار أسوأ مما تصوّره ديفغو. فوالداه انفصلا منذ خمس سنوات تقريباً. في اليوم ذاته الذي غادر فيه للدراسة في إسبانيا. غادرت رخيما المنزل لا تحمل غير الثياب التي ترتديها. وهي منذ ذلك الوقت تعيش مع قبيلة البومة البيضاء، ولم يرها أحد في القرية أو البعثة بعدها. يقولون إنّها تخلّت عن آدابها كسيّدة إسبانية وصارت الهندية الشجاعة التي كانت في شبابها. أكّد برناردو الذي كان يعيش في القبيلة ذاتها كلامه. صارت أم ديفغو تستخدم الآن اسمها الأصلي، تويبورنيا وتُحضّر نفسها لتحلّ ذات يوم محلّ البومة البيضاء، طبيبة شعبية وشاماناً. وكانت شهرة المرأتين كعزّافتين قد انتشرت إلى ما وراء الجبال، وصار الهنود من القبائل الأخرى يقصدونهما من مسافات بعيدة ليستشيروهما. منع ألخاندرو دي لايفغا في هذه الأثناء حتى ذكر اسم زوجته، لكنّه لم يفت قط على غيابها وقد شاخ غمّاً. ولكي لا يُقدّم توضيحات لمجتمع المستعمرة الأبيض ترك منصبه كعمدة وتفرّغ بالكامل للزراعة والتجارة مُضاعفاً ثروته. لم يفده العمل كثيراً، لأنّه منذ شهر وفي أثناء وجود ديفغو مع الفجر في إسبانيا، وصل رافائيل مونكادا إلى كاليفورنيا بصفته مبعوثاً مفوضاً للملك فرناندو السابع، بمهمة رسمية للتبليغ عن وضع المستعمرة الاقتصادي والسياسي. كانت سلطته أعلى من سلطة الحاكم وقائد المنطقة العسكري. لم ينتب ديفغو شكّ بأنّ مونكادا حصل على منصبه بواسطة نفوذ خالته إيولاليا دي كالييس، وأنّ دافعه الوحيد للابتعاد

عن البلاط الإسباني هو القبض على خوليانا، هذا ما وضحه للقس مندوثا.

- لا بد أن مونكادا شعر بخيبة أمل حين تأكد من أن الأنسة رومو غير موجودة هنا - قال ديبغو.

- افترض أنكم قادمون في الطريق لذلك بقي. ولم يضع وقته خلال ذلك، يتناقلون أنه يجمع ثروة - رد المبشر.

- هذا الرجل يكرهني لأسباب عدة، أهمها أنني ساعدت خوليانا على التخلص من اهتماماته - رد عليه ديبغو.

- الآن أفهم ما جرى بشكل أفضل، يا ديبغو. ليس الجشع دافع مونكادا الوحيد، فهو أيضاً أراد الانتقام منك... - تنهد القس مندوثا.

بدأ رافائيل مونكادا سلطته في كاليفورنيا بمصادرة أملاك رابغا، بعد أن أمر باعتقال صاحبها، الذي اتهمه بترؤس تمرد من أجل استقلال كاليفورنيا عن مملكة إسبانيا. لم يكن هناك وجود لهذه الحركة، أكد القس مندوثا لديبغو، والفكرة لم تدخل حتى الآن في عقل المستوطنين، على الرغم من أن ثورة التمرد قد بدأت في بعض بلدان أمريكا الجنوبية، وهي تشتعل مثل البارود في بقية أنحاء القارة. فبتهمة المسؤولية التي لا أساس لها عن الخيانة راح ألخاندرو ليقبع بعظامه في سجن الشيطان المخيف. استقر مونكادا مع موكبه في المزرعة، وصارت الآن مسكنه وتكنته. أضاف المبشر أن مونكادا تسبب بأضرار كثيرة في زمن قصير. هو أيضاً كان تحت نظر مونكادا، لأنه يدافع عن الهنود، ويتجرأ على مواجهته ببعض الحقائق، لكنه يدفع الثمن غالياً: لقد أفلست البعثة. أنكر عليه مونكادا بعض الموارد المعتادة، كما أنه أخذ الرجال، ولم يبق له أيدي لتعمل في الأرض، لم يترك له غير النساء والأطفال والشيوخ. عائلات السكان الأصليين مزقت، والناس محبطون. كانت تدور إشاعات عن تجارة لؤلؤ، مسلحة من قبل رافائيل مونكادا، الذي

يستخدم الهنود في أعمالها الشاقة. وَضَحَ الْمُبَشِّرُ قَائِلاً إِنَّ لَوْلُو  
كاليفورنيا أثمن من ذهب وفضة المستعمرات الأخرى، وقد ساهم  
في خزينة إسبانيا طوال قرنين، وجاءت لحظة قضى فيها الإفراط  
في الاستغلال عليه. مرّ خمسون عاماً لم يتذكر فيها أحدُ اللؤلؤ،  
وهو ما سمح للمحار باستعادة ترميم نفسه. لم تكن السلطات  
المشغولة بأمور أخرى والمتورطة في أمور البيروقراطية، تملك  
مبادرة للشروع بالبحث عنه. وكان يُظنُّ أن رمال اللؤلؤ موجودة في  
الشمال بالقرب من لوس أنجلوس. لكنَّ أحداً لم يجهد نفسه للتأكد  
من ذلك حتى جاء مونكادا ببعض الخرائط البحرية. كان القسُّ  
مندوفاً يظنُّ أنه نوى أن يحصل على اللؤلؤ دون أن يعلم إسبانيا،  
ذلك أن ملكيته تعود من حيث المبدأ إلى التاج الإسباني. ولاستثماره  
كان يحتاج إلى كارلوس الكاثار، رئيس سجن الشيطان، الذي راح  
يمدّه بالعبيد للغطس. كلاهما كان يثري بسرعة وحذر. في القديم  
كان الباحثون عن اللؤلؤ هنود ياكيسييين من المكسيك، وهم رجال  
أقوياء جداً، عملوا لأجيال في البحر ويستطيعون أن يغطسوا  
دقيقتين كاملتين تقريباً، لكنَّ نقلهم إلى كاليفورنيا العليا كان سيلفت  
الانتباه. وكخيار آخر قرّر الشريك أن استخدام هنود المنطقة، الذين  
لم يكونوا سباحين ماهرين ولم يتقدّموا قط برغبة طيبة لتلك المهمة.  
لم يكن هذا يُشكّل مشكلةً. فقد كانوا يعتقلونهم بأية ذريعة  
ويستغلونهم حتى تنفجر رئاتهم. كانوا يُسكرونهم أو يسحقونهم  
ضرباً ويبلّلون ثيابهم بالكحول ثمَّ يجرونهم إلى القاضي، الذي كان  
يفضُّ الطرف عن هذا التلفيق. وهكذا راح البؤساء ينتهون إلى سجن  
الشيطان، رغم تحركات المبشِّر اليائسة. أراد ديفغو أن يعرف ما إذا  
كان أبوه هناك فأكد له القسُّ مندوفاً ذلك. كان السيّد أليخاندرو  
لايغا مريضاً وضعيفاً، وأضاف، لن يعيش طويلاً في ذلك المكان.  
كان الأكبر سنّاً والأبيض الوحيد بين السجناء، فالبقية كانوا هنوداً  
أو مولدين. الذين يدخلون إلى ذلك الجحيم لم يكونوا يخرجون منه  
أحياء، لقد مات عدد منهم في الأشهر الأخيرة. ما من أحد كان يجرو

هذا ما رُصد للقس  
حين تأكد من أن الأستد  
ذلك بقي. ولم يضع وقت  
المبشِّر.

سما أنني ساعدت خوليانا  
ديفو.

ديفو. ليس الجشع دفع  
نك... - تنهد القسُّ مندوفاً

ديفو بمصادرة أملاك  
ي اتهمه بترويس نفوس

يا. لم يكن هناك وجود لهذا  
كرة لم تدخل حتى الآن في

ة التمرد قد بدأت في بعض  
مثل البارود في بقية أنحاء

اس لها عن الخيانة راح  
ان المخيف. استقر مونكادا

سكنه وثقلته. أضاف المبشِّر  
زمن قصير. هو أيضاً كان

هنود، ويتجرأ على مواجهته  
لقد أفلست البقية. أنكر على

أخذ الرجال، ولم يبق له  
النساء والأطفال والشيوخ  
محبطون. كانت هذه  
مونكادا

على الكلام عما يجري بين تلك الجدران، لا الحراس ولا الموقوفون.  
صمت قبور كان يلف سجن الشيطان.

- ما عاد باستطاعتي حتى أن أحمل المواساة الروحية لتلك  
الأنفس المسكينة. سابقاً كنت أذهب لإقامة القداس، لكنّ مشادة  
كلامية قامت بيني وبين كارلوس الكاثار، فمنعني على أثرها من  
دخوله. سيحل محلي قريباً كاهن من كاليفورنيا السفلى.

- هل كارلوس الكاثار هو البلطجي الذي كان مرهوباً جداً حين  
كنّا صغاراً - سأل ديبغو.

- هو نفسه، يا بني. وقد ساءت طبيعته مع مرور الزمن، إنّه  
رجل مُستبد وجبان. بالمقابل ابنة عمّته لوليتا قديسة. عادة ما كانت  
ترافقني إلى السجن لتحمل أدوية وطعاماً وبطانيات إلى السجناء،  
لكن من المؤسف أنه ليس لها تأثير على كارلوس.

- أتذكر لوليتا. عائلة بوليدو عائلة نبيلة وورعة. فرانسيكو  
أخو لوليتا كان يدرس في مدريد. قامت بيننا بعض المراسلات  
عندما كنت في برشلونة - علق ديبغو.

- أخيراً، يا بني، حالة السيّد أليخاندرو خطيرة جداً، وأنت أمله  
الوحيد، عليك أن تتدخل بسرعة - ختم القسّ مندوثا.

منذ برهة طويلة وديبغو يسير في الغرفة محاولاً السيطرة على  
الانزعاج الذي راح يستحوذ عليه. كان برناردو يتابع الحديث من  
كرسيّه، وعيناه عالقتان بأخيه، يرسل إليه رسائل ذهنية. الاندفاع  
الأول عند ديبغو كان البحث عن مونكادا ليتبارز معه، لكنّ نظرة  
برناردو جعلته يدرك أن تلك الظروف تتطلب الحذر أكثر من  
الشجاعة، فتلك المهمة كانت من عمل زورو ومن الضروري الشروع  
بها برأس بارد. أخرج منديلاً مخرّماً ليحفظ عرق جبينه بحركة  
مؤثّرة وتنهد.

- سأذهب إلى مونترّي وأكلّم الحاكم. إنّه صديق أبي - ارتأى  
ديبغو.

- فعلت هذا، يا ديبغو. حين اعتقل أَلْجَانْدَرُو، كَلَمْتُ الحَاكِمَ  
شخصياً، لكنّه قال لي إنّهُ لا سلطه له على مونكادا. ثمّ إنّهُ لم يصنغِ  
إليّ حين اقترحت عليه أن يُحقّق لماذا يموت كلُّ أولئك السجّناء في  
سجن الشيطان - ردّ المُبشّر.

- إذن عليّ أن أذهب إلى المكسيك لأقابل نائب الملك.

- سيستغرق هذا أشهراً - عقب القسّ مندوثا.

كان يصعب عليه أن يُصدّق أنّ الفتى الجسور، الذي جاء به إلى  
العالم بيديه وراه يكبر قد تحوّل إلى رجل بتلك الأناقة. لقد ليّنت  
إسبانيا دماغه وعضلاته، وإنّهُ لأمر مُخجل. كان قد صلى كثيراً كي  
يعود ديبغو في الوقت المناسب ليُنقذ أباه والاستجابة كانت هذا  
الغدور بمنديله المخرّم. لم يكد يستطيع إخفاء الاحتقار الذي أثاره  
عنده.

أبلغ المُبشّر إيزابيل ونوريا بأنّ العشاء ينتظرهم وجلس  
الأربعة إلى المائدة. جاءت هندية بجفنة فخّارية فيها مقلوبة ذرة  
قاسية مثل النعل وخالية من الملح، وبعض قطع اللحم المسلوق. لم  
يكن يوجد خبز ولا نبيذ ولا خضراوات، بل ولم يكن يوجد قهوة،  
وهي الرذيلة الوحيدة التي يسمح بها القسّ مندوثا لنفسه. كانوا  
يأكلون بصمتٍ حين سمعوا وقع حوافر خيلٍ وأصواتاً في الفناء  
لتندفع بعد لحظات إلى القاعة مجموعة من الرجال في الزي الموحد  
برئاسة رافائيل مونكادا.

- صاحب السعادة! يا للمفاجأة! - صاح ديبغو دون أن ينهض.

- سمعت للتو بوصولك - ردّ مونكادا وهو يبحث عن خوليانا  
بنظرته.

- ها نحن هنا، كما وعدناك في برشلونة، يا سيّد مونكادا. هل  
أستطيع أن أعرف كيف خرجت من الغرفة السريّة - سألته إيزابيل  
ساخرة.

- أين أختك؟ - قاطعها مونكادا.

مع الفجر واختطفنا من قبل القراصنة. وقد نجونا بحياتنا في أكثر من مناسبة بمعجزة. أما ما يتعلق بوسائل الراحة فأؤكد لك أن جلدنا مدبوغ جيداً - ابتسمت إيزابيل.

- ومنذ الغد سأتولى أمر المطبخ بنفسى، لأنكم تأكلون هنا أسوأ مما في الحرب - أضافت نوريا بحركة امتعاض.

- البعثة فقيرة جداً - اعتذر القسُ مندوثا.

- بالمكونات ذاتها وبقليل من الإبداع سنأكل كما يأكل الناس -

ردت نوريا.

في تلك الليلة ذاتها حين نام البقية تسأل ديبغو وبرناردو من غرفتيهما وأخذا زوجاً من الخيول وانطلقا دون أن يتلها بوضع السرجين، خائبين باتجاه كهوف الهنود، التي كثيراً ما لعبا فيها إبان طفولتهما. كانا قد قررا أن أول ما عليهما فعله هو إخراج أليخاندرو دي لابغا من السجن ونقله إلى مكان آمن، حيث لا يستطيع مونكادا وألكاتار العثور عليه، بعدها تأتي مهمة تنظيف اسمه من عيب الخيانة. ذلك كان أسبوع ميلادهما، فقد مضى على ولادتهما عشرون عاماً تماماً. بدت لديبغو لحظة مهمة جداً من حياتهما وأراد أن يطبعها بمأثرة خاصة، لذلك اقترح على أخيه في الرضاعة أن يذهب إلى الكهوف. ثم إنه إذا لم تُخرّب الزلازل الأرضية الممر الذي يربطها بمزرعة دي لابغا، فربما يستطيعان أن يتجسسا على رافائيل مونكادا.

لم يكد ديبغو يتعرف على الأرض حتى قادة برناردو دون تلكؤ إلى المدخل، المغطى بشجيرات حراجية كثيفة. وما إن أصبحت في الداخل حتى أشعلا قنديلاً واستطاعا أن يهتديا في متاهة الممرات إلى أن وقعا على الكهف الرئيسي. استنشقا بعمق الرائحة الجوفية التي لا توصف، والتي طالما أحبها حين كانا طفلين. تذكر ديبغو

اليوم المشؤوم الذي غزا فيه القراصنة بيته واختبأ مع أمه الجريحة هناك. بدا له أنه يشم رائحة تلك اللحظة المختلطة بالدم والعرق والخوف ورائحة التراب الغامضة. كل شيء كان على حاله كما تركه، بدءاً من الأقواس والسهام والشموع ومرطبات العسل المخزن منذ سنوات، وحتى الدائرة السحرية التي صنعوها من الحجارة حين كانا يطمحان للأكاهو. أضواء ديبغو المذبح بزواج من المشاعل ووضع في الوسط الصرة التي جاء بها ملفوفةً بقماش داكن ومربوطة برباط.

- يا أخي، لقد انتظرت هذه اللحظة زمناً طويلاً. لقد أكملنا عشرين عاماً، وكلانا معداً لما سأقترحه عليك - أعلن لبرناردو بوقار غير متوقع - هل تتذكر فضائل الأكاهو؟ شرف وعدالة واحترام وكرامة وشجاعة. لقد حاولت أن تكون هذه الفضائل دليلي في حياتي وأعرف أنها كانت دليلك في حياتك.

شرع ديبغو يفكّ على ضوء المشعلين الضارب للحمرة الصرة التي كانت تحتوي على زبي زورو - بنطلون وقميص ودثار وجزمة وقبعة وقناع - وسلمها إلى برناردو.

- أمل أن يكون زورو جوهر حياتي، يا برناردو. سأفرغ للنضال من أجل العدالة وأدعوك كي ترافقني. معاً سنتضاعف ألفاً، ونشوش على أعدائنا. سيكون هناك زوروان، أنا وأنت، لكن لن يظهرأ أبداً معاً.

جاءت نبوة ديبغو من الجدّية بحيث أنها كانت المرة الأولى التي لم يرغب بالردّ عليه بإيماءة ساخرة. انتبه إلى أن أخاه في الرضاعة قد درس الموضوع جيداً، ولم يكن الأمر يتعلق باندفاع أساسه معرفة مصير أبيه، هذا ما كان يؤكده القناع الأسود الذي جاء به معه من رحلته. خلع الهندي الشاب بنطلونه وراح بوقار ديبغو يرتدي الثياب قطعة قطعة حتى تحوّل إلى نسخة عن زورو. عندئذٍ

لقد لك أن جلتنا

كم تاكلون هنا أسوأ

كل كما ياكل الناس -

ديبغو وبرناردو من  
ون أن يتلها بوضع  
كثيراً ما لعبا نبيها  
بهما فطه هو إخراج  
آمن، حيث لا يستطيع  
همة تنظيف اسمه من  
مضى على ولائها  
جداً من حياتهما وأراد  
ضيه في الرضاعة أن  
الأرضية المر الذي  
يتجسسا على رافائيل

سادة برناردو دون تفكير  
وما إن أصبحا في  
لديا في مناهة السمات  
بعمق الرائحة الجوفية  
أنا طفلين تنظر ليبي

سحب ديفغو السيف الذي كان قد اشتراه في كوبا وقدمه إليه ممسكاً  
به بيديه كلتيهما.

- أقسم أن أحمي الضعفاء وأقاتل من أجل العدالة! - صاح

ديفغو.

استلم برناردو السلاح وردد بهمسٍ غير مسموع كلمات أخيه.

فتح الاثنان بحدري باب المدخنة السري، الذي يؤدي إلى القاعة،  
متبينين أنه ورغم السنين كان يمكن الانزلاق في النفق دون ضجيج.  
في السابق كانا يهتمان بالإبقاء على المعدن مشحماً وكان حسب ما  
بدا لهما ما يزال كذلك بعد خمس سنوات. كانت الجذوع الكبيرة داخل  
المدخنة هي نفسها، لكنها صارت الآن مغطاة بطبقة من الغبار. لا  
أحد أشعل ناراً خلال ذلك الوقت. وكانت بقية الغرفة على حالها،  
الأثاث ذاته الذي اشتراه أليخاندرو لابغا من المكسيك إرضاءً  
لزوجته، الثريا الكبيرة بشموعها المئة والخمسين ذاتها في السقف،  
المائدة الخشبية والكراسي المنجدة بالسجاد ذاته، واللوحات  
الفاخرة ذاتها. كان كل شيء على حاله، ومع ذلك بدا لهما البيت  
أصغر وأكثر كآبة من الذي يتذكرانه. غشاء من النسيان يجعله  
قبيحاً، صمت قبور يُثقل على جوّه، رائحة إغلاق ووسخ تُغطي  
الجدران. انسلأ مثل قطين في الممرات التي أضيئت بشكل سيئ  
ببعض الفوانيس. سابقاً كان هناك خادم عجوز، مهمته الوحيدة  
العناية بالضوء. كان الرجل ينام نهاراً ويقضي الليل في مراقبة  
شموع وشمعدانات شحم الخنزير. تساءل ما إذا كان ذلك العجوز  
والخدم الآخرون القدماء ما زالوا يعيشون في المزرعة، أم أن  
مونكادا قد استبدلهم بأتباعه.

حتى الكلاب كانت تستريح في تلك الساعة المتأخرة، ولا يوجد  
غير رجل واحد يقوم بالحراسة في الفناء الرئيسي وسلاحه على



كفنه يُجهد نفسه للإبقاء على عينيه مفتوحتين. اكتشف الشابان  
غرفة نوم الجنود، حيث أحصيا اثني عشر سريراً مُعلقاً على  
مستويات مختلفة، الواحد فوق الآخر، وإن كانت ثمانية منها فقط  
مشغولة. وفي غرفة أخرى كان هناك مخزن أسلحة نارية وبارود  
وسيوف. لم يجرأ على سبر الغرف الأخرى خشية أن يفاجأ، لكنهما  
ومن خلال باب مشقوقٍ لمحا رافائيل مونكادا يكتب أو يُسوي  
حساباته في المكتبة. كظم ديبغو صيحة غيظٍ عندما رأى عدوه  
جالساً على كرسيٍّ والده، يستخدم أوراقه وحبزه. لكزه برناردو  
بمرفقه كي يذهب، فهذه الحملة بدأت تصبح خطيرة. انسحب بحذرٍ  
عبر المكان ذاته الذي دخلا منه، بعد أن نفخا غبار المدخنة الكثيف  
ليمحوا آثارهما.

وصلا إلى البعثة مع انبلاج الفجر، الساعة ذاتها التي شعر فيها  
ديبغو بسطوة التعب المتراكم منذ أن نزلا من السفينة على الشاطئ  
في اليوم السابق. سقط على وجهه فوق السرير ونام حتى ساعة  
متأخرة من صباح اليوم التالي، حين أيقظه برناردو ليُعلمه بأن  
الجوايين جاهزان. ففكرة الذهاب لرؤية تويبورنيا وطلب المساعدة  
منها لإنقاذ أليخاندرو لا يبقا كانت فكرته. لم يريا القس مندوثا،  
الذي ذهب صباحاً باكراً إلى لوس أنجلوس، لكن نوريا قدمت لهم  
إفطاراً قوياً من الفاصولياء والرز والبيض المقلي. حضرت إيزابيل  
إلى المائدة مجدولة الشعر، بتنورة سفرٍ وقميص كتاني مثل الذي  
تستعمله المعتنقات الجديديات في البعثة، مُعلنة أنها ستذهب معهما،  
لأنها تريد أن تتعرف على أم ديبغو وترى كيف هي قرية الهنود.

- في هذه الحال علي أن أذهب أنا أيضاً - دمدمت نوريا، التي  
لم تكن تستلطف كثيراً فكرة القيام برحلة طويلة على الخيل في بلاد  
البرابرة تلك.

- لا، القس مندوثا يحتاجك هنا. سنعود سريعاً - ردت إيزابيل،  
مقبلة إياها قبلة مواساة.

انطلق الشبان الثلاثة على أفضل الخيول الفتية في البعثة،  
حاملين معهم جواداً آخر للأمتعة. كان عليهم أن يسافروا طوال ذلك  
اليوم، ويخيموا ليلاً تحت النجوم، ويشرعوا بصعود الجبل في  
صباح اليوم التالي. ولتفادي العسكر ذهبت القبيلة إلى أبعد ما  
تستطيع، وكانت تُبدل مكانها كثيراً، لكن برناردو كان يعرف كيف  
يُحدد موقعها. تبعت إيزابيل، التي تعلمت ركوب الحصان بلا سرج  
لكنها لم تعد الركوب مسافات طويلة، صديقيها دون تدمر. وفي  
أول وقفة لهم ليرطبوا أنفسهم في جدول ويتقاسموا العسرونية التي  
حضرتها لهم نوريا، لاحظت كم كانت مضغعة. سخر ديفو منها  
لأنها كانت تمشي مثل بطة، لكن برناردو أعطاها مرهم أعشاب  
حضرته البومة البيضاء، كي تدلك به أعضائها الموجوعة.

في اليوم التالي عند الظهيرة أشار برناردو إلى بعض العلامات  
على الأشجار، كانت تدل على قرب القبيلة؛ هكذا كانوا يُعلمون  
بمكانهم هنوداً آخرين حين يُبدلون. بعد لحظات خرج للقائهم  
رجلان شبه عاريين، مطليّ الجسدين، جاهزا القوسين، لكنهما أنزلا  
سلاحهما حين عرفا برناردو، واقتربا ليسلما. وبعد التعارف  
قاداهم بين الأشجار إلى القرية، وهي مجموعة من أكواخ القش  
البائسة، يكثر فيها الكلاب. صفر الهنديان وبعد دقائق قليلة انبثق من  
العدم سكان القرية الشبحية، مجموعة محزنة من الهنود، بعضهم  
عار، وبعضهم الآخر بالأسمال. عرف ديفو جدته البومة البيضاء  
وأُمّه مرتعباً. احتاج عدة ثوان كي يسترجع نفسه من الضيق حين  
رأهما بتلك الحالة السيئة لينزل قافزاً ويركض ليعانقهما. لقد نسي  
كم كان الهنود فقراء، لكنه لم ينس رائحة دخان وأعشاب جدته، التي  
لامست روحه فوراً، وكذلك رائحة أمّه الجديدة. وكانت رائحة أمّه  
رائحة صابون حليبي وماء زهر. كانت تتصوّع من تويبورنيا رائحة  
مريمية وعرق.

- ديفو، أه كيف كبرت... - تمتت الأم.

كانت تويبورنيا تُكلّمه بلغة السكان الأصلية، الأصوات الأولى

التي سمعها ديبغو في طفولته ولم ينسها. بتلك اللغة كان يستطيع أن يداعب الواحد منهما الآخر، وبالإسبانية يتعاملان بشكل رسمي، دون أن يتلامسا. كانت اللغة الأولى للمشاعر والثانية للأفكار. لمست يدا تويبورنيا المليئتان بالقروح ابناها، ذراعَيْه، صدره، رقبته، تتعرف عليه، تقيسه، خائفة من التغييرات. جاء بعدها دور الجدّة للترحيب به. رفعت البومة البيضاء شعره لتدرس أذنيه، كما لو أنّها الطريقة الوحيدة لتحديد هويته دون أيّ هامش للخطأ. راح ديبغو يضحك من أعماق قلبه، ورفعها حاملاً إيّاها من خصرها شبراً عن الأرض. كانت خفيفة جداً، بدت كمن يرفع طفلاً، لكن ديبغو استطاع أن يشعر تحت الخرق وجلود الأرنب التي تغطّيها، بجسدها الليفي والقاسي: كان خشباً خالصاً. لم تكن عجوزاً ولا ضعيفة جداً كما بدت له من النظرة الأولى.

لم يكن لبرناردو عينان إلا من أجل برق الليل وابنه، ديبغو الصغير، ابن الخمس سنوات، الذي كان يلون وقوة القرميد، وله عينا أمه الداكنتان وابتسامتها، عارياً ومسلحاً بقوس وسهام صغيرة. ديبغو الذي عرف برق الليل في طفولتها عندما كان يزور ضيعة جدته، ومن خلال إشارات برناردو التخاطبية ورسالة القس مندوثا، بقي مشدوهاً من جمالها. معها ومع الصغير بدا برناردو رجلاً آخر، كان يكبر حجماً ويستضيء وجهاً.

تذكر ديبغو، بعد مرور حالة التأثر الأولى، أن يُقدّم لهم إيزابيل التي كانت تراقب المشهد من مسافة حذرة. من خلال بعض الحكايات التي رواها لها ديبغو عن أمه وجدته، كانت تتصوّرها مثل شخصين في اللوحات الملحمية، حيث يخرج المحتلون مصوّرين بأسلحة براقّة ويبدو السكان الأصليين الأمريكيين مثل آلهة مُرَيّشة. لم تكن تلكما المرأتان الوسختان، اللتان ليس فيهما غير العظام، بشعرهما الأشعث، تشبهان ولا من بعيد نساء لوحات المتاحف، لكنهما تملكان العزّة ذاتها. لم يكن باستطاعتها التواصل مع الجدّة، لكنها بعد برهة من وصولها توددت لتويبورنيا. عزمت على زيارة

في البيعة،  
فروا طوال ذلك  
عود الجبل في  
ة إلى أبعد ما  
كان يعرف كيف  
حصان بلا سرج  
ون تنمّر. وفي  
العصرونية التي  
عخر ديبغو منها  
ما مرهم أعشاب  
وجوعة.

بعض العلامات  
ذا كانوا يُعلمون  
ت خرج للقائم  
عين، لكنهما أنزلا  
وبعد التعارف  
من أكواخ القش  
ائق قليلة أنبثق من  
الهنود، بعضهم  
البومة البيضاء  
من الضيق حين  
بعانقهما. لقد نسي  
أعشاب جدته، التي  
وكانت رائحة أمه  
من تويبورنيا رائحة

الأصوات الأولى

تلك المرأة الغريبة والحكيمة بين الحين والآخر، لأنها افترضت أنها  
تستطيع أن تتعلم منها الكثير. وفكرت: بهذا الجموح أود أن أكون.  
كان الاستلطاف متبادلاً، لأن تويبورنيا أحببت الشابة الإسبانية،  
الحولاء. كانت تعتقد أن هذا يدل على القدرة على رؤية ما لا يراه  
الآخرون. بقي من القبيلة مجموعة كبيرة من الأطفال والنساء  
والشيوخ، لكنه لم يبق إلا خمسة صيادين، عليهم أن يذهبوا بعيداً كي  
يصلوا على فريسة، لأن البيض تقاسموا الأرض فيما بينهم وكانوا  
يحمونها بالرصاص. كان الجوع يدفعهم أحياناً إلى سرقة الماشية،  
لكن إذا باغثوهم دفعوا الثمن سيّاطاً أو مشنقة. كانت غالبية الرجال  
تستخدم في الزراعة، لكن قبيلة البومة البيضاء فضلت الحرية بكل  
مخاطرها. لم يكن لهم مشاكل مع القبائل المقاتلة بفضل سمعة  
المرأتين كشامانتين وطبيبتين شعبيتين. وإذا ما جاء مجهولون إلى  
المخيم إنما يكون طلباً للنصائح والأدوية، التي يقاوضونها بالطعام  
والجلود. استطاعوا أن يبقوا على قيد الحياة، لكن منذ أن صار هم  
رافائيل مونكادا وكارلوس الكاثار سحب الرجال الشباب، ما عاد  
باستطاعتهم المكوث في مكان ثابت. لقد انتهت حياة الترحال مع  
إقامة مزارع الذرة والحبوب الأخرى، صار عليهم أن يقتنعوا  
بالفطر والثمار البرية والسّمك واللحم حين يحصلون عليها.

أحضر برناردو وبرق الليل الهدية التي حضّراها إدييفو، جواداً  
أسوداً واسع العينين الذكيّتين. إنه رعد، المهر اليتيم الذي عرفه  
برناردو في طقس الابتداء، قبل سبع سنوات، والذي هدّيته برق الليل  
وعلمته الطاعة بالصفير. كان حيواناً نبيل الصورة، ورفيقاً رائعاً.  
داعب ديفو أنفه ومرّغ رأسه بعرفه الطويل وهو يردّد اسمه.  
- علينا أن نبقى عليك مخبأ، يا رعد. لن يمتطيك غير زورو -  
قال له، فردّ الجواد بصهلة وهزة من ذيله.

انقضت بقية المساء في شواء الراكون وبعض العصافير، التي  
تمكنوا من صيدها وفي الاطلاع على المستجدات. في هذه الأثناء

سمعت تويبورنيا من لسان ولدها مأساة أليخاندرو دي لايفغا. اعترفت  
له أنها تشتاق إليه، فقد كان الرجل الوحيد الذي أحبته، لكنها لم  
تستطع أن تستمر بزواجها معه. كانت تفضل حياة قبيلتها البدوية  
على رفاهية مزرعته، حيث تشعر بنفسها سجيناً. لقد أمضت  
طفولتها وشبابها في الهواء الطلق، ولم يكن باستطاعتها أن تتحمل  
ضغط الجدران والسقف فوق رأسها وقسوة العادات ومضايقة  
الملابس الإسبانية وثقل المسيحية. وأليخاندرو صار مع تقدمه في  
العمر أكثر صرامة مع الآخرين. بعد كل حساب لم يكن بينهما أشياء  
كثيرة مشتركة وحين غادرهم الابن إلى إسبانيا بردت عاطفة  
الشباب، لم يبق منها شيء. ومع ذلك تأثرت حين سمعت بمصير  
زوجها وعرضت مساعدتها لإنقاذه من السجن وإخفائه في أخفي  
خفايا الطبيعة. فكاليفورنيا شاسعة جداً وتويبورنيا تعرف كل  
الطرق تقريباً. أكدت له أن شكوك الأب مندوثا صحيحة.

- منذ أشهر هناك ماعونة كبيرة لهم راسية في البحر، بجانب  
رمال اللؤلؤ، وينقلون السجناء إليها بالزوارق الصغيرة - قالت  
تويبورنيا.

وضحت له أنهم أخذوا عدداً من شباب القبيلة، وأنهم يجبرونهم  
على الغوص منذ الفجر وحتى مغيب الشمس. ينزلونهم إلى الأعماق  
مربوطين بحبال وحجر ثقيل وسلّة ليضعوا فيها المحار. وحين  
كانوا يشدون الحبل يرفعونهم إلى الزورق. محصول اليوم كان  
يودع في الماعونة، حيث يقوم سجناء آخرون بفتح المحار بحثاً عن  
اللؤلؤ، العمل الذي يخرب أيديهم. كانت تويبورنيا تعتقد أن  
أليخاندرو بينهم، لأنه كان عجوزاً لا يسمح له عمره بالغوص.  
وأضافت أن السجناء ينامون مغلولين على الشاطئ فوق الرمل  
ويجوعون، لأنه ما من أحد يستطيع أن يعيش على المحار وحده.

- لا أرى كيف يمكنك إنقاذ والدك من هذا الجحيم - قالت.

سيكون ذلك مستحيلاً ما بقي في السفينة، لكن دييغو كان يعرف  
من خلال الأب مندوثا أن قساً سيزور السجن. ومونكادا والكاثار،

الذان كان عليهما أن يُبقيا مسألة اللؤلؤ سرية، أوقفنا العملية لعدة أيام، حتى يتواجد السجناء في سجن الشيطان حين يصل القس. تلك ستكون فرصته الوحيدة، هكذا وضح. أدرك أن من المحال عليه أن يخفي شخصية زورو عن أمه وجدته، فهو يحتاجهما في تلك الحالة. وحين كلمهما عن زورو وخططه، انتبه هو نفسه إلى أن وقع كلماته كان له وقع جنون خالص، ولذلك فاجأه أن المرأتين لم تتبدلا، كما لو أن وضع قناع ومهاجمة سجن الشيطان يبدو أمراً عادياً. كلاهما وعدت بالحفاظ على السر. اتفقوا على أن يحضر برناردو ومعه ثلاثة رجال، أكثر رجال القبيلة رياضة وشجاعة ومعهم عدة أحصنة في لا كروث ر لاس كالابراس، على بعد فراسخ قليلة من سجن الشيطان، وهو مفرق طرق شققوا فيه لصين. وكانت جمجمتهما المبيضتان بفعل المطر والشمس ما تزالان معروضتين على صليب خشبي. لن يعلموا الهنود بتلك التفاصيل، لأنه كلما قلت معرفتهم كلما كان أفضل لهم في حال ألقى القبض عليهم.

شرح ديبغو الخطوط العريضة لخطته لإنتقاذ أبيه وبقية السجناء ما أمكن ذلك. غالبيتهم كانوا من السكان الأصليين، ويعرفون الأرض جيداً، وإذا ما كانت لديهم من مزية، فهي أنهم يجرون ليختفوا في الطبيعة. حكى له البومة البيضاء أن كثيراً من الهنود عملوا في بناء سجن الشيطان، من بينهم أخوها نفسه، الذي كان يُسميه البيض أرسنيو، لكن اسمه هو العيون التي ترى في الظلمة. ولد أعمى وكان الهنود يعتبرون أن من يولد دون أن يرى نور الشمس يستطيع أن يرى في الظلمة، مثل الخفاش، وكان أرسنيو مثلاً جيداً على ذلك. كان ماهر اليدين، يصنع أدوات ويستطيع أن يصلح أية آلة. وهو يعرف السجن كما لا يعرفه أحد غيره، ويتحرك في داخله دون تعثر، لأنه عالمة الوحيد منذ أربعين عاماً. لقد عمل هناك قبل وصول كارلوس الكاثار بكثير ويحفظ عدد السجناء الذين مزوا على سجن الشيطان في ذاكرته العجيبة. سلمت الجدة ديبغو بعض ريش اليوم.

- ربّما استطاع أخي أن يُساعدك. فإذا ما رأيته قل له إنك حفيدي وأعطه الريشات، هكذا سيعرف أنك لا تكذب - قالت له.

في اليوم التالي باشر ديفغو بالعودة باكراً جداً إلى البعثة بعد أن اتفق مع برناردو على المكان واللحظة التي سيلتقيان فيها من جديد. بقي برناردو في القبيلة كي يُعدّ ما يخصّه من التجهيز مع بعض المواد التي أخرجوها معهم من البعثة من وراء ظهر الأب مندوثا. وكان ديفغو قد برّر هذا العمل قائلاً: «هذه هي إحدى الحالات النادرة جداً التي تُبرّرُ فيها الغاية الوسيلة»، بينما راح ينهب ديماس المبشّر بحثاً عن حبلٍ طويل، وملح البارود وبقريات الزنك والفتائل.

وقد سأل الشاب أمّه قبل أن يذهب لماذا اختارت له اسم ديفغو؟

- هكذا كان اسم أبي، جدك الإسباني: ديفغو سالاثار. كان رجلاً شجاعاً وطيباً يفهم روح الهنود. هرب من السفينة لأنه أراد أن يكون حرّاً. لم يقبل قط الطاعة العمياء التي كانوا يطلبونها منه على متنها. كان يحترم أمي وتكثّف مع عادات قبيلتنا. علمني أشياء كثيرة، من بينها القشتالية. لماذا تسألني؟ - ردت تويبورنيا.

- دائماً كان عندي هذا الفضول. هل كنت تعلمين أن ديفغو يعني القائم مقام؟

- لا. ما معنى هذا؟

- أحد يقوم مقام آخر - وضح ديفغو.

ودّع ديفغو أصدقاءه في البعثة ليذهب إلى مونترّي، كما أعلن. سيُصنّر على الحاكم أن يَعدّل في قضية والده. لم يبيغ أن يذهب مرافقاً من أحد، قال إنّه سيقوم بالرحلة دون جهد، متوقّفاً في كل البعثات المنتشرة على طول الطريق الملكي. رآه الأب مندوثا يبتعد ممتطياً جواراً وجاراً آخر يحمل أكياس الأمتعة. كان واثقاً من أنّها رحلة

غير مجددة، وإضاعة للوقت يمكن أن تكلف السيد الجاندر وحياته، لأن كل يوم يقضيه العجوز في السجن يمكن أن يكون الأخير. تبريراته لم تؤثر في ديبغو.

وما إن ترك ديبغو البعثة خلفه حتى خرج عن الطريق ودار نصف دورة واتجه إلى الخلاء المفتوح باتجاه الجنوب. كان واثقاً من أن برناردو قد أعد ما يخصه وينتظره في لا كروث برلاس كالابراس. بعد ساعات، حين أوشك على الوصول إلى المكان المتفق عليه بدّل ملابسه. ارتدى زيّ الراهب المرقّع، الذي اختلسه من الأب مندوثا، ألصق لحيّة مرتجلة من خصلات من شعر البومة البيضاء وأكمل التمويه بنظارة نوريا. لا بدّ أن القهرمانه كانت تبحث عنها في السماء والأرض. وصل إلى المفرق حيث رأى رأسي اللصين يُسلّمان مسمّرين في أعلى الصليب ولم يُضطر للانتظار طويلاً، فسرعان ما انبثق من العدم برناردو وثلاثة شبّان هنود لا يرتدون غير ما يغطي عوراتهم، مسلّحين بالأقواس والسهام وقد دهنوا أجسادهم للحرب. لم يكشف لهم برناردو عن هويّة المسافر، كما لم يقدّم لهم توضيحات حين سلّم الأكياس والقنابل والحبل إلى رجل الدين المزعوم. تبادل الأخوان غمزةً: كلّ شيء جاهز. لاحظ ديبغو أنّ رعداً كان بين الجياد السّنة التي يقودها الهنود ولم يستطع أن يقاوم إغراء الاقتراب منه ليُداعب رقبتَه، قبل أن يودّعهم.

سلك ديبغو الطريق إلى السجن سيراً على قدميه، بدا له أنّ مظهره سيكون غير عدواني، إذ يبدو كظل محزن في انعكاس الشمس الأبيض. كان أحد الجياد يحمل معدّاته، والآخر الأدوات التي أعدّها برناردو، بما في ذلك صليب خشبي كبير بارتفاع خمسة أشبار. وعندما أطلّ على هضبة صغيرة استطاع أن يرى البحر من بعيد ويميّز البقعة السوداء لبناء سجن الشيطان الداكن، المنتصب فوق الصخور. كان عطشاناً وثوبه مبللاً بالعرق، لكنّه سرّع خطوه لأنّه بات متلهّفاً لرؤية والده والبدء بالمغامرة. كان قد سار قرابة



العشرين دقيقة، حين أحسن بوقع حوافر ورأى غبار عربية. لم  
يستطع أن يكتم صيحة غضب، فهذا ما سيعقد خططه، لأنه ما من أحد  
يسير على هذه الطرق ما لم يكن يقصد الحصن. حتى رأسه، سوى  
قلنسوته وتأكد من أن اللحية في مكانها، فالعرق يمكن أن يفصلها،  
على الرغم من أنه استخدم صمغاً كثيفاً، مصنوعاً من أقوى أنواع  
الراتنج. توقفت العربية بجانبه وأطلت من نافذتها لدهشته الهائلة  
شابة حسنة المظهر جداً.

- لا بد أنك الكاهن القادم إلى السجن، أليس كذلك؟ كنا  
بانتظارك، يا أبانا.

كانت ابتسامة الفتاة ساحرة فنط قلب ديفغو النزوي. كان قد بدأ  
يستعيد نفسه من الغم الذي تسببت له به خوليانا، وأصبح مؤهلاً لأن  
يُعجب بنساء أخريات، خاصة فتاة مثل تلك المليحة. كان عليه أن  
يبدل جهداً كي يتذكر دوره الجديد.

- بالفعل، يا بُنيّتي، أنا الأب أغيلار - ردّ بأكثر الأصوات  
ارتعاشاً.

- اصعد إلى عربتي، هكذا تستطيع أن ترتاح قليلاً. أنا أيضاً  
ذاهبة إلى سجن الشيطان لأرى ابن خالي - عرضت.

- جازاك الله خيراً، يا بُنيّتي.

هكذا إذن هذا الجمال هو لوليتا بُوليدو! الطفلة النحيلة ذاتها  
التي كانت تُرسل إليه بطاقات حبّ حين كان في الخامسة عشرة من  
عمره. يا لها من ضربة حظاً حقيقية كانت كذلك، لأنه حين وصلت  
العربة إلى السجن بجوادي قسّ مُزيّف مربوطين في الخلف، لم  
يُضطرّ ديفغو لتقديم توضيحات. إذ ما إن أعلن الحوذي عن الشابة  
والأب أغيلار حتى فتح لهما الحراس الأبواب واستقبلوهما بلطف.  
كانت لوليتا شخصيّة معروفة، والجنود حيّوها باسمها، بل وأكثر  
من ذلك كان هناك سجينان في المصيدة ابتسما لها. «أعطى ماءً لهذين  
الرجلين المسكينين اللذين يتحمّسان في الشمس»، توصلت هي إلى

أحد الحراس، الذي طار لقلبية رغباتها. في هذه الأثناء راح ديفو يحصي الحراس بحذر. كان يستطيع أن يتدلّى وينزلق بحبله إلى الخارج، لكن ليس لديه فكرة عن كيفية إخراج أبيه، فالسجن يبدو منيعاً وهناك حراس أكثر من اللازم.

اقتيد الضيفان على الفور إلى مكتب كارلوس ألكاثار، القاعة التي لم يكن فيها غير طاولة وكراسٍ ورفوف سجلات السجن. في تلك السجلات المستهلكة كان يُسجل بدءاً من علف الأحصنة وحتى موت السجناء، كل شيء باستثناء اللؤلؤ، الذي كان يذهب من المحار إلى صنابيرق مونكادا وألكاثار فوراً، دون أن يترك أثراً مرئياً. وكان هناك في زاوية تمثالٌ حصيّ مدهونٌ للعذراء مريم التي تسحق بقدمها الشيطان.

- أهلاً بك، يا أبانا - حياها كارلوس ألكاثار، بعد أن قبّل خدي ابنة عمّته، التي كان ما يزال يعشقها كما في الطفولة - كنا ننتظرك غداً.

ردّ ديفو، منحني الرأس، منخفض العينين، رخوّ الصوت، مرثلاً أوّل شيء خطر بباله من اللاتينية وتوجّه به «تحيا القلوب!»، لم يكن لها علاقة، لكنّه جاء مفاجئاً. حلّق كارلوس في القمر، فهو لم يكن قط طالب لغات مينة جيد. كان ما يزال شاباً، ولا يمكن أن يكون عمره أكبر من ثلاث وعشرين أو أربع وعشرين سنة، لكنّه بتعابيره الكلبية بدا أكبر. كانت له شفتان قاسيتان وعينا فأر. فكّر ديفو أنّ لوليتا لا يمكن أن تكون من العائلة نفسها، فهي تستحق مصيراً أفضل من مصير ابن خالها كارلوس.

قبل القسّ المنتحل كأس ماء وأعلن أنّه في اليوم التالي سيقم قداساً، سيأخذ الاعترافات ويناول القربان لمن يطلب أسرار الاعتراف المقدّس. كان متعباً جداً، أضاف، لكنّه يرغب برؤية السجناء المرضى والمعاقبين، بمن فيهم السجينان اللذان كانا في المصيدة هذا المساء. انضمت لوليتا إلى البرنامج، فبين أشياء

أخرى أحضرت معها صندوق أدوية وضعته تحت تصرف الأب  
أغيلار.

- قلب ابنة عمتي رقيق جداً، يا أبانا. قلتُ لها إنَّ سجن الشيطان  
ليس المكان الذي يُنصح به للآنسات، لكنَّها لا تأخذ برأيي. كما أنَّها  
لا تريد أن تفهم أنَّ غالبية هؤلاء الرجال بهائم بلا أخلاق ولا  
شاعر، وقادرون على أن يعضوا اليد التي تحسن إليهم.

- ما من أحدٍ منهم عضني حتى الآن، يا كارلوس - ردت ابنة  
العفة.

- سنتناول العشاء خلال برهة قصيرة، يا أبانا. لا تتوقع وليمة،  
فنحن نعيش هنا بتواضع - قال الكاثار.

- لا تهتم، يا بُني، فأنا أكل قليلاً جداً وأنا صائمٌ هذا الأسبوع.  
يكفيني خبز وماء. أفضلُ عصرونية في غرفتي، لأنَّ عليَّ أن أقيم  
صلواتي بعد رؤية السجناء.

- أرسنيوا! - نادى الكاثار.

وانبثق هندي من العتمة. كان قد بقي طوال الوقت في زاوية،  
وهو من الصمت وعدم الحركة بحيث أنَّ ديفغو لم ينتبه إلى وجوده.  
عرفه من وصف البومة البيضاء. فقد كانت تغشى عينيه طبقة  
بيضاء، لكنَّه يتحرَّك بدقة.

- خذ أبانا إلى غرفته، كي يتبرَّد. ابقِ رهنَ أوامره، هل  
سمعتني؟ - أمر الكاثار.

- حاضر، يا سيدي.

- تستطيع أن تأخذه ليرى المرضى.

- وسباستيان أيضاً، يا سيدي؟

- لا، هذا الشقي، لا.

- لماذا؟ - تدخل ديفغو.

راح ديفغو  
بحبله إلى  
سجن بيدو

شار، القاعة  
السجن. في  
صنعة وحتى  
يذهب من

يترك أثراً  
مريم التي

ن قبل خدي  
كنا ننتظر

خو الصوت،  
القلوب!»، لم  
قمر، فهو لم  
كن أن يكون  
كنه بتعايره  
كر ديفغو أن  
متحق مصيراً

التالي سيقم  
يطلب أسرار  
يرغب بروية  
للذان كانا في  
فبين أشياء

- هذا ليس مريضاً. اضطررنا لأن نجلده قليلاً، لا شيء خطيراً،  
لا تهتم، يا أبانا.

راحت لوليتا تبكي: كان ابن خالها قد وعدّها أنّه لن يكون هناك  
تعذيب من هذا النوع. تركهما ديفغو يتناقشان ولحق بأرسنيو إلى  
الغرفة التي عيّنها له، حيث كانت تنتظره معداته دون أن تُمس، بما  
فيها الصليب الكبير.

- أنت لست رجل كنيسة - قال أرسنيو حين أصبحا وراء باب  
غرفة الضيف الموصد.

نطّ ديفغو رعباً؛ إذا كان باستطاعة أعمى أن يتنبأ بأنّه مقنّع فلا  
أمل له في خداع المبصرين.

- ليست لك رائحة قسّ - أضاف أرسنيو.

- لا؟ ما رائحتي إذا؟ - سأل ديفغو، مستغرباً، لأنّه كان يرتدي  
ملابس الأب مندوثاً.

- رائحة شعر هندية و صمغ للصق الخشب - ردّ أرسنيو.

لمس الشاب لحيته المستعارة ولم يتمالك نفسه عن إطلاق  
قهقهة. قرّر استغلال المناسبة، لأنّه من الممكن ألا يكون هناك  
أخرى، واعترف لأرسنيو أنّه جاء بمهمة خاصة ويحتاج إلى  
مساعده. وضع في يده ريشات جدّته. تلمسها الأعمى بيديه  
المبصرتين ولمسه على وجهه متأثراً عندما عرف أخته. وضّح له  
ديفغو أنّه حفيد البومة البيضاء وكفى هذا كي ينفّث أرسنيو، فقال  
له، إنّ لم يكن عنده أخبار عنها منذ سنوات طويلة. وأكّد له أن سجن  
الشيطان كان حصناً قبل أن يُصبح سجناً، وأنّه ساعد في بنائه، بقي  
بعدها ليخدم الجنود والآن السجّانين. الحياة كانت دائماً قاسية بين  
هذه الجدران، لكن منذ أن أصبح كارلوس الكاثار مسؤولاً صار  
جحيماً، فجشع وقسوة هذا الرجل لا وصف لهما. كان الكاثار

يفرض الأعمال الشاقة والعقوبات الشديدة الوحشية على السجناء،  
كان يلتمهم الأموال المخصصة للطعام ويُطعمهم من بقايا حصص  
الجنود. الآن هناك مُحْتَضِرٌ وآخرون مصابون بالحمى نتيجة  
احتكاكهم بقناديل البحر المنفجرة، وهم ينزفون من أنوفهم  
وآذانهم.

- وألخاندرو دي لايفغا؟ - سأله ديبغو وروحه عالقة بخيط.

- إن يدوم طويلاً، لقد فقد رغبته بالحياة، وهو لا يكاد يتحرك.  
بقية السجناء يقومون بعمله، كيلا يعاقبوه ويطعمونه واضعين  
الطعام في فمه - قال أرسنيو.

- أرجوك يا عيوناً ترى في الظلمة، خذني إليه.

في الخارج لم تكن الشمس قد غابت بعد. لكن السجن في الداخل  
كان معتماً، فالجدران السميقة والنوافذ الضيقة لا تكاد تسمح  
بدخول النور. أرسنيو، الذي لم يكن يحتاج إلى قنديل كي يعرف أين  
هو، أخذ ديبغو من كمه وقاده دون ترددٍ عبر الممرات في الظلمة  
والأدراج الضيقة للبناء حتى زنزانات القبو، التي أضيفت إلى  
الحصن حين قرروا استخدامه سجنًا. كانت هذه الزنزانات موجودة  
تحت مستوى الماء وحين كان المدُّ يرتفع يتسلل رطوبةً، محدثاً  
طبقةً ضاربة للخضرة على الحجارة ورائحة مثيرة للغثيان. فتح  
الحارس المناوب، وكان مولداً منقوشاً بالجدرى، وله شارب فقمة،  
باب الحديد، المؤدّي إلى ممر، وسلّم أرسنيو رزمة مفاتيح. فاجأ  
الصمت ديبغو. افترض أن هناك عدة سجناء، لكن هؤلاء كانوا  
ظاهرياً منهكين وضعفاء بحيث أنه لا تصدر عنهم همسة. اتجه  
أرسنيو إلى واحدة من الزنزانات، تحسّس رزمة المفاتيح، وأخذ  
المفتاح المناسب وفتح القضبان دون تلكؤ. احتاج ديبغو عدة ثوانٍ  
كي يتأقلم بصره مع العتمة ويميّز بعض الأطياف، المستلقية  
بملاصقة الجدار وكتلة على الأرض. أشعل أرسنيو شمعةً وجلس  
ديبغو على ركبتيه بجانب أبيه، متأثراً إلى حدّ أنه لم يستطع أن ينطق

شيء خطيراً

يكون هناك  
بأرسنيو إلى  
ن تفس، بما

حاً وراء باب

بأنه مقنع فلا

ه كان يرتدي

أرسنيو.

ه عن إطلاق

يكون هناك

ويحتاج إلى

الأعمى بيديه

خته. وضح له

أرسنيو، فقال

كد له أن سجن

في بنائه، بقي

ثم قاسية بين

مسؤولاً صار

كان الكاثار

بكلمة. رفع بحذر رأس أَلْخَانْدَرُو لِأَبِغَا ووضعها في حضنه، مبعداً  
عن جبينه خصلات الشعر المرصوفة. استطاع على ضوء اللهب  
المرتعش أن يرى بشكل أفضل ولكنه لم يعرفه. لم يبق من النبيل،  
بطل معارك ماضية وعمدة لوس أنجلوس والمزارع المزدهرة،  
الأنيق والشموخ، شيء. كان متسخاً، لم يبق منه غير العظم والجلد  
المشقق والترابي، يرتعش من الحمى، وكانت عيناه ملتصقتين  
بالقذى، وخيط من لعاب يجري على ذقنه.

- يا سيد أَلْخَانْدَرُو هل تستطيع أن تسمعني؟ هذا هو الأب  
أغيلار... - قال أرسنيو.

- جنّت لنجدتك، يا سيد، سوف نخرجك من هنا - تتمم ديفغو.  
شعر الرجال الثلاثة الموجودون معه في الزنزانة ببصيص  
اهتمام، لكنهم سرعان ما عادوا واستلقوا باتجاه الجدار. كانوا أبعد  
ما يكونون عن الأمل.

- أعطني آخر الأسرار المقدسة، يا أبانا. لقد تأخر الوقت  
بالنسبة إليّ - همس المريض واهن الصوت.

- لم يتأخر. هيا، يا سيد، اجلس... - ردّ ديفغو.

تمكّن من تجليسه وإعطائه ماء ليشرب. ثم نظف عينيه بطرف  
ثوبه المبلل.

- اعمل جهداً لتنهض على قدميك يا سيد، لأنك كي تخرج عليك  
أن تمشي - ألحّ ديفغو.

- اتركني، يا أبانا، لن أخرج من هنا حياً.

- بل ستخرج. أوكد لك أنك ستري ابنك من جديد ولا أعني في  
السماء بل في هذا العالم...

- قلت ابني؟

- أنا هو، ديفغو، ألا تعرفني حضرتك؟ - همس الراهب محاولاً  
ألا يسمعه البقية.

راقبه أَلْجَانْدَرُو دِ لَابِغَا بَضِعْ ثَوَانِ مَحَاوِلًا أَنْ يُثَبِّتَ بَعَيْنِيهِ  
الْفَائِضَتَيْنِ بِصَرِهِ عَلَيْهِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَجِدِ الصُّورَةَ الْمَعْرُوفَةَ فِي ذَلِكَ الرَّاهِبِ  
الْمَبْرَنْسِ وَالْمَقْلَنْسِ وَالْمُشْعِرِ. وَضَحَّ لَهُ الشَّابُّ بِالْهَمْسِ دَائِمًا، أَنَّهُ  
يِرْتَدِي الزِّي الْكَهْنُوتِي وَاللَّحِيَةَ الْمَسْتَعَارَةَ لِأَنَّهُ يَجِبُ أَلَّا يَعْرِفَ أَحَدٌ  
أَنَّهُ فِي سَجْنِ الشَّيْطَانِ.

- دِييغُو... دِييغُو... هَا قَدْ سَمِعَ اللَّهُ رَجَائِي! لَقَدْ صَلَّيْتُ كَثِيرًا كِي  
أَعُودَ وَأَرَاكَ قَبْلَ أَنْ أَمُوتَ، يَا بُنَيَّ!

- لَقَدْ كُنْتُ حَضْرَتِكَ، دَائِمًا رَجُلًا شَجَاعًا وَبِاسِلًا. لَا تُخَيِّبْنِي،  
أَرْجُوكَ. عَلَيْكَ أَنْ تَعِيشَ. عَلَيَّ أَنْ أَذْهَبَ الْآنَ، لَكِنْ حَضِرُ نَفْسِكَ، لِأَنَّهُ  
خِلَالَ لِحْظَةٍ سَيَأْتِي صَدِيقٌ لِي وَيُنْقِذُكَ.

- قَلْ لَصَدِيقِكَ إِنَّهُ لَسْتُ مِنْ عَلَيْهِ أَنْ يَحْرَّرَهُ، يَا دِييغُو، بَلْ رِفَاقِي.  
أَنَا مَدِينٌ لَهُمْ بِالْكَثِيرِ، لَقَدْ نَزَعُوا الْخُبْزَ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ كِي يَطْعَمُونِي.

عَادَ دِييغُو وَنَظَرَ إِلَى السَّجْنَاءِ الْآخَرِينَ، ثَلَاثَةَ هُنُودٍ مَتَسَخُونِ  
وَهَزِيلُونَ مِثْلَ وَالِدِهِ، يَعْطُوهُمَا تَعْبِيرَ الْإِخْتِنَاقِ ذَاتِهِ، لَكِنَّهُمْ شَبَّانُ  
وَمَا زَالُوا أَصْحَاءً. يَبْدُو أَنَّ هَؤُلَاءِ الرِّجَالَ تَمَكَّنُوا، خِلَالَ أَسَابِيعِ  
قَلِيلَةٍ، مِنْ تَغْيِيرِ مَوْقِفِ التَّعَالِيِّ الَّذِي اسْتَنْدَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ الْإِسْبَانِيُّ طَوَالَ  
حَيَاتِهِ الْمَدِيدَةِ. فَكَّرَ فِي تَقَلُّبَاتِ الْقَدْرِ. قَالَ لَهُ سَانْتِيَاغُو دِ لِيُونِ ذَاتَ  
مَرَّةٍ حِينَ كَانَ يِرَاقِبُ النُّجُومَ فِي عَرْضِ الْبَحْرِ: أَنَّ الْمَرءَ إِذَا عَاشَ  
كِفَايَةَ يَتِمَكَّنُ مِنْ مَرَاجَعَةِ قَنَاعَاتِهِ وَيُصَحِّحُ بَعْضَهَا.

- سَيُخْرِجُونَ مَعَكَ، أَعْدَكَ - أَكَّدَ لَهُ دِييغُو وَهُوَ يُوَدِّعُهُ.

تَرَكَ أَرِسْنِيُو الرَّاهِبَ الْمَفْتَرِضَ فِي غُرْفَتِهِ وَجَاءَهُ فِيمَا بَعْدَ  
بَعْضِ رُونِيَةِ بَسِيطَةٍ مِنْ خُبْزٍ قَدِيمٍ وَحَسَاءٍ رَخِو وَكَأْسِ نَبِيذٍ عَادِيٍّ.  
انْتَبَهَ دِييغُو إِلَى أَنَّ بِهِ جُوعَ ثَعْلَبٍ وَأَسْفَ لِأَنَّهُ أَعْلَنَ لِكَارْلُوسِ الْكَاتِّارِ  
أَنَّهُ صَائِمٌ. لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَا يَسْتَدْعِي أَنْ يَكُونَ قَدْ مَضَى بَعِيدًا فِي  
أَدْعَائِهِ. وَفَكَّرَ أَنَّ نُورِيَا تَعَدُّ دُونَ شَكِّ يَخْنَةَ ذَيْلِ الثَّوْرِ فِي بَعْتَةِ سَانَ  
غَابَرِيِيلِ.

- جنّت فقط لأستكشف الأرض، يا أرسنيو. هناك أشخاص آخرون سيحاولون تحرير السجناء ويأخذون ألكاندرود لابغا إلى مكان آمن. إنّه زورو، الفارس الهمام، الذي يرتدي السواد ويتقنع، الذي يظهر دائماً حيث يجب إحلال العدالة - وضّح للأعمى.

ظنّه أرسنيو يسخر منه. فهو لم يسمع قط بهذه الشخصية، إنه يعيش منذ خمسين عاماً الظلم في كل مكان دون أن يذكر أحد المقتنع قط. أكّد له ديبغو أنّ الأمور ستتغيّر في كاليفورنيا. وسيرون من هو زورو! سيلقى الضعفاء حمايته وسيذوق الأشرار حدّ سيفه وضربات سوطه. راح أرسنيو يضحك مقتنعاً وقتها أنّ الرجل كان مجنوناً.

- وهل تظنّ أن البومة البيضاء كانت سترسلني إليك لو أن الأمر مزحة؟ - صاح ديبغو، منزعجاً هذه المرّة.

يبدو أنّ هذه الحجّة أحدثت صدمة عند الهندي، لأنّه سأل كيف يفكر هذا زورو أنّ يُحرّر السجناء، معتبراً أنّه ما من أحد هرب قط من سجن الشيطان. لم يكن الأمر بالخروج مشياً وبهدوء من الباب الرئيسي. وضّح له ديبغو أنّه مهما كان المقتنع رائعاً فهو لا يستطيع وحده أن يفعل شيئاً، إنّهُ بحاجة للمساعدة. بقي الآخر متفكراً برهة طويلة وأعلمه بعدها أنّه يوجد مخرج آخر، لكنّه لا يعرف ما إذا كان في وضع جيد. إذ أنهم حين بنوا الحصن حفروا نفقاً ليستخدموه كطريق للهرب في حال الحصار. فقد كانت هجمات القراصنة في ذلك الوقت كثيرة وكانوا يتكلمون عن أنّ الروس يفكرون بالسيطرة على كاليفورنيا. النفق الذي لم يُستخدم قط ولا أحد يتذكره كان ينتهي في غابة كثيفة، على مسافة قصيرة باتجاه الغرب، تماماً في مكان مقدّس قديم للهنود.

- مبارك الربّ! هذا بالضبط ما أحْتَاجه، يعني ما يحتاجه زورو. أين مدخل النفق؟

- إذا ما جاء هذا زورو سأريه له - ردّ أرسنيو بنبرة ساخرة.



وما إن أصبح ديفغو وحيداً حتى راح يفتح معداته، التي كانت تحتوي على بدلته السوداء والسوط والمسدس. في أكياس برناردو وجد الحبل ومرساة معدنية وعدة مواعين صلصالية. كانت تلك القنابل الدخانية معدة من النترات ومسحوق الزنك بحسب التعليمات المنقولة مع أشياء أخرى غريبة من كتب القبطان سانتياغو دي ليون. وكان قد صنع واحدة من تلك القنابل ليخيف برناردو، ولم يفكر قط أنه سيستخدمها لإنقاذ والده. نزع اللحية بصعوبة كبيرة، عاضاً على شفتيه كيلا يصرخ من ألم الشد. التهب وجهه: كما لو أنه أُحرق. وقدّر أن الأمر لا يستحق وضع الشارب، يكفي القناع، لكنه عاجلاً أو آجلاً عليه أن يترك شاربته ينمو. اغتسل بالماء الذي تركه له أرسنيو في جفنة، وارتدى ثياب زورو. راح يفك الصليب الكبير وأخرج منه سيفه. لبس القفازين الجلديين وخطا خطوات مجزباً مرونة السيف وقوة عضلاته. ابتسم راضياً.

أطلّ من النافذة، رأى أن الخارج معتم وافترض أن كارلوس ولوليتا لا بدّ تناولا عشاءهما وربما صارا في غرفتيهما. كان السجن هادئاً وصامتاً. لقد حانت لحظة العمل. وضع السيف والسوط على خصره وأغمد سيفه واستعدّ للخروج. «باسم الله!»، تمتم مصلاً أصابعه كي ينضمّ العون الإلهي إلى الحظ الحسن. كان قد حفظ مخطّط الحصن عن ظهر قلب وأحصى عدد درجات السلالم، كي يتمكن من التنقل دون ضوء. لقد سمح له لون ثيابه الداكن أن يختفي في الظلمة وكان يثق بأنّه لا توجد مراقبة زائدة. وصل متسللاً إلى إحدى الشرفات دون أن يحدث ضجة، وبحث عن مكان يُخبئ فيه القنابل التي لم يكن يستطيع أن يُخاطر بسقوطها منه. في رحلته الأخيرة وضع الحبل الملفوف والهلب الحديدية على كتفه. وقدّر بعد أن اطمأن إلى أن القنابل في مكان أمين من الشرفة إلى السور المجاور الذي ينطلق على السجن المبني من الحجارة والملاط، العريض بحيث يسمح للحراس بالسير عليه، والمنار بمشعل كل خمسين خطوة. رأى من ملجئه حارساً يمرّ فعدّ الدقائق حتى مرّ

هناك أشخاص  
اندرود لايفغا إلى  
في السواد ويتقنع  
ح للأعمى.

ذه الشخصية، إنه  
يذكر أحد المقنع  
وسيرون من هو  
سيفه وضربات  
كان مجنوناً.

إليك لو أن الأمر

لأنه سأل كيف  
من أحد هرب قط  
هدوء من الباب  
فهو لا يستطيع  
بر متفكراً برهة  
رف ما إذا كان  
لقاً ليستخدموه  
القراصنة في  
رون بالسيطرة  
د يتذكره كان  
رب، تماماً في

حواجه زورو.

نبيرة ساخرة.

الثاني. حين تأكد من أنه لا يوجد غير حارسين يدوران، قدر أنه  
يملك الوقت الدقيق كي يقوم بالخطوة التالية. جرى منحنيًا باتجاه  
الجناح الجنوبي من السجن، لأنه اتفق مع برناردو على أن ينتظره  
في ذلك المكان حيث يوجد لسان صخري يمكن أن يُسهل الصعود.  
كلاهما كان يعرف محيط السجن، لأنهما سبراه في أكثر من مناسبة  
في طفولتهما. وما أن حُدّد الموقع حتى ترك الحارس يمرّ وأخذ  
مشعلًا من المشاعل ورسم بنوره عدّة أقواس؛ تلك كانت العلامة  
بالنسبة إلى برناردو. بعدها ثبتّ الهلَب في الجدار ورمى الحبل إلى  
الخارج، متوسلاً الله أن يصل إلى الأرض ويراه أخوه. كان عليه أن  
يختبئ من جديد لأنّ الحارس الثاني اقترب وتوقف لينظر إلى السماء  
على بعد شبرين من الهلَب المعدني. نطّ قلبه في صدره وشعر بأنّ  
قناعه يبتلّ بالعرق حين رأى أنّ قدمي الحارس أصبحا من القرب  
من الهلَب بحيث كادا يلامسانه. إذا ما حدث هذا سيكون عليه أن  
يدفعه ويرميه من فوق السور، لكنّ هذا النوع من العنف كان يثير  
اشمئزازه. وكان أكبر تحدّد له، كما وضّح ذات مرّة لبرناردو، هو أن  
يكون عادلاً لكن دون أن يلطّخ ضميره بدم الغير. فبينّ له برناردو  
الذي كان واقعياً دائماً أنّ هذا ليس ممكناً دائماً.

تابع الحارس سيره في اللحظة التي راح برناردو يلفّ فيها  
الحبل من الأسفل، محرّكاً الهلَب. بدت الجلبة بالنسبة إلى ديبغو  
مُصمّة، لكنّ الحارس لم يتردد إلا ثوان، سوى بعدها سلاحه على  
كتفه وتابع طريقه. أطلّ المُقنّع متنهّداً تنهيدة ارتياح على الجانب  
الأخر من الجدار. ورغم أنّه لم يتمكّن من رؤية رفاقه، فإنّ شدة  
الحبل دلّته على أنّهم بدؤوا بالصعود. وصل الأربعة إلى الأعلى، كما  
خطّطوا، قبل أن يسمعوا خطوات الحارس الآخر يبدأ جولته. دلّ  
زوررو الهنود على مخرج النفق في الغابة، كما قال له أرسنيو وطلب  
من اثنين منهما أن ينزلا إلى فناء السجن وينتظرا جياد الحامية  
تفادياً للحاق الحراس بهم. ومضى على الفور كلّ منهم إلى مهمّته.

عاد زورو إلى الشرفة حيث خبأ القنابل، ثم وبعد أن تبادل مع  
برناردو عدّة عوآاتٍ ثعلب أمريكي، راح يرميها واحدة بعد أخرى  
على الجدار. وأبقى لنفسه اثنتين، كي يستخدمهما داخل البناء.  
أشعل برناردو فتيل قنابله ومررها للهندي الذي كان يرافقه وركض  
الاثنان على طول السور، صامتين وسريعين، كما كانوا يفعلون  
حين يذهبون إلى الصيد. اتخذوا مواقعهم في عدّة أماكن، ورموا  
القنابل في اللحظة التي راح يستهلك فيها اللهب الفتيل ويصل محتوى  
وعاء الفخار باتجاه أهدافهم: الإسطبل، مستودع الأسلحة، مهجع  
الجنود والفناء. وحين لف دخان القنابل الأبيض الكثيف السجّن فجر  
ديفو قنبلتيه في الطابق الثاني والأول من البناء الرئيسي. انتشر  
الهلع في دقائق قليلة. ومع صيحة «نار!» خرج الجنود مرتبكين  
يرتدون بنطلوناتهم وجزماتهم، بينما راح جرس الإنذار يرن. وراح  
الجميع يركضون لينقذوا ما يمكن إنقاذه، بعضهم يمرر دلاء الماء  
إلى بعضهم الآخر ليفرغوها على غير هدى، مُحْتَنِقِينَ، وآخرون  
يفتحون الإسطبلات يُجبرون الحيوانات على الخروج. امتلأ المكان  
بالخيول المحمومة التي ساهمت في دَبِّ الرعب العام. استغلّ هندياً  
تويبورنيا، اللذان هبطا عن الجدار واختبأ في الفناء، الوضع كي  
يفتحا باب الحصن الكبير ويثيرا الجياد، التي خرجت إلى الحقل  
المفتوح. كانت حيوانات أليفة ولم تذهب بعيداً فتجمعت على مسافة  
قصيرة، حيث استطاع الهنود الوصول إليها. ركب زوج منهم وساقا  
البقية إلى مكان الاجتماع الذي حدّده زورو على مقربة من مخرج  
النفق.

استيقظ كارلوس ألكاثار على صوت النواقيس وخرج ليتحقّق  
من سبب كلّ تلك الحركة. حاول أن يفرض الهدوء بين رجاله  
موضّحاً أنّ الجدران الحجرية غير قابلة للاشتعال، لكنّ أحداً لم يوله  
انتباهاً، فالهنود أطلقوا سهاماً مشتعلة على تبين الإسطبلات وظهرت  
النيران وسط الدخان. كان الدخان قد أصبح غير محتمل داخل البناء

ن، قدّر أنه  
غنياً باتجاه  
أن ينتظره  
ل الصعود.  
من مناسبة  
يمرّ وأخذ  
فت العلامة  
الحبل إلى  
أن عليه أن  
إلى السماء  
وشعر بأن  
من القرب  
ن عليه أن  
كان يثير  
دو، هو أن  
ه برناردو

يلفّ فيها  
إلى ديفو  
لأحده على  
الجانب  
فإنّ شدة  
أعلى، كما  
جولته، بل  
فنيو وطلب  
الحامية  
لمي مهنته

فهرع الكاثر يبحث عن ابنة عمته المحبوبة، لكنه اصطدم بها وسط الممر قبل أن يصل إلى غرفتها.

- السجناء! يجب إنقاذ السجناء! - صاحت لوليتا، يائسة.

لكن أولوياته كانت أخرى. لم يكن باستطاعته أن يسمح للنيران أن تدمر لآلته الرائعة.

كان السجناء قد أخرجوا خلال تلك الأشهر القليلة آلاف المحارات وصار عند مونكادا وألكاثر عدة قبضات من اللؤلؤ. وعند التوزيع كان يصيب مونكادا الثلثان، فهو الذي كان يمول العملية ويصيب ألكاثر الثلث، لأنه يديرها. لم يكن عندهما سجل لذلك، لأنها عملية غير شرعية، لكنهما صمما نظام محاسبية، يدخلان من خلاله اللآلئ من ثقب في صندوق مختوم، مثبت في الأرض بعارضتين حديديتين، ويُفتح بمفتاحين. وكان كل شريك يحمل مفتاحاً، وفي نهاية الموسم يجتمعان كي يفتحا الصندوق ويتقاسما محتواه. وكان مونكادا قد عين رجلاً يثق به ليراقب المحصول في السفينة، وكان يشترط أن يكون أرسنيو من يضعها واحدة فواحدة في الصندوق. فالأعمى بذاكرة لمسه الفذة الوحيد القادر على تذكر الرقم الدقيق للآلئ، بل وعلى وصف حجم وشكل كل واحدة إذا دعت الضرورة. كان كارلوس ألكاثر يمقته، لأنه يحفظ هذه الأرقام في ذهنه ويبرهن على أنه لا يقبل الفساد. كان يحذر أن يسيء معاملته، لأن مونكادا يحميه، لكنه لا يفوت فرصة كي يهينه. بالمقابل رشا الرجل الذي يراقب السفينة، وبمبلغ معقول كان هذا يسمح لألكاثر أن يستخرج اللآلئ الأكثر كروية والأكثر شرقية، فلا تمر على يدي أرسنيو ولا تذهب إلى الصندوق. ولم يكن مونكادا ليعرف أبداً بوجودها.

وبينما كان هنود قبيلة تويبورنيا الثلاثة ينتهون من زرع

الفوضى ويسرقون الخيول، دخل برناردو إلى البناء، حيث كان ينتظره زورو، فقادته إلى الزنانات. كانا قد قطعاً عدة أمتار من الممر، مغطيين وجهيهما بمنديلين مُبلّلين، حين أخذت يد ذراع زورو.

- أبانا أغيلار، اتبعني، من هنا أقصر...

كان هذا أرسنيو، الذي لم يكن يستطيع أن يقدر تحوّل المُبشّر إلى زورو فائق الوصف، لكنّه عرف الصوت. لم يكن ضرورياً إخراجهُ من خطئه. سارع الأخوان باللاحاق به، لكنّ شخصية كارلوس الكاثار ظهرت فجأة في الممر، قاطعاً عليهم الطريق. عندما رأى هذين المجهولين اللذين كان لباس واحد منهما غريباً، مدّ رئيسُ السجنِ يده إلى مسدّسه وأطلق النار. دوت صرخة ألم بين الجدران واستقرت الرصاصة في رافدة من روافد السقف الخشبية: لقد انتزع منه زورو المسدّس بضربة سوط على معصمه في اللحظة التي كان يضغط فيها على الزناد. توجه برناردو وأرسنيو إلى الزنانات، بينما راح ديبغو يلاحق الكاثار والسيف في يده صاعداً الدرج. خطرت له فوراً فكرة كي يحلّ مشاكل الأب مندوثا ويجعل في الوقت ذاته مونكادا يمر في لحظة سيئة. حقيقةً أنا عبقرّي، ختم جريه.

وصل الكاثار إلى مكتبه وتمكّن من إغلاق الباب وقفله قبل أن يدركه الآخر. لم يكن الدخان قد دخل إلى تلك الغرفة. فرّع زورو مسدّسه في قفل الباب ودفعه، لكنّه لم ينصع له، فقد كانت هناك عارضة من الداخل. لقد أضاع طلّقه الوحيدة ولا يملك الوقت لتعبئته ولكل لحظة قيمتها. كان يعرف أنّ نوافذ القاعة تُطلّ على الشرفة، لأنّه سبق أن كان فيها. بدأ واضحاً من النظرة البسيطة أنّه لا يستطيع أن يصلها بقفزة واحدة كما يريد، دون أن يتكسر رأسه على بلاط الفناء. لكن ميزاباً زخرفياً منحوتاً في الحجر على هيئة حيوان كان يطلّ من الطابق العلوي. تمكّن من لف رأس سوطه عليه وشده كي يثبتّه، وصلّى كي يتحمّل الميزاب ثقله، تآرجح وسقط تماماً في

الشرفة. كان كارلوس الكاثار مشغولاً في غرفته في تعبئة مسدسه،  
كي يخترق قفلي الصندوق بالرصاص فلم يَزِ الظل في النافذة. انتظر  
زورو حتى فرغ الكاثار مسدسه مفتتاً أحد القفلين واندفع إلى  
الغرفة من النافذة المفتوحة. احتذى بالدثار فجعله يتردد لثانية وهو  
الوقت الكافي كي يفلت الكاثار مسدسه، الذي لم يعد مجدياً، ويأخذ  
سيفه. هذا الرجل القاسي جداً مع الضعفاء كان جباناً أمام منافس  
من مستواه، ثم إنه كان قليل الممارسة في المبارزة، ففي أقل من  
ثلاث دقائق طار سيفه في الهواء ووقف مرفوع اليدين ورأس السيف  
في صدره.

- أستطيع أن أقتلك، لكنني لا أريد أن أُلطخ يدي بدم كلب. أنا  
زورو، جنّت بحثاً عن لآلك.

- اللآلي هي لمونكادا!

- كانت له. الآن هي لي. افتح الصندوق.

- يحتاج إلى مفتاحين ولا أملك غير واحد.

- استخدم المسدس. وحذار أن تأتي بأدنى حركة مريبة لأتني  
سأخرق عنقك دون أدنى تردد. زورو كريم، سيعفو عنك ما أطعت -  
هذه المَقنَّع.

تمكّن الكاثار وهو يرتعد من تعبئة المسدس وكسّر القفل الآخر  
بطلقة واحدة. رفع الغطاء الخشبي وظهر الكنز، أبيض برّاقاً إلى حدّ  
أنّه لم يستطع تجنّب أن يفوح بيده فيه ويجعل اللآلي الرائعة تناسب  
من بين أصابعه. من ناحيته لم يَزِ زورو قط شيئاً بمثل تلك القيمة.  
فاللآلي التي حصلوا عليها في برشلونة مقابل أملاك توماس دي رومو  
بدت متواضعة. في ذلك الصندوق يوجد كنز. أشار إلى خصمه أن  
يُفرغ محتواه في جوب.

- ستصل النيران بين لحظة وأخرى إلى البارود وسيطير سجن  
الشیطان في الهواء. إنني أفي بكلمتي، حياتك لك، استغلها - قال.

لم يجب الآخر. وبقي في المكتب بدل أن يسرع إلى الخروج،

كما كان متوقفاً. لاحظ زورو أنه كان يُطلق نظراتٍ مختلصة إلى  
الطرف الآخر من الغرفة، حيث يوجد تمثال لمريم العذراء على قاعدة  
حجرية. يظهر أن ذلك كان يهّمه أكثر من حياته. أخذ جورب اللآلي  
ونزع عارضة الباب واختفى في الممر، لكنه لم يبتعد كثيراً. انتظر،  
وهو يعد الثواني، وبما أن الكاثار لم يخرج، عاد إلى المكتب في  
الوقت المناسب ليفاجئه وهو يكسر رأس التمثال بعقب مسدسه.

- يالها من طريقة غير محترمة للتعامل مع السيدة العذراء -  
صاح ديبغو.

التفت كارلوس الكاثار، وقد امتنع غضباً ورماه على وجهه  
بالمسدس، مخطئاً هدفه بهامشٍ كبير، في الوقت الذي مدّ فيه يده  
إلى سيفه، الموجود على بعد خطوتين منه على الأرض. ولم يك  
ينهض حتى أصبح المقتنع فوقه، بينما بدأ دخان الممر الأبيض يغزو  
القاعة. تبادل ضربات السيف لدقائق وقد أعماهها الدخان وراحا  
يسعلان. راح الكاثار يتراجع نحو طاولة عمله وفي اللحظة التي كان  
يفقد فيها سيفه للمرة الثانية، أخرج مسدساً معبأً من الدرج. لم يملك  
وقتها للتصويب، لأن رفسة مريعة نزعت منه سلاحه، وعلى الفور علم  
زورو خدّة بثلاثة خطوط مدوّخة من سيفه، راسماً حرف Z. أطلق  
الكاثار إثرها صرخة وسقط على ركبتيه ورفع يديه إلى وجهه.

- ليست قاتلة، يا رجل، إنها علامة زورو، كيلا تنساني - قال  
المقتنع.

كان هناك على الأرض بين قطع التمثال المكسرة كيسٌ صغير  
من جلد الأيل التقطها زورو بلمح البصر، قبل أن يخرج جازياً. فقط  
فيما بعد وعندما تفحص ما فيه رأى أنه كان يحتوي على مئة وثلاث  
لآلي رائعة، أثمن من كل ما كان في الصندوق.

كان زورو قد حفظ الطريق عن ظهر قلب وسرعان ما اهتدى  
إلى الزنازين. كان القبو المكان الوحيد في سجن الشيطان الذي لم

مسدسه،  
ذة. انتظر  
ندفع إلى  
ثانية وهو  
أ، ويأخذ  
م منافس  
ي أقل من  
س السيف

كلب. أنا

ريبة لأتني  
ما أطعت -

لقفل الآخر  
اقاً إلى حد  
ثعة تنساب  
تلك القيمة.

س رومو  
خصمه أن

بيطير سجن  
ها - قال  
الخروج

يصله الدخان ولا يُسمع فيه قرع الناقوس والجري والصراخ. كان  
السجناء يجهلون ما جرى في الخارج إلى أن وصلت لوليتا معلنة  
الاستنفار. كانت الفتاة قد نزلت بقميص النوم، حافية تطالب  
الحراس بإنقاذ الناس. أمام حادث الحريق أخذ الحراس المشعل  
من الجدار وهربوا بسرعة، دون أن يخطر السجناء ببالهم. وجدت  
لوليتا نفسها تتلمس في الظلمة بحثاً عن المفاتيح. عندما فهم  
الأسرى المرعوبون أن الأمر يتعلق بحريق بدءوا يصيحون ويهزون  
القضبان محاولين الخروج. وفي هذه الأثناء ظهر أرسنيو  
وبرناردو. توجه الأول بهدوء إلى الخزانة الصغيرة حيث تُخبأ  
فيها الشموع والمفاتيح كي يفتح الزنازين، والتي كان يستطيع  
معرفة باللمس، بينما الآخر يُشعل الأنوار ويحاول تهدئة لوليتا.

بعد لحظة دخل زورو. صرخت لوليتا حين رأت ذلك المقتنع في  
ثياب الحداد يهز سيفاً دامياً، لكن زعرها تحول إلى فضول حين  
أغمد سيفه وانحنى ليقبل يدها. تدخل برناردو رابتاً على كتف أخيه:  
ليست اللحظة لحظة مداعبة.

- اهدؤوا! إنه مجرد دخان! اتبعي أرسنيو، فهو يعرف مخرجاً  
آخر - أشار زورو إلى السجناء، الذين كانوا يتدافعون من  
زنازينهم.

رمى دثاره على الأرض ووضع عليه ألكاندرود لايغا. رفع  
أربعة هنود الدثار من زواياه الأربع، مثل سرير وحملوا المريض.  
ساعد آخرون الرجل الذي جُلد وتبع الجميع بمن فيهم لوليتا أرسنيو  
باتجاه النفق وبرناردو زورو في المؤخرة لحمايتهم. كان المدخل  
خلف أكوام من البراميل والأمتعة غير الصالحة والخردة، ليس  
بهدف إخفائه، بل لأنه لم يُستخدم قط وتكدست فيه هذه الأشياء مع  
مرور الزمن. كان واضحاً أن أحداً لم ينتبه إلى وجوده. نظفوا الباب  
ودخلوا واحداً واحداً في الحفرة. وضح زورو للوليتا أنه لم يكن



هناك خطر حريق. فالدخان كان للإلهاء وإنقاذ هؤلاء الرجال،  
الأبرياء في غالبيتهم. لم تكن كلماته تكاد تفهم، لكن لوليتا كانت تهزُّ  
رأسها كما لو أنها منومة مغناطيسياً. من تراه ذلك الشاب الجذاب  
إلى هذا الحد؟ ربّما قاطع طريق ولذلك يُخفي وجهه، لكن ذلك  
الاحتمال لم يكن يكبحها، بل يوجِّج حماسها. كانت مستعدة لأن تتبعه  
إلى آخر العالم، لكنّه لم يطلب منها ذلك، بينما ما إن دخل الجميع  
النفق حتى طلب منها أن تُقرب البراميل والأشياء من الباب. ثم أشار  
عليها أن تُضرم النار بقش الزنازين، فهذا سيمنحهم مزيداً من الوقت  
للهرب. لوليتا، الفاقدة لإرادتها، وافقت بابتسامة بلهاء لكن بنظرة  
مضطربة.

- شكراً، يا آنسة - قال لها.

- من أنت؟

- اسمي زورو.

- أي نوع من الحماسة هذا، يا سيّد؟

- ليس أيّة حماسة، أوّكد لك، يا لوليتا. لا أستطيع الآن أن أوضح  
لك أكثر، فالوقت يداهمنا، لكننا سنعود ونلتقي - ردّ هو.

- متى؟

- قريباً.

- لا تغلّقي نافذة شرفتك وسأذهب في ليلة من هذه الليالي  
لزيارتك.

كان عليها أن تأخذ هذا الاقتراح على أنّه شتيمة، لكنّ نبرة  
المجهول بدت لطيفة وأسنانه ناصعة البياض. لم تعرف لوليتا بماذا  
ستجيب، حين أحاط ذراعه القويّ بخصرها، لم تفعل شيئاً كي  
تبعده، على العكس، أغمضت عينيها وقدمت له شفّتها. قبلها زورو  
الذي بُوغت بالتقدم الذي أحرزه في ذلك المجال، دون أي أثر

للخجل الذي كان يشعر به أمام خوليانا. وكان يستطيع، مُتَخَفِيًا  
خلف قناع زورو، أن يطلق العنان لغزله. ونظراً للظروف كانت قبلة  
طيبة كفاية. في الحقيقة كان من الممكن أن تكون قبلة تامة لولا أن  
الاثنين راحا يسعلان من الدخان. انفصل زورو عنها مكرهاً ودخل  
النفق لاحقاً بالبقية. احتاجت لوليتا لثلاث دقائق كي تستعيد تحكُّمها  
بعقلها ونفسها وشرعت على الفور بتنفيذ تعليمات المُقنَّع الساحر،  
الذي فكَّرت أن تتزوَّج منه ذات يوم ليس بالبعيد، لقد قرَّرت ذلك.  
كانت فتاة فطنة.

بدأ الدخان، بعد نصف ساعة من انفجار القنابل، ينقشع وأطفأ  
الجنود حريق الإسطبلات وراحوا يُقاومون نيران الزنازين، واستعاد  
كارلوس الكاثار سيطرته على الوضع بينما كان يوقف نزيف خده  
بخرقة؛ دون أن يتمكن من فهم ما حدث. عثر جنوده على السهام  
التي أشعلت النيران، لكن أحداً لم ير المسؤولين. لم يكن يعتقد أن  
الأمر يتعلق بهجوم هنود، فهذا لم يحدث منذ خمس وعشرين سنة،  
ولا بدَّ أن هذه عملية إلهاء قام بها زورو كي يسرق اللآلئ. ولم  
يعرف أن السجناء اختفوا دون أن يتركوا أثراً إلا بعد برهة طويلة.

النفق المدعَّم بألواح الخشب لمنع الانهيارات كان ضيقاً، لكنه  
يسمح بمرور شخص بشكلٍ مُريح. كان الهواء مُخلخلاً ومسارب  
التهوية قد سُدَّت مع مرور الزمن، رأى زورو أنهم لا يستطيعون أن  
يستنفدوا الأوكسجين النادر المتوفَّر بلهب الشموع وعليهم أن  
يسيروا في الظلمة. كان أرسنيو، الذي لم يكن بحاجة إلى النور،  
يمضي في المقدمة ومعه الشمعة الوحيدة المسموح بها كعلامة  
للبقية. كان الإحساس بأنهم دُفنوا أحياءً وأن من الممكن أن يحدث  
انهيار يوحد عليهم المكان للأبد مرعباً. نادراً ما فقد برناردو  
هدوءه، فقد كان معتاداً على الفضاءات الكبيرة وكان يشعر هناك  
بأنه مثل خلد فراح الذعرُ يسيطر عليه. لم يكن باستطاعته أن يتقدَّم

بسرعة أكبر ولا أن يتراجع، كان ينقصه الهواء، فيشعر بالاختناق  
ويعتقد أنه يدوس جرداناً وأفاع. كان واثقاً من أن النفق يضيق  
أحياناً وأنه لن يخرج منه أبداً. كان يشعر عندما يوقفه الخوف بيد  
أخيه على ظهره وبصوته المطمئن يمنحانه الشجاعة. كان زوروا  
الوحيد الذي لم يؤثر عليه ذلك الاحتجاز الإجباري، لأنه كان مشغولاً  
جداً بالتفكير بلوليتا. كانت الكهوف والعممة عناصر الثعلب، تماماً  
كما قالت له البومة البيضاء عند ابتدائه بالتعلم.

بدا لهم طريق النفق طويلاً جداً، على الرغم من أن المخرج لم  
يكن بعيداً عن السجن. لو كان الوقت نهاراً لتمكّن الجنود من رؤيتهم،  
لكن الهاربين في عزّ الليل استطاعوا أن يخرجوا من النفق دون خطر  
أن يشاهدوا، تحميهم الأشجار. خرجوا معفرين بالتراب، متصبين  
عرقاً، متلهّفين لتنفس الهواء النقي. خلع الهنود عنهم أسمال  
السجناء، نفضوا التراب ورفعوا أذرعهم ووجههم عراً إلى السماء  
ليحتفلوا بلحظة حرّيتهم الأولى. وشعروا حين أدركوا أنهم في مكان  
مقدس، بالانتعاش، فقد كان هذا فالاً حسناً. رتّ صفير على صفير  
برناردو وظهر هنود تويبورنيا على الفور يقودون الأحصنة  
المسروقة وأحصنتهم، كان رعدٌ بينها. امتطى الهاربون اثنين على  
كل مطية وتفرّقوا باتجاه التلال. كانوا من أهل المنطقة ويستطيعون  
أن يجتمعوا بقبائلهم قبل أن ينظّم الجنود أنفسهم لإدراكهم. أخذوا  
يفكّرون أن يبقوا بأبعد ما يمكن عن البيض حتى تعود الأمور إلى  
طبيعتها في كاليفورنيا.

نفض زوروا التراب عن نفسه، أسفاً لأنّ بدلته التي اشتراها  
حديثاً من كوبا قد اتسخت. وهناً نفسه لأنّ الأمور جاءت أفضل مما  
خطّط. حمل أرسنيو الرجل الذي جُلِدَ على كفل جواده، وسوى  
برناردو وضع أليخاندرو على حصانه وجلس خلفه كي يسندّه. كان  
طريقُ الجبل وعرّاً وعليهم أن يقطعوا الجزء الأعظم منه ليلاً. وكان  
الهواء البارد قد ذهب بوهن العجوز، الذي أعادت إليه فرحته بروية

ابنه الأمل من جديد. أكد له برناردو أن تويبورنيا والبومة البيضاء  
سيعتنيان به حتى يصبح بمقدوره العودة إلى مزرعته.

في هذه الأثناء كان زورو يخبّ على رعيه باتجاه بعثة سان  
غابرييل.

أمضى الأب مندوثا عدّة ليالٍ وهو يتقلّب في سريره دون أن  
يستطيع النوم. قرأ وصلى دون أن يعثر على السكينة لروحه التي  
فقدتها منذ أن اكتشف فقدان أشياء من الديماس وثوبه البديل. لم  
يكن عنده غير اثنين، يبدلها كل ثلاثة أسابيع كي يغسلها، وهما من  
الاستعمال والتمزق بحيث أنه لم يستطع أن يتخيل من هو الذي  
وسوست له نفسه بأخذ واحد منهما. أراد أن يُعطي اللصّ فرصة  
لإعادة الثوب المسروق، لكنّه لم يعد باستطاعته أن يؤجّل قراره  
بالتحرّك. كانت فكرة أن يجمع معتقيه الجدد ويلقى عليهم عظة  
حول الوصيّة الثالثة والتأكد من المسؤول يؤرّقانه. كان يعلم أن  
ناسه معوزين جداً، وليست تلك هي اللحظة المناسبة لفرض العقوبات  
عليهم، لكنّه لا يستطيع أن يمرّر هذا الإثم. لم يفهم لماذا وبدل أن  
يسرقوا طعاماً أخذوا الحبال ونترات الزنك وثوبه الكهنوتي؛ لم يكن  
للمسألة معنى. كان قد تعب من كثرة ما عارك وعمل وعاش الوحشة  
فعظامه وروحه تؤلمانه. والأزمة قد تبدّلت إلى حدّ أنه لم يعد يعرف  
العالم، فالجشع هو الذي يسود، وما عاد أحد يتذكّر تعاليم المسيح،  
ما عاد أحد يحترمه، ما عاد يستطيع حماية معتقيه الجدد من  
تمادي البيض. كان يتساءل أحياناً عمّا إذا لم يكن الهنود أفضل  
حالاً في السابق، حين كانوا ملاك كاليفورنيا ويعيشون على هواهم  
بعاداتهم وآلهتهم، لكنّه سرعان ما كان يرسم الصليب ويستغفر الله  
على مثل ذلك الكفر. «إلى أين سيصل بنا الأمر إذا كنتُ أنا نفسي أشكُّ  
بالمسيحيّة!»، كان يتنهد نادماً.

لقد تدهور الوضع كثيراً بعد وصول رافائيل مونكادا، الذي

كان يمثل أسوأ ما في الاستعمار: جاء ليشكل ثروة سريعة ويذهب بأسرع ما يمكن. فالهنود بالنسبة إليه بهائم حمولة. مرّ المبشر، خلال السنين التي تزيد عن عشرين عاماً في سان غابرييل، بلحظات حرجة - زلازل، أوبئة، قحط بل وهجوم هنود - لكنه لم يفقد معنوياته قط، لأنه كان واثقاً من أنه يقوم بدوره المقدس. والآن صار يشعر أنّ الله قد تخلى عنه.

خيم الليل فأشعلوا المشاعل في الفناء. كان الأب مندوثا، بعد يوم من العمل الشاق، قد شمر عن ساعديه وهو يتصبّب عرقاً وراح يقطع الحطب للمطبخ. كان يرفع الفأس بصعوبة، فهي في كل يوم تبدو له أثقل والخشب أقسى. وهنا شعر بخيب جواد. استراح وضبط نظره، الذي لم يعد كما كان من قبل، متسائلاً من هو القادم بتلك السرعة في تلك الساعة من المساء. وحين اقترب الفارس وجد أنه لابد لهذا الرجل الذي يرتدي الأسود ويغطي وجهه بقناع أن يكون لصاً؛ فذب صوت الاستنفار كي يهرع النساء والأطفال للاختباء ثم سارع لمواجهة الفأس في يديه والصلاة على شفتيه، إذ لم يكن هناك وقت ليذهب للبحث عن بندقيته القديمة. لم ينتظر المجهول وقوف جواده كي يقفز إلى الأرض منادياً المبشر باسمه.

- لا تخف، يا أبانا مندوثا، فأنا صديق!

- إذا فالقناع زائد. اسمك، يا بُني - ردّ الكاهن.

- زوروا. أعرف أنه يبدو لك غريباً لكن الأغرب هو ما سأقوله لك، يا أبانا. لنذهب إلى الداخل من فضلك.

قاد المبشر المجهول إلى المصلّى وهو يفكر أنه سيتمتع هناك بالعناية السماوية، وسيستطيع أن يقنعه أنه لا يوجد هناك شيء له قيمة. بدا الشخص خجولاً، يحمل سيفاً، ومسدساً وسوطاً، كان مسلحاً للحرب، لكنّ عليه علائم مألوفة بشكل غامض. أين سبق وسمع ذلك الصوت؟ فزوروا بدا بالتأكيد أنه ليس لصاً وسرعان ما أكد له شكوكه حول استغلال مونكادا والكاثار للؤلؤ. شرعياً لم يكن

مة البيضاء

بعثة سان

ه دون أن

روحه التي

البديل. لم

وهما من

هو الذي

صنّ فرصة

جل قراره

ليهم عظة

ي علم أنّ

العقوبات

وبدل أن

ي؛ لم يكن

الوحشة

يعد يعرف

المسيح،

الجدد من

ود أفضل

سي هواهم

ستغفر الله

فسي أشك

نادا، الذي

من حقهم إلا العشرة بالمئة والباقي للخزينة الإسبانية. كانوا  
يستخدمون الهنود عبيداً، واثقين من أنه ما من أحد، باستثناء الأب  
مندوثا، سيتدخل في الأمر.

- ليس عندي من ألجأ إليه، يا بُني. فالحاكم الجديد رجل  
ضعيف ويخاف من مونكادا - تعلل المبشر.

- إذن عليك أن تلجأ إلى السلطات في المكسيك وإسبانيا،  
يا أبانا.

- بأي دليل؟ لا أحد سيصدقني، فأنا مشهور بأنني عجوز  
متشدد، مهووس بحياة الهنود الهنيئة.

- هذا هو الدليل - قال زورو واضعاً جورباً ثقيلاً بين يديه.

نظر المبشر إلى المحتوى وأطلق صيحة دهشة حين رأى كومة  
اللؤلؤ.

- بالله عليك، كيف حصلت على هذا، يا بُني؟

- هذا ليس مهماً.

اقترح زورو عليه أن يحمل الغنيمة إلى أسقف المكسيك ويدين  
ما حدث، فهي الطريقة الوحيدة لتحرير المعتنقين الجدد. لو أن  
إسبانيا قررت استغلال محار اللؤلؤ لكانت تعاقبت مع الهنود  
الياكيسيين، كما كانت تفعل في الماضي. بعدها طلب منه أن يبلغ  
دييغو د لايفغا أن والده أصبح طليقاً وفي أمان. علق المبشر بأن ذلك  
الشاب كان مخيباً للأمل، ولا يبدو أنه ابن أليخاندرو وريخينا، فقد  
كانت تنقصه الرجولة. وطلب من الزائر مجدداً أن يكشف له عن  
وجهه، وإلا فلن يستطيع أن يثق بكلامه، إذ يمكن أن يكون ذلك فخاً.  
رد عليه الآخر بأن هويته يجب أن تبقى سرية، لكنه وعده أنه لم يعد  
وحيداً في إصراره على الدفاع عن الفقراء، لأنه منذ تلك اللحظة  
سيسهر بنفسه على العدالة. أطلق الأب مندوثا ضحكة عصبية؛  
فالرجل يمكن أن يكون مجنوناً فالتأ من عقاله.

- شيء أخير، يا أبانا... كيس جلد الأيل هذا فيه مئة وثلاث  
لآلى، وهي أنعم من البقية، وتعادل ثروة. هي لك. ليس عليك أن  
تذكرها لأحد، أوكد لك أن الشخص الوحيد الذي يعرف بوجودها لن  
يجرؤ على السؤال عنها.

- أتصور أنها مسروقة.

- نعم، هي كذلك، لكن العدل يقتضي أن تكون لمن أخرجها من  
البحر بآخر نفس عنده. أنت ستعرف كيف تحسن استخدامها.

- إذا كانت ملكاً حراماً، فأنا لا أريد أن أراها، يا بني.

- ليس عليك أن تفعل، يا أبانا، لكن خبئها - رة زورو بغمزة  
تواطؤ.

خبأ المَبَشِّرُ الكيسَ في طياتِ دثاره ورافق الزائر إلى الفناء،  
حيث ينتظره الجواد الأسود البهي، مُحاطاً بأطفال البعثة. امتطى  
الرجلُ جواده وجعله يقفز صافراً له ليُفرح الصغار، ثم جرّد سيفه  
ليلمع على ضوء المشاعل وأنشد بعض الأشعار، التي ألفها بنفسه  
خلال أشهر فراغه في نيو أورليانز، وتتعلق بفارس شجاع يخرج  
في الليالي المقمرة للدفاع عن العدالة، ومعاقبة الأشرار ورسم  
حرف Z بسيفه. تفصيل الأغنية فتن الأطفال لكنه زاد من خوف الأب  
مندوثاً من أن يكون هذا العنصر مجنوناً. أطلقت إيزابيل ونوريا،  
اللتان كانتا تقضيان معظم النهار محبوستين في غرفتهما تخطيان،  
على الفناء في اللحظة التي لمحتا فيها صورة الغندور وهو يقوم  
بوثبات فوق جواده الأسود، قبل أن يختفي. تساءلتا من يكون ذلك  
الشخص اللافت للانتباه فردَّ الأب مندوثاً أنه إذا لم يكن شيطاناً، فهو  
ملاك أرسله الرب كي يدعم إيمانه.

عاد ديفغو د لا بغا إلى البعثة في تلك الليلة يطوه الغبار ويحكي  
أنه اضطر لقطع رحلته، لأنه أوشك أن يموت على يد بعض قطاع  
الطرق. رأى من بعيد شخصين مريبين يقتربان، فخرج عن الطريق

الملكى كى يتحاشاهما وراح يخبّ باتجاه الغابات لكنّه ضاع. قضى الليل متقوقعاً تحت الأشجار، فى منأى عن اللصوص، لكنّه كان تحت رحمة الدببة والذئاب. عند الفجر استطاع أن يهتدى وقرّر العودة إلى سان غابرييل، فقد كان من التهور أن يتابع الطريق وحده. كان قد خبّ النهار كله دون أن يذوق طعاماً، وبدأ ميتاً من التعب ورأسه يؤلمه. سيخرج إلى مونترى خلال عدّة أيام، لكنّه سيذهب هذه المرّة حسنّ التسلّح ومعه موكب حماية. فأبلغه الأبّ مندوثا أنّه لم يعد هناك حاجة لكى يذهب لمقابلة الحاكم، لأنّ السيّد ألخاندرو د لايفا قد خلّصه من السجن باسلاً مجهول. ولم يبق أمام ديفغو غير أن يستعيد أملاك العائلة. وسكت على شكوكه بأن يكون ذلك الشابّ الأنيق الموسوس قادراً على فعل ذلك.

- من أنقذ أبى؟ - سأل ديفغو.

- كان يسمّى نفسه زورو ويضع قناعاً - قال المبشّر.

- قناع؟ تراه قاطع طريق؟ - استقصى الشابّ.

- أنا أيضاً رأيت هذا، يا ديفغو، ولم يكن فيه ما ينقصه كى يكون لصاً. لا أقول لك كم كان وسيماً وأنيقاً! ثمّ إنّ كان يمتطي جواداً لا بدّ أنّه كلّفه غالياً - تدخلت إيزابيل، متحمّسة.

- أنت دائماً عندك فائض من الخيال - ردّ هو.

قاطعتهم نوريا كى تعلن عن العشاء. أكل ديفغو فى تلك الليلة بنهم، على الرغم من كثرة الفتات البارز، وأخيراً هنأ القهرمانه التى حسّنت الوجبات فى البعثة. انهالت عليه إيزابيل بأسئلتها التى لم تعرف الرحمة، تريد أن تعرف لماذا لم تصل خيوله متعبة، وكيف هو مظهر اللصوص، والوقت الذى قضاه فى الذهاب من نقطة إلى أخرى، وما السبب الذى منعه من النزول ضيفاً على بعثات أخرى، التى تقع على مسافة يوم واحد فقط من الطريق. لم يلتقط الأبّ مندوثا، الغائص فى أفكاره، اعتبارية الأجوبة، فقد كان يأكل بيد



ويتحسس بالأخرى كيس اللآلئ، مُقدراً أن ثمنها يمكن أن يعيد إلى البعثة رغدها السابق. تراه ارتكب إثماً بقبول تلك اللآلئ الملطخة بالعذاب والجشع؟ لا. لا إثم إطلاقاً، لكنها يمكن أن تجلب له سوء الطالع... ابتسم حين تأكد أنه أصبح مع مرور الزمن أكثر إيماناً بالخرافات.

وصل رافائيل مونكادا وكارلوس ألكاثار، على رأس عددٍ من الجنود، بينهم الرقيب البدين غارثيا بعد يومين، بعد أن أرسل الأب مندوثا رسالة حول اللآلئ إلى المكسيك، وراح يجهز أمتعته للسفر مع ديبغو. كان ألكاثار يزهو بجرح قبيح على خده، شوّه وجهه، وجاء قلقاً لأنه لم يستطع أن يقنع شريكه بالطريقة التي تبخرت بها اللآلئ. لم تكن الحقيقة تُفیده في تلك الحالة، لأنها ستكشف دوره البائس في الدفاع عن السجن والغنيمة. فضل أن يقول له إن خمسين هندياً أشعلوا سجن الشيطان بينما عصابة من قطاع الطرق بإمرة مقنّع يرتدي السواد، قدّم نفسه على أنه زوروا، دخلوا البناء. وبعد معركة قاسية، هو نفسه جرح فيها، تمكّن المهاجمون أن يحجموا الجنود ويأخذوا اللآلئ. وخلال حالة الفوضى هرب السجناء. كان يعرف أن مونكادا لن يرتاح له بال حتى يعرف الحقيقة ويعثر على اللآلئ. السجناء الفارّون ليسوا بالمهمّين، فاليد العاملة من السكان الأصليين فائضة لتحلّ محلّهم.

الشكل الغريب لجرح ألكاثار - حرف Z كامل - ذكره بمقنّع، ينطبق وصفه على زوروا، رسم حرفاً مشابهاً في مسكن الشافالير دوشامبّ وفي ثكنة في برشلونة. في كلا الحالتين كانت الذريعة تحرير بعض السجناء، كما في سجن الشيطان. كما أنه في الحالة الثانية تجرّأ على استخدام اسمه واسم خالته إيولاليا. أقسم أنه سيجعله يدفع ثمن تلك الأهانة، لكنهم لم يتمكنوا قط من الإمساك به. ووصل إلى الاستنتاج الوحيد الممكن: ديبغو لا يفا كان في برشلونة في الوقت الذي رسم فيه شخص ما حرف Z على الجدران،

وما إن نزل في كاليفورنيا حتى رسموا الحرف ذاته على خذ الكاثر. لم تكن مصادفة بسيطة. فزوروا هذا لا يمكن أن يكون إلا ديفو. كان يصعب تصديق ذلك، لكنها حجة لجعله يدفع ثمن الإزعاجات التي سببها له. جاء على جواده بسرعة الموت، لأنه فكر أن صيده يمكن أن يكون قد هرب، لكنه وجد ديفو جالساً تحت عريشة يشرب عصيراً ويقرأ شعراً. أمر الرقيب غارثيا باعتقاله، واستعد البدين المسكين الذي كان ما يزال معجباً بديفو الإعجاب ذاته غير المشروط الذي كان يوليه إياه في طفولته، مكرهاً لإطاعته، لكن الأب مندوثا تذرّع بأن المقنع الذي كان يقول إنه زوروا لا يشبه ولا حتى من بعيد ديفو بل لا يغا. ساندته إيزابيل قائلة: ولا حتى الغبي يمكن أن يخلط بين هذين الرجلين، فهي تعرفه كما تعرف أخاها، وقد عاشت معه خمس سنوات، كان فتى طيباً، مسالماً، عاطفياً وسقيماً، ليس فيه من اللص شيء، فكيف من البطل.

- شكراً - قاطعها ديفو، مهاناً، لكنه لاحظ أن عين صديقه التائهة كانت تدور مثل مثل خذروف.

- زوروا ساعد الهنود، لأنهم أبرياء، وأنت تعرف هذا جيداً مثلي، يا سيد مونكادا. لم يسرق اللآلي، أخذها فقط للبرهنة على مايجري في الشيطان - قال المبشر.

- عن أية لآلي تتكلم؟ - قاطعه كارلوس الكاثر، متوتراً جداً، لأنه حتى تلك اللحظة لم يكن هناك من أحد يذكرها، وهو يجهل كم كان القس يعرف عن احتيالاته.

اعترف الأب مندوثا أن زوروا سلمه الكيس وكلفه بالذهاب إلى محاكم المكسيك. أخفى رافائيل مونكادا تنهيدة ارتياح: كانت استعادة كنزه أسهل مما هو متصور. هذا العجوز المضجك لم يكن يشكّل مشكلة، ويستطيع أن يمحوه من الخريطة بنفخة، فهناك أحداث مؤسفة تحدث في كل لحظة. شكره، تعلوه ملامح القلق، على شطارته في استعادة اللآلي وحرصه على العناية بها، ثم طلب منه أن يسلمها

إليه فهو سيأخذ الأمر على عاتقه. إذا كان كارلوس الكاثار، كرئيس للسجن، قد ارتكب خروقات، فهو سيتخذ بحقه الإجراءات المناسبة، فليس هناك من داع لإزعاج أحد في المكسيك. اضطر القس للإذعان. لم يجروا على اتهامه بالتواطؤ مع الكاثار، لأن أية خطوة ناقصة ستكلفه أكثر مما كان يهمله في هذا العالم: بعثته. فأحضر الجورب ووضعها على الطاولة.

- هذا ملك إسبانيا، وقد أرسلت رسالة إلى رؤسائي وسيكون هناك تحقيق بهذا الخصوص - قال القس.

- رسالة؟ لكن السفينة لم تصل بعد... - تدخل الكاثار.

- لدي وسائل أخرى، أسرع وأضمن من السفينة.

- هل فيها جميع اللآلي؟ - سأل مونكادا، منزعجاً.

- وكيف يمكنني أن أعرف؟ أنا لم اكن موجوداً عندما أُخرجت. ولا أدري كم كان هناك أصلاً. وحده كارلوس يستطيع أن يجيب على هذا السؤال - ردّ المبشر.

زادت هذه الكلمات الشكوك التي يشعر بها مونكادا تجاه شريكه. فأخذ المبشر من ذراعه وحمله بعنف أمام الصليب الذي كان موجوداً فوق رفّ على الجدار.

- أقسم أمام صليب ربنا أنك لم تر لآلي أخرى. إذا كذبت أدينت روحك بالجحيم - أمره.

ساد الغرفة صمت مشؤوم، جميعهم حبسوا أنفاسهم، فتجمّد حتى الهواء. أفلت الأب مندوثا شاحباً بعنف من البراشن التي كانت تشله.

- كيف تجروا! - تمتم.

- أقسم! - ردّ الآخر.

تقدّم ديبغو وإيزابيل كي يتدخلا، لكن الأب مندوثا أوقفهما بإيماءة، ووضع ركبته على الأرض، ويمناه على صدره وعيناه على

المسيح المنحوت من الخشب بأيدٍ هندية. كان يرتعش من الرهبة والغضب من العنف الذي أخضع له، لكنّه لم يكن يخاف من الذهاب للاستقرار في الجحيم، على الأقل لهذا السبب.

- أقسم أمام الصليب أنني لم أرَ لآلئٍ أخرى. ولتعاقب روعي إن كنتُ أكذب - قال بصوت ثابت.

وقفة طويلة لم يقل فيها أحد كلمة واحدة، والصوت الوحيد كان تنهيدة الارتياح التي أطلقها كارلوس الكاثار، الذي لم تكن حياته تساوي سنتيماً واحداً إذا ما علم رافائيل مونكادا أنّه أبقى لنفسه أفضل ما في الغنيمة. افترض أنّ كيس الجلد كان في حوزة المُقنّع، لكنّه لم يدرِ لماذا سلّم هذا بقيّتها للقسّ، إذا كان يستطيع أن يبقيها كلّها لنفسه. تكهن ديبغو بأفكاره فابتسم له، متحدّياً. كان على رافائيل مونكادا أن يقبل قسّم الأب مندوثا، لكنّه ذكر الجميع أنّه لا يعتبر القضية منتهية حتى يُعلق المسؤول إلى المشنقة.

- يا غارثيا، اعتقل رِ لايفغا! - كرّر رافائيل مونكادا.

جفّف البدين جبينه بكمّ بدلته واستعدّ لتنفيذ فعلته مُكرهاً.

- آسف - تتمم، وهو يشير إلى جنديين أن يأخذاه.

وقفت إيزابيل في وجه مونكادا، قائلة له إنّهُ لا توجد أدلّة ضدّ صديقها، لكنّه أبعدّها بدفعة فظة.

قضى ديبغو الليلة محبوساً في إحدى غرفِ الخدمة القديمة في المزرعة التي وُلِد فيها. راح يتذكّر حتى الشخص الذي كان يشغلها يومَ كان يعيشُ هناك مع والديه، وهي هندية مكسيكية اسمها روبرتا، نصف وجهها محروق بحادث قدر شكوكولا كانت تغليه. ترى ماذا عنها؟ ومع ذلك لم يكن يتذكّر أنّ تلك الغرفة كانت شديدة البؤس، مكعبات بلا نوافذ، أرضها ترابية وجدرانها من اللبن غير المدهون وكانت مفروشة بدكّات من القشّ وكرسيّ وصندوق خشبيّ كبير في كلّ منها. فكّر، هكذا قضى برناردو طفولته، بينما كان هو

ينام على بعد أمتار قليلة في سرير من البرونز بستار من التفتة  
لحمايته من العنكبوت في غرفة ممتلئة بالألعاب. كيف لم يلحظ ذلك  
وقتذاك؟ كانت الدار مقسومة بخيط غير مرئي يفصل مجال العائلة  
عن عالم الخدم المُعقَّد. كان الأول فسيحاً وفاخراً مزخرفاً على  
الطراز الاستعماري. كان أعجوبة في التنظيم والهدوء والنظافة،  
تفوح منه رائحة باقات الزهر وتبع والده. بينما يضجُّ الآخر بالحياة:  
الثرثرة التي لا تنقطع، الحيوانات المنزلية، الشجارات والعمل. هذا  
الجانب من الدار كانت تفوح منه رائحة الفلفل الحار المسحوق  
والخبز الطري والثياب المتقوعة في ماء القلى والقمامة. كانت  
شرفات العائلة بزليجها الملون ونباتات الجهنمية والنوافير جنة  
برطوبتها، بينما فناءات الخدم يملؤها الغبار صيفاً والوحل شتاءً.

قضى ديبغو ساعات لا نهاية لها على نضيدة الأرض، يتصبَّب  
عرق أيتار، بلا نور طبيعي، ينقصه الهواء، وصدرة يضطرم. لم يكن  
يستطيع أن يُقدِّر الوقت، لكنَّه شعر أنَّه بقي هناك عدَّة أيَّام. كان فمه  
جافاً وخاف أن تكون خطَّة رافائل مونكادا أن يهزمه بالعطش  
والجوع. كان يُغمض عينيه بين برهة وأخرى ويُحاول أن ينام، لكنَّ  
وضعه كان غير مريح إطلاقاً. لم يكن هناك فسحة لأكثر من  
خطوتين، وراح يشعر بتشنج في عضلاته. تفحص الغرفة شبراً  
فشبراً، باحثاً عن طريقة للخروج لكنه لم يعثر عليها، فالباب كان  
موصداً بعارضة حديدية من الخارج، لا يستطيع حتى غالييليو  
تمبستا نفسه أن يفتحه من الداخل. حاول أن يزيح عوارض السقف،  
لكنَّها كانت مدعَّمة، بدا واضحاً أن المكان يُستخدم كزنزانة. بعد  
وقت طويل فُتح باب قبره وظهر وجه غارثيا المتورِّد في العتبة.  
وقدَّر ديبغو على الرغم من الوهن الذي كان يشعر به أنَّه يستطيع أن  
يُخيف الرقيب الطيب بحدِّ أدنى من العنف، مستخدماً الضغط على  
العنق، الذي علَّمه إياه المُعَلِّم إسكالانت حين كان يُدرِّبه على  
مصارعة أعضاء العدالة، لكنَّه لم يكن يريد أن يُسبِّب لصديقه القديم  
مشاكل مع مونكادا. ثمَّ إنَّه لا يستطيع أن يخرج بهذه الطريقة من

الزنزانة، لأنه لا يستطيع أن يهرب من المزرعة؛ فقد كان من الأفضل له أن ينتظر. وضع البدين إبريق ماء وقصعة صغيرة فيها فاصولياء وأرز على الأرض.

- كم الساعة، يا صديقي؟ - سأله ديبغو، متظاهراً بالمزاج الحسن الذي كان بعيداً عن الشعور به.

أجابته غارثيا بإيماءة من وجهه وحركات من أصابعه.

- أتقول إنها التاسعة من صباح الثلاثاء؟ هذا يعني أنني قضيت هنا ليلتين ونهاراً. آه كم نمت جيداً! هل تعلم ما هي نوايا مونكادا؟ نفي غارثيا برأسه.

- ماذا بك؟ هل عندك أوامر بالآ تتكلم؟ حسناً، لكن أحداً لم يقل لك ألا تُصفي إليّ، أليس صحيحاً؟  
- هم - وافق الآخر.

تمطى ديبغو، تثائب، شرب الماء وتذوّق بنهم الطعام الذي بدا له لذيذاً كما علق قائلاً لغارثيا، بينما كان يتحدث عن الأزمنة الماضية: مغامرات الطفولة الرائعة، الشجاعة التي أظهرها غارثيا دائماً حين واجه الكاثر وأمسك بدبّ حيّ. لقد كان بحق محط إعجاب أولاد المدرسة، هكذا ختم قوله. لكن الأمر لم يكن كذلك، كما كان يتذكّر الرقيب تلك المرحلة، إلا أن تلك الكلمات وقعت عليه مثل البلسم على الروح المقروحة.

- باسم صداقتنا، يا غارثيا، عليك أن تُساعدني للخروج من هنا - ختم ديبغو.

- بوذي ذلك، لكنني جنديّ والواجب قبل أيّ شيء - ردّ الآخر هامساً ونظر من فوق كتفه كي يتأكد أنه ما من أحد يسمعه.

- لن أطلب منك قط أن تخلّ بواجبك، أو أن ترتكب عملاً غير شرعيّ، يا غارثيا، لكن لا أحد يستطيع أن يحمّلك المسؤولية إذا ما بقي الباب غير موصل جيداً.

لم يكن هناك وقت لمتابعة الحديث، فقد وصل جندي ليُعلم الرقيب أنّ السيّد مونكادا ينتظر السجين. سوى سترته، وأبرز صدره وضرب كعباً بكعبٍ بطريقة عسكرية، لكنه غمز ديبغو. رفعاً الموقوف من ذراعيه وقاده إلى القاعة الرئيسيّة: يستدانه وهو لا يكاد يقوى على الوقوف حتى استطاع أن يثبت على ساقيه المنمّلتين من عدم الحركة. تأكّد ديبغو بحزن مرّة أخرى من التغييرات، كان لمنزله مظهر ثكنة. أجلساه على أحد كراسي القاعة وربطوه من صدره إلى ظهره ومن رسغيه إلى ساقيه. انتبه إلى أنّ الرقيب كان يقوم بواجبه نصف قيام، فالربط لم يكن جيّداً وبقليل من الحيلة يستطيع أن يفلت، لكن كان هناك جنود في كل مكان. «أحتاج سيفاً» همس لفارثيا في لحظة ابتعد فيها الجندي الآخر خطوتين عنه. كان البيدين يختنق رعباً أمام مثل ذلك الطلب، فديبغو كانت تفلت منه يده فكيف سيعطيه سلاحاً في مثل تلك الظروف؟ سيكلفه عدّة أيام في الأغلال وخدمته العسكرية. ربت على كتفه بحنان وذهب مطرقاً يجر جر قدميه بينما الحارس يقف في زاوية ليراقب الأسير.

بقي ديبغو في الكرسي أكثر من ساعتين، استخدمهما كي يُخرج يديه بحذر من الحبال، لكنه لم يكن باستطاعته أن يفك رسغيه دون أن يلفت انتباه الجندي، الخلاسي الجامد مثل تمثال أثينيكي. حاول أن يجذبه إليه متظاهراً بأنه يختنق من السعال، ثمّ رجاه أن يعطيه سيجاراً، وكأس ماء، ومنديلاً، لكن ليس هناك من طريقة لجعله يقترب. كان جوابه الوحيد أنّه أعدّ سلاحه بسرعة وراح يراقبه بعينيه الحجريتين الصغيرتين، اللتين لا تكادان تظهران فوق وجنتيه البارزتين. خلص ديبغو إلى أنّه إذا كانت تلك هي استراتيجية مونكادا كي يكسر عينه ويلين إرادته، فهي تعطي نتائجها الحسنة.

أخيراً دخل رافائيل مونكادا عند منتصف المساء، طالباً العذر لأنّه أزعج شخصاً برقة ديبغو. فليس هناك ما هو أبعد عن نفسه من

أن يجعله يمرّ بلحظة سيئة، لكن ونظراً للظروف لم يكن باستطاعته أن يتصرف بطريقة أخرى. هل كان ديفغو يعرف كم قضى محبوساً في غرفة الخدم؟ تماماً الوقت ذاته الذي قضاه هو في غرفة توماس دي رومو السريّة، قبل أن تأتي خالته لنجدته. ورغم أنّه كان يعتبر نفسه مرحاً، إلا أنّ تلك المزحة بدت ثقيلة قليلاً. في جميع الأحوال، يشكره لأنّه حرّره من خوليانا، فالزواج من امرأة أدنى مستوى منه كان ولا شك سيدمر سيرته، كما حدّثته مرّات كثيرة خالته. لكنه في جميع الأحوال لم يكن هناك ليتكلّم عن خوليانا، فهذا فصل مغلّق. كان يفترض أنّ ديفغو - أم أنّ عليه أن يُناديه زوروا؟ - يرغب بأن يعرف المصير الذي ينتظره. فهو مجرم من عيار والده، ألخاندرو دي لايفغا، وهذا العجين من هذا الطحين. سيلقون القبض على العجوز، هذا ما لا شك فيه، وسيجفّ في الزنزانة. وليس هناك ما يمتعه أكثر من شنق زوروا بيديه، لكن ليس هذا دوره، أضاف. سيُرسله إلى إسبانيا، مصفداً بالأغلال وتحت حراسة صارمة، حيث يُحاكم في المكان ذاته الذي بدأ فيها حرفة الجريمة، وترك أدلّة كافية لإدانتته. في حكومة فرناندو السابع كان يُطبّق ثقل القانون بالقوّة المناسبة وليس كما في المستعمرات، حيث السلطة نكته. وستُضاف إلى الجرائم المرتكبة في إسبانيا جرائم كاليفورنيا: فهو قد اقتحم سجن الشيطان، وأحدث حريقاً، ودمّر ممتلكات للمملكة، وجرح عسكرياً وتأمّر لتهريب السجناء.

- أفهم أنّ الشخص المدعو زوروا هو مرتكب هذه الأعمال. وأعتقد أيضاً أنّه سطا على بعض اللآلئ. أم أنّ سعادتك لا تفضل الكلام عن هذا الموضوع؟ - ردّ ديفغو.

- زوروا هو أنت، يا دي لايفغا!

- بوذي لو أكونه، يبدو الرجل مذهلاً، لكنّ صحّتي الضعيفة لا تسمح لي بمثل هذه المغامرات. فأنا أعاني من الربو وآلام الرأس وخفقان القلب.



وضع رافائيل مونكادا أمام أنفه وثيقة مكتوبة بخط يده، لعدم وجود كاتب بالعدل، وطلب منه أن يطبع عليها اسمه. احتج السجين بأن من التهور التوقيع على شيء لا يعرف مضمونه. فهو لا يستطيع قراءتها في تلك اللحظة لأنه مصاب بقصر النظر، ونسي نظارته وهذا اختلاف آخر عن زورو، الذي يُعزى له حسن التصويب بالسوط والخفة بالسيف. وأضاف: ما من أعمى يملك تلك المهارات.

- كفى! صاح مونكادا وارباً وجهه بصفعة.

كان ديبغو ينتظر رداً عنيفاً، لكن أيضاً كان عليه أن يقوم بجهد هائل كي يضبط أعصابه ولا يقفز على مونكادا. لم تحن بعد فرصته. أبقى على يديه في الخلف، ممسكاً بالحبال بينما راح الدم النازف من أنفه وفمه يُلطخ قميصه. دخل في تلك اللحظة الرقيب غارثيا، الذي توقّف جامداً حين رأى رفيق طفولته في تلك الحالة، دون أن يدري مع من يقف. أخرج صوت مونكادا الأمر من صعقته.

- لم أنادك، يا غارثيا!

- يا صاحب السعادة... ديبغو د لا بغا بريء. قلت لكم إنه لا يمكن أن يكون زورو! لقد شاهدنا الحقيقي للتو في الخارج... -  
تلعثم الرقيب.

- أي هراء تقول، يا رجل؟

- الحقيقة، يا صاحب السعادة، جميعنا رأيناها.

خرج مونكادا مثل شهاب، يتبعه الرقيب، لكن الحارس بقي في القاعة مسدداً سلاحه على ديبغو. ورأى مونكادا لأول مرة صورة زورو المسرحية، مرتسمة بنقاء على خلفية السماء البنفسجية فسألته المفاجأة لثوان.

- اتبعوه، يا بلهاء! - صرخ وهو يُخرج مسدسه من غمده ويرمي

دون تسديد.

طار بعض الجنود بحثاً عن جيادهم وأطلق بعضهم نيران أسلحتهم، لكنّ الفارس راح يعدو مبتعداً. قفز الرقيب، الأكثر اهتماماً من أي شخص آخر بالكشف عن هويّة زورو، فوق جواده بخفة غير متوقّعة، لكزه بمهمازيه وانطلق يتبعه ستّة من رجاله. ضاعوا وهم يحدّون باتجاه الجنوب مجتازين هضاباً وغيابات. ومع أنّ المقنّع كان يتفوّق عليهم بمعرفة الأرض، راحت المسافة بينه وبين المجموعة تتناقص. بعد نصف ساعة من العدو، حين بدأت الخيول تتصبّب زبداً كانت الشمس قد غابت والجنود على وشك أن يدركوه، وصلوا إلى الجرف: صار زورو محصوراً بينهم وبين البحر.

في هذه الأثناء بدا لدييفو في قاعة المنزل أنّ باب المدخنة المموّه ينفتح. لا يمكن أن يكون غير برناردو، الذي تدبّر أمره بطريقة ما كي يعود إلى المزرعة. كان يجهل ما جرى في الخارج، لكنّه تصوّر من خلال شتائم مونكادا والصياح وصوت الطلقات واضطراب الخيول، أنّ أخاه تمكّن من تشويش العدو. تظاهر كي يشغل الحارس بنوبة جديدة ورهيبة من السعال، ثمّ اندفع وقلب الكرسي وبقي ملقى على الأرض. وقف الرجل بجانبه وأمره أن يهدأ وإلا طير دماغه، لكنّ دييفو لاحظ أنّ نبرته كانت مترددة، ربّما لم تكن تعليمات التمثال الأثنيكي تتضمّن قتله ولمح بطرف عينه أنّ شبحاً ينفصل عن المدخنة ويقترّب. بدأ يسعل من جديد، وهو يهتزّ كما لو أنّه يختنق بينما الحارس يلكزه برأس سلاحه، لا يدري ما يفعل. أفلت دييفو يديه وناوله ضربة رهيبة على ساقيه، لكنّ الرجل بدا كأنّه قدّ من حجر صلب، لأنّه لم يتحرّك. وهنا شعر الحارس بسبطانة مسدّس في صدغه، ورأى مقنّعاً يبتسم له دون أن ينطق بكلمة.

- استسلم، أيّها الرجل الطيب، قبل أن تفلت طلقة من زورو -  
نصحه دييفو من الأرض، بينما هو يفكّ بسرعة أربطة رسغيه.

نزع زورو الآخر سلاح الجندي وقذف بالبندقية إلى دييفو،

الذي التقطها بامح البصر والتفت بسرعة نحو أشباح المدخنة،  
يودعونه بغمزة تواطؤ. لم يمنح ديفغو الحارس وقتاً كي يرى ما  
كان يحدث خلفه فطرحه أرضاً بضربة جافة من قفا يده على عنقه.  
بقي الرجل دائخاً عدة دقائق، استغلها ديفغو لربطه بالحبال ذاتها  
التي ربطوه بها، بعدها كسر النافذة رفساً، حذراً من ألا يبقى شظايا  
زجاج قاطعة على حوافها، لأنه فكر أن يعود من هناك وانسل عبر  
البوابة السرية الصغيرة للكهف.

عندما عاد رافائيل مونكادا إلى القاعة وجد أن ديفغو قد تبخر  
وأن الرجل المكلف بحراسته يشغل مكانه في الكرسي، والنافذة  
مكسورة وكل ما كان الحارس المخبول يتذكره هو طيف أسود  
وبرد مسدس جليدي في صدغه. «بلهاء، بلهاء لا علاج لكم»، كان  
هذا ما استنتجه مونكادا. في هذه الأثناء كان نصف رجاله يختبئون  
خلف الشبح، بينما هرب سجينه رغماً عن أنفه. على الرغم من كل  
هذا الوضوح بقي مقتنعاً بأن زورو وديفغو لا يبا شخص واحد.

لم يجد ديفغو، كما كان يأمل، برناردو في الكهف، لكنه ترك له  
عدة شموع كبيرة مشتعلة وقناعه وسيفه وجواده. كان الحصان  
رعد ينخر قلقاً، وينفض عرفه الوفير الأسود. «ستعتاد على هذا  
المكان، يا صديقي»، قال له ديفغو وهو يداعب رقبة الحيوان البراقة.  
كذلك وجد دن خمير وخبزاً وجبناً وعسلاً كي يتعافى من اللحظات  
السيئة الماضية. يبدو أن أخاه لا تفوته أدنى التفاصيل. كذلك كان  
عليه أن يُعجب بمهارته بالسخرية من ملاحقة الجنود وبظهوره  
السحري لينقذه في اللحظة المناسبة. بأي أناقة صامته تصرف! لقد  
كان برناردو زورو رائعاً مثله، كلاهما سيكون قاهراً، ختم قائلاً  
لنفسه. لم تكن هناك ضرورة للإسراع بالخطوة التالية، فقد كان  
عليه أن ينتظر الليل المطبق، حين يهدأ الاضطراب في المنزل. قام

بعد تناوله طعامه بعدة تأملات للخروج من خدره واستلقى لينام على  
بعد خطوات قليلة من رعد، بغبطة من قام بعمل صالح.

استيقظ بعد ساعات مرتاحاً وسعيداً فبدّل ثيابه، ووضع قناعه  
بل وتشجّع ووضع الشارب. «إنني بحاجة إلى مرآة، ليس من السهل  
عليّ أن ألصق شعراً من دون أن أرى. لقد حسمتُ أمري، عليّ أن  
أترك شاربي ينمو. هذا الكهف بحاجة إلى بعض وسائل الراحة، التي  
ستسهّل مغامراتنا، ألا ترى ذلك؟» علق قائلاً لرعد. فرك يديه سعيداً  
بإمكانيات المستقبل الهائلة؛ ما دمتُ أملك الصحة والقوة فلن أكلُّ  
أبداً. فكّر بلوليتا فأحسّ بدغدغة في معدته شبيهة بتلك التي كانت  
تثيرها عنده خوليانا، لكنّه لم يربط بينهما. فافتتانه بلوليتا بدا طرياً  
كما لو أنه الأوّل والوحيد في حياته. حذار! عليه ألا ينسى أنّها ابنة  
عمّه كارلوس ألكاثار والسبب نفسه لا يمكن أن تكون خطيبته.  
خطيبة؟ ضحك من كلّ قلبه: لن يتزوَّج أبداً، فالثعالب حيوانات  
مستوحشة.

تأكّد من أنّ سيفه العادل كان ينزلق بسهولة في غمده، سوى  
قبّعته واستعدّ للعمل. قاد رعداً إلى مخرج الكهف، الذي كان برناردو  
دقيقاً في تمويهه بشكل جيّد بالحجارة والحراج. ركبه واتجه إلى  
المزرعة. لم يَبِغ أن يجازف فينكشف أمرُ ممرّ المدخنة السريّ. قدّر  
أنّه نام عدّة ساعات، ولا بدّ أنّ الوقت تجاوز منتصف الليل، ومن  
المحتمل أن يكونوا جميعاً، باستثناء الحراس، نياماً. ترك رعداً  
طليق العنان تحت بعض الأشجار القريبة، واثقاً من أنّه لن يتحرّك  
حتى يناديه، فهو قد تعلّم جيّداً دروس برقي الليل. ورغم أنّهم  
ضاعفوا الحراسة لم يجد صعوبة في الاقتراب من الدار والتجسّس  
من نافذة القاعة الوحيدة التي كان فيها ضوء. على الطاولة كان  
هناك شمعدان بثلاث شموع، يضيء جزءاً منها، بينما البقية كان في  
شبه العتمة. مرّر رجليه بحذر من النافذة المكسورة، دخل إلى الغرفة  
وتخفّى بين الأثاث المصفوف بمحاذاة الجدران، تقدّم من المدخنة،

حيث استطاع أن يتلطى خلف الجذوع الكبيرة. في الطرف الآخر من الغرفة كان رافائيل مونكادا يتمشى مدخناً والرقيب غارثيا واقفاً باستعداد ينظر إلى الأمام، يحاول أن يوضح له ما جرى. كان قد لاحق زورو خبيماً حتى الجرف، كما قال، لكنه حين أوشك على الإمساك به، فضّل اللص أن يقفز إلى البحر على أن يستسلم. ولم يكن قد بقي إلا قليل من النور، ومن المحال الاقتراب من الحافة خشية الانزلاق على الحجارة المزعزعة. أفرغوا، على الرغم من أنهم لم يكونوا يرون قاع الهوة، نيران أسلحتهم، فزورو قُصِف عنقه على الصخور، وتلقى رشقة من الرصاص.

- أبله! - ردّ مونكادا للمرّة العاشرة - لقد تدبّر هذا الرجل أمره ليخدعك وخلال ذلك هرب لي لايفغا.

تراقص سريعاً ارتياح بريء على وجه غارثيا المحمر، لكنه اختفى في اللحظة، مصعوقاً بنظرة أمره الحادة كالسكين.

- غداً تذهب إلى البعثة مع فصيلة من ثمانية رجال مسلحين. إذا كان لايفغا هناك تعتقله، وإذا قاوم تقتله. وفي حال أنه غير موجود تعتقل الأب مندوثا وإيزابيل ورومو على الفور. سيكونان رهيبتين حتى يسلم هذا اللص نفسه. هل فهمت؟

- لكن كيف سنفعل هذا بالأب مندوثا! أفكر أن...

- لا تفكر، يا غارثيا! عقلك لا يستوعب هذا. أطع وأغلق فمك.

- حاضر، يا صاحب السعادة.

من مخبئه المظلم في المدخنة تساءل دييفو كيف تدبّر برناردو أمره كي يكون في مكانين في آن معاً. انتهى مونكادا من شتم غارثيا وصرقه، صبّ لنفسه بعدها كأساً من كونياك ألخاندرو و لايفغا وجلس يتفكر متهزهاً في الكرسي وقدماه على الطاولة. كانت الأمور قد تعقدت، فهناك عقد منفلتة، وعليه أن يُصَفّي عدداً من الأشخاص وإلا فلن يستطيع أن يُحافظ على سرّ اللألي. شرب الكحول

دون سرعة، تفحص الوثائق التي كتبها كي يوقعها ديبغو، وأخيراً  
توجه إلى خزانة ثقيلة وأخرج جورباً. خبت إحدى الشموع ونزل  
الشمع على الطاولة قبل أن يتمكن من إحصاء اللآلي مرة أخرى.  
انتظر زورو برهة مدروسة خرج بعدها من ملاذه بحذرٍ قط. كان قد  
خطأ عدة خطوات ملتصقاً بالجدار حين التفت مونكادا وقد شعر  
بنفسه مُراقباً. وقعت عيناه على الرجل المتخشب في العتمة، دون أن  
يراه، لكن الغريزة نبهته إلى الخطر. أخذ السيف الرقيق بمقبضه  
الفضي وشراباته الحريرية الحمراء، الذي كان يُعلقه إلى الكرسي.

- من هناك؟ - سأل.

- زورو. أظن أن بيننا بعض الأمور العالقة - قال هذا وهو  
يتقدم.

لم يمنحه مونكادا وقتاً كي يتابع، انقض عليه بصرخة كراهية،  
مقرراً أن يخرقه من طرف إلى آخر. تفادى زورو السيف بخطوة  
مصارع ثيران، ولفة دثار ظريفة وابتعد بخطوتين، وهو منحني  
دائماً، ودائماً برشاقة، يمناه على مقبض السيف ويسراه على وركه  
وعينه يقظة وابتسامه تكشف أسنان كثيرة تحت شارب معوج ومع  
الحركة الثانية المتفاداة سحب سيفه من غمده دون استعجال، كما لو  
أن إصرار الآخر على قتله كان إزعاجاً.

- شيء سيء أن تقا تل وأنت في حالة حنق - تحداه.

رداً ثلاث ضرباتٍ وطعنةً بقفا السيف دون عناء، وتراجع كي  
يجعل عدوه يثق بنفسه، وبالفعل عاد هذا وانقض عليه دون تردد.  
اعتلى زورو الطاولة بقفزة واحدة ودافع عن نفسه من فوقها، يكاد  
يرقص بين طعنات مونكادا العميقة، التي كان يمرُّ بعضها بين ساقيه  
ويتفادى بعضها الآخر قافزاً أو موقفاً إياها بقوة كانت تجعل  
الحديد يقدح ناراً. نزل عن الطاولة وابتعد قافزاً فوق الكراسي،  
يلاحقه عن قرب مونكادا وهو في كل مرة أكثر حنقاً. كان يُشير

قائلاً له: «لا تتعب نفسك، فهذا يُضِرُّ بالقلب». كان زورو يختفي برهة في عتمة الزوايا، التي لا يصلها ضوء الشمعتين الواهن، لكنه وبدل أن يستغل تفوقه كي يُهاجم غدرًا، راح يظهر في جانب وآخر، مستدعيًا خصمه بالصفير. كان مونكادا يسيطر جيّدًا على سيفه ولو كان في معركة رياضية لأجهد أيّ خصم بالتأكيد، لكنّ حقداً أعمى كان يُفقدُه بصيرته. لم يكن يستطيع أن يتحمّل هذا المُتهوّر، الذي يتحدّى سلطته، ويخرق النظام والقانون. عليه أن يقتله قبل أن يحطّم أكثر ما كان يُقدّره: الامتيازات التي هي حقّ له بالولادة.

استمرّت المبارزة، واحد يهاجم بغضب يائس والآخر يتفاداه بخفة ساخرة، وحين أصبح مونكادا جاهزاً لطعن زورو على الجدار، راح هذا يتدحرج على الأرض وينتصب بوثبة بهلوان على بُعد ذراعين. أدرك مونكادا أخيراً أنّه لا يكسب، بل يخسر فشرع يطلق أصواتاً منادياً رجاله. عندها أنهى زورو لعبه. وبثلاث قفزات طويلة أدرك الباب وأدار المفتاح مرّتين قافلاً إيّاه بيديّ، ومُبقياً على عدوّه على الحدّ بيده الأخرى. ثمّ نقل السيف على الفور إلى اليسرى، الحيلة التي كانت تربك الخصم دائماً، على الأقلّ لبضع ثوان. قفز من جديد إلى الطاولة وتعلّق من هناك بثريا السقف الحديدية، الموجودة هناك منذ بناء المنزل وتأرجح، ساقطاً خلف مونكادا وسط همرة من مئة وخمسين شمعة مغبرة فوجد مونكادا نفسه أعزل ورأس سيف آخر في نقرته قبل أن ينتبه إلى ما حدث. دامت المناورة ثوان قليلة، لكن ستة من الجنود كانوا قد أطاحوا بالباب بكعب بنادقهم وأيديهم واقتحموا القاعة بينادقهم الجاهزة. (على الأقلّ هذا ما رواه زورو في عدّة مناسبات، وبما أنّه ما من أحدٍ كذّبه، عليّ أن أصدّقه، رغم أنّه يميل إلى المبالغة بمآثره. اعذروني على هذه المقاطعة، ولنعد إلى القاعة). كان يقول إنّ الجنود دخلوا جمعاً يرأسهم الرقيب غارثيا، الذي خرج للتو من فراشه وكان في سرواله الداخلي، لكنّ بالقبّة المدخلة في الرأس فوق الشعر المدهن. داس الرجال على

الشموع فتدحرج عدد منهم على الأرض. وأفلتت طلقة من أحدهم  
مرّت ملامسةً رأسَ رافائيل مونكادا وأصابت لوحة المدخنة، ثاقبة  
عيناً من عيني الملكة إيزابيل الكاثوليكية.

- انتبهوا، أيّها الحمقى! - زمجر مونكادا.

- اسمعوا كلام زعيمكم، يا أصدقائي! - نصحهم زورو بلطف.

لم يستطع الرقيب غارثيا أن يصدّق ما كان يراه. كان سيراهن  
على روجه أنّ زورو يرقد جاثياً على الصخور في أسفل الجرف،  
بينما ها هو ذا هنا منبعثاً، مثل لاثارو، يخز نقرة صاحب السعادة.  
كان الوضع في غاية الخطورة. لماذا إذن كان يشعر بخفق أجنحة  
فراشات لطيف في كرشه النهم؟ أشار إلى رجاله بأن يتراجعوا، تلك  
المهمّة غير السهلة لأنهم كانوا يتزحلقون على الشموع، وما إن  
خرجوا حتى أغلق الباب وبقي في الداخل.

- من فضلك، البندقية والسيف، أيّها الرقيب - طلب منه زورو  
بنبرة الصداقة ذاتها.

نزع غارثيا أسلحته بسرعة مريبة وانتصب في الباب مفتوح  
الساقين ومنتشباك الذراعين فوق صدره، مُدهِشاً على الرغم من  
وجوده بالسروال الداخلي. كان عليه أن يُقرّر ما إذا كان سيسهر  
على سلامة رئيسه الجسدية أم سيستعد ليستمع بالمشهد.

أمر زورو رافائيل مونكادا أن يجلس أمام الطاولة ويقراً  
بصوت عال الوثيقة. كان اعترافاً بأنه حرّض الهنود على التمرد ضدّ  
الملك، من أجل إعلان استقلال كاليفورنيا. كان ثمن هذه الخيانة  
بالنسبة لمرتكبها الموت وضياع أملاكه وشرفه. كانت الورقة  
بيضاء ولا ينقصها غير توقيع المذنب. يبدو أنّ الجاندرود لا يبا  
رفض توقيعها ولذلك كان إصراره على أن يوقعها ابنه.

- فكرة جيدة، يا مونكادا. كما ترى وفوق الفراغ عند أسفل  
الصفحة. خذ الريشة واكتب ما سأمليه عليك فيما يلي - أمره زورو.



وجد رافائيل مونكادا نفسه مُضطرباً لأن يُضيف تجارة اللآلئ،  
إضافة إلى جريمة استعباد الهنود.

- وقّع.

- لن أوقع هذا أبداً!

- ولماذا لا؟ فهو مكتوب بخطك وهي الحقيقة المقدسة. وقّع! -  
أمره المُقنّع.

ترك رافائيل مونكادا الريشة على الطاولة وقام بحركة من  
سينهض، لكنّ الثعلب رسم بثلاث حركات سريعة من سيفه حرف Z  
على رقبتة تحت أذنه اليسرى، فأفلتت من صدر مونكادا صرخة ألم  
وغضب. حمل يده إلى الجرح وسحبها مدماة. كان رأس السيف  
يستند إلى ودجه بينما صوت عدّوه الثابت يقول له إنه سيعدّ ثلاثاً،  
فإذا لم يضع اسمه وخاتمه سيقتله بأعظم استمتاع. واحد... اثنان...  
و... وضع مونكادا توقيعته في أسفل الصفحة. ثمّ أذاب شمعاً لكرأً  
على لهب الشمعة وترك عدّة قطرات تسقط على الورقة، وطبع بخاتم  
إصبعه خاتم عائلته. انتظر زوررو حتى نشف الحبر وجفّ الشمع  
اللكر، ثمّ نادى غارثيا كي يوقّع كشاهد. كتب البدين اسمه ببطء  
مؤلم، ثمّ لفّ الوثيقة وناولها دون أن يستطيع إخفاء ابتسامة رضا،  
للمقنّع، الذي خبأها في صدره.

- حسناً، يا مونكادا. ستأخذ السفينة خلال يومين وتخرج من  
هنا للأبد. سأحتفظ بهذه الاعترافات كذكرى طيبة وإذا ما عدت إلى  
هذه النواحي سأضع لها تاريخاً وسأقدمها للمحاكم، وإن لم تعد فلن  
يرأها أحد. وحدنا أنا والرقيب نعرف بوجودها.

- لا تُدخلني في هذا، من فضلك، أيّها السيّد زوررو - تلعثم  
غارثيا، مذعوراً.

- بالنسبة إلى اللآلئ، لا تشغل، لأنني سأخذ المسألة على

عائقي. وحين تسأل السلطات عنها سيقول الرقيب غارثيا الحقيقة،  
لقد أخذها زورو.

أخذ الجورب وتوجّه إلى النافذة وأصدر صفرة حادة. بعد  
لحظات سمعت حوافر رعد في الفناء، حيا بإيماءة وقفز إلى  
الخارج. ركض رافائيل مونكادا والرقيب غارثيا خلفه، منادين على  
الجنود. رأوا على خلفية البدر طيف المقتنع الأسود الغامض على  
جواده الرائع.

- إلى اللقاء، أيها السادة! - ودّعهم زورو، غير آبه  
بالرصاصات التي راحت تلامسه.

بعد يومين ركب رافائيل مونكادا السفينة سانتا لوثيا ومعه  
كمية كبيرة من الأمتعة والخدم الذين جاء بهم معه من إسبانيا  
لخدمته الشخصية. رافقه ديفغو وإيزابيل والأب مندوثا إلى الشاطئ،  
من ناحية كي يتأكدوا من ذهابه ومن ناحية أخرى كي يستمتعوا  
برؤية وجهه الممتنع غضباً. سأله ديفغو بنبرة بريئة لماذا يذهب  
فجأة، ولماذا يضع ضماداً على عنقه. صورة هذا الشاب حسن  
الهندام، الذي كان يمتص أقراص يانسون لوجع الرأس ويستخدم  
منديلاً مخرماً، لا تنطبق أبداً على صورة زورو، لكنّه بقي متمسكاً  
بالشك بأنهما الرجل نفسه. كان آخر ما قاله له وهو يركب السفينة  
إنّه لن يرتاح يوماً واحداً حتى يكشف عن قناع زورو وينتقم منه.

في تلك الليلة ذاتها التقى ديفغو وبرناردو في الكهف. لم يكونا  
قد التقيا منذ ظهور برناردو المناسب في المزرعة لإنقاذ زورو  
دخلا عبر مدخنة المنزل، الذي استعاده ديفغو وبدؤوا بإصلاحه من  
تمادي العسكر فيه، وهو يفكر أن يعيد ألخاندرو د لايفغا ليشغله ما  
إن يصبح جاهزاً. في هذه الأثناء كان ألخاندرو د لايفغا يتعافى  
برعاية تويبورنيا والبومة البيضاء، بينما يستوضح ابنه عن وضعه  
القانوني، فبعد خروج رافائيل مونكادا من اللوحة لن يكون من

الصعب التوصل إلى أن يرفع الحاكم الحجز عنه. كان الشابان يستعدان لمهمة تحويل الكهوف إلى جحر للثعلب.

أراد ديبغو أن يعرف ماذا فعل برناردو كي يمثل في المزرعة، ويخبّ برهة طويلة يلاحقه الجنود، ويقفز في الفراغ من فوق الجرف ويظهر في الوقت ذاته في بؤابة المدخنة في قاعة المنزل. كان عليه أن يعيد السؤال، لأن برناردو لم يفهم جيداً عما كان يتكلم. لم يكن في المنزل قط، أكد له بالإيماء. لا بد أن ديبغو قد حلم بذلك المشهد. لقد قفز بالجواد في الفراغ لأنه كان يعرف المنطقة جيداً ويعرف تماماً أين يسقط. كان ليلاً مطبقاً، وضّح، لكن القمر طلع وأضاء الماء واستطاع أن يصل إلى الشاطئ دون صعوبة. وحين أصبح على اليابسة أدرك أنه لا يستطيع أن يطالب جواده المنهك بأكثر مما فعله فأطلق سراحه. اضطر أن يسير عدة ساعات كي يصل فجراً إلى بعثة سان غابرييل. وكان قد ترك قبل ذلك بكثير رعداً في الكهف، كي يجده ديبغو، لأنه كان واثقاً من أنه سيتدبر أمره كي يهرب ما إن يلهي خاطفيه.

- أقول لك إن زورو قد جاء إلى المزرعة لمساعدتي. إذا لم تكن أنت، فمن هو؟ لقد رأيتك بأمر عيني.

عندئذٍ أطلق برناردو صفرة وخرج من العتمة زورو بزيه الزاهي، مغطى كله بالسواد بقبّعة وقناع وشارب وبنار منشور على كتفه ويده اليسرى على مقبض السيف. لم يكن ينقص البطل شيء، بل وفوق ذلك كان يحمل السوط ملفوفاً حول خصره. كان هناك بكامل جسده تضيئه عشرات شموع الشحم وزوج من المشاعل، شامخاً، أنيقاً، لا يُخطأ به.

بقي ديبغو مصعوقاً وبرناردو وزورو يكتمان الضحكة، يستمتعان باللحظة. بقي الأمر مجهولاً أقل مما أراد هذان، لأن ديبغو انتبه إلى أن عيني المقنّع حولوان.

- إيزابيل! من المحال أن يكون أحداً غيرك! - صاح مقهقها.

كانت الفتاة قد تبعته، حين ذهب مع برناردو في الليلة الأولى التي وصلوا فيها إلى كاليفورنيا. تجسست عليهما حين أعطى ديفغو أخاه البدلة السوداء وخططا لوجود زوروين بدل زورو واحد وعندها خطر لها أن من الأفضل أن يكونوا ثلاثة. لقد كلفها كثيراً الحصول على تواطؤ برناردو، الذي كان يسمح لها بكل شيء. وخاطت بمساعدة نوريا قطعة التفته السوداء، هدية لافيت والقناع. تذرّع ديفغو بأن هذا عمل رجال، لكنها ذكّرتة أنها أنقذته من بين يدي مونكادا.

- نحتاج إلى أكثر من رجل عدل، لأن في هذا العالم شرّ كثير، ياديفغو. أنت ستكون زورو وبرناردو وأنا سنساعدك - قرّرت إيزابيل.

لم يكن أمامهما غير قبولها في العصابة، لأنها بكلمة أخيرة هدّدت بالكشف عن هوية زورو إذا ما لفظاها.

وضع الأخوان قناعيهما وشكّل الزوروات الثلاثة دائرة في استدارة الهنود السحرية التي رسماها بالحجارة في طفولتهما. وأحدثوا بسكين برناردو جرحاً في اليد اليسرى. «من أجل العدالة!» في سبيل العدالة! هتف ديفغو وإيزابيل بصوت واحد وانضمّ برناردو راسماً الرمز المناسب بلغة إشارات. في تلك اللحظة، ودم الأصدقاء المختلط يقطر في وسط الدائرة اعتقدوا أن نوراً وهاجاً انبثق من أعماق الأرض، ورقص في الهواء لعدة ثوانٍ. تلك كانت علامة الأكاهو، الذي وعدت به الجدة البومة البيضاء.

خاتمة قصيرة ونقطة أخيرة

كاليفورنيا العليا 1840

لا شك أن تكونوا قد تكهنتم إلا إذا كنتم قرّاءً ساهمين جداً بأن  
كاتبة هذه القصة هي أنا، إيزابيل دي رومو. أكتب بعد ثلاثين سنة من  
تعرفني على ديبغو دي لايفغا في منزل والدي، عام 1810، ومنذ ذلك  
الوقت حدثت أمور كثيرة. على الرغم من مرور الزمن، فأنا لا أخاف  
أن أقع في عدم دقة خطير، لأنني بقيت على امتداد حياتي أسجل  
ملاحظاتي، وإذا ما خانتني الذاكرة أستشير برناردو. وجدت نفسي  
في الأحداث التي كان فيها حاضراً مُجبراً على أن أكتب ببعض  
الصراحة، لأنه لا يسمح لي بتفسير الأحداث على طريقي. في ما عدا  
ذلك كنت أكثر حرّية. يُخرجني صديقي أحياناً عن صوابي. يقولون  
إنّ السنين تُكسبُ الناس مرونة، لكن ليست هذه حالته، فعمره خمس  
وأربعون سنة ولم يتخلّص من تصلّبه. عبثاً حاولت أن أوضح له أنّه  
لا توجد حقائق مُطلقة، فكلّ شيء يمرّ بمصفاة الرقيب. الذاكرة هشّة  
ومزاجيّة، وكلّ واحد يتذكّر وينسى ما يناسبه. الماضي دفتر  
بصفحات كثيرة، نُسجّل فيه الحياة بحبر يتبدّل حسب حالتنا  
النفسية. في حالتي، يُشبه دفتر خرائط القبطان سانتياغو دي ليون  
الخيالية، ويستحق أن يدخل في موسوعة الرغبات، الرواية الكاملة.  
بالنسبة إلى برناردو الدفتر شيء ثقيل. أخيراً، على الأقل أفاده هذا  
في تربية عددٍ من الأولاد وإدارة مزرعة دي لايفغا بمعيار جيّد. لقد  
ضاعف ثروته وثروة ديبغو، الذي ما زال مشغولاً بإحلال العدالة،  
لأنّه من ناحية طيب القلب، ومن أخرى لأنه يحب أن يرتدي ملابس

زورو ويمر بمغامرات الدثار والسيف. لا أذكر المسدسات لأنه  
سرعان ما تخلّى عن استخدامها: فهو يعتبر الأسلحة النارية لا تليق  
برجل شجاع، كما أنها غير دقيقة. لا يحتاج كي يُقاتل إلا إلى  
العادل، سيفه الذي يحبه أكثر من خطيبته. لم يعد في عمر يسمح له  
بتلك الصبغات، لكن يبدو أنّ صديقي لن يركن للهدوء أبداً.

أعتقد أنكم ترغبون بالإحاطة بشخصياتٍ أخرى من هذه  
القصة، إذ لا أحد يحب أن يبقى عنده إشارات استفهام بعد أن يكون  
قد قرأ صفحات كثيرة، أليس صحيحاً؟ لا شيء يُزعج مثل نهاية  
خيوطها سائبة، هذه النزعة الحديثة التي تترك الكتب من منتصفها.  
نوريا، رأسها أبيض، وصارت بحجم قزم وتتنفّس بصوت عالٍ، مثل  
الأسود البحرية، لكنّها سليمة. لا تُفكر بأنها ستموت، وتقول إنّ علينا  
أن نقتلها ضرباً بالعصي. منذ وقت قصير كان علينا أن نواري  
تويبورنيا التراب والتي قامت بيني وبينها صداقة رائعة. لم تعد  
لتعيش بين البيض، بل بقيت مع قبيلتها، لكنّها كانت تزور أحياناً  
زوجها في مزرعته. كانا صديقين صالحين. وقبل تسع سنوات دفنا  
ألجاندرود لابغا والأب مندوثا، اللذين ماتا أثناء وباء الأنفلونزا. لم  
تتحسن قط صحّة ألجاندرود تماماً بعد تجربة سجن الشيطان، لكنّه  
بقي حتى آخر يوم في حياته يدير مزرعته على الجواد. كان  
بطريكاً حقيقياً، لم يبق رجال مثله.

ورّع بريدُ الهنود خبر أنّ الأب مندوثا كان يموت، فوصلت  
قبائل كاملة لوداعه. جاؤوا من كاليفورنيا العليا والسفلى، من  
أريزونا ومن كولورادو، تشوماس وشوشون وغيرهما كثير.  
رقصوا ليالٍ ونهارات، مرتلين أناشيد جنازية، ووضعوا قبل أن  
يذهبوا على قبره هدايا، أصدافاً وريشاً وعظاماً. كان أكبرهم سنّاً  
يردّدون أسطورة اللآلئ، وكيف عثر عليها المبشّر على الشاطئ، وقد  
جاءت بها الدلافين من أعماق البحر لنجدة الهنود.

أما عن خوليانا ولافيت، فتستطيعون أن تلموا بأخبارهما

بوسائل أخرى، ذلك أن صفحاتي هذه ما عادت تتسع للمزيد. لقد كتبت الصحافة عن القرصان، على الرغم من أن مصيره حالياً لغز. اختفى بعد أن جرف الأمريكيون، الذين دافع هو نفسه عنهم إمبراطوريته في غراند إيزل. فقط أستطيع أن أقول لكم إن خوليانا، التي صارت أمًا كبيرة وقوية، كانت من الأصالة بحيث بقيت عاشقة لزوجها. وجان لافيت بدل اسمه، اشترى مزرعة في تكساس ويستريح كرجل محترم، على الرغم من أنه سيبقى بعون الله دائماً لئلاً، عنده ثمانية أولاد ولا أذكر عدد الأحفاد.

أما عن رافائيل مونكادا فأفضل ألا أتكلم عنه، فهذا الوجدان يتركنا بسلام أبداً، لكن كارلوس الكاثار صفوه رمياً بالرصاص في إحدى حانات سان دييغو، بعد تدخل زورو الأول. لم يعثروا على الفاعلين، لكن قيل إنهم كانوا قتلة مأجورين. من استأجرهم؟ بوذي أن أقول لكم إنه مونكادا، حين علم أن شريكه خدعه بموضوع اللالئ، لكن سيكون ذلك حيلة أدبية لتدوير القصة، لأن مونكادا كان في طريق عودته إلى إسبانيا حين درزوا الكاثار بالرصاص. وقد ترك موته، المستحق تماماً، بالمناسبة، الطريق مفتوحاً أمام دييغو لايفاكي يغازل لوليتا، التي يبدو أنه اعترف لها بهوية زورو قبل أن تقبل به. وبقياً متزوجين سنتين تقريباً، لأن رقبتها انقصت حين سقطت عن الجواد. حظ سيء. بعد سنوات تزوج دييغو من شابة أخرى، اسمها إسبرانتا، ماتت بدورها ميتة مأساوية، لكن المجال لا يتسع هنا لسرد قصتها.

لو رأيتموني، يا أصدقائي، لعرفتوني، ذلك أنني لم أتغير كثيراً. فالنساء الجميلات يصبحن قبيحات مع العمر، بينما مثيالاتي يشخن لا أكثر، بل وبعضهن يتحسنن مظهرهن. أنا تنعمت مع السنين. شعري ملطخ بالرمادي ولم يسقط، كما سقط شعر زورو، فهو ما زال يكفي لرأسين. عندي بعض التجاعيد، تمنحني شخصية خاصة، وأسناني ما زالت كاملة تقريباً، وما زلت قوية، قوية العظم وحولاء.



لا أرى نفسي سيئة بالنسبة لعمرى الذي عشته جيداً. لكنني، وهذا صحيح أيضاً، أتباهى ببعض نذب السيوف والرصاص التي أصابتني بينما كنتُ أساعد زورو في مهمات عدالته.

لا شك أنكم ستسألونني ما إذا كنتُ ما أزالُ أعشقه. وسيكون عليّ أن أعترف وأقول نعم، لكنني لا أتعدّب بسبب ذلك. أتذكره حين رأيتُه أوّل مرّة، كان في الخامسة عشرة من عمره وأنا في الحادية عشرة، كنّا تافهين. أنا أرتدي فستاناً أصفر يُضفي عليّ مظهر كِناريّ مُبلّل. آنذاك عشقته وكان حبيّ الوحيد، باستثناء مرحلة قصيرة هوستُ فيها بالقرصان جان لافيت، لكنّ أختي انتزعتني منّي، كما تعلمون. هذا لا يعني أنني عذراء، إذ لم ينقصني عشاق طيّبو الطويّة، بعضهم أفضل من بعض، لكنّ ما من أحدٍ منهم يبقى في الذاكرة. من حسن الحظّ أنني لم أعشق زورو بجنون، كما يحدث لمُعظّم النساء حين كنّ يتعرّفن عليه، فقد حافظتُ على برودة رأسي دائماً تجاهه. انتبهت في الوقت المناسب إلى أنّ بطلنا لم يكن قادراً إلاّ على حبّ من لا يتجاوبن معه، فقرّرت أن أكون واحدة منهنّ. حاول الزواج منّي في كلّ مرّة فشل فيها مع إحدى خطيباته أو ترمّل - وهذا ما حدث مرّتين أو أكثر - ورفضت. ربّما لهذا السبب يحلم بي كلّما أتخّم بالأكل. لو تزوّج منّي لشعر على الفور أنّه تورّط، وكان عليّ أن أموت كي أحرّره، كما فعلت زوجته. أفضل أن أنتظر شيخوختنا بصبرٍ بدويّ. أعلم أنّنا سنعيش معاً حين يصبح شيخاً مقوّس الساقين، وخرفاً، حين يحلّ محله ثعالب آخرون وفي الحال غير المحتملة لأن تفتح له سيّدة ما شرفتها ولا يستطيع هو أن يتسلّقها. عندها سأنتقم من العذابات التي تسبّب لي بها زورو.

وبهذا أختم روايتي، قرّائي الأعزّاء. وعدتكم أن أحكي لكم أصول الأسطورة ووفيتُ، والآن صار بمقدوري أن أتفرّغ لأُموري الخاصّة. فزورو أبشمني وأعتقد أنّه آن الأوان كي أضع النقطة الأخيرة.

## الفهرس

- 5 القسم الأول: كاليفورنيا 1790 - 1810
- 103 القسم الثاني: برشلونة 1810 - 1812
- 185 القسم الثالث: برشلونة 1812 - 1814
- 265 القسم الرابع: إسبانيا نهاية عام 1814 بداية عام 1815
- 355 القسم الخامس: كاليفورنيا العليا 1815
- 425 خاتمة قصيرة ونقطة أخيرة: كاليفورنيا العليا 1840